

مجلة
جامعة القدس المفتوحة
للأبحاث والدراسات

مجلة علمية محكّمة نصف حولية

العدد الأول - رمضان ١٤٢٣هـ/ تشرين أول ٢٠٠٢م

توجه المراسلات والأبحاث على العنوان التالي:
رئيس هيئة تحرير مجلة جامعة القدس المفتوحة
جامعة القدس المفتوحة
ص.ب: ٥١٨٠٠
هاتف: ٤ ,٣ ,٢/ ٢٩٦٤٥٧١
فاكس: ٢٩٦٤٥٧٠
بريد الكتروني: hsilwadi@qou.edu

تصميم واخراج فني:
توب ديزاين للدعاية والاعلان
02-2980138

الطباعة:
المطبعة العربية الحديثة
02-6262606

هيئة تحرير المجلة :

قواعد النشر والتوثيق

تنشر المجلة البحوث والدراسات الأصلية المرتبطة بالتخصصات العلمية لأعضاء الهيئة التدريسية والباحثين في جامعة القدس المفتوحة وغيرها من الجامعات المحلية والعربية والدولية، مع اهتمام خاص بالبحوث المتعلقة بالتعليم المفتوح والتعليم عن بعد، وتقبل أيضا الأبحاث المقدمة الى مؤتمرات علمية محكمة والمراجعات والتقارير العلمية وترجمات البحوث.

ويرجى من الأخوة الباحثين الراغبين في نشر بحوثهم الاقتداء بقواعد النشر والتوثيق الاتية:

١. تقبل الأبحاث باللغتين العربية والإنجليزية.
٢. أن لا يزيد حجم البحث عن ٢٥ صفحة «٧٥٠٠» كلمة تقريبا بما في ذلك الهوامش والمراجع.
٣. أن يتسم البحث بالأصالة ويمثل إضافة جديدة الى المعرفة في ميدانه.
٤. يقدم الباحث بحثه منسوخا على «قرص مرن / Disk A» أو CD مع ثلاث نسخ مطبوعة منه، غير مسترجعة سواء نشر البحث أم لم ينشر.
٥. يرفق مع البحث خلاصة مركزة في حدود «١٠٠ - ١٥٠» كلمة. ويكون هذا الملخص باللغة الإنجليزية إذا كان البحث باللغة العربية ويكون باللغة العربية إذا كان البحث باللغة الإنجليزية.
٦. ينشر البحث بعد إجازته من محكمين اثنين على الأقل تختارهم هيئة التحرير بسرية تامة من بين أساتذة مختصين في الجامعات ومراكز البحوث داخل فلسطين وخارجها على أن لا تقل رتبة المحكم عن رتبة صاحب البحث.

٧. أن يتجنب الباحث أية إشارة قد تشير أو تدلل على شخصيه في أي موقع من البحث.
٨. يزود الباحث الذي نشر بحثه بخمس نسخ من العدد الذي نشر فيه، بالإضافة الى ثلاث مستلات منه.
٩. تدون الإحالات المرجعية في نهاية البحث وفق النمط الآتي: إذا كان المرجع أو المصدر كتابا فيثبت اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو البحث، اسم المترجم أو المحقق (مكان النشر، الناشر، الطبعة، سنة النشر) الجزء أو المجلد، رقم الصفحة، أما إذا كان المرجع مجلة فيثبت المؤلف، عنوان البحث، اسم المجلة، عدد المجلة وتاريخها، رقم الصفحة.
١٠. ترتب المراجع والمصادر في نهاية البحث «الفهرس» حسب الحروف الأبجدية لكنية / عائلة المؤلف ثم يليها اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو البحث، (مكان النشر، الناشر، الطبعة، سنة النشر) الجزء أو المجلد.
١١. بإمكان الباحث استخدام نمط APA "Style" في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يشار الى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب التالي: «اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة».

مجلة
جامعة القدس المفتوحة
للأبحاث والدراسات

المحتويات

الأبحاث

مقالات ومراجعات

الأبحـاث

الرقمان التركيّان العثمانيّان للكرنتينة في الخليل

أ. د. يونس عمرو*

* رئيس جامعة القدس المفتوحة

ملخص

تعالج الدراسة من خلال الترجمة والتحليل والمقارنة رقمين عثمانيين أثريين مثبتين فوق العقد نصف البرميلي لمدخل مبنى الكرنتينا أو مبنى الحجر الصحي في مدينة خليل الرحمن، والرقمان هما: رقم الطغراء أو التوقيع السلطاني، ورقم التوثيق العثماني للمبنى المسمى باللغة التركية (تحفظ خانة).

وقد أقتضت الدراسة معالجة الرقمين وفق المنهج العلمي في معالجة الرقوم والكتابات على الأجسام الصلبة، فقد قام الباحث بعملية التنظيف وإجراء القياسات وتصوير الرقمين ورسمهما رسماً تفريغياً ثم وصفهما وصفاً دقيقاً من حيث الشكل والمحتوى.

وقد أظهرت الدراسة أن الرقمين يوثقان معلماً من المعالم الحضارية والانسانية، كما أنهما يشكلان آية من آيات الخط الفارسي، وهذا يدعونا الى وجوب المحافظة عليهما كونهما شواهد صدق دآلة على وجودنا المتجذر في هذه الارض عبر عصور التاريخ بالرغم من عوادي الزمن.

Abstract

This article deals with two archiological inscriptions from the ottoman period, fixed to the front of the main entrance of Al-Karantina Building in Hebron.

The two inscriptions are Altagra‘ or the Sultany Signature, and the other is documentary inscription for the building called (Tahavoth Khanah) in Turkish.

The article required to deal scientifically with the two inscriptions as carved in solids. The researcher has cleaned them, took measurements, took camera pictures, and has drown them by hand. He described them in details in terms of shape and contents.

The article showed that the two inscriptions are documenting one of civilization statues. They represent a beauty of Arabic calligraphy, (farisi style inscription). This must prompt us to save and maintain them as a symbol of our roots in this land for a long history.

الرقمان التركيَّان العثمانيَّان للكرنتينة في الخليل

تمهيد:

قبل الحديث على هذين الرقمين، فإن من الضروري التعريف بالمؤسسة التي يوثقان لوجودها في مدينة خليل الرحمن، ألا وهي الكرنتينة، كمنشأة معروفة بهذا الاسم عند أهل الخليل ومحيطها منذ القدم، وما زالت معروفة به إلى أيامنا الحاضرة، حتى غلب اسمها على الحي المحيط بها. تقع هذه المؤسسة في الجهة الجنوبية الغربية من المسجد الإبراهيمي، ملاصقة للمقبرة الكبرى في ناحيتها الغربية، وتفصل بين هذه المقبرة وتل الرميدة من ناحيته الشرقية، إذ تقوم يساراً على الطريق الصاعد في الشعب الفاصل بين المقبرة والتل، وهو الطريق المؤدي إلى وادي الهرية، والذي يعرف باسم: (عقبة الكرنتينة) قديماً وما زال.

أما المبنى، فهو عبارة عن سور حجري مرتفع يتخذ شكل المربع، ويضم بداخله عدداً من المباني والغرف، التي تستخدم اليوم كمركز صحي للبلدة القديمة، والأحياء المجاورة لها من خليل الرحمن الشرقية، ولهذا السور مدخل ضخم وحيد، يفضي شمالاً، يعلوه الرقمان اللذان نحن بصددهما.

وفيما يتعلق باسم: (كرنتينة)، فهو اسم إنجليزي الأصل، كتحريف لكلمة (Quarantine)، التي تعني (الحجر الصحي)، وقد أطلق هذا الاسم على هذه المؤسسة، منذ الانتداب البريطاني على بلادنا في العقد الثاني من القرن الماضي، بدلاً من الاسم التركي العثماني، الذي كان يطلق عليها أيام الأتراك العثمانيين، الذين أنشأوها، وهو الاسم: (تحفظخانة) - وهذا ما سيأتي في نص الرقم التوثيقي - فهذا الاسم ينبئ بهدف هذه المنشأة، وهو الحجر الصحي الذي كان يفرض على القادمين إلى المدينة من خارجها، خوفاً من تفشي ما قد يحملونه معهم من الأمراض السارية في البلاد الوافدين منها، بحيث إذا قضى الوافد المدة المقررة للحجر، وبقي حيّاً، يطلق سراحه ليدخل إلى المدينة، وان مات، فقد يدفن في المقبرة القريبة خارج الأسوار، بل أن هناك من دفن في الداخل، وهذا ما هو ظاهر من وجود

بعض القبور العتيقة في الساحات الداخلية في قلب الأسوار.

أنشئت هذه المؤسسة في عهد السلطان العثماني عبد المجيد بن محمود عام ١٢٦٥هـ، وفق ١٨٤٨م، وذلك حسب تاريخ الرقم الثاني، كما سيأتي.

موقع الرقمين:

ثبت الرقمان فوق العقد نصف البرميلي لمدخل السور الوحيد، في الواجهة الأمامية الخارجية، وقد حفرا في لوحتين رخاميتين، من الرخام الأبيض النقي، الا من توشيحات رمادية خفيفة في لوحة الرقم التوثيقي. ومراعاة للدقة في الوصف، ولما يوجد من اختلافات في الحجم والشكل وطراز الخط، آثرنا الحديث على كل رقم على حدة.

معالجة الرقمين:

منذ بضعة أعوام، وفي معرض جهودي الشخصية في تتبع هذه الرقوم في مدينة الخليل، قمت بمعالجة لوحتي الرقمين رغم ارتفاعهما ما يقارب خمسة أمتار عن الأرض، مستعيناً بآلية من بلدية الخليل، ثم قمت بتنظيفهما وإجراء القياسات المطلوبة، وتصويرهما ورسمهما رسماً تفريغياً حسب أصول المنهج العلمي في معالجة الرقوم والكتابات على الأجسام الصلبة، ومنها الحجر، ثم وصفهما بدقة بالمشاهدة عن قرب.

أولاً: رقم الطغراء:

تقوم لوحته فوق لوحة الرقم التوثيقي، بحيث جاءت بمثابة تاج لها، في شكلها البيضاوي، الذي يقوم على قاعدة تتخذ نصف قاعدة مثلث، ترتكز على الضلع العلوي للوحة التوثيق.

وقد أحيطت اللوحة بإكليل بيضاوي تشكل من أفاريز ورقية، تشبه أوراق النخيل أو الغار أو الزيتون، تنتهي من الأسفل بنشطة تربط الطرفين السفليين لهذا الإكليل، الذي تزينه في أعلاه حبات ثمر تشبه التفاح، وعددها سبع، مصفوفة في أربع ثمرات في الصف السفلي، وثلاث ثمرات في الصف العلوي. وبفعل الزمن تعرض هذا الإطار الإكليلي إلى تهشمات في ناحيته العلوية، وهذا ظاهر في صورة ورسم الرقم.

وتبلغ قياسات اللوحة بين أقصى نقطتين في الشكل البيضاوي طولاً، ثمانية وأربعين

سنتمتراً في وضع أفقي، أما العرض، فيبلغ بين أقصى نقطتين في الشكل البيضاوي، حوالي خمسة وثلاثين سنتمتراً في وضع رأسي، في حين بلغ عرض الإكليل في أوسع مدى له من الأسفل ستة سنتمترات، وفي أضيق مدى له من الأعلى، بلغ ثلاثة سنتمترات.

رسم الرقم ونصه:

رُسم رقم الطغراء في اللوحة نافراً، بطراز الخظ الهيمايوني، وقد حفر على يمين الطغراء شكل زخرفي نباتي نافر، وهو عبارة عن عرق اشتمل على زهرتين تحيط بهما أوراق صغيرة.

وقبل الحديث عن نص الرقم، فإن من المفيد أن نتطرق إلى الطغراء، كطراز من طرز الخط العربي. فالطغراء، تلفظ بصورة (طغرى) و (طرَّة)، وهي صورة من التحريف اللفظي في النطق، وهي تعني الإشارة السلطانية أو الملكية، بحيث كانت تمهر بها الأوامر السلطانية أو الملكية، وتتضمن اسم السلطان ولقبه، ودعاء له بالظفر، ويرجع تاريخ استخدام هذا الطراز كتوقيع ملكي، إلى فترة متقدمة على الفترة العثمانية من التاريخ الإسلامي، غير أن الطغراء اشتهرت وازدهرت كطراز فني من أروع طرز الخط العربي بخاصة، والفن الإسلامي بعامة، في العهد العثماني، ولعل هذا يفسر حياكة الأسطورة الشهيرة التي أوردتها المصادر حول أصل الطغراء، ومفادها، أن السلطان بايزيد العثماني كان قد تلقى إنذاراً مهيناً من القائد المغولي تيمورلنك، موقعاً ببصمة كفه الملطخ بالدم، لجهله بالقراءة والكتابة، فما كان من السلطان بايزيد، إلا أن رد عليه برد يليق بهذا الإنذار، ووقعه بالأسلوب نفسه، ولما كان شكل بصمة الكف على شكل الطائر، ترسخ هذا الرسم وتطور هذا الطراز من التوقيع، عند سلاطين آل عثمان، متخذاً أسلوباً خاصاً في وضع اليد عند التوقيع، بحيث يخفى الأصبع الإبهام، والاصبع الخنصر، وتبقى الأصابع الثلاثة الوسطى ممدودة، وتتم بصمة الكف على هذا الشكل[١].

ولما كان طراز الطغراء قد اتخذ شكل الطائر، حيكت أساطير حول هذه المسألة، تتعلق بالطيور، بحيث اسقط اسم طائر (الهيمايون) على طراز الطغراء وخطه، ليعرف بالخط الهيمايوني، والهيمايون أصلاً هو طائر أسطوري في التراث التركي، كان يستخدم لاختيار الملك، بحيث يطلق فوق رؤوس الناس، ومن يسقط على رأسه منهم، يتوج ملكاً.[٢] أما كلمة طغراء من حيث المعنى، فهي في الأصل كلمة تتارية قديمة معناها: التوقيع الملكي. وقد دخلت بهذا المعنى في اللغة الفارسية[٣]. كما توجد هذه الكلمة في اللغة التركية العثمانية

بالمعنى نفسه الذي في الفارسية، وهو توقيع السلطان، كما توجد بمعنى النسر أيضاً(٤) وكذلك بالمعاني نفسها في اللغة العربية(٥).

أما الخط الهيمايوني، فهو منبثق من الخط الديواني، كواحد من طرز الخطوط العربية الجميلة، التي استخدمت في ديوان الدولة العثمانية كخط رسمي، وهو تطور مزج بين خطي الثلث والنسخ والخط الريحاني، وكان أول من ضبط قواعد طراز هذا الخط، الخطاط إبراهيم منيف، الذي عاش في عهد السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ، وفق١٤٥٣م، وكان أول من استخدم هذا الطراز في ديوان الدولة. (٦) وتوضيحاً لخط الطغراء الهيمايوني جعلنا نماذج من حروفه، تقابلها نماذج من حروف الخط الديواني، في هذه المصفوفة الخاصة، لملاحظة الشبه بينهما، وذلك اعتماداً على تفريغ حروف من رسم الطغراء نفسها.

الأبجدي	الهيمايوني	الديواني
أ		
ح		
د		
ر		
ط		
ع		
م		

الخط الهيمايوني (الطغراء) مقارناً بالخط الديواني.

بإنعام النظر في هذه النماذج، نلاحظ أن حرف الألف في الخط الهيمايوني حسب ما جاء في الطغراء، قد اتخذ شكلين، الأول على شكل نصل السيف، والثاني يشبه نصل الخنجر، وبمقارنتهما برسم الألف في الخط الديواني، نلاحظ أن فرقاً بسيطاً بين الشكلين تمثل في انحناء رأس الألف في الهيمايوني إلى اليمين، في الشكل الخنجري، في حين نرى انحناء رأس الألف في الديواني جاء إلى اليسار، مع تشابه بين الشكلين في انحناء جسم الحرفين،

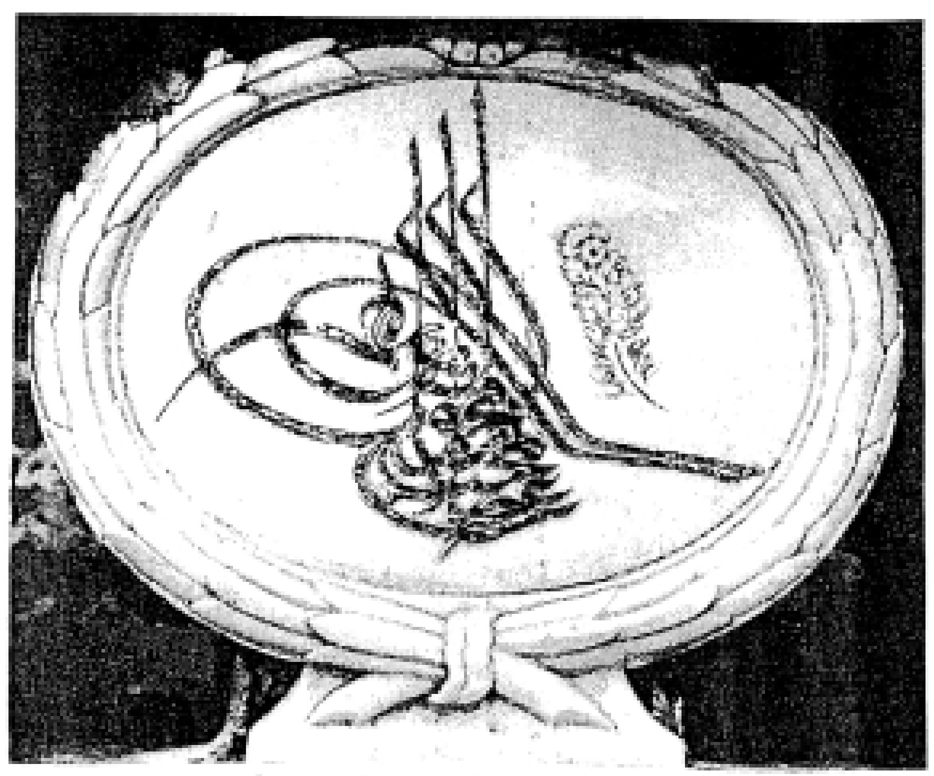
علماً بأن الشكل السيفي في الهيمايوني، يبقى بلا شبه في الديواني.

أما حرف الحاء وما أعجم منه، كما هو واضح في النموذج، فقد جاء مغلقاً في الطرازين، الهيمايوني والديواني.

ثم حرف الدال، فيلاحظ أنه جاء في الهيمايوني على شكلين، أولهما يتقارب إلى حد ما مع شكل الدال في الديواني، أما الثاني، فقد اتخذ شكل القصعة، وهذا ما يتوافق مع رسم الطغراء، مما لا وجود له في الديواني.

كما أن حرف الراء في الهيمايوني حسب الطغراء، قد اتخذ شكلاً شبه هلالي، ولا يمت بصلة لشكل الدال في الخط الديواني، غير أن وجهاً من الشبه يمكن الإشارة إليه، وهو الانحناء.

وحرف الطاء، يوجد شبه بين الشكلين في كل من الطرازين، غير أن الفارق بينهما، هو أن انحناء ألف الطاء في الهيمايوني نحو اليمين، وفي الديواني نحو اليسار، وهذا ما لاحظناه من شبه في الألف، وبخاصة ذات الشكل الخنجري في الهيمايوني كما سبقت الإشارة.



صورة رقم طغراء الكرنتينة



الرســـم التفريغي لرقم طغراء الكرنتينـــة

وأما حرف العين، فالشبه واضح بين الشكلين. ثم حرف الميم، هو الآخر يتضح الشبه فيه بين الطرازين، مع فارق في اتساع الاستدارة في ذيل الهيمايوني، موافقة لأسلوب رسم الطغراء.

نص الطغراء:

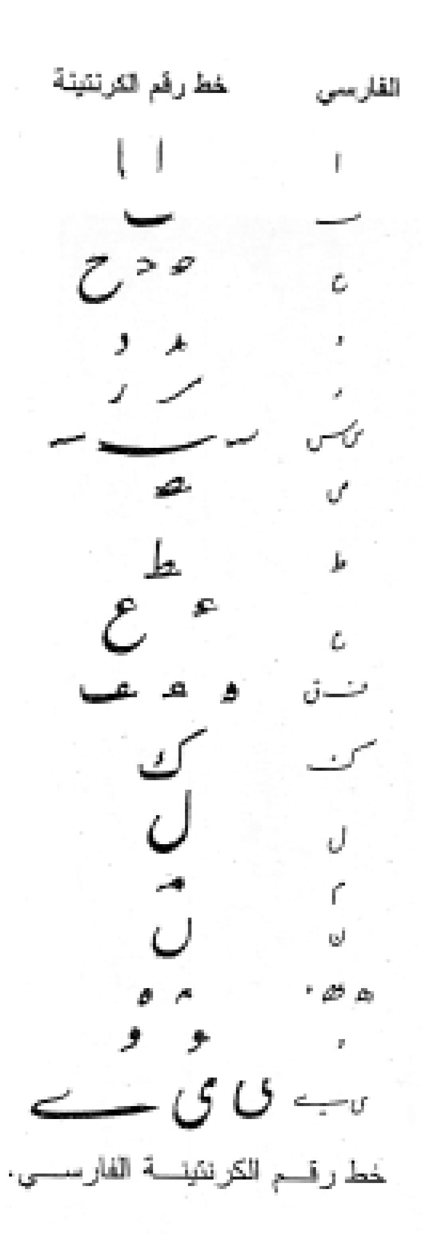
" **عَبْدُ المَجِيدِ[٧] خَانْ[٨] . ابْنُ مَحْمُودِ[٩] دَامَ مُظَفَّراً[١٠]** " .

كما هو واضح في صورة ورسم الطغراء، يمكن تتبع هذا النص بانعام النظر والتدقيق في تتبع حروف الكلمات المتشابكة، ليبدو هذا النص توقيعاً سلطانياً بلا شك.

ثانياً: الرقم التوثيقي التركي العثماني:

توجد لوحة هذا الرقم، فوق العقد نصف البرميلي في الواجهة الخارجية لمدخل سور الكرنتينة، تحت لوحة رقم الطغراء، كما سبقت الإشارة.

وقد جاء الرقم نافراً في هذه اللوحة الرخامية البيضاء، والتي تبلغ أبعادها، مائة وخمسة سنتمترات طولاً أفقياً، وعرضها بلغ واحداً وستين سنتمتراً في وضع رأسي. وقد أحيطت بازار نافر من جسمها. جاء نص الرقم في أربعة سطور، تفصل بينها خطوط نافرة بلغ عرض

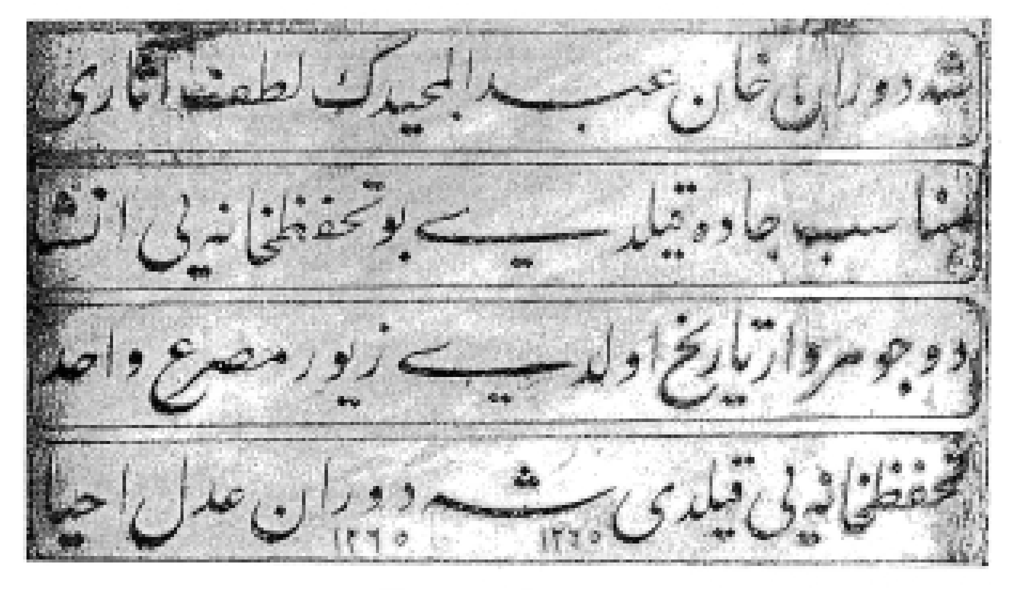


خط رقم الكرنتينة الفارسي.

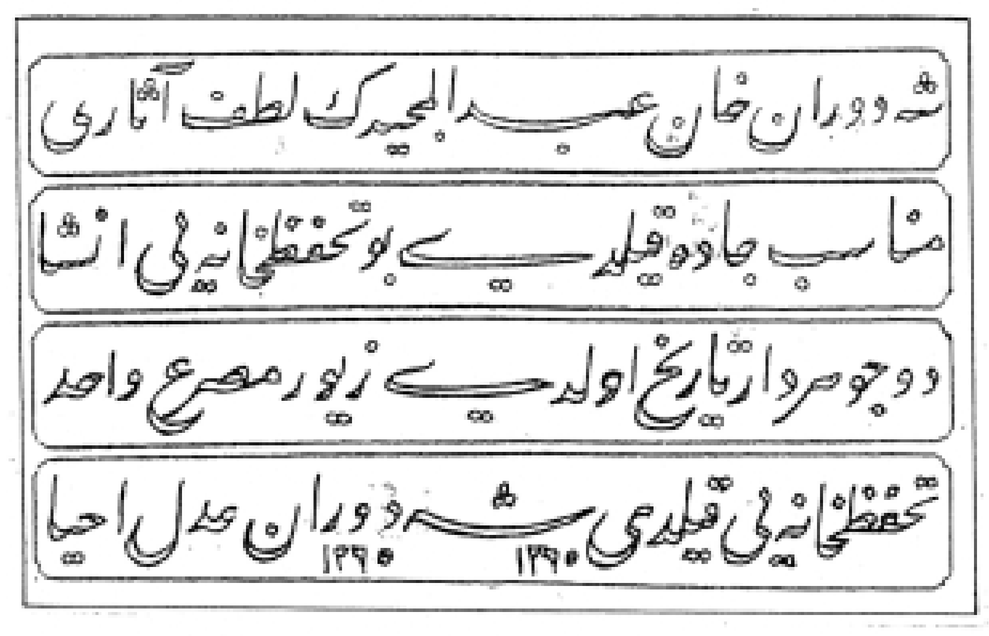
الخط منها حول سنتمتر وثلاثة أعشار السنتمتر، يلتقي كل منها بازار اللوحة من الطرفين على شكل ربع دائرة ترتبط من الطرفين بالازار بزاويتين قائمتين، وهذا نفذ بأسلوب هندسي دقيق للغاية، يبعث على الإعجاب بهذه الدقة الفنية المتناهية.

خط الرقم:

حفر الرقم بالخط الفارسي(١١)، وباللغة التركية العثمانية(١٢)، بحيث أن انعام النظر في رسمها، يبرز أهميتها كواحدة من أهم لوحات الرقوم الحجرية من طراز الخط الفارسي الجميل، لما جاء فيه هذا الخط من إبداع وإتقان، جعله آية في الروعة والجمال، بحيث رسمت حروفة معجمة تماماً، ومتناسقة في كلمات متلاحقة من غير تداخل ولا تراكب، مما جعل نص الرقم واضحاً سهل القراءة، ولبيان دقة الكاتب والنقاش في تنفيذ رسمهما لهذا الرقم، نضع حروفه أمام حروف الخط الفارسي، في هذه المصفوفة، بحيث تتضح المطابقة الكبيرة بين حروف الرقم، وبين ما يقابل كل منها في الخط الفارسي.



صورة رقم الكرنتينة العثماني



الرسم التفريغي لرقم الكرنتينة العثماني

نص الرقم بالتركية العثمانية:

شه دوران خان عبد المجيدك لطف آثارى
مناسب جاده قيلدى بو تحفظخانه يى انشا
دوجو مردار تاريخ اولدي زيور مصرع واحد
تحفظانه يى قيلدى شه دوران عدل أحيا
١٢٦٥ ١٢٦٥ .

ترجمة النص باللغة العربية:

" أَنْشَأَ سُلْطَانُ البلاد عبدُ المَجيد خَان مُحيي العَدْلَ[١٣] ، هَذَا الحَجْر الصِّحّيّ والذي يُعْتَبَرُ مَن مَآثره العَظِيَمةَ ، أَنْشأَهُ ببَابَ واحد وَزَيَّنَهُ باسْمه ، سنة ١٢٦٥هـ .

واضح منَ اَلترجمَة العربية لهذَا الرقَم ، أَنَّ الكرنتينة انشئَت على يدي السلطان عبد المجيد بن محمود العثماني ، كمؤسسة للحجر الصحي ، كانت مهمة في زمانها ، وانه جعل حولها

سوراً له باب واحد فقط، زين هذا الباب بتوقيع اسمه (الطغراء)، وبهذا التوثيق الذي يؤرخ لسنة الإنشاء، وهي ١٢٦٥هـ - ١٨٤٨م. وهذا ما يلاحظ في صُورة ورسم الرقم.

تكمن أهمية هذين الرقمين في كونهما توثيقاً يسجل لواحد من المعالم الحضارية الإنسانية في خليل الرحمن، هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فإن هذين الرقمين، يشكلان آية من آيات الخط العربي في طرازين، الأول الطغراء، والثاني لوحة الخط الفارسي، هذا فضلاً عن نص التوثيق الذي جاء باللغة التركية العثمانية. ولما كانت لوحتا الرقمين في حال جيدة، فيجب المحافظة عليهما من ضمن رقوم كثيرة في بلادنا، تلك الرقوم التي تعتبر شواهد على وجودنا المتواصل على هذه الأرض، عبر العصور المختلفة رغم عوادي الزمن.

الهوامش:

(١) زين الدين المصرف : مصور الخط العربي، ص٣٨٢ وما بعدها .

(٢) زين الدين المصرف : بدائع الخط العربي ، ص ٤٤٧ .
نقلاً عن (تركلر ده ديني رسلمر، استانبول - ١٩٦٧م) .

(٣) محمد موسى هنداوي : المعجم في اللغة الفارسية ، مادة (طغرا) .

(٤) جيمس رد حاوص : توركجة - انكليزجه ، (قاموس تركي (عثماني) - انجليزي - عربي) ، مادة (طغرا) .

(٥) بطرس البستاني : محيط المحيط ، مادة (طغر) .

(٦) زين الدين المصرف : مصور الخط العربي ، هامش ص٣٨٠ .

(٧) عبد المجيد بن محمود الثاني : هو السلطان العثماني الذي حكم ما بين عامي : ١٢٥٥ و ١٢٧٧ للهجرة ، وفق ١٨٣٩ و ١٨٦٠ للميلاد . اشتهر بالإصلاحات الإدارية ، والعسكرية والقضائية ، واصلح أحوال موظفي الدولة منعاً للرشوة ، ثم ادخل نظام القسم أمام العلماء لشغل الوظائف الرسمية في الدولة . (عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس ، ص٢٩٢ , ٣٢٤ , ٣٢٦) .

(٨) خان : لقب قبلي قديم ثم شاع في وصف أمراء الترك والمغول ، منذ القرن الاول الهجري ، السابع الميلادي ، وهو يعني بالعربية : (الرئيس) ، هذا حسب (حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، ص٢٧٤) . ويوجد في اللغة الفارسية بمعنى : (الأمير ، والحاكم ، والعظيم) حسب ما ورد في المعجم في اللغة الفارسية ، لمحمد موسى هنداوي ، ماده ، (خان) . وفي التركية العثمانية ، يوجد كلقب للسلطان حسب ما جاء في قاموس توركجه - انكليزجه ، لرد حاوص . وقاموس علاوة لي منتخبات لغات عثمانية لجل داولي .

(٩) السلطان محمود الثاني : ابن السلطان عبد المجيد الأول العثماني ، وقد تولى الحكم فيما بين عامي : ١٢٢٣ و ١٢٥٥ للهجرة ، وفق ١٨٠٨ و ١٨٣٩ للميلاد . (عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس ، ص٣٢٠ , ٣٢٢) .

(١٠) دام مظفراً : هذه العبارة تلحق باسم صاحب الطغراء ، كما ان البعض كان يضعها بأسلوب آخر وهو (المظفر دائماً) ، كما جاءت في ختام طغراء السلطان سليمان القانوني . (زين الدين المصرف : بدائع الخط العربي ، ص ٤٧٧) ، وكلمة مظفر ، شاعت كلقب له مدلول حربي ، يعنى النصر أو الدعاء به من الوجهة الدينية ، بمعنى أن من يلقب به مؤيد بالنصر من عند الله ، وهو لقب شاع في العصور الإسلامية منذ العصر العباسي ، حتى شاع في الفترة المملوكية ، ومن بعد في الفترة العثمانية ، بحيث صار من الالقاب السلطانية ، حتى ان كبار العسكريين لقبوا به . (حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، ص ٤٧٣ , ٤٧٤) .

(١١) الخط الفارسي : هذا الخط اختص باللغة الفارسية أصلاً ، حين ابتكر بصورة سهلة سلسة من حيث

تنفيذ رسم الحروف فيه، فهو خط واضح بسيط، يبتعد عن التعقيد والزوايا ومظاهر التزويق، وقد اخذت به اللغة التركية العثمانية في فترة ازدهارها.

(١٢) اللغة التركية العثمانية: كانت هذه اللغة لغة الخلافة العثمانية الرسمية، بل تعتبر أكثر اللهجات التركية دقة في التعبير وسعة في الانتشار، وقد رسمت هذه اللغة بالرسم العربي من مختلف الخطوط، وان كان الخط الفارسي أكثرها استخداماً. وبقيت العثمانية تكتب بالرسم العربي، الى مطلع القرن الماضي، أثر انتهاء عهد الخلافة، ليتم التحول بها إلى الرسم اللاتيني، على يد مصطفى كمال أتاتورك.

(١٣) محيي العدل: من ألقاب السلاطين والحكام المسلمين، ليبرزوا حرصهم على إقامة العدل بين الناس، وأول من اطلق على نفسه هذا اللقب، الملك الإشراف شعبان المملوكي، كما جاء في نقش مدرسته في القاهرة، والمؤرخ في عام ٧٧٠هـ، وفق١٣٦٨ م. (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص ٤٦٤).

المراجع:

١) بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان – بيروت ، ١٩٩٨ .

٢) جل داولي : علاوة لي منتخبات لغات عثمانية ، (قاموس عثماني -عثماني) ، المكتبة العمومية لإبراهيم صادر – بيروت .

٣) جيمس رد حاوص : توركجه – انكليزجه يكانه مكمل لغت كتابي ، كاجري ياينلاري (قاموس تركي (عثماني) – انجليزي – عربي) ، استانبول .

٤) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية – القاهرة .

٥) عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس ، مكتبة الأندلس في القدس ، مطبعة المعارف – القدس .

٦) محمد موسى هنداوي : المعجم في اللغة الفارسية ، مكتبة الانجلو ودار مطابع الشعب – القاهرة .

٧) ناجي زين الدين المصرف : بدائع الخط العربي ، مكتبة النهضة – بغداد ، ودار القلم – بيروت .

٨) ناجي زين الدين المصرف : مصور الخط العربي ، منشورات مكتبة النهضة – بغداد ، ودار القلم – بيروت .

ضمان النوعية الجيدة في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد

د.سفيان عبد اللطيف كمال*

* نائب رئيس ج.ق.م. للشؤون الأكاديمية

خلاصة:

يعتقد كثيرون أن جودة النوعية في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد تكمن في جودة تصميم البرامج الأكاديمية المتنوعة وجودة نوعية ما يعد لها من مواد تعليمية مطبوعة ومرئية ومسموعة، باعتبار أن البرامج والمواد التعليمية هي المنتجات الأساسية التي يحتاجها الدارسون في هذا النظام التربوي. ولكن جودة هذه المنتجات الأساسية لا تكفي لجعل التعلم المفتوح والتعلم عن بعد جيد النوعية. فهناك جوانب أخرى هامة جداً يجب أن تخطط وتنفذ بنوعية جيدة كي يكون التعلم الناتج فعالاً وراقي المستوى. والجوانب المقصودة تشمل توفير دعم تربوي مناسب لعمليه تعلم الدارسين، وإيصال هذا الدعم لهم بشكل يتضمن نجاعته، وتقويم تعلمهم وأدائهم. ومن الجوانب المقصودة أيضاً تطبيق جميع الجوانب سابقة الذكر بشكل متكامل ومتناغم يضمن ترابط أجزاء عملية التعلم عن بعد. وهذه الجوانب جميعها ما هي إلا جوانب خدمية تربوية تؤديها المؤسسة التعليمية بطواقمها الأكاديمية و الفنية والإدارية للدارسين.

ولضمان النوعية الجيدة يجب وضع معايير ومستويات للمنتجات والخدمات، ومن ثم التأكد بشكل منتظم من توافر هذه المعايير فيها وقد قدمت الدراسة عدداً من الأمثلة على المعايير والمستويات الجيدة لخدمات تربوية مختارة.

أن النوعية الجيدة من التعلم في نظام التعليم المفتوح والتعلم عن بعد تكمن في تكامل المنتجات التربوية الجيدة والخدمات الجيدة الداعمة للتعلم بحيث يتم تنسيق التكامل من خلال عملية إدارية ناجعة تنظمها وتطبقها بحزم مؤسسة التعلم المفتوح والتعلم عن بعد.

Abstract

It is generally believed that good quality in open and distance learning lies chiefly in designing and producing good quality academic programs and good quality teaching materials whether printed of audio-visual. But is is argued in this study that these basic products are not enough to make open and distance learning of good quality. Such a level of learning is also dependant upon other very important aspects which have to be planned and executed at a high level of quality. These aspects include:

(a) Provision of effective support for students learning.

(b) Application of an afficient delivery system, and

(c) Continuous evaluation of students performance.

All of these aspects are essentially educational services fooered to the students by the educational institution's academic, technical and administrative teams. Additionally, the important aspects include the integrated and harmoneous application of the aforementioned three aspects.

This study also stresses the fact that assuring good quality learning requires setting high standards and criteria for the products and services to be offered by the open and distance learning institution and making sure that these standards and criteria are regularly met. Specific recommendtions are made for this purpose. Moreover, a number of examples on good standards and criteria in selected educational services are discussed in the study.

Finally, the study stresses that good quality learning in open and distance learning requires the integration of good quality services and products through an efficient, comprehensive, and continuous administrative operation which reaches every site in the open and distance learning instition.

ضمان النوعية الجيدة في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد

مقدمة

إن توافر جودة النوعية في المنتجات والخدمات هدف سام سعى البشر لتحقيقه منذ القدم، وحثت عليه الكتب السماوية ودعا إليه الحكماء و الصالحون وعمل على تحقيقه الصادقون المخلصون وأصحاب الضمائر الحية في المجتمعات القديمة والمعاصرة. ففي جودة النوعية خير هذه المجتمعات، ورضى عملي ونفسي، واحقاق حق لمستعملي المنتجات والخدمات، كما أن فيها وفي الحرص عليها مسارعة لعمليتي التقدم والتطور في مختلف مجالات الحياة.

وعلى الرغم من قدم الدعوة إلى الحرص على الجودة إلا أن الدعوة إلى الحرص عليها والالتزام بها قد بلغت الأوج في التسعينات من القرن الماضي. وفي حين كانت الكفاءة efficiency تعتبر مفتاح النجاح في مختلف ميادين الخدمة والإنتاج خلال السبعينات والثمانينات من ذلك القرن، فإن النوعية quality أصبحت مفتاح النجاح في هذه الميادين في التسعينات، وما زالت كذلك مع بداية القرن الواحد والعشرين. ويُعزى تزايد الاهتمام بالنوعية في بداية التسعينات من القرن العشرين إلى الأسباب الآتيــة:

(١). حدوث زيادة هائلة في أعداد الطلبة الملتحقين بالتعليم العالي منذ ١٩٨٠ تقريباً وحدوث تنوع كبير في مجالاته وبرامجه في وقت شحت فيه الموارد المالية لمؤسسات التعليم العالي. فقد أثارت هذه الزيادة مخاوف المهتمين بالتعليم العالي من حدوث تدهور في المستويات التعليمية إذا لم يحصل تركيز شديد على تحقيق النوعية الجيدة وضبطها.

(٢). ازدياد المطالبات بتحسين الخدمات المقدمة للمواطنين بعامة وللمتعلمين في مختلف المستويات بخاصة، وتجاوب الحكومات والمؤسسات مع هذه المطالب.

(٣). ازدياد التنافس بين المؤسسات الجامعية على استقطاب الطلاب وعلى الحصول على دعم مالي من الحكومات أو الشركات الكبرى.

(٤). تزايد القناعة لدى المسؤولين في الحكومات بأن النجاح الاقتصادي يتطلب قوى عاملة جيدة الإعداد. وهذا لا يتأتى إلا من خلال برامج تعليمية وتدريبية جيدة النوعية في مؤسسات التعليم العالي.

(٥). ارتباط كثير من دول العالم باتفاقيات التجارة الإقليمية والدولية والمجالس المهنية ومنظمات التعليم العالي الدولية ومنظمات التعاون والتمويل (سلامة والنصار، ١٩٩٧، ص: ٢).

ويبدو واضحاً الآن أكثر من أي وقت مضى أن قطاع التعليم بعامة وقطاع التعليم العالي بخاصة بحاجة إلى إعادة النظر بأهدافه وبرامجه وبهياكله الإدارية والتنظيمية في ضوء علاقته مع القطاعات المجتمعية الأخرى وبخاصة القطاع الاقتصادي. وبمعنى آخر فإن قطاع التعليم العالي مدعو بكل قوة لأن يطور مهامه ووظائفه وأن يجوّد منتجاته وخدماته، وأن يصل بها إلى مستوى عال يوائم الحاجات والمستجدات لكي ينهض بالمجتمعات ويدفعها بقوة على طريق التنمية والتطوير.

الهدف من هذه الورقة

تهدف هذه الورقة إلى إبراز العوامل الرئيسة التي من شأنها ضمان النوعية الجيدة في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد على المستوى الجامعي. وتحديداً فإنها تهدف إلى:

١. توضيح مفاهيم النوعية وضمان النوعية وضبط النوعية والتمييز بينها.
٢. التمييز بين مفهومي المنتج التربوي والخدمة التربوية في سياق التعلم المفتوح والتعلم عن بعد.
٣. تعميق الفهم لدور المنتجات التربوية من جهة والخدمات التربوية من جهة في إكساب الدارسين تعلماً ذي نوعية عالية الجودة.
٤. تحليل عملية ضمان النوعية وطرحها كنظام يجب أن تلتزم به المؤسسة التربوية وتطبيقه في كل نشاط من نشاطاتها.
٥. تحليل دور المعايير والمستويات في ضمان النوعية الجيدة للمنتجات والخدمات وضبطها.
٦. إبراز دور التكامل بين المنتجات والخدمات في تحقيق النوعية الجيدة ومسؤولية إدارة المؤسسة التربوية في تحقيق هذا التكامل.

مفاهيم النوعية وضمان النوعية وضبط النوعية:

مع أن جميع الناس يتفقون على الاهتمام بالنوعية إلا أنه لا يوجد اتفاق بينهم على تعريفها، فهي مثل "الحرية" و "العدل" مفهوم يصعب تحديده تماما. كما أنه لا يوجد اتفاق على كيفية قياسها. والسبب في هذا هو أن النوعية لا توجد بمعزل عن سياق استعمالها. والأحكام حولها تختلف حسب وجهة نظر الشخص الذي يطلب منه الحكم عليها وحسب الغرض من إصدار الحكم. هذا فضلاً عن أن للنوعية مركبات كثيرة تكوّن مستواها ودرجة جودتها. ومع ذلك فلا بد من معرفة ما هي النوعية، إذ بدون ذلك لا يمكن الحصول عليها أو تقيمها.

ترتبط النوعية في معظم الأحيان حدسياً بما هو جيد وذو قيمة عالية. وتفهم عادة بدلالة التميز (excellence) والاتساق (consistency) والحصول على معايير و مستويات محددة مسبقا، ورضا الزبائن وملاءمه المنتج أو الخدمة للغرض الذي صنع أو وضع له (Harvey, Green, and Burrows, 1993)، و(الكيلاني، 2001). إن تعريف النوعية الذي يتبناه معظم المحللين وصانعو القرار في التعليم العالي هو الملاءمة للغرض Fitness for the purpose. ودفاعهم عن هذا التعريف يستند إلى أن النوعية لا معنى لها الا بالنسبة للغرض أو الغاية من المنتج أو الخدمة. ويحكم على النوعية بدلالة درجة صلاحية الخدمة أو المنتج لغرضه المعلن (Green, 1988, Juran, 1994) وقد عبر (Sekimoto, 1998) عن جودة النوعية بقوله " المنتجات والخدمات الجيدة هي تلك التي تلبي حاجات الزبائن وتحترمها " (ص 157)، أي أنه جعل جوهر النوعية تلبية حاجات الزبائن، علماً بأنه ليس من السهل في التربية تحديد الزبائن (أو المستفيدين)، فهم يشملون التلاميذ وأولياء الأمور وأرباب الشركات والمصانع، وغيرهم.

وعرف (Rekkedal, 1998) النوعية بأنها مستوى توافر متطلبات محددة في المنتج. وتكون هذه المتطلبات محددة مسبقاً من قبل الجهات المهتمة بالمنتج والتي تسعى جاهدة للحصول عليه. فمثلاً إذا قررت جامعة مفتوحة أن يحتوي الكتاب المؤلف لمقرر ما في الرياضيات سبع وحدات دراسية معروضة بأسلوب التعلم الذاتي ولكل منها مجموعة من أسئلة التقويم الذاتي، كما قررت أن يدعم الكتاب بثلاثة أشرطة مرئية توضح مفاهيمه الصعبة، فإن الكتاب يكون قد أنتج بنوعية جيدة إذا توافرت فيه هذه المتطلبات، وأي نقص في توافرها ينعكس سلباً على نوعية الكتاب.

وعليه فإن تحديد الغرض أو الهدف purpose من المنتج وتحديد المتطلبات requirements التي يجب أن تتوافر فيه تعتبر الأمور الأساسية التي تعرّف نوعية المنتج، وفي ضوئها يحدد مستوى النوعية.

وأكد بيرنبوم (١٩٨٩) على هذا التنوع في تعريفات النوعية، وأبرز وجود ثلاثة أبعاد للنوعية في التعليم العالي:

أ. البعد الأكاديمي: وهو تمسك المؤسسة بالمعايير المهنية والبحثية الأكاديمية.

ب. البعد الاجتماعي: وهو تمسك المؤسسة بإرضاء حاجات القطاعات الهامة المكونة للمجتمع الذي توجد فيه.

جـ. البعد الفردي: وهو تمسك المؤسسة بالنمو الشخصي للدارسين.

ولكي تتحقق النوعية الجيدة في المنتجات والخدمات يجب أن تقوم المؤسسة (الجامعة) التي تزود الناس بالمنتجات والخدمات باتخاذ إجراءات متعددة تضمن اتصاف المنتج أو الخدمة بالنوعية الجيدة. وهذه الإجراءات الهادفة لتحقيق النوعية الجيدة تسمى " ضمان النوعية quality assurance " . إن النوعية، مهما كانت الطريقة التي تعرف بها، عبارة عن خاصية characteristic، يمتلكها المنتج أو الخدمة بكمية قد تقل أو تكثر، أما ضمان النوعية فهي عملية process موجهة نحو الحصول على الخاصية. وهذه العملية تشمل كل الإجراءات المخططة والمنظمة التي من شأنها جعل الاحتمال كبيراً في ان المنتج أو الخدمة سيمتلك متطلبات محددة ومواصفات موضوعة مسبقاً. وقد عرفت (Robinson 1994) ضمان النوعية بأنها "مجموعة النشاطات التي تتخذها مؤسسة أو منظمة لضمان أن معايير محددة وضعت مسبقاً لمنتج ما أو خدمة ما يتم بالفعل الوصول إليها بانتظام (consistently). وهدف هذه النشاطات هو " تجنب وقوع عيوب في المنتجات أو الخدمات" (ص ١٨٧). وقد عرفها (Freeman, 1992) بأنها طريقة عمل تضمن أن يكون للمنتج أو الخدمة الخواص النوعية المطلوبة. وركز على أن هدف هذه الطريقة هو منع الفشل، والحصول على الشيء الصحيح سواء من المنتجات أو الخدمات. أما (Tait, 1993) فقد أكد على أن ضمان النوعية هي القوة المرشدة وراء نجاح أي برنامج أو نظام أو مقرر دراسي. وهذا الأمر يستدعي أن تندمج آلياتها في جمع نشاطات المؤسسة التعليمية. وهدف ضمان النوعية هو دائماً تفادي وقوع الأخطاء.

ويرتكز مفهوم ضمان النوعية على عمليات تنفيذية وأنظمة، ويتكون من ثلاثة عناصر رئيسة هـي:

١. وضع معايير (standards) للمنتج أو الخدمة. والمعيار هو عبارة تصف خاصية مطلوبة في المنتج أو الخدمة، وتستعمل كأساس لقياس مستوى الجودة. ومواصفات المنتج أو الخدمة قد تتضمن عدة معايير يراد الالتزام بها.

٢. تنفيذ الإنتاج أو تقديم الخدمة بحيث يتم الحصول على منتج أو خدمة وفق المعايير الموضوعة مسبقاً وبشكل منتظم.

٣. تكوين ثقة لدى الزبون أو مستعمل المنتجات والخدمات، نتيجة للعنصرين السابقين، في أن ما وعد به سيتحقق دائماً.

إن عمليات ضمان النوعية ليست سهلة التنفيذ أو التطبيق. ولكنها هامة جداً في تطوير أي برنامج تربوي وبخاصة في نظام التعلم المفتوح والتعلم عن بعد. إن هذا النظام بحاجة ماسة دائماً إلى المصداقية وثقة الملتحقين ببرامجه وثقة المجتمع بعامة في أن التعلم من خلال هذا النظام يمكن أن يكون عالي النوعية. ولهذا فإن على الجامعات المفتوحة أن تكافح بلا كلل كي تضمن لبرامجها ومنتجاتها وخدماتها مستوى عاليا من النوعية.

ويخلط كثيرون بين مصطلح ضبط النوعية control quality ومصطلح ضمان النوعية، ويستعملونهما كمترادفين. والحقيقة أن هناك فرقاً كبيراً بين هذين المصطلحين. فضبط النوعية عملية بعدية بالنسبة للمنتج أو الخدمة (أي تأتي بعدهما)، هدفها اتخاذ إجراء معين بالنسبة للمنتجات أو الخدمات التي يتبين بعد الفحص والتدقيق أنها ليست بالمستوى المطلوب. وقد يكون هذا الإجراء رفض هذه المنتجات أو الخدمات والتخلص منها، وقد يتبع ذلك إجراءات لمعرفة أسباب الفشل، وتوصيات للتصحيح، بينما ضبط النوعية عملية قبلية تتخذ قبل الإنتاج وقبل تقديم الخدمة، وهدفها إكساب المنتج أو الخدمة نوعية مطلوبة ومحددة مسبقاً. إن عملية ضبط النوعية لا تمنع الفشل وإنما تشير إليه، والذي يمنعه هو عملية ضمان النوعية. وإذا حدث أن إجراءات معينة لضمان النوعية لم تنجح في منع الفشل فيجب على المؤسسة تطبيق إجراءات بديلة تحول دون الفشل وتحقق النوعية المرجوة. وقـد ميز (Harvey and Green, 1993) بين عملية ضمان النوعية وعملية ضبط النوعية بقولهما أن الأولى هي عملية إيجاد آليات وإجراءات تطبق في الوقت الصحيح والمناسب للتأكيد من أن النوعية المرغوبة ستتحقق بغض

النظر عن كيفية تحديد معايير هذه النوعية . أما الثانية (ضبط النوعية) فهي مجموعة من الإجراءات التي تقيس مدى مطابقة منتج لمجموعة من المعايير المحدودة مسبقاً، وقد تؤدي عند الضرورة إلى تعديل في عمليات الإنتاج ليصبح المنتج أكثر مواءمة للمعايير المرسومة .

وعلى المستوى العملي الواقعي فإن عمليتي ضمان النوعية وضبط النوعية يجب أن تتلازما بحيث تتبع الثانية الأولى وتؤثر فيها، محدثة ما يشبه الدائرة المستمرة من الإجراءات الهادفة للتحسين المستمر . وهذه الإجراءات هـي :

١ . وضع معايير / مستويات للنشاط المطلوب (منتج أو خدمة) .

٢ . تنفيذ النشاط على أيدي منتجين ذوي مستوى رفيع من المعرفة والالتزام والمهارة .

٣ . الحكم على المنتج أو الخدمة الذي تم الحصول عليه في ضوء المعايير الموضوعة (تحديد وقياس الفروق بين الخطط والأداء) .

٤ . التخطيط للتحسين استناداً إلى تقييم المنتج أو الخدمة .

٥ . عمل الإجراءات اللازمة لتطبيق التغييرات المطلوبة .

ضمان نوعية المنتجات و الخدمات

إن من الأهداف الرئيسة للتعلم المفتوح والتعلم عن بعد نشر التربية وزيادة تعميمها من خلال إنتاج مواد تعليمية عالية النوعية على نطاق واسع، وتوفيرها لأكبر عدد من المستهلكين (الدارسين) . ومن هنا فإن تأليف و إنتاج وتوزيع مواد تعليمية يجب ان يحظى بالأولوية في مؤسسات التعليم عن بعد . وعليه فإن تقييم النوعية يجب أن يتركز عموماً على النوعية الداخلية لهذه المنتجات وظروف توفيرها للمستعمل . وكما في المنتجات الصناعية يجب ان تذكر هذه المواد بوضوح مواصفاتها الدقيقة وأهدافها العامة (مذكورة كأهداف تعلمية)ومحتوياتها (كملخصات لكل وحدة تعليمية) وتعليمات الاستعمال (تقدم كنصائح للدارسين ونشاطات مقترحة يقومون بها) .

وقد اقترح دافيد سيوارت، أحد كبار المسؤولين في الجامعة البريطانية المفتوحة، أسلوبا آخر للنظر إلى النوعية في التعلم عن بعد، إذ رأى أن هذا النظام قد تطور منذ نشأته وانتقل من قطاع النشاطات الصناعية إلى قطاع النشاطات الخدمية . ولهذا فإن الوصول إلى وضع التمييز في الخدمة يرتبط لديه بكسب أقصى درجات الرضى من الزبون . وهذا الهدف قد يتضمن عوامل أخرى بالإضافة إلى النوعية الداخلية intrinsic quality للمنتجات المستعملة في

تزويد هذه الخدمة التعليمية (Trindade, 1998).

وفائدة هذا الأسلوب هو التذكير الدائم بالوظائف العديدة التي يجب أن يملكها نظام التعلم المفتوح والتعلم عن بعد كي يخدم بعدالة وبكفاية مستعمليه الكثيرين. ففي هذا النظام يتطلب التفاعل المثمر مع الدارسين تخطيطاً صارماً وتوقيتاً دقيقاً لكل النشاطات المبرمجة مسبقاً. ومن الأمثلة على هذه النشاطات:

أ. تسجيل أعداد كبيرة من الدارسين وتزويدهم بما يلزمهم من معلومات إدارية وأكاديمية في الأوقات المناسبة

ب. تنظيم امتحانات لمراكز دراسية متعددة في نفس الوقت وبنفس المحتوى.

ج. تدقيق إجابات الدارسين على الامتحانات وإعلان نتائجها خلال فترة زمنية معقولة.

د. تنظيم جداول البث التلفازي والإذاعي. وجداول استعمال المختبرات وقاعات الانترنت.

هـ. توزيع التعيينات الدراسية وجمعها وإعادتها للدارسين مدققة وكل ذلك وفق مواعيد دقيقة.

وهذا يعني أن نظام التعلم المفتوح والتعلم عن بعد يجب أن يحلل بدلالة أدائه في الجوانب الإنتاجية والخدمية وليس فقط في الجوانب الإنتاجية. وللحكم عليه لا بد من تفحص منتجاته وخدماته. ولكن ما هي

الآلية المناسبة؟ لقد ذكر (١٩٩٨) (Khan, 1998) أن صلاحية الشيء أو ملاءمته للغرض fitness for purpose تعتبر آلية القياس الفضلى للنوعية في التعلم عن بعد. وهنا تبرز أهمية عاملين هما:

١. نوعية المواد التعليمية باعتبارها المنتج الرئيس في نظام التعلم المفتوح والتعلم عن بعد.

٢. نوعية الخدمات الداعمة لتعلم الدارسين (support services).

تستعمل في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد منتجات وخدمات متنوعة جداً، وقد يكون مزّود الخدمة غير مزود المنتج. فبعض الجامعات المفتوحة تستخدم، مثلاً، مواد تعليمية وأشرطة مرئية وأشرطة مسموعة وأقراص مدمجة وبرمجيات حاسوبية (أي منتجات) من

إنتاجها هي أو مشتراة من جامعات أخرى، أو من وكالات خاصة لإنتاج مواد للتعلم المفتوح والتعلم عن بعد. وبغض النظر عن الجهة التي تزود المنتج أو الخدمة فقد دلت الأبحاث والخبرات على أن الأسباب التي تؤدي لضعف نوعية الخدمات تختلف بشكل عام عن تلك التي تؤدي إلى ضعف نوعية المنتجات (Robinson, 1997, p.189). وهذا الاختلاف مصدره وجود اختلافات بين طبيعة الأشياء التي تسمى " منتجات " وبين طبيعة الأشياء التي تسمى " خدمات ". فالخدمات بالمقارنة مع المنتجات تتصف بما يلي:

١. غير ملموسة إلى درجة كبيرة، فهي " بنت لحظتها " وتنتهي بانتهاء أدائها، ولا يمكن خزنها أو تقليبها باليد مثلاً، كما في حالة المنتج (إعطاء حصة درسيه يعتبر خدمة لكن الكتاب المقرر يعتبر منتجاً).
٢. صعبة القياس بسبب ما ورد في البند رقم (١) أعلاه، بعكس المنتج الذي يمكن تأمله وتقليبه وتحليله واعادة استعماله عدة مرات واخضاعه للقياس غير مرة.
٣. يشهدها الزبائن أو يعيشونها، وغالباً ما يتم ذلك وجهاً بوجه أو صوتاً بصوت.
٤. لا يمكن فصلها عن الأشخاص المشمولين بالموضوع. فإذا كانت الخدمة إجراء امتحان مثلاً، فلا يمكن فصل الخدمة عن الدارسين / المتعلمين الذين سيتلقون الامتحان وسيتفاعلون معه.
٥. تحتاج الخدمات إلى نظام للتسليم (أو التوصيل) للمستفيدين delivery system بحيث يكون متاحاً لهم accessible وسهل التشغيل.
٦. غالباً ما يحكم عليها أو تقيّم باستعمال أدوات قياس " رضى الزبائن " ووجهات نظرهم، التي تستعمل كثيراً في العلوم الاجتماعية.
٧. تتطلب الخدمات توثيقاً دقيقاً وضبطاً قوياً للسجلات التي تسجل فيها تفاصيلها و فقراتها. وهذا التوثيق يساعد على وضعها وظبطها.

ويجب أن تعكس أنظمة ضمان النوعية الخاصة بخدمات التعلم المفتوح والتعلم عن بعد الفروق المذكورة أعلاه إذا أريد لها النجاح. وإذا طبقت أنظمة ضبط نوعية المنتج على الخدمات فسوف تفشل في تحقيق ما ينتظر منها.

والمتفحص لأسباب ضعف نوعية الخدمات التي تقدمها مؤسسة تربوية ما في حالة حدوثه

يجد أن أكثر هذه الأسباب شيوعاً هـي الآتية :
١ . ضعف إدراك المخططين في المؤسسة التربوية لحاجات الدارسين التعلمية .
٢ . عدم فحص الفرضيات الموضوعة عن حاجات الدارسين .
٣ . وضع معايير نوعية غير ملائمة للخدمة المبتغاه .
٤ . قد لا تتلاءم هذه المعايير مع المصادر المالية أو البشرية المتوافرة لدى المؤسسة .
٥ . ضعف التنسيق بين الجهات المعنية بإعداد الخدمة وتوصيلها .
٦ . فشل الأجهزة أو المعدات اللازمة للخدمة .

ويمكن الاستفادة من النقاط المذكورة أعلاه لصياغة فحوص لأنظمة ضمان نوعية الخدمات التي تقدمها أي جامعة . ويمكن إجراء الفحوص اللازمة باستعمال أدوات القياس المعروفة في العلوم الاجتماعية كالاستبانات والمقابلات الفردية والجماعية وبالملاحظة ، التي ينتج عنها عادة معلومات كمية ونوعية غنية .

غير أن إجراء فحوص دقيقة ومؤثرة لأنظمة ضمان النوعية في أية مؤسسة لتحديد مدى شموليتها وعمقها ودقتها يجب أن تتناول كحد أدنى الأمور المشروحة تالياً .

أسئلة محورية لفحص نظام ضمان النوعية:

من المهم كما ذكر أعلاه أن تقوم كل جامعة بتفحص نظام ضمان النوعية المطبق لديها (أو التي تنوي تطبيقه) لتحديد مدى شموليته ومدى تعامله مع الجوانب الحساسة والمؤثرة في عملياتها المختلفة سواء كانت إنتاجية أم خدمية . أنه لمن الخطر أن يكتفي المسؤولون عن مؤسسة تربوية ما بالانطباع العام عن مستوى النوعية الذي قد يحصلون عليه نتيجة ملاحظاتهم الشخصية أو ملاحظات قطاع واحد من العاملين في المؤسسة أو المنتفعين منها . الملاحظات وحدها لا تكفي واستقاء المعلومات عن النوعية من جهة واحدة لا يكفي أبدا .

وفيما يلي عدد من الأسئلة المحورية المصممة لهذه الغاية والتي تشكل بمجموعها فحصاً لنظام ضمان النوعية ، وغني عن القول إن هذه الأسئلة لا يقصد بها الحصر ، إذ يمكن إضافة أسئلة أخرى عليها .

١ . هل للجامعة سياسة محددة وخطط عملية واضحة تتعلق بالنوعية؟ وهل هذه السياسة والخطط معلنة ويعرفها جميع الموظفين؟
٢ . هل توجد معايير محددة ومعرّفة لجميع نشاطات الجامعة ؟ وهل هذه المعايير معقولة

وقابلة للتحصيل والقياس؟ وهل يعرفها جميع المعنيين ؟ .

٣. هل المؤشرات والدلالات الحرجة (الواضحة والحاسمة) التي تفيد بتحقق المعايير الموضوعة معروفة ومحددة ؟ وهل تم تحليل سبل تحقيقها أو الحصول عليها؟ .

٤. هل الطرق المتوجب اتباعها لتحقيق النوعية الجيدة مدونة بشكل بارز وواضح؟ وهل يمكن لموظفي الجامعة الاطلاع عليها؟ .

٥. هل تم إشراك موظفي الجامعة في وضع نظم ضمان النوعية ؟ وهل أخذت آراؤهم في صياغة وتنسيق النصوص النهائية للنظم ؟ وهل أعطيت هذه العملية الوقت الكافي لها كي تنضج؟ .

٦. هل توجد آليات مراقبة منتظمة لمعرفة مدى اتباع الطرق المحددة ومدى تحقق المعايير المرغوبة؟ وهل يتم نشر نتائج المراقبة واعلام الجهات المعنية؟

٧. هل توظف نتائج المراقبة لمراجعة الأداء وتحسينه و لتقييم المعايير الموضوعة وربما إعادة النظر فيها؟ .

٨. هل توفر آليات المراقبة طرقاً فعالة للتغذية الراجعة بين مزودي المنتجات والخدمات وبين المتعلمين (الزبائن)؟ .

٩. هل يستفاد من آراء الدارسين والمشغلين في المجتمع (مثلاً الشركات والمصانع والوزارات) في وضع المعايير وسبل مراقبتها؟ .

١٠. هل تطبق الجامعة برامج تدريبية للمدرسين والإداريين بهدف زيادة كفاياتهم المهنية؟ .

١١. هل تخصص الجامعة ميزانية لتطبيق ومراقبة نشاطات ضمان النوعية ؟ وهل تراقب الجامعة التكاليف وتراجعها في ضوء ما يتحقق من نتائج؟ .

١٢. هل تطبق الجامعة نظاماً لإثابة الموظفين الأكفياء المخلصين ؟ وكيف يرى الموظفون ذلك؟ .

ضمان النوعية في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد

التربية بعامة مفهوم معقد جداً يتضمن الأهداف والطرائق والسياق الثقافي والفئات المعنية والنتائج . كما أنها كيان عضوي يتأثر نموها ونوعها تأثراً بالغاً بعوامل من داخل المؤسسة التربوية ومن خارجها . فبينما تعتبر المسؤولية المالية (accountability) وتوافر البنى التحتية المناسبة وزيادة أعداد المدخلات ونوعيتها بعضاً من العوامل الخارجية ، فإن الاستقلالية

(autonomy) والسياق الثقافي والأهداف

والاتجاهات تعتبر بعض العوامل الداخلية الهامة. ولهذا فإن عملية قياس النوعية في التربية هي عملية معقدة أيضاً، وبخاصة إذا ما أريد تحديد المجالات أو المحاور parameters التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

ففي التربية المدرسية مثلاً قد تختلف فئات المجتمع حول جوانب النوعية التي يجب أن تعمل المدارس على تحقيقها. فمن منطلق إرضاء المستهلك" يطلب معظم أولياء الأمور من المدارس أن تركز على المناهج التقليدية، وأن تطبق النظام وأن تجعل التلاميذ يتعلمون ولو قسراً. وعلى العكس من ذلك يرغب معظم التلاميذ في مواضيع جديدة غير تقليدية، وجعل التركيز على الإبداع والحرية، وليس على تطبيق النظام. وقد يضع المعلمون أنفسهم في الوسط بين هذين الموقفين المتعارضين.

وتقييم النوعية في نظام التعليم المفتوح والتعلم عن بعد يختلف إلى حد ما عن تقييم النوعية في نظم التعليم التقليدية وذلك لسببين (Trindade , 1998).

١. معظم الدارسين في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد هم من البالغين، ولهذا فهم قادرون على اتخاذ القرارات بخصوص الأهداف التي يبغون تحقيقها والموضوعات التي يختارونها ومقدار الوقت الذي يريدون تخصيصه للدراسة. وهذا يجعلهم أكثر قدرة على الاختيار من بين المطروح أمامهم في سوق التعليم، وفق أهدافهم النهائية وتوقعاتهم وأولوياتهم.

٢. مؤسسات التعليم عن بعد أكثر شفافية من المؤسسات التقليدية فيما يتعلق ببرامجها التعليمية والتدريبية، . وذلك لأن نظام عملها الخاص يحتم عليها تقديم معظم المادة التعليمية بشكل مكتوب أما على الورق أو على شاشات الحاسوب. والشيء نفسه ينطبق على المواد المرئية والمسموعة والمواد التفاعلية التي توزع عادة مسجلة أو مذاعة أو عبر الانترنت.

وهذا يعني أن المواد المستخدمة في التعليم عن بعد يجب أن تكون سهلة وواضحة ومرئية وغير مقتصرة على طريقة " الكلام والطباشير " المستخدمة بكثرة في الصفوف التقليدية والتي تمسح عن السبورة وتفقد بعد دقائق من كتابتها أو قولها. ومن هذا المنطلق فإن تقييم " نوعية " المنتجات التعليمية في نظام التعليم عن بعد تصبح سهلة بالمقارنة مع غيرها.

ومع ذلك فليس كافياً أن نحلل النوعية العلمية للمحتوى والاستراتيجية التدريسية المتضمنة وبعض الخواص الأخرى التي يتصف بها المحتوى مثل الجاذبية والودية وملائمته للثقافة في الوسط الذي يتم فيه التعليم. وحتى أفضل أنواع منتجات التعلم المفتوح والتعلم عن بعد لا

تضمن حصول الدارسين على تعلم ممتاز في جميع الحالات، لان مثل هذا المستوى من التعلم يرتبط أيضاً بنوعية الخدمات التعليمية الداعمة الممكن أن تقدمها المؤسسة التربوية.

وهناك أسباب عدة لكون عملية إقامة النوعية وضبطها في غاية الأهمية في نظام التعلم المفتوح والتعلم عن بعد. ومن هذه الأسباب ما يلي:

١. النظرة التي يحملها كثير من الناس لهذا النظام ما زالت سلبية، والحرص على النوعية الجيدة لمنتجات وخدمات هذا النظام من شأنها محاربة هذه النظرة.
٢. قلة اللقاءات والاحتكاكات بين المدرسين والمخططين في هذا النظام من جهة وبين المديرين و الدارسين من جهة أخرى قد تؤدي إلى ضعف معرفة المسؤولين والدارسين بما يجري حقيقة في المسيرة التعليمية، وبالتالي قد يحدث خلل في التحصيل العلمي والمهني للدارسين، وعليه فإن هذا الخطر المحتمل يتطلب زيادة في الحرص على النوعية وقياسها باستمرار من جانب القائمين على هذا النظام.
٣. تعتمد برامج التعليم عن بعد الحديثة إلى حد كبير على خدمات تدريسية متعددة منها الطباعية والتكنولوجية والتنظيمية تنفذها جهات مختلفة، مما يستدعي الانتباه باستمرار إلى تناغم وتكامل هذه الخدمات وتفاعلها بمستوى عال من الجودة لتحدث الأثر التربوي والتدريبي المطلوب.
٤. تلتحق بالجامعات المفتوحة / مؤسسات التعليم عن بعد، عادة فئات متنوعة من الدارسين فمنهم العاملون في المصانع والمزارعون والمعلمون و المتقاعدون والسجناء السابقون وربات البيوت وغير ذلك، الأمر الذي يستدعي زيادة الحرص على النوعية العالية لكي تحقق كل فئة أهدافها من الالتحاق بالمؤسسة وتشبع رغباتها وتحسن ظروف عيشها.

ويجب أن تركز جميع الجامعات المفتوحة على ضمان النوعية في عملياتها التعليمية وذلك من خلال الحرص على نوعية الجوانب / المجالات التالية التي تعدّ محاور أساسية لعملية التعلم ككل:

١. تخطيط البرامج الأكاديمية (أو المهنية). والتخصصات الداخلة فيها.
٢. إنتاج المواد التعلمية بما فيها الوسائط المساندة.
٣. دعم تعلم الدارسين (بما فيها توفير تفاعل ثنائي معهم وتوجيه وإرشاد أكاديميين).

٤ . تنفيذ البرامج الأكاديمية والتخصصات وفق المخططات الموضوعة .
٥ . تقييم ومراجعة البرامج الأكاديمية والتخصصات .
٦ . تقييم أداء الدارسين وحفظ السجلات وإعداد الشهادات .
٧ . تطوير المناهج والمواد التعليمية .
٨ . تطوير المصادر البشرية التي تتولى الإشراف الأكاديمي والإداري .
٩ . إجراء تقييم مستمر على مستوى الجامعة ككل وعلى مستوى الدوائر .
١٠ . البحث العلمي .

إن تنفيذ عمليات ضمان النوعية يرتبط إلى درجة كبيرة بالهياكل التنظيمية وآليات العمل في الجامعة المفتوحة . ويجب إدراك أن تنفيذ هذه العمليات بشكل جيد يجب أن يكون جزءاً من خطة كلية أو شاملة لضمان النوعية في الجامعة holistic quality assurance (scheme, Khan, 1998) . ومثل هذه الخطة الكلية الشاملة يجب أن تركز علـــى :

١ . إيجاد نمط محدد لإدارة النوعية الشاملة في الجامعة .
٢ . وضع آليـات لتنفيذ إدارة النوعيــة الشاملة . بحيث يشارك جميع موظفي الجامعة في ذلك .

ومــن أهــم معالم النمط اللازم توافــره لإدارة النوعية أن تتبنى الجامعة معايير ومستويات norms & standards لمسيرة عملياتها على مختلف الأصعدة . وفي الجامعات المفتوحة يجب كحد أدنى ، أن تتوافر معايير ومستويات للمجالات / الجوانب (parameters) العشرة المذكورة أعلاه .

التقييم شرط ضروري للنوعية الجيدة:

أن تقييم واعتماد (accreditation) مؤسسات التعليم العالي شرط ضروري للإبقاء على نوعية جيدة للتعليم العالي ولرفع تلك النوعية . وعملية التقييم والاعتماد هذه على نوعين ، مؤسسي ودائري ، حيث يعني التقييم المؤسسي دراسة عمل المؤسسة ككل بما في ذلك ادارتها العامة المركزية . أما التقييم الدائري فيركز على عمل الدائرة باعتبارها وحدة مختصة بجانب محدد من أعمال الجامعة / المؤسسة . وعملية التقييم للمؤسسات وللدوائر

يمكن أن تتم من خلال صحف التحليل الذاتي الرصين، الأمر الذي يقتضي أن تعد المؤسسة أو الجامعة أدلة خاصة للتقرير عن الذات تهدف إلى وضع تحليل للذات يتناول الممارسات الداخلية بكافة جوانبها . وتتضمن هذه الأدلة عبارات تعبر عن معايير أو مستويات مستهدفة وعبارات تنقيبية تكون مصاغة بشكل جيد بحيث تجتذب ردود فعل من المؤسسة أو المسؤلين فيها الذين يعبئون أدلة التقييم المشار إليها .

إن أجراء تقييم دقيق للذات أمر في غاية الأهمية لدراسة فاعلية أية مؤسسة ويجب أن تكون هذه العملية جزءاً أساسيا ومستمراً في أيه مؤسسة (Khan, 1998) . وفيمـا يلـي توضيح لنوعي التقييم المذكورين في الفقرة السابقة :

أ. جوانب تقييم المؤسسات:

يجب أن يتناول تقييم مؤسسات التعلم عن بعد الجوانب التالية من عملها :

* الرسالة والغايات Mission and Aims .
* الهيكل التنظيمي للجامعة .
* مصادر التمويل .
* إدارة الأموال .
* البنى التحتية .
* الأنظمة والقوانين المطبقة في المؤسسة .
* إدارة شؤون الموظفين .
* البحث والتطوير .
* خدمة المجتمع المحلي والإقليمي .
* العلاقات مع المؤسسات الإنتاجية الأخرى سواء داخل الوطن أو خارجه .
* عمليات المراقبة و سُبل ضمان النوعية المطبقة في المؤسسة .

ب. جوانب تقييم الدوائر:

جوانب التقييم المتعلقة بالدوائر تتناول تقييم أمور متخصصة داخل المؤسسة . ويجب أن يشمل هذا التقييم كل أنواع الدوائر . ولكن سيكتفى هنا بذكر الجوانب المتعقلة بالدوائر الأكاديمية مثل دائرة الرياضيات ودائرة اللغة الإنجليزية وفيما يلي أهم هذه الجوانب .

* الغايات والأهداف الخاصة لكل برنامج الأكاديمي .
* المشرفون الأكاديميون .
* تصميم البرنامج واخراجه .
* المواد التعليمية والوسائط الدراسية اللازمة .
* تقديم البرنامج للدارسين .
* دعم المؤسسة للبرنامج .
* البحث والتطوير المتعلقان بالبرنامج .
* خدمات مصادر المعلومات .
* سبل ضمان النوعية .

ولنجاح نوعي التقييم المذكورين يجب إعداد أدلة للتقييم بحيث تتضمن عبارات معيارية وعبارات تنقيبية تنتزع استجابات من ممثلي المؤسسة والدوائر والدارسين / المتعلمين بحيث يعطون بموجبها وصفاً دقيقاً لمختلف جوانب أوضاع المؤسسة وبرامجها ودوائرها .

وبالطبع تبنى أدلة التقييم المذكورة على معايير/ مستويات معدة مسبقاً لكل من الجوانب المكونة لنشاطات المؤسسة أو الدائرة .

وفيما تبقى من هذه الدراسة سيتم التركيز على جانب هام من الجوانب التي يجب تقييم نوعيتها في الدوائر الأكاديمية الا وهو أداء المشرفين الأكاديميين ، وذلك لاظهار كيفية تناول النوعية في هذا الجانب .

ضمان النوعية في أداء المشرفين الأكاديميين:

تنبع الجوانب الأساسية لضمان النوعية في أداء المشرفين الأكاديميين من المهام الرئيسة المناطة بهم وهي : التعليم و الإرشاد والتقييم و خدمة المجتمع و البحث . وعليه تتحدد المجالات الأساسية التي تؤثر مباشرة على مستوى نوعية أداء المشرفين والتي يجب أن توضع لها معايير/ مستويات محددة مسبقاً من قبل الجامعة ، على النحو التالي :

١ . رسالة الجامعة وأهداف البرامج الأكاديمية والمهنية . (بمعنى أن أهداف الجامعة ككل وأهداف برامجها بشكل خاص تؤثر في نوعية أداء المشرفين) .

٢ . المؤهلات العلمية والخبرات المنتمية (ذات العلاقة بالمهمات الموكلة إليهم) .

٣ . المؤهلات التربوية المرتبطة بالتعليم والتعلم وخصائص الكبار وطرائق التقييم .
٤ . دعم تعلم الدارسين . (المقصود أن للمشرف دوراً بارزاً في دعم تعليم الدارسين ومساعدتهم ويجب أن يكون لهذا الدور معايير ومستويات عليه الالتزام بها) .
٥ . إعداد المواد التعليمية / التعليمية وخاصة تلك التي على شكل مقررات دراسية .
٦ . الامتحانات والتعيينات وتحليل النتائج .
٧ . خدمة الجامعة والمجتمع .
٨ . إدارة عملية التعلم : (يجب أن يكون لدى المشرف الأكاديمي مهارات إدارية كالتخطيط والتنظيم وإدارة الصف والتوجيه والتنسيق وكتابة التقارير) .
٩ . التطوير الذاتي (النمو المهني) المستمر .

والسؤال المطروح دائماً في كل من المجالات المذكورة هو " إلى أي درجة يتبع أو يطبق مشرفونا التصرفات المثلى في هذا المجال ؟ " وبشكل عام، لا بد من معرفة الإجابة على السؤال : "إلى أي مدى يطبق مشرفونا الممارسات المتميزة في التعليم والتعلم عن بعد؟ " .

ويمكن للجامعات أن تعطي أوزانا لكل جانب بحيث تعكس هذه الأوزان أهداف الجامعة وأولياتها . وحيث أن الجوانب (٤-٩) من الجوانب المذكورة أعلاه تمثل وظائف أساسية للمشرف، فيجب وضع معايير

و آليات محددة ومفصلة لضمان النوعية فيها، وإجراء تقييم مؤسسي منتظم لدرجة توافر المعايير المحددة مسبقاً . أما الجوانب (١-٣) فهي مدخلات هامة تؤثر على نوعية الأداء ويجب أن تتحدد معاييرها من طرف المؤسسة بحيث تضمن أن تكون نوعية أداء المشرف جيدة .

وكأمثلة على المعايير التي تعبر عن الأداء الجيد للمشرف في المجالات المذكورة أعلاه، أقدم فيما يلي مجموعة المعايير الخاصة بمجالي الامتحانات والتعيينات الدراسية :

معايير الامتحانات التحصيلية الجيدة:

تتلخص أغراض الامتحانات في التعلم المفتوح والتعلم عن بعد . فيما يلي (Woodley, 1998) و جبر وكمال، 1995، و(Gronlund , 1976)

١ . زيادة مقدار التعلم حيث أن الدارسين يميلون إلى الدارسة بجدية أكبر عندما يعرفون أنهم سيخضعون للإمتحان في المادة التعليمية التي يدرسونها .

٢ . قياس مدى اكتساب الدارسين للأهداف التعليمية المحددة للمقرر الدراسي الذي يدرسونه .
٣ . الحصول من نتائجها على تغذية راجعة يستفيد منها الدارس نفسه، والمشرف الأكاديمي الذي دَرَّسه، ومصمم المقرر الدراسي، ومؤلف المادة وإدارة الجامعة
٤ . جعل المشرفين الأكاديميين يفكرون بعناية في الأهداف التعليمية للمقرر الدراسي الذي يعدون امتحانه، والحصول على بصيرة أعمق بتلك الأهداف وبالسلوكيات المنتظرة من الدارس . أي أن الامتحانات تدفع المشرفين لتصحيح أهداف المواد التدريسية وصقلها وتغذيتها .
٥ . تزويد المشرفين الأكاديميين بوسيلة لتقييم الدارسين أكثر صدقاً وثباتاً وموضوعية من سبل التقييم التي لا تعتمد على الامتحانات .
٦ . مساعدة إدارة المؤسسة التربوية على ضبط نوعية التعليم والتعلم .
٧ . مساعدة إدارة المؤسسة على إتخاذ القرارات المتعلقة باختيار الدارسين وتصنيفهم .
٨ . اكساب الدارسين والجمهور ثقة بأن نتائج التعلم المفتوح والتعلم عن بعد رصينة وجدية وبأن الدارس في هذا النظام لا يتقدم ولا يحصل على الدرجة العلمية التي يرغب فيها إلا إذا اجتاز امتحانات مصممة تصميماً جيداً في المقررات التي يدرسونها .

وحتى تحقق الامتحانات التحصيلية الأغراض المذكورة أعلاه على أفضل وجه يجب أن تتوافر فيها مجموعة من المعايير (المواصفات) التي ينبغي أن يدركها المشرف الأكاديمي وأن يعمل على توافرها في الامتحانات التحصيلية التي يضعها . وأهم هذه المعايير ما يلـــي :

١. الصدق:

يعتبر معيار الصدق أهم معايير الاختبار الجيد . وهو يشير إلى فعالية الاختبار في قياس ما يقصد المشرف قياسه . ومن المهم جداً في هذا الصدد أن يكون هناك توافق بين السلوك المطلوب الاستجابة له في اختبار ما وبين الهدف أو الغرض من السؤال . فالسؤال يجب أن يكون ذا صلة مباشرة بأهداف المساق وبالتدريس الفعلي، و وجود هذه الصلة هو أساس صدق الاختبار . و الصدق الذي يطلب توافره في الاختبار التحصيلي بشكل رئيس هو صدق المحتوى، أي أن يكون الاختبار شاملاً وممثلاُ بشكل كاف للمحتوى المعرفي والسلوك التعليمي

المطلوب قياسهما في الامتحان .

ولتأمين المستوى المطلوب من الصدق في الامتحانات تعد كثير من الجامعات المفتوحة دليلاً للامتحانات لكل مقرر دراسي يبين وزن الامتحان النهائي والوحدات التي يشملها ووزن كل نمط من أنماط الأسئلة ، ويربط الأسئلة بأهداف الوحدات الدراسية . ثم يصمم الامتحان وفق المعايير الواردة في الدليل .

٢. الثبات:

ثبات الاختيار يعني اتساق نتائجه . فإذا تم الحصول على نتائج متشابهة جداً إذا أجرى الاختبار نفسه على المجموعة نفسها في فترتين مختلفتين ، فهذا يعنى أن الاختبار يتمتع بثبات النتائج . ومن ناحية عملية يمكن القول أن الاختبار الصادق يكون ثابتاً دائما (Best, 1977, p.190) ، ولا داعي كبيراً لقياس ثبات اختبارات التحصيل إذا اتصفت بالصدق .

٣. مراعاة مستويات التفكير العليا:

يجب أن يقيس الامتحان تحصيل الطلاب لأهداف التعلم في المجال المعرفي الواقعة في مستويات التحليل والتركيب والتقييم ، إضافة للأهداف في مستويات التذكير والاستيعاب والتطبيق .

٤. الموضوعية:

وتعنى هذا الصفة أن العلامات (الدرجات) التي يحصل عليها الطالب يجب أن تكون مستقلة عن الحكم الذاتي للمصحح . ولهذا فإن الامتحانات في معظم الجامعات المفتوحة تكون مركزية ويزود المصححون بإجابات نموذجية يلتزمون بها عند تصحيح إجابات الدارسين .

٥. الاقتصاد في الوقت والكلفة.

٦. سهولة التطبيق والتصحيح والتفسير.

٧. إثارة الاهتمام والتشويق لدى المفحوصين.

فالاختبارات المملة أو السخيفة قد تثبط عزيمة الطلاب، وتكون قليلة النفع لهم.

٨. تنوع أنماط الأسئلة:

وتعنى هذه الصفة اشتمال الامتحان أسئلة موضوعية ومقالية بمقادير مناسبة. ولكل نوع أشكاله وخواصه. ويمكن الرجوع إلى كثير من المراجع حول القياس والتقويم التربويين للإطلاع على التفاصيل المتعلقة بهذه الأنماط.

٩. الدقة:

يجب أن تكتب الأسئلة بوضوح تام وبصياغة لغوية سليمة وأن ترافق الامتحان تعليمات دقيقة وإرشادات كافية تحدد للطالب كيفية التعامل مع أسئلة الامتحان والإجابة عليها.

معايير التعيينات الدراسية الجيدة:

التعيينات الدراسية عبارة عن أسئلة مجموعات من متنوعة في أنماطها ومستوياتها التربوية توزع على الدارسين أثناء دراستهم لمقرر دراسي معين ليحلوها في وقتهم الحر بالرجوع إلى الكتاب المقرر أو إلى مراجع منتقاه، من أجل توجيه وتدعيم عملية التعلم. وفيما يلي أهم أغراض التعيينات (كيلاني، ٢٠٠١):

١. تدفع الدارس إلى دراسة مادة المقرر الدراسي بشكل عميق من خلال الأسئلة التي تطرح، إذ يضطر الدارس أثناء إجابته على التعيين أن يعود للمادة الدراسية باحثاً ومنقباً عن الإجابة الصحيحة.
٢. تستخدم كإحدى وسائل التقويم المستمر لأنشطة الدارس التعليمية وخاصة تقويم مدى تقدمه في عملية التعلم. فبعد أن يحل الدارس أسئلة التعيينات يعيدها إلى المشرف الأكاديمي الذي يدققها ويعلق عليها مبرزاً نقاط الضعف والقوة في الإجابات. وتخصص بعض الجامعات المفتوحة نسبة مئوية من العلاقة الكلية للمقرر الدراسي لهذه التعيينات.
٣. تساعد الدارس على توظيف معلوماته وتطبيق ما تعلمه في المقرر المعني.
٤. تساعد على إيجاد نوع من التفاعل والتواصل بين الدارس والمشرف الأكاديمي مما يساعد على إحداث تعلم ذي معنى لدى الدارس، كما تساعد على التقليل من مشاعر العزلة

خاصة وأنه يتعلم في نظام التعلم عن بعد .

ولكي تحقق التعيينات الدراسية الأغراض التي وضعت من أجلها بشكل جيد ، يجب أن تتوافر فيها المعايير التالية : (الكيلاني ، 2001)، (Rekkedal, 1983).

١ . يجب أن ترتبط أسئلة التعيينات بأهداف الوحدات الدراسية سواء منها المعرفية أو الوجدانية أو النفس حركيه .

٢ . يجب أن تشتمل أسئلة التعيينات على أسئلة من مختلف المستويات المعرفية وأن لا تركز فقط على الحفظ والتذكير والاستيعاب .

٣ . يجب أن تراعي التعيينات التنوع في نمط الأسئلة مثل الاختيار من متعدد والإجابات القصيرة و الأسئلة المقالية ، وغير ذلك .

٤ . يجب أن تصمم بحيث تسهم في تزويد الدارس بتغذية راجعة عن تحصيله وتسهم في إعطاء المشرف فكرة واضحة عن مدى تقدم الدارس في تعلمه للمادة التعليمية .

٥ . يجب أن لا تكون الأسئلة كثيرة العدد بحيث تؤدي إلى ارهاق الدارس عند الإجابة عنها ، وإرهاق المشرف الأكاديمي عند تصحيحها والتعليق عليها .

٦ . يجب أن تصاغ بلغة سليمة ومفهومة ومكتوبة بخط واضح وجيدة الإخراج .

٧ . يجب أن تتضمن التعيينات تعليمات وإرشادات واضحة حول كيفية التعامل مع الأسئلة وأن توزع علامات الأسئلة بشكل دقيق ويتناسب مع طبيعة كل سؤال .

٨ . يجب إعداد إجابات نموذجية للتمارين وتحديد كيفية توزيع العلامات وتعطى هذه الإجابات للمشرف الأكاديمي لمساعدته على سرعة التصحيح والعدل فيه .

خاتمة:

يجب أن لا ينظر لأنظمة ضمان النوعية على أنها وصفة سحرية من شأنها جعل التعلم المفتوح والتعلم عن بعد كامل الفعالية وراقي النوعية في كل الأحوال وتحت كل الظروف. فمن الممكن أن تضع مؤسسة نظاماً فعالاً لضمان النوعية ولكن ينتج عنه، على سبيل المثال، مقررات دراسية ضعيفة التصميم. غير أن أنظمة ضمان النوعية تساعد بالتأكد على تحسين الجوانب العملية في مؤسسات التعلم المفتوح والتعليم عن بعد، وتقلل التصرفات العشوائية أو الطارئة أو المزاجية، كما تقلل الضبابية في المفاهيم والتذبذب في الأداء. وفي نفس الوقت، فإنها تزيد التنسيق والتواصل بين جميع الأطراف المعنية. أما الشيء الذي لا تستطيع هذه الأنظمة عمله فهو إيجاد ثقافة الالتزام التي تفصل بين ما هو ممتاز وما هو مناسب. فمجرد تحديد عناصر نظام لضمان النوعية في جامعة ما وتحديد جداول للعمل الدقيق فيها لن يضمن بنفسه نوعية عالية للخدمات والنشاطات، إذ للحصول على هذا يجب أن يكون العاملون في تلك الجامعة مندمجين فكرياً، ومؤمنين بأهمية تحسين النوعية وملتزمين بتحقيقها (Robinsom, 1992, Barnet, 1992). وبكلام آخر، تكمن النوعية في الرعاية الشاملة للمنتجات والخدمات و في القيم والمعتقدات ذات العلاقة التي يتحلى بها القائمون على الجامعة. كل هذه الأمور أن تندمج معاً لتؤثر في نوعية الخبرة التعلمية للدارسين بشكل إيجابي.

المراجع

مراجع عربية

١ . الكيلاني، ت، (٢٠٠١). نظام التعليم المفتوح والتعليم عن بعد وجودته النوعية. بيروت: مكتبة لبنان.

٢ . جبر، أ. ف، كمال، . (١٩٩٥). إعداد الاختبارات في جامعة القدس المفتوحة , ورقة مقدمة إلى ورشة العمل التي نظمتها جامعة القدس المفتوحة بالتعاون مع اليونداباس خلال الفترة ٢٦-٢٧/ ١١/ ١٩٩٥، القدس، فلسطين.

٣ . درة، ع. (١٩٩٧). العولمة والنوعية في التعليم الجامعي العالي. ورقة قدمت للمؤتمر العلمي المصاحب للدورة الثلاثين لمجلس اتحاد الجامعي العربية، التي عقدت في صنعاء خلال الفترة ١-٣ آذار عام ١٩٩٧.

٤ . الخفاجي، ع. (١٩٩٦). إدارة الجودة الشاملة: رحلة مستمرة. منشورات جامعة الإسراء، عمان، الاردن. (ص٣).

٥ . سلامة، ر. و النصار، ت. (١٩٩٧). ضمان النوعية في التعليم العالي: المفهوم والدواعي والآليات. ورقة قدمت إلى المؤتمر العلمي المصاحب للدورة الثلاثين لمجلس اتحاد لجامعات العربية التي عقدت في صنعاء عام ١٩٩٧.

مراجع أجنبية

1. Barnett,R. (1992) . Improving Higher Education : Total Quality Care, the Society for Research into Higher Education and Open University Press, Buckinghem.
2. Best. J. (1977) .Research in Education, 3rd ed. N.Y.: Prentice Hall.
3.. Birnbaum. R.(1989) The Quality Cube: how College Presidents assess quality. In: Quality in the Academic: Proceeding form a national symposium. National center for postsecondary Governance and Finance. University of Maryland.
4. Evans. J. W. Lindsay . (1996) . The management and control of quality. MN, USA. West Pupl . co. . (page 35).
5. Freeman , R. (1992) . Quality assurance in learning materials production. In A. Tait (ed.) ,key issues in open learning - a reader . The Open University :longmam.
6. Green.D. (1994) . what is quality in higher education? Concepts, policy, and

practice. Society for Research into Higher Ecucation and open learning press. Buckingham,UK.

7. Gronlund , N. (1976) . Measurement and evaluation in teaching , 3rd . edition . N.Y.: Macmillan.
8. Guri- Rozenblit, S. (1997) . Quality control in distance learning, Open Learning, 2(2) , 16-21.
9. Harvey. L. Green, D. and Burrows. A.(1993) . Assessing quality in higher education a transbinary research project . Assessment and Evaluation in Higher Education, 18(2) .143-148.
10. Juran. J.M.(1988) . Quality Control Hand book N.y.: MC Graw Hill.
11. Khan, A.W. (1998) . Quality in distance education . A paper for the conference of presideuts of Open Universities held in Non theaburi. Thailand during 9-13 Nov.,1998.
12. Rekkedel. T.(1998) . Quality assessment and evaluation: Basic philosophies, concepts and practices at NKI, Norway.
13. Rekkedal .T. (1983) .The written assignments in correspondence education : Effects of reducing turn- around time. Distances edu.
14. Robinson, B. (1994) . Assuring quality in open and distance learning . In F.lockwood (ed.), Materials production in Open and Distance learning. New York : Chapman.
15. Sekimoto, T. (1998). Meeting the challenge of the 21st century. In the Global Market Place (edited by J. Rosow). New york: Facts on file.
16. Tait, (1993) . Distance learning: Europeau and intentional perspectives (collected papers from the Cambridge International conference on Open and Distance Learning) , Cambridge : the Open University.
17. Trindade, A.R. (1998). Quality in distance education systems. A paper presented to the conference of presidents of open universities held in Thailand in November 1998.
18. Woodley. A. (1996). Evaluation at the British Open University. The Open University, Vol-2, London.

أساسيات اختيار وتقويم الرواة في التاريخ الشفوي

د.صلاح حسن الماوور*

* أستاذ التاريخ المشارك بجامعة القدس المفتوحة

ملخص البحث

يتناول هذا البحث قضية محورية في منهجية البحث في التاريخ الشفوي، وهي عملية اختيار وتقويم الرواة، كونهم يشكلون عصب المعرفة التاريخية المبنية على الثقافة الشفاهية، ولذلك ينبغي أن يحظى هذا الجانب باهتمام بالغ لدى المعنيين بالتاريخ الشفوي والمشتغلين به.

وقد تطرق البحث إلى منهجية التاريخ الشفوي فيما يتصل بعملية اختيار وتقويم الرواة، إذ أن معايير تحديد حجم العينة في التاريخ الشفوي تقرره اعتبارات عديدة معظمها ترتبط بظروف الحدث التاريخي والرواة أكثر من ارتباطها بقرارات الباحث والمحددات العلمية المعتمدة في الدراسات الاجتماعية والتربوية، فأمر تحديد حجم العينة في التاريخ الشفوي يترك لمعطيات ميدان العمل وإفرازات الجهة المستهدفة، أما عن عملية نقد وتقويم الرواة، فهي عملية ترتبط بعنصرين، الأول عنصر الرواة أنفسهم، والثاني عنصر الباحث التاريخي، فالرواة يقيمون من خلال تقديمهم إلى محكمة النقد التي يديرها الباحث، أما الباحث فلا يقل دوره بحال من الأحوال عن الرواة أنفسهم فيما يتعلق بتصميم المعايير التي تستند إليها مصداقية الروايات التاريخية الشفوية.

Abstract

This paper handles a pivotal question in the oral history approach, that is the process of selecting and evaluating the narrators. The narrators constitute the knowledge nerve based on the oral culture. Therefore, this factor ought to be given the needed attention by the people concerned and involved in the oral history process.

The paper has dealt with the oral history approach concerning the process of selecting and evaluating the narrators. The sample size' defining criteria in oral history are determined by many factors most of which are linked to historical event's settings and narrators more than to the researcher's decisions and the scientific determinants adhered to in social and educational studies. In oral history, the sample size identification is left to the field work specifications and the emissions of the target group.

The process of evaluating the narrators is connected to two elements: the first is the narrators themselves and the second is the history researcher. Narrators are evaluated by presenting them in front of the critical trial that is administered by the researcher. The researcher, on the other hand, has a role that is no less than the narrators themselves in the importance of designing the criteria that are based on the validity of the oral history narratives.

أساسيات اختيار وتقويم الرواة في التاريخ الشفوي

توطئة:

وقع جدل بين المؤرخين في العصر الحديث حول مسألة الاعتداد بالروايات الشفوية كمصدر موثوق في الكتابة التاريخية، فبعض المؤرخين يرفضون الاعتراف بالرواية الشفوية كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية لسببين، أولهما: اعتمادها على الذاكرة التي هي عرضة للقصور والخطأ [١]، وفي هذا الصدد يقول كولنجوود (Collingwood) " إذ الواضح على الأقل أن الذاكرة ليست من قبيل التاريخ بالرغم مما قاله بيكون وغيره في هذا الصدد، والسبب في ذلك هو أن التاريخ نوع من أنواع المعرفة التي تعتمد على الاستدلال، والتي نظمت تبعاً لمنهاج البحث العلمي، في حين أن الذاكرة لا تقوم على الاستدلال، ولا تمت بصلة للتنظيم العلمي " [٢]. وفي هذا الصدد أيضاً يقول فانسينا (Vancsina) " إن الذاكرة تنتقي ملامح معينة للمشهد أو الحدث وتفسره بالنظر إلى الخبرات السابقة والتوقعات، وعند الرواية يميل الناس للتركيز على أحاسيسهم وتوقعاتهم عن الحدث أكثر مما شاهدوه فعلاً، ويحكمون منطق ما كان يجب أن يحدث، وبهذا يملأون الفجوات في تصوراتهم عن الأحداث " [٣]. أما السبب الثاني الذي اعتد به المؤرخون الرافضون للروايات الشفوية، هو أن التاريخ الشفوي وتحديداً تاريخ الحياة عبارة عن عمليات تجري على الأحياء [٤]، في حين أن التاريخ هو دراسة الماضي " [٥]، فالمؤرخون في العصر الحديث ابتداءً من القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين اعتبروا الروايات الشفوية غير جديرة بالثقة، ومن هنا أخذ التاريخ المروي (الشفوي) يفقد مصداقيته كمصدر للتاريخ في هذه الفترة، ذلك أن الفلسفة الوضعية التي سادت في هذه الفترة تصر على اعتماد حقائق يمكن التأكد من صحتها، كما اعتبرت الكتابة أفضل من ذكريات شخص في الماضي [٦]. كذلك فإن أصحاب النقد التاريخي الأوروبي الحديث لا يرضون بالنقل الشفوي في تدوين التاريخ، ومن ثم فهم يشكون في المعرفة النقلية، وفي مكانة الذاكرة من التاريخ [٧]. وفي ذلك يقول لانجلوسينوبوس: " والنقل الشفوي فيه تحريف مستمر، ولهذا إنه لا يعتد له في العلوم المكتوبة إلا بالنقل

المكتوب . . . . . ولهذا ينبغي أن نبحث في الوثائق المكتوبة عن الأقوال الواردة بطريق النقل الشفوي، حتى نضعها موضع الارتياب "[٨]، وفي مقابل ذلك فإن المجتمعات السابقة من العرب والمسلمين واليونان وغيرهم يكنون احتراماً وتقديساً خاصاً للذاكرة[٩]، بل أنهم كانوا يفضلون الذاكرة في تلقي العلم وحفظه، ويؤثرون بذلك النقل الشفوي على الكتابة، كذلك وجد بين المؤرخين من دافع بحماسة شديدة عن التاريخ المروي، فالمؤرخون الرواد في آسيا وأوروبا في القرن التاسع عشر، اعتبروا الرواية المكتوبة غير جديرة بالثقة، بعكس الرواية المروية فهي أكثر دقة[١٠]. ومن الاعتبارات التي دفعت بعض المؤرخين إلى تبني التاريخ الشفوي وترويج فكرته، إن التاريخ المروي ذو أهمية بالغة في توثيق ملفات حياة الشعوب، فالروايات الشفوية من شأنها أن تحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسى، أو تتحول في أحسن ظروفها إلى خرافات بفضل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخر، ومن جيل إلى جيل[١١]، فالتاريخ الشفوي لدى أولئك المؤرخين المدافعين عنه يعد مصدراً لا يقل أهمية ولا دقة عن المصادر المكتوبة إذا أحسن استغلاله، إذ يشيرون بأنه على الرغم من أن الروايات الشفوية هي أقل بقاءً، وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة، إلا أن بعض الوثائق الشفوية تحفظ في الذاكرة وتنتقل من جيل إلى جيل دون تغيير تقريباً، وتحفظ في ذاكرة الشعب لفترات طويلة جداً، كما أنهم يقررون بأن رفض اعتبار التاريخ الشفوي مصدراً تاريخياً، يعتبر موقفاً رجعياً من التاريخ، لأنه يحصر دور المؤرخ في دراسة التاريخ الرسمي (تاريخ النخبة)، وعلى دراسة القضايا التي تهم هذه النخبة التي أنتجت السجل المكتوب، وهو بالتالي يختزل دور الجماهير العريضة والأفراد العاديين الذين لم يتركوا خلفهم سجلاً مكتوباً[١٢].

لقد تصدى معسكر المؤرخين المدافعين عن التاريخ الشفوي لأولئك الذين يتمسكون بفكرة ترنح الروايات الشفوية وعدم مقدرتها على الصمود كروايات أصيلة صادقة بسبب اختلاطها بالعواطف الانسانية، فقالوا بأن هذا الادعاء لا يشكل مبرراً كافياً لرفض الاعتراف بالتاريخ الشفوي كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية، فالمصادر جميعها مقرونة بمشكلات منهجية تاريخية، حتى التاريخ المكتوب يأتي أحياناً متأثراً بالعواطف والغايات، بل ربما يكون تأثير هذه الميول والاتجاهات في نصوصه أكثر من تأثيرها في الرواية الشفوية[١٣].

ومن هنا فإن بعض الباحثين يتحمسون للتاريخ الشفوي إلى درجة تفضيله أو على الأقل مساواته بالدليل المكتوب، وفي ذلك يقول هينج (Henige) عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة، فإن الروايات الشفوية تصحح المكتوبة، أما العكس فهو نادر

الحدوث[١٤].

وبالتالي فإن مشكلة المصداقية التاريخية لا تكمن في نوعية الروايات التاريخية مكتوبة كانت أم شفوية بقدر ما ترتبط بالباحث التاريخي، فالباحث المتمرس لا يقبل المصادر على علاتها، وإنما عليه أن يتخذ تجاهها موقفاً نقدياً متشككاً مهما كانت مصادرها مكتوبة أو شفوية[١٥]، وبالتالي فإن الباحث التاريخي هو الذي يقرر مدى أصالة المادة التاريخية المتوافرة بين يديه سواء كانت مكتوبة أم شفوية، وذلك من خلال إخضاعها لعمليات النقد التاريخي.

يبنى البحث التاريخي الشفوي من خلال عدة خطوات هي: اختيار مشكلة أو مجال للدراسة، تحديد مشكلة أو مجال الدراسة بشكل أكثر دقة وتحديداً، اختيار مصادر البيانات المختلفة، جمع البيانات المتعلقة بمشكلة الدراسة، تصنيف تلك البيانات، وأخيراً تقويم تلك البيانات والربط بينها وتركيبها وتقديمها في شكلها النهائي بصورة موضوعية ودقيقة.

وهذه الدراسة تتناول البحث في عينة الرواة، وتركز بشكل خاص على دراسة أساسيات اختيار وحدات تلك العينة وأساسيات تقويم رواياتها، وذلك اعتماداً على الأسس المنهجية للبحث في التاريخ الشفوي، انطلاقاً من الإيمان بأهمية الرواة في التاريخ الشفوي، باعتبارهم يمثلون العمود الفقري الذي تستند إليه بنية التاريخ الشفوي برمته، إذ يمثل الرواة المادة الأولية (الخام) والمصدر الأساس في تصوير الماضي، وتجسيد حقائق أحداثه التاريخية السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية، وبالتالي فإن تفسير بعض الظواهر وتوثيقها - خاصة تلك التي لم تحظ بأهمية في المصادر المكتوبة - يعتمد على الرواة الذين عاصروا الأحداث أو شاركوا فيها، أو تناقلت أخبارها إلى أسماعهم، كذلك فإن الرواة يمثلون بالنسبة للباحث في التاريخ الشفوي، مرجعية أساسية وأولية للمادة التاريخية التي يشتغل في تدوينها، ومن هنا فإن نوعية الرواة تشكل جانباً مهماً لدى الباحث في التاريخ الشفوي، حيث يعتمد عليهم في درجة مصداقية تأريخ الحدث وأصالته، ولذا ينبغي على الباحث أن يبذل جل جهده وعنايته لانتقاء عينة المجتمع المتصل بجوانب دراسته بشكل موضوعي ودقيق، ويتوجب عليه أن يوفر الظروف والامكانات التي من شأنها أن تهيئ بيئة مناسبة خالية قدر الإمكان من المؤثرات الداخلية والخارجية، حتى يدفع رواة الأحداث إلى الإدلاء بآرائهم ورواياتهم عن الظاهرة أو الحدث التاريخي الذي يتصدى لدراسته بشكل علمي يحاكي الواقع ويقترب من الحقائق. فإذا أجاد الباحث في التاريخ الشفوي في التخطيط لمهمته، وفي ترتيب خطوات تنفيذها وأحكامها، فإنه سيخرج بدراسة أكثر عمقاً وأكثر مصداقية في نتائجها، وبطبيعة

الحال فإن هذا العمل هو عملية شاقة مضنية، تتطلب منه بذل جهد كبير يبدأ أولاً بوضع مخطط علمي محكم يتناول عملية انتقاء عينة الرواة، ثم إخضاع هذه العينة لدراسة معمقة تتناول جوانب حياتهم المختلفة من حيث: نشأتهم، ثقافتهم، وضعهم الاجتماعي، انجازاتهم، علاقاتهم، مدى صلتهم بالحدث موضوع الدراسة، أماكن توزيعهم وتواجدهم..... الخ، ثم يلي ذلك خطوة البحث عن هؤلاء الرواة، وبذل جهد كبير في سبيل الالتقاء بأكبر عدد منهم، وذلك بعد أن يكون الباحث قد استعد بشكل كامل لمقابلتهم، ثم تأتي خطوة هامة أخرى سيكون للباحث دور هام فيها، وهي تهيئة كافة الظروف أمام الرواة لدفعهم إلى التصريح بما لديهم من روايات تتصل بموضوع بحثه، وخلال هذه المرحلة يبرز دور الباحث المتمرس الناقد، إذ أن خبرته في منهجية البحث في التاريخ الشفوي ستمكنه من دفع الرواة قدر الإمكان نحو سرد الوقائع مجردة من كل تحيز أو عاطفة.

ولذلك فإن البحث في التاريخ الشفوي ليس مهيئاً لكل من طرق هذا الباب، فالباحث الذي سيتصدر هذه المهمة ينبغي أن تكون لديه خبرة سابقة في هذا الميدان، كما عليه أن يضع نصب عينيه العثرات والعقبات التي ستعترض طريقه خلال مراحل مسيرته في مسالك التاريخ الشفوي، إذ أن السير في هذا الطريق يتطلب باحثاً مؤهلاً علمياً، ومتسلحاً بالصبر والدقة والموضوعية، بالإضافة إلى ضرورة خضوعه لتدريب خاص على أيدي خبراء متمرسين في مجال البحوث التاريخية الشفوية بمراحله المختلفة النظرية والميدانية.

أساسيات اختيار الرواة:

جرت العادة أن يحدد الباحثون في ميدان الدراسات التربوية والاجتماعية معياراً لحجم مجتمع الدراسة عينة(Sample size)، وغالباً ما يعتمدون في إقرار حجم العينة على عدة اعتبارات أهمها: عدد المتغيرات التي يضبطها الباحث في تحليله[١٦]، أنماط الاختبارات الاحصائية التي يرغب الباحث في بنائها[١٧]، الغرض الذي تجرى من أجله الدراسة (نوع الدراسة)[١٨]، نوع مجتمع الدراسة، حجم المجتمع الأصلي، الأدوات المستخدمة، وأحياناً عدد المتغيرات المستقلة والإمكانات[١٩].

ومن هنا فإن كل دراسة وتبعاً للعوامل السابقة، تتطلب حداً أدنى لعدد عناصر العينة[٢٠].

ولكن الباحثين في التاريخ الشفوي ليس لديهم نظرية محددة تقرر حجم عينة الرواة، فأحياناً يضطر الباحث إلى مقابلة جميع الأحياء المعاصرين لحدث معين اعتماداً على الانتقاء

الطبيعي للرواة، وفي هذه الحالة يمكن اعتبار جميع الأحياء عينة تمثيلية(٢١)، كذلك فإن حجم عينة الرواة في التاريخ الشفوي يتحدد أحياناً تبعاً لموضوع الدراسة، فإن كان الحدث قد مضى عليه وقت طويل، فإن عدد الرواة سيكون بالطبع قليلاً، أما إذا كان الحدث قريباً من فترة الباحث، فستكون هناك إمكانية لتوفر عدد كبير من الرواة. كذلك فإن الإمكانات المادية والفنية للباحث تلعب دوراً كبيراً في تقرير حجم العينة. ومن العوامل الأخرى التي تقرر حجم العينة في التاريخ الشفوي الظروف الأمنية والسياسية المحيطة، إذ أن بعض الرواة يمتنعون عن تزويد الباحث برواياتهم خشية تعرضهم للأذى والاضطهاد من قبل أشخاص أحياء لهم صلة بالأحداث موضوع الدراسة، وأحياناً تقف المصلحة الوطنية عقبة في سبيل توفير رواة مستعدين لإطلاق عنان الصدق أمام رواياتهم حول حدث معين، وأحياناً يمتنع الأفراد ذوي المراكز الحساسة والمهنيين العاملين في المجال الرسمي والذين يعتبرون السرية مثلهم الأعلى عن التعاطي مع الباحث، كذلك فإن كبار السن غالباً هم من الطبقة المحافظة، وبالتالي فهم يؤثرون الاحتفاظ برواياتهم وعدم الإباحة بها(٢٢)، كذلك فإن عدم استقرار الرواة وتنقلهم من مكان إلى آخر تعتبر عاملاً في تقرير حجم العينة(٢٣)، وإضافة إلى ذلك فإن البحث في التاريخ الشفوي وتوثيق أحداث الماضي مرتبط بعينة اجتماعية خاصة بعكس العينة التي تتطلبها الدراسات التربوية والاجتماعية لرصد ظاهرة اجتماعية أو تربوية وتفسيرها ووضع الحلول المقترحة لها، فالتاريخ الشفوي يعتمد على عينة مقصودة(٢٤) وليست عشوائية، بمعنى أنها عينة مقيدة ومحددة بأوصاف وشروط خاصة، وبالتالي فإن حجم العينة تقررها تلك المواصفات والشروط (٢٥)، فهي بذلك عينة تختار لغرض معين (purposivesampling)، ينتقيها الباحث بحيث تشكل وحداتها مجتمع الدراسة بناءً على حكمة المبني على مطابقة كل منها لأغراض بحثه المحدد(٢٦). وأحياناً ونتيجة لظروف استثنائية قد يقتصر حجم العينة في التاريخ الشفوي على فئة قليلة جداً قد تتألف من شخص واحد، على اعتبار أن هذه العينة تمتلك معلومات عالية الدقة والأهمية، ولا يمكن تحصيلها من مصادر بديلة، ومثل هذه العينة تمثل أحياناً عينة تمثيلية لمجتمع الدراسة بأكمله كونها تمتلك من المواصفات والمزايا ما يجعل رواياتها الشفوية ذات مستوى عال من الأهمية الأصالة، ومن ذلك: مشاركة هذه العينة في الحدث موضوع الدراسة بشكل مباشر، المستوى العلمي، القدرات العقلية في تذكر الحدث، الاطلاع على خفايا الأمور، امتلاك الوثائق الهامة، القدرة على سرد الأحداث بدقة وتفصيل، ويمكن تسمية مثل هذه العينة بدراسة الحالة (The case studies)، لأنها تشكل

منهجاً ذا قيمة هامة بالنسبة للباحثين في التاريخ الشفوي، إذ تعتبر البيانات التي نحصل عليها في دراسة الحالة قوية وقريبة من الحقائق، كما أنها تقدم تفسيراً للعديد من الظواهر المبهمة لدى الكثير ممن عاصروا الأحداث، كما أن هذه العينة تعتبر إرشيفاً وبنكاً للمعلومات[٢٧]، ومن هنا فإن المعلومات والبيانات المستقاة من شاهد واحد لا تعامل دوماً على أساس أنها في مرحلة أدنى من غيرها[٢٨].

وبذلك فإن حجم العينة في التاريخ الشفوي وطرق اختيار وحداتها تقررها اعتبارات مختلفة عن تلك التي تتحكم في حجم العينة وطرق اختيارها في الدراسات الميدانية التربوية والاجتماعية، فالعينة في هذه الدراسات تكون عادة واسعة ومتوفرة، كون الظاهرة التربوية أو الاجتماعية تطال عدداً كبيراً من أفراد المجتمع، بل يعايشها أغلب أفراد المجتمع بكافة شرائحه وطبقاته، وبالتالي فهي تشكل جزءا لا يتجزأ من حياة أفراده، فيسهل عليهم رصدها وتفسيرها وبالتالي فإن المتخصصين في الدراسات التربوية والاجتماعية لديهم طرقهم الخاصة في اختيار العينات التي تمثل مجتمع دراساتهم، لأن الكثير من المشاكل التي تواجه المشتغلين في الأبحاث التربوية والاجتماعية يتعذر مواجهتها أو حلها علمياً بعيداً عن أسلوب اختيار العينة، فالظواهر التربوية والاجتماعية تعبر عن نفسها في نطاق واسع من الوحدات، ولذلك سيجد الباحث نفسه أمام جملة من الصعوبات التي تقف حائلاً دون إعداد بحثه ليشمل كل نطاق الظاهرة، وتناول كل وحدة من وحداتها، ومن أجل هذا سيضطر إلى اختيار عينة من المجتمع الذي هو موضوع الظاهرة ويجمع منه المادة والمعلومات التي تمثل المجتمع ككل، ومثل هذا الاجراء يمكن الباحث من جمع بيانات كان من الصعب بل من المستحيل أحياناً أن يحصل عليها بأسلوب الحصر الشامل[٢٩]، وبطبيعة الحال فإن الباحثين في هذا الميدان يعتمدون طريقة أو أكثر في اختيار عينات مجتمع دراستهم، وذلك حسب الظاهرة وحسب مجتمع الدراسة وحسب الامكانات والاعتبارات الفنية، وغير ذلك من العوامل الأخرى[٣٠]، بخلاف الحدث التاريخي فهو محكوم بأبعاد مكانية وزمانية، ومقيد بأشخاص معينين، بالإضافة إلى ذلك فإن الحدث التاريخي بالرغم من معايشة أغلب أفراد المجتمع لجوانبه ومظاهره المختلفة، إلا أن عملية تدوينه ترتبط بأفراد معينين، ذلك أن التاريخ الشفوي لا يرتجى من وراء رواياته إنشاء مقال أدبي مثير، بقدر ما هو تصوير للماضي على حقيقته، وتفسير لأحداثه بشكل منطقي وموضوعي يعكس حقيقة الواقع.

وانطلاقاً من ذلك فإن نوع العينة في التاريخ الشفوي تتميز بخصوصيات ومحددات

معينة، تجعلها منفردة عن غيرها من العينات التي تنتخب لإجراء الدراسات الميدانية والتجريبية الأخرى، لأن العينة في التاريخ الشفوي، تّدون تاريخ الأمة في حقبة تاريخية معينة، ومن هذه النقطة تنطلق أهمية اختيار نوع العينة في التاريخ الشفوي، فالتاريخ لا يتسع للأهواء والميول، فكل رواية يقررها الراوي ستكون بمثابة لبنة من لبنات البناء التاريخي للأمة، وبالتالي ينبغي على الباحث أن يتوخى الدقة والحذر الشديدين في اختيار أفراد عينة دراسته، وعليه أن يقطع شوطاً طويلاً من التمحيص والبحث والتنقيب والتقويم قبل أن يقرر عينة دراسته، فإذا أحسن اختيار موارد معلوماته، وأجاد في محاكاتها بموضوعية ونزاهة، فإنه سيخرج بدراسة ذات مستوى عال من الدقة والمصداقية عن الحدث الذي يتصدى لدراسته.

وبالرغم من الاعتبارات السابقة المتعلقة بحجم العينة وطرق اختيارها في التاريخ الشفوي، إلا أنه يتوجب على الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التالية:

يفترض بالباحث في التاريخ الشفوي أن يوفر الحد الأدنى من حجم العينة التي تمثل بالفعل مجتمع الدراسة، بحيث يفي حجم العينة بالغرض المطلوب[٣١]، ذلك أن تقصير الباحث في توفير عينة تمثيلية تغطي جوانب الحدث المختلفة، وتبرز مظاهره ودقائقه، سيؤدي إلى بتر الحدث وتشويه صورته، فحجم العينة في بعض الأحيان يؤثر على نتائج البحث[٣٢]، أما إذا كان صغر حجم العينة يرجع إلى اعتبارات خاصة، كأهمية أفرادها، ومشاركتهم المباشرة في الحدث، أو موت معظم الذين عاصروا الحدث فلا ضير في ذلك. كذلك ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي أن يحدد مجتمع البحث الكلي، وأن يحدد خصائصه، كي يتمكن من اختيار عينة ممثلة، لأن عدم القيام بهذه الخطوة من شأنه أن يعرقل عملية تشكيل العينة التمثيلية لمجتمع الدراسة، ويشترط أن تتوافر في هذه العينة الكفاية، بمعنى اشتمالها على جميع الفئات التي يتطلع إليها للكشف عن الخطوط الرئيسية والتفصيلية لجوانب البحث المختلفة[٣٣].

كذلك يحسن بالباحث في التاريخ الشفوي قبل البدء بالدراسة أن يعرف عدد عناصر عينة المجتمع الأصلي، وأن يحدد نسبة عدد عناصر العينة إلى عدد عناصر مجتمع بالدراسة، وتعتبر هذه الخطوة هامة حتى يتمكن الباحث من الاستعداد والتخطيط المسبق لمراحل البحث النظري والميداني، وعلى الباحث أن ينتبه إلى أمر يتعلق بدرجة التجانس، فإذا كانت درجة التجانس كبيرة بين وحدات المجتمع الأصلي، يمكنه الإكتفاء بعينة صغيرة الحجم، أما إذا كان التباين كبيراً، فمن الواجب أن يكون حجم العينة كبيراً[٣٤]، لما لذلك من فوائد تعود على الباحث من حيث توفير وقته وتقنين إمكاناته وجهده.

وعلى الباحث في التاريخ الشفوي أن يتوقع صعوبات ومعوقات قد تواجهه أثناء تحصيل معلوماته من الرواة، وبالتالي عليه أن يضع البدائل والحلول المناسبة لتجاوز تلك العقبات دون أن يؤثر ذلك على مراحل ومسيرة دراسته، أو على مصداقية نتائجها، ومن الصعوبات المتوقعة التي قد يواجهها الباحث في التاريخ الشفوي فيما يتصل بالرواة: انسحاب عدد من الرواة، إذ قد يرفض بعض الرواة الاستمرار في التعاون مع الباحث جراء ظروف معينة، أو قد يتسرب بعضهم خلال اللقاءات، وربما يتغيب بعض الرواة الذين تم اعتمادهم كعينة للدراسة لسبب أو لآخر، وبطبيعة الحال فإن هذا الطارئ قد يفقد الدراسة مصداقية العينة كشريحة ممثلة و معبرة للحدث المدروس الذي بدأ به الباحث، وللتغلب على هذه المشكلة يتوجب على الباحث أن يجهد في البحث عن أفراد جدد بهدف إضافتهم إلى العينة، بحيث يتخير عدداً مماثلاً للعدد الذي فقده في العينة الأساسية، وبحيث يكون هذا العدد مأخوذاً من شريحة مشابهة للعينة نفسها تقريباً(٣٥)، أو أن يعثر الباحث على عينة نوعية تسد الفراغ الكمي الذي تركه المنسحبون من أفراد العينة الأصلية.

كذلك ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي أن ينتبه إلى المصادر الثانوية، فبالرغم من أن المصادر الثانوية عادة تكون قليلة القيمة من الناحية العلمية، بسبب احتمالية ورود أخطاء في رواياتها جراء تناقل المعلومات من شخص إلى آخر، إلا أنه ينبغي عدم الاستهانة بقيمتها العلمية(٣٦)، ففي حالات كثيرة تسهم تلك المصادر بشكل فاعل في كشف جوانب غفلت عنها المصادر الأصلية، وأحياناً يحدث صدفة أن يجد الباحث لدى الرواة الثانويين معلومات وبيانات هامة يندر أن يجدها لدى الرواة الأصليين (عينة دراسته)، وكي يتمكن الباحث في التاريخ الشفوي من العثور على رواة الأحداث الذين لهم صلة بموضوع دراسته، عليه أن يبدأ بالرواة المهمين من المقربين إليه، لأن هؤلاء سيوفرون له التشجيع المطلوب والنصائح التي تفيده لمتابعة بحثه(٣٧)، وذلك من خلال قيامهم بتزويده ببيانات ووثائق تشكل الخيوط الأساسية الأولى لمحاور بحثه، كما أنهم - بحكم صلتهم بالأحداث قيد البحث - يعرفون تماماً عناصر أخرى لها علاقة بالحدث موضوع الدراسة، وبالتالي سيكون لهم دور مهم في توسيع دائرة مجتمع دراسته بطريقة أقل عناءً وجهداً وتكلفةً، وهذه الطريقة أشبه بالعينة التراكمية (Snowball sampling)، وفيها يحدد الباحث عدداً قليلاً من الأفراد الذين تتوافر لديهم الخصائص التي يحتاج إليها، إذ يقوم هؤلاء بدورهم بتحديد آخرين غيرهم وهكذا(٣٨)، وعلى الباحث ألا يتجاهل أياً من هؤلاء إلا إذا تأكد له أن أولئك لن يفيدوا

بحثه[٣٩]، كذلك يتوجب على الباحث في التاريخ الشفوي كي يستدل على الرواة أن يطلع على الارشيفات والمصادر المكتوبة التي تتناول موضوع بحثه، فهذه السجلات المكتوبة تفيده كثيراً في اختيار عينة تمثيلية[٤٠]، كذلك يمكنه الافادة في هذا المضمار من خبرات المتخصصين والباحثين الذين يمتلكون الخبرة والمعرفة في البحث الميداني[٤١]، ويفضل كذلك أن يخضع أدوات معلوماته ومصادره لتحكيم أصحاب الخبرة[٤٢].

وعلى الباحث أن ينتخب عينة تمثيلية تخدم أغراض بحثه بطريقة مثلى، وأن يتجنب محاولات اقتناص الفرص للعثور على رواة قد يشوهوا صورة الحدث التاريخي، فالمهم في الرواة هو من يعرف أكثر وليس من يتبوأ مركزاً أو وظيفة أو يمتلك لقباً أو جاهاً[٤٣]، فالباحث في التاريخ الشفوي عليه أن يؤثر الحقيقة التاريخية على أهدافه الخاصة، وأن يعلو بالحقيقة التاريخية فوق كل اعتبار، فلا يجعل من عمله سلماً يصل بوساطته إلى أفراد النخبة الذين قد لا تكون لهم صلة بالأحداث موضوع البحث، وإنما عليه أن يتصل بالرواة الحقيقيين الذين بإمكانهم تزويد بحثه وتغذيته بالبيانات الواقعية الهامة.

أساسيات تقويم الرواة:

تتحدد قيمة الروايات الشفوية من خلال تقويم أصحاب هذه الروايات، فالرواة يقررون بشكل رئيسي موقع رواياتهم من حيث قوتها أو ضعفها، وهناك عدة عوامل تقف وراء تصنيف الروايات الشفوية التاريخية، بعضها يتصل بالرواة، والأخرى تتصل بالباحث في التاريخ الشفوي، انطلاقاً من أن كلاً من الباحث والراوي يتأثر أحدهما بالآخر، فالراوي يتأثر بالباحث، حتى ولو اقتصرت مهمته على السماع فقط، إذ أن مجرد وجود شخص غريب يؤثر في سياق الظرف الذي يستذكر فيه الراوي الماضي، كذلك فإن الباحث جراء مواقف وظروف معينة سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة قد يشارك في توجيه الروايات الشفوية التاريخية نحو زوايا معينة، وقد يشارك أحياناً في إنتاج شواهد تاريخية[٤٤] لا تمس الواقع التاريخي موضوع البحث.

أولاً: تقويم الروايات الشفوية التاريخية تبعاً للرواة:

حاول المؤرخون والاخباريون في عصر صدر الإسلام تطبيق قواعد علم مصطلح الحديث لتحقيق النقد التاريخي، كما استفادوا كثيراً من هذه القواعد في عملية التقويم والنقد الداخلي

والخارجي وتحقيق النصوص التاريخية(٤٥)، فقد تمكن علماء الحديث من الوصول إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة بأن سلكوا منهجاً سليماً، إذ رأوا أن الطعن في الحديث ينقسم إلى قسمين: القسم الأول يتعلق بأحوال رواة الحديث النبوي وصفاتهم ومراتبهم من الجرح والتعديل، والقسم الثاني يتعلق بضبط المتن أي النص، فالدراسة النقدية للخبر اقتضت التحقق من صدق الخبر، ومن ثم فإنه لا بد من التحقق من صدق الراوي(٤٦).

يمكن تقويم الروايات الشفوية التاريخية من خلال تقويم الرواة أنفسهم، وعملية تقويم الرواة في التاريخ الشفوي تتم بطريقتين هما: النقد أو التقويم الظاهري الخارجي (External Criticis) وهو تقويم يوجه للمصدر (الرواة) وليس لما يحويه من مضمون(٤٧)، وهو ما يطلق عليه علماء الحديث الضبط المتعلق بالراوي(٤٨)، ثم النقد أو التقويم الباطني الداخلي (Internal Criticis)(٤٩)، وهو تقويم يهتم بمعالجة البيانات والمعلومات التي ذكرها المصدر (الراويات)(٥٠)، وهو ما يطلق عليه علماء الحديث الضبط المتعلق بالمتن(٥١).

هناك اعتبارات عديدة يمكن تقريرها كأسس يمكن الاعتداد بها في عملية تقويم الرواة ونقدهم نقداً ظاهرياً، باعتبار أن أغلبية المصادر غير دقيقة بشكل أو بآخر، بل هي ملونة بعنصر المحاباة والتحيز والمصلحة الذاتية، وبالتالي فإن الإجراء العملي للتأكد من صحة الروايات الشفوية تتطلب تقويم الرواة (النقد الظاهري)، وتقويم رواياتهم (النقد الباطني)، ولعل أهم الاعتبارات التي ينبغي الالتفات إليها عند تقويم الرواة (التقويم الظاهري)، تتركز في النقاط التالية:

١- **التحمل والأداء:** شرط علماء الرواية لصحة التحمل والأداء شروطاً كثيرة هي: أن يكون الراوي في سن يؤهله لتحمل الخبر(٥٢)، كما اشترطوا ضبط الراوي، بمعنى الفطنة والدراية بالمروي(٥٣)، بالإضافة إلى التثبت، والتحري، ودقة الملاحظة، والدقة في النقل، والصدق في الأداء(٥٤).

وقد سبق وأن اشترط المحدثون والإخباريون في الراوي: العقل والضبط والعدالة، أما العقل فيقصد به القدرة على التمييز حتى يتمكن من حمل الرواية، وأما الضبط فيعني أن يتمتع الراوي بقوة الذاكرة، ودقة الملاحظة، فضلاً عن الفهم، وأما العدالة، فالمقصود بها استقامته التامة(٥٥).

٢- **الصدق والعدالة**: لقد مارس الصحابة الجرح والتعديل بقصد التثبت والتحري، وليس بقصد الشك والاتهام(٥٦)، إلاّ أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أن شك المؤرخ هو رائد

حكمته، ونقطة ابتداء المؤرخ عندهم هي الشك المنهجي في الراوي وفي النص(٥٧)، ومهما يكن من أمر فإن مهمة المؤرخ في النقد الخارجي شبيهة بمهمة المحقق، من حيث استنطاق الشهود، وجمع شهاداتهم، ثم نقدها في سبيل استجلاء ما حدث(٥٨)، ومن هنا ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي أن يعرف عن رواة أحداثه ما لا يعرفونه حول أنفسهم(٥٩)، فينبغي على الباحث الكشف عما يدور في عقول الرواة من خلال استعادة تجاربهم المباشرة(٦٠).

قد يضطر الراوي – جراء ظروف ومواقف معينة – إلى ستر الحقيقة التاريخية أو تشويهها، ومن أهم البواعث التي قد تدفع بالراوي إلى هذا العمل، عوامل نفسية تمس خلق الراوي، وعوامل اجتماعية تمس المجتمع(٦١)، وتندرج تحت هذه العوامل أمور كثيرة أهمها: المصلحة الذاتية التي تدفعه أحياناً إلى تقديم معلومات ليست شاملة ولا تمت للحقيقة التاريخية بصلة(٦٢)، وأحياناً يحيد الراوي عن الحقيقة التاريخية تملقاً لجمهور القراء، فيطرح أفكاراً تتفق مع جمهوره، فيشوه الوقائع ابتغاء تكييفها مع أهوائهم(٦٣)، وقد يكون مبعث ابتعاده عن الحقيقة التاريخية أسباب تتعلق بانتماءاته إلى جماعة أو طائفة أو حزب أو فلسفة أو حضارة معينة(٦٤)، وهناك ظروف قاهرة تدفع الراوي إلى تمويه الحقيقة التاريخية، وهذه الظروف ربما تكون سياسية أو غيرها تتصل بأمته أو شعبه، فيضطر الراوي إلى التضحية بالأمانة التاريخية من أجل مصلحة عليا وطنية أو قومية(٦٥)، وأحياناً يتناسى الراوي الحقيقة التاريخية انصياعاً للعرف الاجتماعي أو القبلي السائد(٦٦)، بل قد يضطر إلى اختراع مزارات وعوالم جديدة من المعرفة، من أجل تقديمها للأجيال بوصفها تناسب تقاليد الأسلاف(٦٧)، وبذلك يمكن القول بأن قوة القوانين والتقاليد الاجتماعية قد تذهب بالراوي بعيداً عن ذكر الحقيقة التاريخية(٦٨).

وقد يشوه الراوي الحقيقة التاريخية جراء انسياقه وراء غرور فردي أو جماعي، وأهم ما في هذا الجانب هو سعي الراوي إلى تمجيد شخصية أو جماعة معينة(٦٩)، وبالتالي فإنه قد يحجم عن تقويم أعمال بعض الشخصيات البارزة، وهذا ما يعرف بوهم التجسيد، بمعنى أن الراوي يرى في الشخصية التاريخية، تجسيد لشخصية الأمة، ومن ثم فإنه يتحرج من إدانتها، لأنها تنطوي على إدانة لمجموع الأمة(٧٠)، ومن هنا فإن عدم رغبة الراوي في قول الصدق تؤدي إلى خطأ التعبير عن الحقيقة أكثر من حذف الحقيقة نفسها(٧١). كذلك فإن الراوي قد يجافي الحقيقة التاريخية بهدف استعراض أساليبه الأدبية، وبالتالي فإن الأسلوب الأدبي يفرض على الراوي التضحية بالصدق أحياناً، ربما لتملق جمهوره بحيل أدبية لجعلها أجمل

حسب تصوره للجمال(٧٢)، وربما لنزعته نحو المفاخرة بالقدرات الشخصية، خاصة وأن الثقافة الشفاهية تشجع الذلاقة والمبالغة وطلاقة اللسان(٧٣)، وربما

لإضفاء صفة الملحمة على شخصية أو حادثة ذات أهمية خاصة(٧٤)، وأحياناً قد يحيد الراوي عن ذكر الحقيقة جراء وقوعه تحت ظروف وضغوطات مضادة(٧٥).

لابد من الانتباه إلى أن بعض الرواة يسعون إلى ذكر الحقائق التاريخية كما وقعت، ولكن جراء تداخلات معينة تختلط رواياتهم بنوع من الضبابية، فقد يكون الراوي صادقاً وورعاً، ولكنه مغفل يصدق كل ما يقال له، والمشكلة هنا في حسن النية لا في سوئها(٧٦)، فالغفلة خلل في ضبط الراوي يتعلق بقواه العقلية والنفسية التي تعتبر أجهزة استقبال المعرفة، فإذا أصاب أحدهما عطب أو خلل، فإنه لا يعد صالحاً لإدراك المعرفة واستقبالها(٧٧)، وقد لا يكون الراوي في موضع يسمح له بملاحظة الواقعة، ولكن خيل إليه أنه لاحظها فعلاً، بيد أنه أساء الملاحظة نتيجة لدوافع باطنية أو شعورية (هلوسة أو وهم)، أو قد تكون الوقائع المروية بطبيعتها من النوع الذي يصعب معرفتها وإدراكها بالملاحظة وحدها، كالوقائع التي تعبر عن حالة باطنة لا يمكن أن تشاهد(٧٨)، فطبيعة بعض الأحداث التاريخية تتحكم فيها عوامل تتعلق بمدى الإحاطة بها، أو في معاينتها بموضوعية كافية بحكم طبيعتها(٧٩).

أحياناً لا ترجع أسباب تشويه البيانات المقدمة إلى عدم مصداقية الراوي، بقدر ما تعود إلى كسل أو إهمال الراوي، فقد يروي تفاصيل لم يشاهدها، ولكن إهمالاً منه، تخيلها أو استنتجها دون أن يتحققها بنفسه(٨٠)، فميل الراوي إلى الكسل أو الإهمال يؤدي إلى عدم قدرته على الملاحظة العلمية الموضوعية بنفسه، وهذا يدفعه إلى الاعتماد على روايات آخرين زعموا أنهم شاهدوا الحدث، بينما هو في الحقيقة لم يشاهده، فيخيل له عقله القاصر تصديق روايات الآخرين، فيأخذ ذلك على عاتقه، ويرويه على أنه شاهده(٨١)، وبطبيعة

الحال فإن الروايات الشفوية التي يدلي بها رواة عن أحداث سمعوا بها ولم يشاهدوها تدخل في باب التراث الشفوي(٨٢)، وليس في باب التاريخ الشفوي. وفي هذا الصدد أيضاً لابد من التنبه إلى الفرق بين الغلط والكذب، فالكذب مرده فقدان العدالة والأمانة، أما مرد الخطأ فنقص في الدقة والضبط، والعدالة تصدر في الأصل عن مصدر خفي باطني، أما الضبط فيصدر عن مصدر حسي ظاهري، والمعرفة الحسية أوضح بكثير من المعرفة الباطنية، فخطأ الحواس ظاهري ومن السهولة إدراكه، أما خطأ الباطن فخفي ومن الصعوبة بمكان إدراكه، أضف إلى هذا أن الكذب حقيقته خيال وخياله حقيقة، أما الغلط فحقيقته حقيقة،

بيد أنها حقيقة مهتزة، وخياله خيال بيد أن خياله مهتز[٨٣].

إن أمر العدالة والضبط عند الراوي الواحد ليس جامعاً مانعاً كما يقول المناطقة، إذ قد يكون عادلاً ضابطاً في بعض ما يقول، ويكون على عكس ذلك في بعض أقواله الأخرى[٨٤]، ولكن هناك أحوال بعينها تشير إلى مصداقية الروايات التاريخية، كأن يكون الموضوع قيد البحث مسألة لا يبالي بها الشاهد، وعندما تكون الحقائق شائعة ومعروفة لدى الجميع بدرجة تجعل الشاهد لا يحيد عن مخالفتها أو تشويهها[٨٥]، وعندما تتضمن الروايات عبارات فيها تحامل من الراوي على نفسه أو على جماعة عزيزة عليه[٨٦].

٣- **القوة العقلية:** من العوامل التي تمس ضبط الراوي ويترتب عليها جرحه، والطعن في روايته اختلاطه وذهاب عقله، وهذا الاختلاط قد يكون طارئاً على الراوي نتيجة لكبر سنه مثلاً، وقد يكون متأصلاً فيه، ومهما يكن من أمر فالاختلاط أو ذهاب العقل يعتبر من بواعث جرح الراوي، فمن أسس صحة الرواية القدرة على التمييز والضبط، والذي فقده عقله لا يستطيع التمييز بين الصالح والزائف، وصفوة القول أن القدرة على التمييز والضبط شرط أساسي من شروط صحة الرواية، فإذا اختل ضبط الراوي لغفلته أو شذوذه أو كثرة غلطه أو اختلاطه وذهاب عقله، أصبح مجروحاً مردود الرواية[٨٧].

٤- **قوة الذاكرة**: هناك عدة عوامل تتحكم في قوة تذكر الراوي للأحداث الماضية، فالرغبة والمزاج يؤثران في قدرة الراوي على التذكر، لأن الإنسان يتذكر بقوة عندما يرغب في ذلك، أو عندما يكون في حاجة إلى التذكر، فهو يميل بطبعه إلى نسيان الأحداث المؤلمة أوالمخجلة في حياته، كذلك فإن عملية التذكر تختلف بحسب فترات العمر المختلف، فالشهادات التي تجمع من خلال ذكريات أغلب الكهول تعتبر في أحوال كثيرة مضطربة فيما يتعلق بالأحداث وبتسلسلها الزمني[٨٨]، وهناك عوامل أخرى قد تؤثر بقوة على الذاكرة، وهي عوامل تتعدى أحياناً عامل العمر، مثل: المرض، الأحداث المأساوية كالترمل وفقدان الأعزاء وما شابه ذلك[٨٩]، ولذلك فإن إعادة الماضي كاملاً كما يتوخاه المؤرخون، يعتبر هدفاً أبعد من أن يتم الوصول إليه بأي حال من الأحوال، لأن ماضي البشرية أبعد من القدرة على تذكره، فحتى أولئك الذين منحهم الله تعالى ذاكرة قوية، لا يمكنهم تذكر الماضي بشموليته، لأن الكثير من الحوادث والشخصيات والكلمات والأفكار والأماكن والتخيلات تكون قد تسللت إلى زوايا النسيان[٩٠].

٥- **استقامة النفسية:** نادى عدد من المؤرخين بتطبيق مناهج علم النفس والطب النفسي على المعلومات التاريخية للوصول إلى فهم أعمق لسلوك الأفراد والجماعات[٩١]، وقد ساعدت آراء مدارس التحليل النفسي على فحص تأثير العوامل العاطفية في سير الأحداث التاريخية، إذ أن التاريخ يتناول في آن واحد نوعين من الوقائع، وقائع مادية تعرف بالحواس (أحوال مادية وأفعال بني الإنسان)، ووقائع من طبيعة نفسانية (عواطف وأفكار ودوافع)[٩٢] لا يدركها إلاّ الشعور، وهي تقتاد أفعال الناس الحقيقية[٩٣]، وفي التاريخ الشفوي يحدث أن تشذ رواية الراوي عن رواية الثقات، وقد يرجع هذا الشذوذ إلى سوء حفظ الراوي نتيجة لضعف ذاكرته وعدم قدرته على التركيز، وقد يرد إلى غير هذا، كمزاج الراوي وحبه للغريب، وولوعه بالشاذ والنادر من الأخبار، وبهذا فإن طبائع الراوي النفسية تنعكس على رواياته[٩٤]. وهذا يدعونا إلى القول بأن المعرفة التاريخية غنية بتعبير وانطباعات الشخصية الفردية[٩٥]، وبالتالي فإن الشواهد ليست إطلاقاً، وليست كاملة بشكل وافي، وهي أيضاً ليست واضحة تماماً حتى تساعد على تقديم تفسير مطلق غير قابل للنقاش، فهناك تأثيرات على السلوك البشري، منها ما يتعلق بالاضطرابات العصبية، ونتيجة لذلك فمن المرجح أن تسود فرضيات متباينة في حقل التاريخ[٩٦].

٦- **المستوى العلمي:** هناك مفهوم الضبط الذي يفرق بين اتجاهات الرجل العادي وبين اتجاهات الرجل العالم بالنسبة للخبرة، فالرجل العادي لا يحاول الضبط أو التحكم عندما يريد أن يصف أي حدث أو موقف معين، بينما يكون العالم واعياً تماماً بالأسباب العديدة التي تتدخل في أي حدث، ولذلك فهو يعمد إلى عزل واختبار أثر واحد أو أكثر من هذه الأسباب، مستخدماً في ذلك أساليب محددة تخدم هذا الغرض[٩٧]، كذلك فإن العالم يقارن آراءه الذاتية بالنتائج الموضوعية، فهو يعرض انطباعاته على محكمة الاستقصاء العملي للفحص والاختبار، فصفة التصحيح الذاتي هي من أهم صفات العالم[٩٨]، كذلك فإن العالم يبني نظرياته بعناية وبنظام وبمنطق، وأي فروض يضعها يقوم باختبارها بطريقة عملية حتى تقوم تفسيراته ونتائجه على قواعد صلبة من الحقيقة[٩٩]، أما الشخص العادي فإنه يضع نظرياته على أساس أحداث عشوائية، ويستخدمها بطريقة مفككة، وبأسلوب غير ناقد، ويختار في الغالب فقط الشواهد أو الأدلة التي تتفق مع حدسه وأحاسيسه وتخمينه، ويتجاهل ما يتعارض معها[١٠٠].

كذلك فإن الرجل العالم يبدي اهتماماً خاصاً بالعلاقات، ولا يحكم بوجود علاقة بين ظاهرتين إلاّ بعد دراسة مستفيضة، أما الرجل العادي فيكون اهتمامه سطحياً بهذه العلاقات، كما أنه لا يهتم بها بطريقة منضبطة ومنظمة[١٠١]. وانطلاقاً من ذلك فإن توافر الخبراء في مجالات المعرفة الشفوية أمر حيوي، فالأفراد الذين يمتلكون خبرات واسعة وبصيرة متعمقة، تكون آراؤهم في غاية الأهمية والفائدة، كونها تصدر من فئة تمتلك المعرفة والخبرة والتجربة والممارسة، وهذه أدوات فاعلة تمكن صاحبها من احتواء البيانات بشكل شمولي، واختراق أعماقها، وبالتالي رؤية دقائقها وثناياها وخفاياها المختلفة بشكل أدق وأكثر موضوعية وعلمية.

٧- **الموقع الاجتماعي والدور الوظيفي:** إن القوى المحركة للتاريخ والتطور الاجتماعي انحصرت في مصالح وأهواء فردية غالباً[١٠٢]، فالثابت تاريخياً أن الدولة أكثر ارتباطاً بكتابة التاريخ من أي نشاط آخر، فالسلطة السياسية أو من كانوا يطمحون في ممارستها، يلجأؤوون دوماً إلى الماضي، لأن النخبة السياسية عادة ما يكون لها مصلحة في دعم وتشجيع نوعاً من الكتابة التاريخية التي تضفي الشرعية على مواقعهم في النظام السياسي، إما عن طريق تأكيد انجازاتهم الماضية، أو من خلال إقامة الدليل على شرعية مناصبهم، أضف إلى ذلك أن التاريخ السياسي يحظى دائماً بجمهور من القراء شديد التوق إلى معرفة ما يتضمنه من أزمات وأحداث[١٠٣]. وانطلاقاً من ذلك ينبغي النظر إلى البيانات المستقاة من النخبة الاجتماعية المرتبطة بمواقع سياسية بعين الحذر، ذلك أن تفسيراتهم للأحداث عادة ما تتأثر بمراكزهم القيادية، بل إن الأقل في المركز قد يتأثر برأي صاحب المركز الأعلى[١٠٤]، كذلك فإن هذه الفئة غالباً ما يتطبع أفرادها بطباع الجماعة الذين ينتمون إليها[١٠٥]، فيقررون أحداثاً تاريخية وهم في وضع من الشلل العقلي والفكري جراء سيطرة أيديولوجية معينة على أنماط تفكيرهم، كذلك فإن بعض الرواة الذين ينتمون إلى النخبة القيادية كثيراً ما يتحفظون عن توثيق تجاربهم، خاصة ذوي المراكز الحساسة منهم[١٠٦]، وفوق هذا كله فإن بعض الرواة من أصحاب المناصب القيادية يسمون بمصلحة الوطن والأمة فوق الحقيقة التاريخية[١٠٧]، أضف إلى ذلك الخوف من أصحاب السلطان وعوامل أخرى تتعلق بالمنفعة الذاتية[١٠٨]، وهي عوامل يجب أخذها بعين الاعتبار.

٨- **معاصرة الحدث:** هناك مسلمة تدعي الأمبريقية (Empiricism) أو التجريبية أو

الخبرية، تعتقد أن بعض أنواع المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها لا تنشأ إلا من خلال الخبرة، وهذا يعني في الواقع أو عملياً من وجهة النظر العلمية أن الاحتفاظ بنظرية ما أو مسلمة يتوقف على الأدلة التجريبية التي تساندها، فالأمبريقية كعمل علمي تؤكد على أن أفضل الطرق للحصول على معلومات يعتمد عليها، هو طريق الأدلة التي يتم التوصل إليها عن طريق الخبرة المباشرة(١٠٩).

إن الروايات الشفوية تتفاوت من حيث مصداقيتها تبعاً لامتياز معاصرة الرواة للأحداث سواء من خلال المشاهدة أو المشاركة أو المعايشة، وذلك طبقاً لشروط المشاهدة العلمية وهي: أن يكون الراوي في مكانة تسمح له بمشاهدة الحوادث مشاهدة صحيحة، وأن يدون ما شاهده في أثناء وقوع الحدث، وأن يوضح بجلاء تام طريقته في المشاهدة والتدوين، فقد يشاهد الراوي ما يروي، ولكنه يكون في مكان أو ظروف لم يتمكن فيها بدقة من النظر والسمع، وقد يشاهد ما يروي وينقصه الاستعداد الفني لفهم الحدث، وقد يشاهد أيضاً ولكنه يتأخر في التدوين فتخونه الذاكرة، وقد تؤثر عليه ظروف مستجدة، فلا ينقل الخبر اليقين(١١٠)، وقد يشاهد الراوي الحدث ولكنه ليس مدرباً بحيث يكون كفؤاً لملاحظة الحدث وتسجيله(١١١).

لا ينكر أحد بأن شاهد العيان الذي يروي ما رآه أو شارك فيه بنفسه، يعتبر مصدراً غنياً بالمعلومات المباشرة التي تتميز بالتفاصيل الدقيقة، ولكن ذلك لا يعني أن نأخذ شهاداته ورواياته على أنها مسلمات نهائية، لأنه قد لا يكون محيطاً بمختلف جوانب الحدث، كما أنه قد لا يستطيع أن يخلص نفسه من آفة التحيز والميل وعوامل الرغبة في المنفعة الذاتية، وعوامل الخوف من أصحاب السلطان(١١٢)، أضف إلى ذلك جملة أخرى من العوامل أهمها: ظروف موقعه وأوضاعه أثناء مشاهدة الأحداث و ملاحظتها ورواية خبرها، ومدى عدالته وأمانته في التحقيق والنقل، ومدى تجرده وعدم تشيعه لأغراض ووجهات قد تحيد به عن ذكر الحقائق كما رآه(١١٣).

كذلك فإن مدى مصداقية روايات شاهد العيان ترتكز جزئياً على قرب الشاهد من الحدث، والقرب هنا يتصل بمعنيين: جغرافي وزمني، فدرجة الاعتماد على شهادة شهود العيان تختلف بالنسبة إلى بعده الشخصي من مسرح الحدث من حيث الزمن والمسافة، وبعد الحدث من حيث الزمن والمسافة بالنسبة إلى تدوينه وتسجيله(١١٤).

من البديهي أن الشهود لا يستوون في كفايتهم حتى وأن كانوا متساوين في قربهم من الحدث، فالكفاية هنا تعتمد على الخبرة، والثقافة، والحالة العقلية والصحية، والعمر، وقوة

الذاكرة والمهارة القصصية . . . إلخ[١١٥] .

كذلك هناك ما يعرف بالملاحظة التي هي المشاهدة والمراقبة الدقيقة لحدث أو ظاهرة معنية، فأحياناً تكون هذه الملاحظة نسبية كمشاهدة ظاهرة أو حدث عن طريق الصدفة بدون إعداد وتخطيط مسبقين[١١٦]، وهناك الملاحظة المنظمة التي تعتمد على إعداد مخطط سابق لتجميع المعلومات وتسجيلها[١١٧]، وهناك ما يعرف بالملاحظة بالمشاركة (Participant Observation) وهي التي يقوم خلالها الراوي بدور رئيسي في تجميع وتسجيل المعلومات، وذلك عن طريق مشاركته في حياة الجماعة الذين هم موضوع البحث[١١٨]، ففي الملاحظة بالمشاركة يشاهد الراوي الحدث كما وقع تماماً، ويكون قادراً على إعطاء ملاحظات دقيقة وغنية، وهناك الملاحظة دون مشاركة (Non-Participant Observation)، وهي الملاحظة التي تتضمن أكثر من النظر أو الاستماع في موقف جماعي معين دون المشاركة الفعلية فيه من خلال إنصاته إلى ما يدور بين الأفراد من أحاديث، وما ينطبع على وجوههم من انفعالات[١١٩]، ولعل الملاحظة بالمشاركة يمكن إدخالها في باب دراسة الحالة التي سبق استعراض جوانبها عند الحديث عن عينة الرواة، إذ أنها تتميز بجمع بيانات كمية ونوعية [١٢٠]، ولكن بعض الباحثين يرون أن أسلوب الملاحظة بالمشاركة قد يدخل فيه عنصر الذاتية والتحيز، كما أن الروايات التي يفرزها هذا الأسلوب قد تغلف بالانطباع الشخصي الذي ربما يعكس إفرازات تطبع الراوي بطباع الجماعة الذين شاركهم[١٢١] .

إن نقد الراوي من حيث العدالة والضبط والأمانة والدقة لا يكفي وحده في الوصول إلى صحة الرواية الشفوية التاريخية، لأن نقد الراوي يتضمن معالجة المصدر وليس المضمون، ولذلك لابد من نقد المضمون، فعدالة المصدر لا تقتضي صحة المضمون[١٢٢]، ومن هنا فإنه لا يصح للباحث في التاريخ الشفوي أن يسلم بصحة الروايات التي حصل عليها من أفراد عينة دراسته دون إخضاعها لمنهجية صارمة من النقد التاريخي الداخلي (الباطني) قبل اعتمادها كمادة مصدرية تاريخية، وذلك توخياً للأمانة التاريخية، وتجنباً للانزلاق في متاهات الماضي المتشعبة والشائكة .

إن قوة تأثير الروايات الشفوية تحمل الكثير على القبول بها دون إخضاعها للنقد المنطقي[١٢٣]، باعتبار أن البيانات التي يصرح بها الشهود هي بيانات معاصرة ومباشرة، وامتياز المعاصرة والمشاهدة ينبغي ألا يمنح الروايات الشفوية سمواً فوق النقد التاريخي، فالباحث في التاريخ لا يأخذ الروايات على علاتها، بل يعمد بأساليب من النقد والتمحيص إلى فحص

كل منها لتبين قيمة ومدى إمكان الركون إليه[١٢٤] .

ومن هنا فإن مهمة المؤرخ في النقد الباطني شبيهة بمهمة القاضي من حيث أنه يحاول بمقارنة الشهادات ومقابلتها وسماع الشهود أن يستخرج الواقع قبل الحكم عليه، فكل رواية تاريخية متهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها، ولذا كان لابد للمؤرخ أن يتصف بالشك الناقد المتزن الواعي[١٢٥] .

النقد الداخلي للروايات التاريخية الشفوية يتناول مضمون الروايات بهدف فهم معناها والوقوف على مدى تسرب الخطأ إليها، أو تأثير الميول والأهواء فيها[١٢٦]، ولعل أهم الخطوات التي ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي أن يقوم بها في عملية النقد الداخلي هي: تصحيح الرواية الشفوية بمعنى تصحيح نص الرواية، لأن تصحيحها يعين على تفسيرها[١٢٧]، وهناك خطوة أخرى في عملية النقد الداخلي وهي تفسير نص الرواية، إذ يرى أصحاب النقد التاريخي أن تفسير نص الرواية الشفوية يمر بمرحلتين هما: تحديد المعنى الحرفي للنص، ولا يتم هذا إلا بشرح كل كلمة أو لفظة غريبة وردت في الرواية شرحاً لغوياً، وتحديد المعنى الحقيقي للرواية، ولا يتم هذا إلاّ بتحليل مضمون نص الرواية لمعرفة الأفكار الرئيسية التي اشتمل عليها النص[١٢٨] .

وهناك ما يعرف بالنقد الباطني الإيجابي للرواية، ويقصد به تحليل النص التاريخي للوصول إلى المعنى السليم للألفاظ كما قصدها الراوي، وذلك للوصول إلى مضمون الرواية[١٢٩]، ونقد باطني سلبي بمعنى عدم اعتماد المعلومات الواردة في الرواية على أنها تعبير عن الحقيقة خالصة، فكثيراً ما يحيد الراوي عن ذكر الحقيقة تحت ضغط ظروف معينة، أو حسب أهوائه وميوله[١٣٠] .

ثانياً: تقويم الروايات التاريخية الشفوية تبعاً للباحث:

إن الباحث في التاريخ الشفوي يعتبر عنصراً هاماً في تحديد موقع الروايات التاريخية الشفوية من حيث قوتها أو ضعفها، كون الباحث في التاريخ الشفوي يلعب دوراً هاماً في سير الروايات الشفوية أثناء المقابلة من حيث الموضوعية والدقة والمصداقية، فإذا جانب الباحث المنهجية التاريخية عن قصد أو بدون قصد، فإنه سيترتب على ذلك نتائج سلبية ستنعكس على الروايات، وانطلاقاً من ذلك فإن الباحث في التاريخ الشفوي يعتبر ركناً أساسياً ينبغي اعتماده كعنصر هام عند إجراء عملية التقويم للروايات الشفوية، إذ أن التعرف على الباحث

من حيث مؤهلاته وصفاته وخبرته وأخلاقه وانتماءاته وعلاقاته وغير ذلك من أمور أخرى تتعلق به، تعتبر مؤشرات هامة يمكن أن تفصح لنا عن الكثير من الأمور المتعلقة بالروايات الشفوية التي قام بتدوينها وتسجيلها من مصادر التاريخ الشفوي (الرواة).

هناك عدة اعتبارات تؤخذ في عين الاعتبار عند إجراء عملية تقويم الروايات التاريخية الشفوية تبعاً للباحث، أهمها:

١- **القدرة على النقد والتقويم:** لقد سبق الحديث عن أهمية النقد التاريخي في تقويم الروايات، فالنقد التاريخي وإن كان لا يثبت الحقيقة التاريخية، فإنه يساعد على بلوغها[١٣١]، ولذا ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي أن تتوفر له ملكة النقد ولا يجوز أن يصدق مصادر دراسته بغير الدارس والفحص[١٣٢] والاستقراء، وبطبيعة الحال فإن عملية النقد ليست بالعملية السهلة، وإنما هي بحاجة إلى إنسان مدرب، ولديه خبرة عالية، وحس تاريخي يمكنه من تذوق الأحداث بمنطقية قبل الحكم عليها، ولكن يجب التنبه هنا إلى أن الإفراط في النقد يؤدي إلى ارتكاب أخطاء، والإفراط في النقد نسبته إلى النقد كنسبة الحذلقة إلى الدقة، فبعض الناس يبصرون ألغازاً في كل شيء حتى وإن لم تكن موجودة، فيتحذلقون في نصوص واضحة إلى حد أنهم يجعلونها مشكوكاً فيها بدعوى تطهيرها من تحريفات موهومة، فكثرة النقد تؤدي إلى ازدياد خطر الإفراط، والمتحذلقون يقعون قطعاً في الشك المفرط، ومن خواص الدراسات التاريخية والدراسات المساعدة لها،

وهي العلوم الفيلولوجية، هي أنها حينما تبلغ كمالها النسبي تبدأ في تدمير نفسها بنفسها، وسبب ذلك هو الإفراط في النقد[١٣٣].

٢- **المعرفة العلمية بالموضوع قيد البحث:** من الشروط الأساسية لنجاح عمل الباحث في التاريخ الشفوي إحاطته العلمية بالموضوع قيد البحث، إذ ينبغي على الباحث أن يبذل جهداً كبيراً في سبيل الاطلاع على مجموعة واسعة من المصادر المختلفة المتصلة ببحثه، خاصة المكتوبة منها، كالسجلات الحكومية وأرشيفات الصحافة والمذكرات الشخصية... إلخ، وذلك قبل البدء بالعمل الميداني، لأن هذه المعرفة تمثل قاعدة هامة يستند إليها الباحث في مراحل عمله الميداني فيما بعد، وبدونها يمكن أن تدب الفوضى في أسئلته وفي الروايات الشفوية التي حصل عليها، فالمعرفة العلمية للباحث بموضوع بحثه الميداني عملية هامة جداً، لأن هذا الأمر يمكن الباحث من امتلاك أدوات فاعلة يستطيع توظيفها بقوة في إخراج دراسة

عميقة ونزيهة وموضوعية، أضف إلى ذلك أن الرواية الشفوية لا يمكن أن تعطي صورة كاملة عن الحدث(١٣٤)، وبالتالي ينبغي على الباحث أن يحيط بالحدث من مصادر أخرى حتى تكتمل الصورة أمامه، ويتمكن من تدوين عناصرها بشكل موضوعي.

٣- النزاهة والموضوعية: ينبغي على الباحث أن يتمتع بدرجة من الموضوعية، يتحكم فيها بذاته ومشاعره وإحساساته وانفعالاته وانتماءاته، فالباحث الذي يتمتع بالأمانة الفكرية يستطيع أن يضغط على ميوله الكامنة حتى يحقق درجة عالية من عدم التحيز(١٣٥)، انطلاقاً من أن خصوصية العلم تتطلب التجرد من الأهواء الذاتية، وعدم التهاون في طلب الموضوعية(١٣٦)، ولذلك ينبغي على الباحث أن يحذر من الوقوع في براثين ما يسمى بـ(عبء الدليل)، بمعنى أن يدفعه ميله الغريزي إلى الدفاع عن الراوي الذي قرر مصداقيته، وأكد درجة ثبوته(١٣٨)، كما عليه أن يحذر من التنقيب في روايات الشهود من أجل الحصول على مادة تدعم أحكاماً قد قررها مسبقاً(١٣٩)، بمعنى ألاّ يقدم الباحث على تكوين رأي مسبق في الأحداث، ثم يحاول بعد ذلك أن يجمع الأدلة والبراهين على صحة هذا الرأي(١٤٠)، فلا شك أن هذا الاتجاه سيؤدي إلى الانزلاق في الخطأ، ولذا ينبغي على الباحث أن يكون وضوعياً أثناء محاورته للرواة(١٤١)، وأن يتجنب التأثير على إجاباتهم، فلا يطرح عليهم أسئلة إيحائية(١٤٢)، قد تؤثر في مصداقية الرواية، ولكن ينبغي التأكيد هنا بأن الموضوعية المطلقة غير ممكنة التحقيق، فمن الطبيعي أن تتسرب أنواع التحيز المختلفة إلى الموقف، ولكن الباحث بمهارته يمكنه أن يحول دون ذلك، وقد اقترح بعض الباحثين عدداً من العوامل التي قد تساعد في خفض سقف التحيز لدى الباحث في التاريخ الشفوي، وهي خضوع الباحث لبرامج تدريب معمقة، وصياغة الأسئلة بعناية(١٤٣)، بحيث تشكل صياغتها بطريقة مثلى، سياجاً يحول دون تسرب الإيحاءات والنزعات والنزوات والأهواء والميول إلى مضمونها.

لقد قرر الباحثون أن الموضوعية المطلقة غير ممكنة التحقيق، ذلك أن المؤرخ إنسان له آراء وأفكار وانتماءات وعواطف ومشاعر، وكل هذا يلح عليه ولا يستطيع التخلص منها نهائياً، فقضية الموضوعية قضية جدلية على مر العصور، ولا يمكن حسمها بشكل نهائي بالنسبة للمؤرخ، ولذلك سيظل الباب مفتوحاً دائماً لقبول النقد والجرح والتعديل وصولاً إلى الهدف الأسمى، وهو تحقيق الموضوعية ولو نسبياً(١٤٤)، فالتجرد الذي تتطلبه الكتابة التاريخية، لا يعني التخلص من كل شعور أو فكر أو معتقد، فما من شخص يستطيع ذلك عملياً، وإنما

التجرد في دراسة التاريخ معناه أن يتمكن المؤرخ بدقته وبصيرته من أن ينفذ إلى أعماق الرواة، فيحس بأحاسيسهم ويختبر ميولهم ورغباتهم وآمالهم وأمانيهم والظروف التي كانت تحيط بهم وتأثرهم بهذه الظروف وتأثيرهم فيها، والباحث سيجد في هذا كله ما يحب وما يكره، وما يقر وما ينكر، وما يرضى عنه وما يرفضه، وواجبه أن يسعى دائماً إلى إثبات هذا وذاك في معزل عن مشاعره وعواطفه[١٤٥]. وبالتالي فإن المعرفة التاريخية تعتبر قائمة على التصورات المحصورة داخل نطاق العقل البشري (المعرفة الذاتية)، والذاتية تعني البناء على اعتبارات شخصية، ولذا فإن الحيادية والموضوعية يصعب التوصل إليهما في مثل هذه الحقائق، ومن هنا فإن الاستنتاجات المبنية عليهما يمكن أن تكون عرضة للمناقشات والنقد[١٤٦].

٤- **القدرة على جمع البيانات ذات الصلة:** إن جمع الروايات الشفوية حول موضوع معين ليس بالأمر الهين، إذ أنه يتطلب باحثاً محنكاً ومدرباً تدريباً جيداً في مجال الدراسات الميدانية، كما أن هذا الأمر يحتاج إلى مهارات مهنية ومواصفات شخصية واجتماعية محددة في الباحث، فالباحث الناجح في ميدان التاريخ الشفوي هو الذي يمتلك المقدرة على كسب ودوثقة الرواة، وهذا لا يتأتى له إلاّ إذا أتقن ملكة الإصغاء والقدرة على إظهار التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والإحساس بمشاكلهم، أي القدرة على تحمل الأبعاد السلوكية المختلفة للرواة، ففي حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث بدقة وأمانة يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية[١٤٧]، ولذا ينبغي على الباحث أن يراعي هذا الجانب لدى الرواة، وفي ذات الوقت عليه أن يتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة.

إن تسجيل التاريخ الشفوي يعتبر امتحاناً للرواة كمؤرخين، فعلماء الاجتماع الوضعيون يضعون في حسبانهم قدرة الإنسان الفريدة في ترجمة خبراته الذاتية لنفسه، فالإنسان يستطيع أن يبني نظرياته عن نفسه وعن عالمه[١٤٨]، وهو يميل إلى أن يكون هو الشخص الذي تشكله لغته وتقاليده ومعرفته الضمنية والصريحة[١٤٩]، وهذا الأمر في حد ذاته يشكل في المقابل امتحان للباحث في التاريخ الشفوي لبيان مدى مقدرته على التعامل مع ذكريات الرواة بأمانة وكسب ودهم ومحبتهم التي بدونها لن يجشموا أنفسهم عناء الاستذكار.

وهناك نقطة هامة أخرى في هذا الصدد ينبغي أن يأخذ بها الباحث في التاريخ الشفوي لأهميتها في عملية جمع البيانات، وهي ضرورة استقصاء مصادر بحثه إلى أبعد حد ممكن، فلا يزدري أياً من الرواة ويهمله، لأن أضعفهم لدى النظرة الأولى، قد يصبح بعد التحقيق أشدهم خطورة وأغناهم بالمعلومات، كذلك ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي كي

يحصل على البيانات المطلوبة أن يتذكر أنه قدم إلى المقابلة ليتعلم من الراوي لا ليعلمه بغض النظر عن مستواه الثقافي والاجتماعي، ولذلك يحسن بالباحث أن يصغي جيداً للراوي وأن يركز اهتمامه عليه فلا يصر على قيادة الموقف، بل يترك للراوي حرية الحديث، فلا يعمد إلى قطع حديثه بأسئلة تمنع تواصل أفكاره، ويحسن بالباحث أيضاً ألاّ يجعل أكبر همه جمع أكبر كم من المعلومات، وألاّ يصر على الإحاطة بجميع الموضوعات التي أعدها مسبقاً[١٥٠].

وهناك نقطة هامة أخرى يحسن بالباحث في التاريخ الشفوي أن يأخذ بها عند جمع البيانات، وهي ضرورة قيامه بإجراء مقابلة تمهيدية بهدف اختبار معلومات وقدرات الراوي، فالمقابلة التمهيدية تعد مناسبة لاستكشاف موضوعية الراوي وقوة ذاكرته، وهي مهمة أيضاً من حيث أنها تعرف الباحث بالراوي وتخلق بينهما نوعاً من الألفة والثقة، وتساعد الباحث في تعديل أسئلته بشكل يتناسب مع شخصية الراوي، كما أن المقابلة التمهيدية تعرف الراوي بأهداف البحث، وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره[١٥١].

إن مهارات الباحث في التاريخ الشفوي تلعب دوراً رئيسياً في عملية جمع الروايات الشفوية، فالباحث المؤهل والخبير والمتدرب أقدر على الاقتراب من الرواة وإحراز ثقتهم بطريقة لا تترك انطباعاً لديهم بأنهم مهتمون يتم التحقيق معهم[١٥٢]، وهو أقدر أيضاً على الاقتراب من خزانة ذكرياتهم والإطلاع على ما فيها من صور وسجلات ووثائق . . .

٥- مقارنة الروايات الشفوية بالسجلات المكتوبة: إن الشواهد الشفهية وإن كانت حقيقية فإنها حتماً ستظل غير كافية لتمثل الماضي، لأن الحقيقة التاريخية تشمل أشياء أكثر من مجموعة التجارب الفردية[١٥٣]، ولذلك ينبغي على الباحث في التاريخ الشفوي ألاّ يأخذ الروايات الشفوية على أنها مسلمات، كون مصدرها شهود عايشوا الحدث أو شاركوا فيه، وإنما يتوجب عليه أن يقارن تلك الروايات بالمصادر المكتوبة المتوفرة من أجل تحري الدقة، فمقارنة الروايات التاريخية تعتبر عملية منهجية مطلوبة في الدراسات التاريخية، باعتبارها تؤدي إلى إجراء موازنات بين الروايات، وبالتالي ترجيح بعضها طبقاً لشروط معينة، أهمها ما يتعلق بدراسة حياة الرواة من جميع جوانبها، وما يتعلق بمنطقية البيانات وموضوعيتها.

لعل أهم المصادر المدونة التي بإمكان الباحث في التاريخ الشفوي أن يلجأ إليها كي يطمئن إلى الروايات الشفوية المتوفرة بين يديه: الرسائل الشخصية التي تعتبر مصدراً هاماً إذا كانت تلقائية وخالصة، خاصة وأنها تكشف بطريقة أو بأخرى عن ملاحظات كثيرة حول الشخصية

والمعتقدات[١٥٤]، ولكن بعض الباحثين يضع الرسائل الشخصية في مرتبة أدنى كشاهد تاريخي مقارنة بالوثائق الأصلية الأخرى نظراً لعدم سريتها[١٥٥]، كذلك يمكن للباحث أن يطلع على التقارير السرية التي تعتبر في بعض الأحيان مصدراً عظيم الثقة، كونها كتبت لأغراض سرية بعيد وقوع الحوادث بوقت قصير، كما أنها عادة لا تكتب بغية إطلاع عدد كبير من الناس عليها، بالإضافة إلى أن الكثير من هذه التقارير يكتبها خبراء، وبالتالي فإن محتوياتها تكون غالباً ذات معلومات عالية الدقة ومجردة من التزويق والتصنيع اللفظي[١٥٦].

كذلك ينبغي على الباحث أن يرجع إلى الوثائق الحكومية، وهي وثائق أصلية تحوي معلومات أساسية، وتتضمن بيانات إحصائية لا تتوافر عادة في المصادر الأخرى[١٥٧]، والوثائق الحكومية تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية، خصوصاً فيما يتعلق بالإحصاءات، فالرواة مهما بلغت درجة معاصرتهم للحدث ومشاركتهم فيه لا يمكنهم إعطاء إحصاءات دقيقة عن بعض البيانات المتصلة بالحدث التاريخي موضوع البحث. ومن الأهمية أن يرجع الباحث في التاريخ الشفوي إلى المصادر الصحفية، فالصحافة بالنسبة للمؤرخ الشفوي أهم مصدر أولي منشور، فهي تقدم تقارير متسلسلة تعرض البيانات بطريقة غير رسمية[١٥٨]، كما أن المصدر الصحفي جدير بالثقة، خاصة إذا كان الصحفي ذاته شاهد الحادثة التي يصفها[١٥٩]، فالمعلومات الواردة في المصدر الصحفي دونت في الفترة الممتدة بين وقوع الحدث وتسجيله، وهي فترة قصيرة في العادة[١٦٠]، ولكن يحسن بالباحث في التاريخ الشفوي أن ينتبه إلى حقيقة تتصل بهذا الجانب، وهي أن خصوصية النشر لا تضفي حكماً حاسماً وحدياً على صحة البيانات، فأحياناً تحوي التقارير الصحفية ما يناسب الاستهلاك العام، أو ما كانت الحكومات مستعدة للكشف عنه حينذاك، وما ظن رؤساء تحرير الصحف بأنه سيرضي جمهور القراء، وبالطبع فإن مثل هذه العوامل تؤدي إلى تحريف الحقائق، ولذلك ينبغي على المؤرخ الشفوي أن يذهب إلى ما وراء الكلمة المنشورة[١٦١]، كذلك ينبغي على المؤرخ أن يتنبه إلى حقيقة أخرى فيما يتصل بالمصدر الصحفي، وهي أن مراسلي الصحف يعدون تقارير سريعة تجاوباً مع طبيعة عملهم التي تتطلب تغطية أحداث الساعة بالسرعة الممكنة، وبالتالي فإن تقاريرهم يشوبها أحياناً الإهمال في درجة التحري والتثبت[١٦٢].

تعد المذكرات الشخصية واليوميات والسير الشخصية سجلات تاريخية متميزة ومتفوقة بالنسبة للباحث في التاريخ الشفوي، فهو ينفذ من خلالها إلى الحقائق المتعلقة بحياة شخص بارز له صلة بالحدث موضوع الدراسة، قام بتدوين أفكاره ومواقفه ومعتقداته حول حادث

معين عاصره أو شارك فيه ضمن مذكرات خاصة به حالت الظروف السائدة حينذاك من حرية الإفصاح عنها أو نشرها[١٦٣]، والمذكرات الشخصية تعتبر ذات فائدة أكثر عمقاً من المصادر الأخرى، لأن كاتبها لم يفكر في نشرها أثناء إعدادها[١٦٤]، ولذلك فإن المذكرات واليوميات كونها تلقائية فإنها تأتي في مرتبة عالية كوثيقة تاريخية[١٦٥]، كما أنها تعتبر ذات طابع سري، وأصحابها لم يقصدوا حين تدوينها التأثير على الآخرين[١٦٦]، كما أنهم سجلوا قرراتهم ومناقشاتهم وأفكارهم دون انتباه إلى عيون مؤرخي المستقبل[١٦٧]، كما أن المذكرات الشخصية واليوميات تتسم بالسرد التاريخي للأحداث وفق تسلسلها الزمني، وفوق هذا فإن المذكرات الشخصية تزود المؤرخ بالتقارير الأولية المباشرة التي تختفي في السجلات الحكومية المغلقة أمام الباحثين[١٦٨]، ولذلك فإن المذكرات الشخصية تعد مصدراً كتب دون أي تفكير في الأجيال القادمة، وهذا ما سماه بلوك بـ (دليل شهود العيان على الرغم من أنفسهم)[١٦٩].

قد يضطر الباحث في التاريخ الشفوي في حالات معينة إلى القيام بإجراء بحوث تعرف باسم بحوث استعادة الأحداث الماضية (البحوث الاسترجاعية) Expost Facto Research، وهي بحوث تبحث في علاقة السببية (العلة والمعلول) Canse and Effect عن طريقة ملاحظة حالة قائمة، والبحث في ماضي الزمان عن عوامل مقبولة تسببت في حدوثها، ولذلك تعتبر بحوث استرجاع الماضي إحدى الطرق لاختبار أسباب سابقة لأحداث تم وقوعها، فإذا استدعى باحث لدراسة حادث وقع، فإنه لن يستطيع استعادة الماضي، وكل ما يستطيع أن يفعله، هو محاولة إعادة تصور ما حدث، وفحص الأماكن التي تم فيها وقوع الحدث، بالإضافة إلى استقصاء البيانات التي يتفوه بها شهود العيان، وبهذه الطريقة يمكن للباحث أن يتعرف على المسببات الممكنة للحدث، ومن هنا فإن بحوث استعادة الماضي تعني

البحث في آثار حدث تم وقوعه طبيعياً في الماضي على ناتج لاحق بنظرة تبحث عن بناء ارتباط سببي بينهما[١٧٠]، وهذه الطريقة تشير إلى أن البيانات التي تم جمعها بعد وقوع الحدث تعتبر أثراً ينبغي فحصه استرجاعياً لاكتشاف الأسباب والعلاقات والارتباطات ومعانيها[١٧١].

وهكذا فإن الباحث في التاريخ الشفوي يلزمه جهداً كبيراً في سبيل تقويم بياناته وذلك من خلال مقارنتها بالسجلات المكتوبة المتوفرة، فالمقارنات من شأنها أن تكشف الحقائق الواقعية، أو تلك التي تكون قاب قوسين أو أدنى منها، ولهذا فإن الاطلاع على مجموعة منوعة وواسعة من المصادر يعتبر إحدى السمات المميزة للبحث التاريخي[١٧٢].

خاتمـة:

إن عملية اختيار وتقييم الرواة تعد قضية محورية في منهجية البحث في التاريخ الشفوي، باعتبار أن الرواة يشكلون المادة المصدرية الأولية في المعرفة التاريخية المبنية على الثقافة الشفهية، وبالتالي فإن عملية اختيار وتقييم الرواة في التاريخ الشفوي ينبغي أن تحظى بجانب هام لدى الباحث في ميدان التاريخ الشفوي، إذ أن البناء التاريخي لموضوع البحث يرتكز بصورة أساسية على تصريحات الرواة.

إن الخوض في ميدان اختيار وتقييم ونقد الرواة لا يتأتى لكل من طرق بابه، فهو عملية مضنية وشاقة، وتتطلب نوعاً من الباحثين المتميزين ممن يمتلكون المعرفة والبصيرة الثاقبة، وصفات أخرى كالصبر والتحمل، ولذلك فإن مسألة التدريب والتأهيل أصبحت ضرورية جداً لأولئك الذين أخذوا على عاتقهم دخول معترك التاريخ الشفوي.

إن اختيار وتقييم ونقد الرواة تعد عملية شائكة ومتشابكة تستدعي من الباحث في التاريخ الشفوي أن يطرق أكثر من جانب في سبيل الانتهاء إلى قدر معقول من الطمأنينة حول الروايات الشفوية المتصلة بموضوع بحثه، فعليه ابتداءً أن يضع معايير تتناسب مع الدراسات التاريخية الميدانية بخصوص تحديد حجم عينة المجتمع الذي يتطلع الباحث إلى دراسته، وبطبيعة الحال فإن معايير تحديد حجم العينة في التاريخ الشفوي ترتبط بمواصفات خاصة، يكاد ينفرد بها ميدان البحث في التاريخ الشفوي، إذ أن تقرير حجم العينة في التاريخ الشفوي تتحدد طبقاً لاعتبارات عديدة معظمها ترتبط بظروف الحدث والرواة أكثر من ارتباطها بقرارات الباحث والمحددات العلمية المعتمدة في الدراسات الميدانية الأخرى، (الدراسات التربوية والاجتماعية)، فلا يوجد في التاريخ الشفوي معيارٌ أوضابطٌ معين يمكن أن يحدد حجم عينة الدراسة، بل أن أمر ذلك يترك لمعطيات الميدان، وإفرازات الفئة المستهدفة،

وطبيعة مواقفها، وملامح مواصفاتها بالنسبة للحدث، وللمظاهر التي تتحكم في أبعاد شخصيات الفئة المستهدفة.

أما فيما يتعلق باختيار رواة الأحداث، فهو أمر بالغ التعقيد، إذ أن وفرة الرواة وشهود العيان لا يخفض من سقف مشاق مهمة الباحث في التاريخ الشفوي، فكثرة الشهود لا تمثل للباحث في التاريخ الشفوي إشارات على توفر الروايات الشفوية الحقيقية، لأن الهدف ليس تحصيل كم من المعلومات والبيانات، بقدر ما هو مرتبط بتحصيل روايات تاريخية منطقية

وموضوعية تعكس واقع الحدث التاريخي وتفسر جوانبه المختلفة، ولذا فإن الباحث الجاد في ميدان التاريخ الشفوي سيجد أمامه طريقاً طويلاً جداً مليء بالمحطات التي ينبغي أن يتوقف عندها بتمعن كي يصل في نهاية المشوار وفي جعبته مجموعة من الروايات الشفوية المحكمة علمياً.

أما عن عملية نقد وتقييم الرواة فهي عملية ترتبط بعنصرين: الأول عنصر الرواة أنفسهم، والثاني عنصر الباحث التاريخي، فالرواة يقيمون من خلال تقديمهم إلى محكمة النقد الظاهري والباطني التي يديرها الباحث التاريخي، بهدف الوقوف على مدى مصداقية الشهادات التي أدلوا بها، من خلال تجريدها من أهواء وانتماءات ونزعات أصحابها، وتقديمها بشكل أكثر نقاءً إلى ميدان المعرفة، لتنضوي مادتها العلمية وما ترشح عنه من تفسيرات مختلفة ضمن صفحات التاريخ، أما الباحث في ميدان التاريخ الشفوي فلا يقل دوره بحال من الأحوال عن الرواة أنفسهم في تصميم المعايير التي تستند إليها مصداقية الروايات التاريخية الشفوية، فالباحث في التاريخ الشفوي لديه قدرة عالية في توجيه الروايات الشفوية وتحديد مساراتها وتشكيل ملامحها، فهو بمثابة قائد المعركة، فإن كان يمتلك مهارات وكفايات القيادة، وارتفع في سبيل الهدف الأسمى فوق اعتباراته الذاتية، فإنه لا محال سيقفل بثمرات النصر الحقيقي، وإن كان غير ذلك فإنها الهزيمة المحققة التي تحمل في جنباتها صوراً عديدة، ولكنها مشوهة، غير مسؤولة، ولا تمت إلى الواقع بصلة.

الهوامش

(١) يحيى، عادل: التاريخ الشفوي، منهج وتقنيات البحث، في كتاب: من يصنع التاريخ، التاريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، ١٩٩٤م، ص١٠.

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ترجمة محمدبكير خليل، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٦٤.

(3) Vancsina , J: Oral tradition as History , Madison the university of wisconson press , 1985, p.5 .

(٤) يقول الباحث عادل يحيى في معرض رده على المؤرخين المتمسكين بفكرة أن التاريخ الشفوي هو عبارة عن عمليات تجرى على الأحياء بأن الحاضر هو الماضي في العمل، ولا شي يمنع من دراسته، خاصة وأنه جاهز للاختبار، ثم أن كل حدث حاضر مرتبط بالماضي بطريقة من الطرق، فهو لم يبدأ الآن فقط وتأثيره سيمتد إلى المستقبل، فما الذي يمنع معالجته حالاً ؟.
يحيى: المرجع السابق، ص١٠-١١.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٦) ريكس، توماس: التاريخ الشفوي والقضية الفلسطينية، في كتاب: من يصنع التاريخ، التاريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامرللتعليم المجتمعي، القدس، ١٩٩٤م، ص١٠٣-١٠٤.

(٧) موافي، عثمان: منهج النقد التاريخي الاسلامي والمنهج الاوروبي، ط٢، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٦م، ص٤٥.

(٨) وسينوبوس، لانجلو: المدخل الى الدراسات التاريخية، في كتاب: النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٧٨.

(٩) في المجتمعات الشفاهية تعتبر المعرفة صعبة المنال وثمينة، ولذلك فإن تلك المجتمعات تقدر تقديراً عالياً حكمائها الكبار من الرجال والنساء الذين تناط بهم مهمة الحفظ، والذين يستطيعون أن يحكوا قصص الأيام الخوالي.
أونج، والترج: الشفاهية والكتابة، ترجمة حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٨٢)، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، فبراير / شباط، ١٩٩٤م، ص١٠٣-١٠٤.

(١٠) ريكس: التاريخ الشفوي، ص ٨٣.

(١١) يحيى: التاريخ الشفوي، ص ٨.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٢.

(١٣) المرجع نفسه، ص١٠.

(14) Henige , D .: oral Historiography , Longman press , London , 1982 , p.73.

(١٥) يحيى: التاريخ الشفوي، ص١١.

(١٦) كوهين: لويس، ومانيون، لورانس: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ط١، ترجمة: حسين كوجك ووليم تاوضروس عبيد، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٣٢.

(١٧) المرجع نفسه، ص١٣٢ .
(١٨) الآغا، احسان خليل، والأستاذ، محمود حسين : مقدمة في تصميم البحث التربوي، ط٢، د.ن، ٢٠٠٠م، ص١٠٠ .
(١٩) المرجع نفسه، ص٨٨٨ .
(٢٠) الآغا : مقدمة في تصميم البحث العلمي التربوي، ص١٠١-١٠٢ .
(٢١) يحيى : التاريخ الشفوي، ص٢٨ .
(٢٢) المرجع نفسه، ص٣٠ .
(٢٣) كوهين : مناهج البحث، ص١٢٧ .
(٢٤) الآغا : مقدمة في تصميم البحث التربوي، ص٩٧ .
(٢٥) الشريف، عبد الله محمد : مناهج البحث العلمي، مكتبة الاشعاع، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص١١٦ .
(٢٦) كوهين : المرجع السابق، ص١٣١ .
(٢٧) كوهين : مناهج البحث ، ص١٧٩ .
(٢٨) جوتشلك، لويس : كيف نفهم التاريخ، مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦م، ص١٩٨ .
(٢٩) الزوبعي، عبد الجليل، والغنام، محمد أحمد : مناهج البحث في التربية، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤م، ص١٧٥-١٧٦ .
(٣٠) الشريف : مناهج البحث العلمي، ص١١٤-١١٥، وانظر كوهين : المرجع سابق، ص ١٣٠-١٣١ .
(31) Oral History Evaluation Guide lines : Oral History A ssociation , sept .2000 , p.111.
(٣٢) كوهين : مناهج البحث، مرجع سابق، ص ١٣٢ .
الشريف : مناهج البحث العلمي، مرجع سابق، ص ١١٧ .
(٣٣) الشريف : مناهج البحث العلمي، ص١١٢، كوهين : مناهج البحث، ص١٢٨ .
(٣٤) الآغا : مقدمة في تصميم البحث التربوي، ص٨٩، الشريف : مناهج البحث العلمي، ص١١٣ .
(٣٥) كوهين : مناهج البحث، ص٩٨ .
(٣٦) المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩ .
(٣٧) العاوور، صلاح حسن : مناهج البحث التاريخي، ط١، مكتبة ايهاب، رفح، ١٩٩٧م، ص٣٥١ .
(٣٨) كوهين : مناهج البحث، ص١٣١ .
(٣٩) يحيى : التاريخ الشفوي، ص٢٧ .
(٤٠) الآغا : مقدمة في تصميم البحث التربوي، ص١٠٤ .
(٤١) يحيى : المرجع نفسه ن ص ٢٧، الآغا، المرجع نفسه، ص١٠٤ .
(٤٢) الآغا : المرجع نفسه، ص ١٠٤ .
(٤٣) يحيى : المرجع نفسه، ص٢٧ . العاوور : ص٣٥١ .
(٤٤) كوهين : مناهج البحث، ص ٨٢ .

(٤٥) ربيع، حسنين محمد: محاضرات في علم التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٥٩.
(٤٦) المرجع نفسه: ص ٦٢ - ٦٣.
(٤٧) كوهين: المرجع سابق، ص ٨١.
الجمل: شوقي: علم التاريخ، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٤٠.
(٤٨) عمر، محمد زيان: دراسات تاريخية، دار الشروق، جدة، ١٩٧٩م، ص ٣٧.
(٤٩) كوهين: المرجع السابق، ص٨١.
(٥٠) عمر: دراسات تاريخية، ص٣٧.
(٥١) كوهين: مناهج البحث، ص ٨٠.
(٥٢) موافي: منهج النقد التاريخي، ص ٦١.
(٥٣) المرجع نفسه: ص ٦٥.
(٥٤) ابن عبد العزيز، رجب بن إبراهيم: دراسات في السنة النبوية ومناهج المحدثين، ط١، دار الرسالة للتراث، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٩١، موافي: المرجع نفسه، ص٩٦.
(٥٥) ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص٦٢ - ٦٣.
(٥٦) موافي: المرجع السابق، ص١٠٨.
ابن عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٥٧) الجمل: علم التاريخ، ص١٤٨.
وسينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، ص١٢٢.
(٥٨) ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص٩٠.
(59) Philip Abrams: Historical Sociology, open book, 1982, p313.
توش، جون: المنهج في دراسة التاريخ، ط١، ترجمة ميلاد المقرحي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٤م، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.
(60) G. V. Wedg wood: The King's peace 1637 - 1641, Collins, 1955, p. 16.
توش: المرجع السابق، ص١٨١.
(٦١) موافي: منهج النقد التاريخي، ص ١٤١.
(٦٢) وافي، محمد عبد الكريم: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، ط١، منشورات جامعة، قاريونس، بنغازي، ١٩٩٠م، ص ١٣٩.
موافي: المرجع نفسه، ص ١٤١.
رستم، أسد: مصطلح التاريخ، ط٣، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٥٥م، ص ٦١.
الجمل: المرجع السابق، ص ١٤٩.
سينوبوس: المرجع السابق، ص ١٢٩.
(٦٣) الجمل: المرجع السابق، ص ١٤٩.
(٦٤) وافي: المرجع السابق، ص ١٣٩.
موافي: المرجع السابق، ص ١٤١. =
رستم: المرجع السابق ، ص ٦٢.
الجمل: المرجع نفسه، ص ١٤٩.

جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٨١ .
(٦٥) الجمل: علم التاريخ، ص١٤٩ .
وافي: منهج البحث في التاريخ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
(٦٦) رستم: مصطلح التاريخ، ص ٦٣ .
(٦٧) أونج: الشفاهية والكتابة، ص ١٠٥ .
(٦٨) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٨٦ .
(٦٩) موافي: منهج النقد التاريخي، ص ١٤١ .
رستم: المرجع السابق، ص٦٣ .
وافي: منهج البحث في التاريخ، ص ١٤٠ .
سينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية، ص ١٣١ .
(٧٠) صبيحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٨٩م، ص ١١٢ - ١١٣ .
(٧١) جوتشلك: المرجع السابق، ص١٨٦ .
(٧٢) موافي: المرجع السابق، ص ١٤١ .
رستم: المرجع السابق، ص٦٤ .
سينوبوس: المرجع السابق، ص ١٤٥ .
(٧٣) أونج: المرجع السابق، ص ١٠٣ .
(٧٤) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٨٣ .
(٧٥) موافي: منهج النقد التاريخي، ص ١٤١ .
كوهين: مناهج البحث، ص ٨٢ .
رستم: مصطلح التاريخ، ص ٦٢ .
الجمل: علم التاريخ، ص١٤٨ .
(٧٦) موافي: المرجع نفسه، ص ١٣٥ - ١٣٦ .
(٧٧) رستم: المرجع السابق ، ص ٦٥ .
موافي: المرجع نفسه، ص ١٣٦ .
(٧٨) موافي: المرجع نفسه، ص ١٤٢ .
(٧٩) وافي: منهج البحث في التاريخ، ص ١٤١ .
(٨٠) رستم: المرجع السابق، ص ٦٦ .
موافي: المرجع السابق، ص ١٤٢ .
(٨١) وافي: المرجع السابق، ص١٤١ .
(٨٢) موافي: منهج النقد التاريخي، ص ١٣٨ .
(٨٣) يحيى: التاريخ الشفوي، ص ٣٤ .
(٨٤) رستم: مصطلح التاريخ، ص ٦٧ .
(٨٥) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .
(٨٦) المرجع نفسه: ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(٨٧) موافي: المرجع السابق، ص ١٣٩.
(٨٨) توش: المنهج في دراسة التاريخ، ص ٣٠٣.
موافي: المرجع نفسه، ص ١٣٧.
(٨٩) يحيى: التاريخ الشفوي، ص ٣٦.
(٩٠) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٥٦.
(٩١) توش: المرجع السابق، ص ١٤٤.
(٩٢) المرجع نفسه، ص ١٤٥.
(٩٣) بدوي: النقد التاريخي، مقدمة الكتاب، ص ب.
(٩٤) موافي: المرجع السابق، ص ١٣٧.
كوهين: مناهج البحث، ص ٨٢.
(85) Richard Cobb. : A second Identity, Oxford University press, 1969, p. 47.
توش: المرجع السابق، ص ٢١٥.
(٩٦) توش: المنهج في دراسة التاريخ، ص ٢١٤.
(٩٧) كوهين: مناهج البحث، ص ٢٠.
(٩٨) المرجع نفسه، ص٢٤.
(٩٩) المرجع نفسه، ص ٢٠.
(١٠٠) المرجع نفسه، ص ٢٠.
(١٠١) المرجع نفسه، ص ٢٠ - ٢١.
(١٠٢) إبراهيم: محمود: التاريخ الشفوي يتحدى المؤرخين، في كتاب: من يصنع التاريخ... التأريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، ١٩٩٤م، ص ١٠٥.
(١٠٣) توش: المنهج في دراسة التاريخ، ص ١٣١.
(١٠٤) كوهين: مناهج البحث، ص ٥٨.
(١٠٥) المرجع نفسه: ص ١٥٨ - ١٥٩.
(١٠٦) العاوور: مناهج البحث التاريخي، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.
(١٠٧) ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص ١٠٤.
(١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٠٤.
(١٠٩) كوهين: مناهج البحث، ص ٣٢.
(١١٠) رستم: مصطلح التاريخ، ص ٦٦.
عمر: دراسات تاريخية، ص ٩٤.
كوهين: المرجع نفسه، ص ٨٢.
(١١١) كوهين: المرجع نفسه، ص ٨٢.
(١١٢) ربيع: محاضرات في علم التاريخ، ص ١٠٤.
(١١٣) المرجع نفسه: ص ١٠٣ - ١٠٤.
(١١٤) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٧٦.
(١١٥) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٧٦.

(١١٦) الشريف : مناهج البحث العلمي، ص ١١٨ .
(١١٧) المرجع نفسه، ص ١١٨ - ١١٩ .
(١١٨) كوهين : مناهج البحث، ص ١٥٤ .
الشريف : المرجع نفسه، ص ١١٩ .
(١١٩) الشريف : المرجع نفسه، ص ١٢٠ .
كوهين : المرجع نفسه، ص ١٥٥ .
(١٢٠) كوهين : المرجع نفسه، ص ١٥٤ .
(١٢١) المرجع نفسه : ص ١٥٨ - ١٥٩ .
(١٢٢) موافي : منهج النقد التاريخي، ص ١٤٥ .
(١٢٣) البرغوثي، عبد اللطيف : مناهج التأريخ قبل الإسلام وبعده، مؤتمر التأريخ الإسلامي وأزمة الهوية، طرابلس الغرب، شباط / فبراير ٢٠٠٠م .
(١٢٤) ربيع : محاضرات في علم التاريخ، ص١٠٣ .
(١٢٥) المرجع نفسه، ص ٩٠ .
(١٢٦) المرجع نفسه، ص ١٠٣ .
(١٢٧) موافي : المرجع السابق، ص ١٤٧ .
(١٢٨) المرجع نفسه، ص ١٤٧ - ١٤٩ .
(١٢٩) الجمل : علم التاريخ، ص ١٤٥ .
عثمان، حسن : منهج البحث التاريخي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص١٩ .
(١٣٠) الجمل المرجع السابق ، ص ١٤٨ .
(١٣١) عثمان : المرجع السابق، ص ١٤٦ .
(١٣٢) المرجع نفسه، ص ١١٧-١٢٣ .
(١٣٣) وسينوبوس : المدخل إلى الدراسات التاريخية، ص١٠٠ - ١٠١ .
(١٣٤) يحيى : التاريخ الشفوي، ص ٣٢ .
(١٣٥) جوتشلك : كيف نفهم التاريخ، ص ٢١ .
يقول حسن عثمان : إن المؤرخ بمثابة القاضي الذي لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذي يصل إليه من البعد عن التحيز والهوى، عثمان : منهج البحث، ص ١٩ .
(١٣٦) صبيحي : في فلسفة التاريخ، ص ٩٣ .
(١٣٧) وسينوبوس : المرجع السابق، ص ١٢٣ .
(١٣٨) توش : المنهج في دراسة التاريخ، ص٢١٨ .
(١٣٩) الجمل : علم التاريخ، ص ٩٩ .
(١٤٠) العاوور : مناهج البحث التاريخي، ص ٣٦٠ .
يحيى : التاريخ الشفوي، ص ٤٧ .
(141) Oral History Evaluation, op cit, p.13 .
(١٤٢) كوهين : مناهج البحث، ص ٣٥٣ .
(١٤٣) النبراوي، فتحية عبد الفتاح : علم التاريخ، دراسة في مناهج البحث، ط٢، دار الآفاق العربية،

القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٣٦.
(١٤٤) ربيع : محاضرات في علم التاريخ، ص٩٢ .
(١٤٥) جوتشلك : كيف نفهم التاريخ، ص ٥٧ .
كوهين، المرجع السابق، ص٤٥ .
(١٤٦) العاوور : مناهج البحث التاريخي، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
(١٤٧) كوهين : مناهج البحث، ص ٤٧ .
(١٤٨) المرجع نفسه، ص ٢٧٢ .
(١٤٩) ربيع : محاضرات في علم التاريخ، ص١٠٠ .
(١٥٠) يحيى : التاريخ الشفوي، ص ٤٨ - ٤٩ .
Oral History Evaluation, op. cit, p. 8
العاوور : المرجع السابق، ص ٣٦١ .
(١٥١) العاوور : مناهج البحث التاريخي، ص ٣٥٦ .
(١٥٢) المرجع نفسه، ص٣٦٠ .
(١٥٣) توش : المنهج في دراسة التاريخ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .
(١٥٤) المرجع نفسه، ص ٨٧ .
(١٥٥) جوتشلك : كيف نفهم التاريخ، ص ١١٦ .
(١٥٦) جوتشلك : كيف نفهم التاريخ، ص١١٠ , ١١٤ .
(١٥٧) المرجع نفسه، ص ١٢٦ .
(١٥٨) توش : المنهج في دراسة التاريخ، ص ٧٧ - ٧٨ .
(١٥٩) عمر : دراسات تاريخية، ص ٩٥ .
(١٦٠) جوتشلك : المرجع السابق، ص ١١٧ .
(١٦١) توش : المرجع السابق، ص ٧٩ .
(١٦٢) جوتشلك : المرجع السابق، ص ١١٧ .
(١٦٣) توش : المنهج في دراسة التاريخ، ص٧٥ .
(١٦٤) عمر : دراسات تاريخية، ص ٩٣ .
(١٦٥) جوتشلك : كيف نفهم التاريخ، ص١١٥ .
(١٦٦) المرجع نفسه، ص ١١٣ .
(١٦٧) توش : المرجع السابق ، ص ٧٩ .
(١٦٨) المرجع نفسه، ص ٧٩ .
(169) Marc Bloch : The Historian‘s Craft, Manchester University press, 1954, p.61.
توش : المرجع نفسه، ص ٧٢ - ٧٣ .
(١٧٠) كوهين : مناهج البحث، ص٢٠٦ .
(١٧١) المرجع نفسه : ص ٢٠٩ .
(١٧٢) توش : المنهج في دراسة التاريخ، ص ٣٠٩ .

مراجع البحث

مراجع عربية

١- إبراهيم، محمود: التاريخ الشفوي يتحدى المؤرخين، في كتاب: من يصنع التاريخ، التأريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، ١٩٩٤م.

٢- ابن عبد العزيز، رجب بن إبراهيم: دراسات في السنة النبوية ومناهج المحدثين، ط١، دار الرسالة للتراث، القاهرة، ١٩٨٩م.

٣- الآغا، إحسان خليل، والأستاذ، محمود حسين: مقدمة في تصميم البحث التربوي، ط٢، د. ن، ٢٠٠٠م.

٤- أونج، والترج: الشفاهية والكتابة، ترجمة حسن البناعز الدين، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٨٢)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير / شباط، ١٩٩٤م.

٥- البرغوثي، عبد اللطيف: مناهج التأريخ قبل الإسلام وبعده، مؤتمر التأريخ الإسلامي وأزمة الهوية، طرابلس الغرب، شباط / فبراير ٢٠٠٠م.

٦- توش، جون: المنهج في دراسة التاريخ، ط١، ترجمة ميلاد المقرحي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٤م.

٧- الجمل، شوقي: علم التاريخ، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

٨- جوتشلك، لويس: كيف نفهم التاريخ، مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عائدة سليمان عارف وأحمد مصطفى أبو حاكمة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦م.

٩- ربيع، حسنين محمد: محاضرات في علم التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٠- رستم، أسد: مصطلح التاريخ، ط٣، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٥٥م.

١١- ريكس، توماس: التأريخ الشفوي والقضية الفلسطينية، في كتاب: من يصنع التاريخ، التأريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، ١٩٩٤م.

١٢- الزوبعي، عبد الجليل، والغنام، محمد أحمد: مناهج البحث في التربية، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤م.

١٣- الشريف، عبد الله محمد: مناهج البحث العلمي، مكتبة الإشعاع، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

١٤- صبيحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٩م.

١٥- العاوور، صلاح حسن: مناهج البحث التاريخي، ط١، مكتبة إيهاب، رفح، ١٩٩٧م.

١٦- العاوور، صلاح حسن: مبادئ كتابة البحث العلمي، مكتبة إيهاب، رفح، ١٩٩٠م.

١٧- عثمان، حسن: منهج البحث التاريخي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

١٨- عمر، محمد زيان: دراسات تاريخية، دار الشروق، جدة، ١٩٧٩م.

١٩- كولنجوود: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٠- كوهين، لويس، ومانيوس، لورانس: مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ط١، ترجمة

حسين كوجك ووليم تاوضروس عبيد، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

٢١- موافي، عثمان: منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي، ط٢، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٦م.

٢٢- النبراوي، فتحية عبد الفتاح: علم التاريخ، دراسة في مناهج البحث، ط٢، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٣- وافي، محمد عبد الكريم: منهج البحث في التاريخ، التدوين التاريخي عند العرب، ط١، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٩٠م.

٢٤- وسينوبوس، لانجلو: المدخل إلى الدراسات التاريخية، في كتاب: النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٥- يحيى، عادل: التاريخ الشفوي، منهج وتقنيات البحث، في كتاب: من يصنع التاريخ، التأريخ الشفوي للانتفاضة، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، القدس، كانون أول ١٩٩٤م.

مراجع أجنبية

1- Henige, D. : Oral Historigraphy, Longman press, London, 1982.

2- Vancsina, J. : Oral Tradition as History, Madison the University of Sisconson press, 1985.

3- Oral History Evaluation Guidelines: Oral History Association, Sept. 2000.

4- Philip Abrams: Historical Sociology, open book, 1982.

5- G.V. Wedgwood: The king‘s peace 1637-1641, Collins, 1955.

6- Richard Cobb.: A second Identity, Oxford University press, 1969.

7- Marc Bloch: The Historian‘s Craft, Manchester University press, 1954.

سياسات التهويد الديموغرافي والجغرافي لمدينة القدس

د. مسلم أبو حلو*

* مدير دائرة ضبط النوعية

ملخص

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على السياسات والممارسات الإسرائيلية لتهويد المدينة المقدسة، والكشف عن نتائج سياسات وإجراءات التهويد التي مارستها إسرائيل على مدينة القدس بشطريها الغربي والشرقي خلال الفترة الممتدة منذ مطلع القرن العشرين وحتى نهايته.

تستعرض الدراسة وبعرض تاريخي موجز سياسات التهويد الجغرافي والديموغرافي للمدينة منذ منتصف القرن الثامن عشر وتركيز حول سياسات التهويد الإسرائيلية للمدينة بعد عام ١٩٦٧. وتبين معطياتها أنه وبالرغم من تنوع وتفاوت هذه السياسات من فترة إلى أخرى، إلا أنها جميعاً تسير نحو طمس عروبة وإسلامية القدس ديناً وأرضاً وشعباً. وتكشف معطيات سياسات التهويد التي اتبعتها إسرائيل - وبخاصة - خلال الفترة التي تلت اتفاقية أوسلو وحتى الآن عن سعي إسرائيل المتسارع الاستفادة من المعطيات الدولية والعربية الحالية نحو تنفيذ برنامجها لقديم الحديث بشأن تهويد المدينة.

Abstract

The Demographic and Geographical Judaizing Policies of Jerusalem , The Holy city

This study aims at shedding the light on the actions and policies used by Isreil to Judaze the holy city . It also attempts to review the consequences of implementing their policies and procedures by Israel on Judaizing the tow parts of the city during the period from the early twenty century until now .

The study deals with their subject through breif - historical presentation

سياسات التهويد الديموغرافي والجغرافي لمدينة القدس

مقدمـة:

لم تكن الأوضاع المختلفة التي مرت بها مدينة القدس في بحر القرن المنصرم، والناجمة عن عوامل دولية وإقليمية وداخلية، والتي تراوحت مراحلها بين التسلل حتى عام ١٩١٧، والتغلغل الاستعماري حتى عام ١٩٤٧، والغزو خلال الفترة من ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧، ثم التوسع فيما بعد عام ١٩٦٧ (الخطيب، ١٩٨٤، ص٥٠)، (الدجاني، ١٩٩٩، ص ٣٢٥)، سوى أوضاع سياسية فعلية أريد لها أن تتخذ وضعاً قانونياً لتقرير أمر واقع، بقصد إضفاء المشروعية عليه. (الحديثي، ١٩٩٩، ص٩٢).

ولا يعني تخصيص القدس هنا، تفريدها كقضية مستقلة عن القضية الكبرى " القضية الفلسطينية "، بل يأتي بمقدار ما تفرضه متطلبات البحث في جانب من جوانب القضية الفلسطينية بصفة عامة. فقضية القدس بكل تأكيد جزء لا يتجزأ من هذه القضية الكبرى بالرغم من عدم إنكارنا لكونها لب القضية ومحورها الذي يدور معها وجوداً وعدماً.

وبالرغم من أن عروبة القدس وإسلاميتها، وكذلك عروبة فلسطين وإسلاميتها لم تكونا في يوم من الأيام محل شك، شأنها شأن بقية الأمصار والأقطار العربية الأخرى (زيادة، ١٩٨٢، ص٢٥٧)، (غوانمة، ١٩٤٨، ص٧١-٨٠)، إلا أن البحث في هاتين القضيتين يقتضي التطرق إلى سياسات التهويد التي مورست من قبل إسرائيل والتي تسعى إسرائيل من خلالها وبالتعاون مع المؤسسات الدولية المختلفة، للحصول على شهادة ميلاد جديدة (فودة، ١٩٦٩، ص١٦١).

وعليه فقد ظلت القدس وبأبعادها المختلفة، محور اهتمام ونشاط علماء الدين والفكر والتاريخ والسياسة والجغرافيا والديموغرافيا..، ومن كلا طرفي النزاع. وانعكس هذا الاهتمام بحركة تأليف نشطة حول القدس وأهميتها ومكانتها. إلا أنه وبالرغم من ضخامة حجم المؤلفات التي تناولت قضية القدس ومكانتها في الصراع الإسرائيلي العربي بصفة مباشرة

أو غير مباشرة والتي كتبت بلغات مختلفة، وبأبعادها وأوجهها المختلفة، والتي تربو عن ألفي مؤلف، (الشناق، ١٩٩٥، بيلوغرافيا القدس)، (الإمام، ١٩٩٥، بيلوغرافيا القدس) تعرضت للكثير من الانتقادات. وتتلخص أهم الانتقادات الموجهة إليها بأنها تعاني من التكرار والسرد التاريخي للموضوع وتعتمد مصادر يهودية في مضمون الأبحاث ومنهجها، إضافة إلى استخدام البعض منها طابع التبرير الدعائي لا الموضوعي في إظهار البعد السياسي والذي ربما يعود سببه إلى الاختلاف في الخلفيات الفكرية والعقائدية للمؤلفين، علاوة على تبني بعض المؤلفين المنهج اليهودي في التعامل مع بعض الأبعاد وبخاصة الديموغرافية والتاريخية والدينية منها بقصد أو بدون قصد(الشناق، ١٩٩٩، ص١٩٧)، (القضاة، ١٩٩٩، ص٦٥-٩٠). وعليه فقد جاء هذا البحث في موضوع سياسيات التهويد التي مارستها إسرائيل خلال حقبة القرن المنصرم محاولة لتلافي الانتقادات الموجهة إلى المؤلفات التي عالجته من قبل، وإضافة للأبحاث التي سبقته، نظراً لما شهدته إجراءات التهويد من تسارع، وما نجم عنها، أو ما سينجم عنها من نتائج انعكست آثارها بوضوح على الواقع الديموغرافي والجغرافي للمدينة، مما سيؤدي بالتالي إلى انعكاساته على الجوانب الحياتية الأخرى لها وعلى فلسطين برمتها.

من هنا يمكن القول أن مشكلة البحث تتلخص بالأسئلة التالية:

إلى أي مدى استخدمت إسرائيل خطط واستراتيجيات معدة مسبقاً لتحقيق أهدافها في تهويد المدينة المقدسة؟. وإلى أي مدى استخدمت إسرائيل مراحل التطبيق العملي المتدرج كأسلوب في تنفيذ استراتيجيتها الصهيونية الشاملة المرتكزة على أساس تحقيق دولة النقاء العرقي، ومن خلال الاحتفاظ بدور مميز ومركزي للقدس، في إنجاز مهام كل مرحلة من مراحل استراتيجيات التهويد الشمولية التي نادى بها مؤتمر بال عام ١٩٨٧.؟. وما مدى نجاح أسلوب المزاوجة الفعالة والإبداع الذي اعتمدته إسرائيل في الجمع بين عناصر الاستراتيجية الصهيونية (الشناق، ١٩٩٤، ص٢١٥).

أهداف البحث:

تهدف هذه الورقة إلى استعراض السياسات والممارسات الإسرائيلية الفعلية والممنهجة في تهويد مدينة القدس جغرافياً وديموغرافياً وفق نسق تاريخي لإجراءات التهويد ومن ثم الكشف عن سياسات التهويد وبرامجها وآلياتها وإلقاء الضوء على ما آلت إليه هذه الممارسات والسياسات خلال الفترة الممتدة من ١٩١٤ وحتى نهاية القرن العشرين. يلي ذلك عرض

بعض المقترحات التي من شأنها المحافظة على عروبة القدس وإسلاميتها وفضح لمخططات إسرائيل وادعاءاتها الزائفة المغلفة بذرائع الأمن والسلام.

منهجية البحث:

سنداً إلى ما تقدم من عرض لأهمية البحث وعرضه لمشكلته وأهدافه والمصادر المتوفرة لدى الباحث والملاحظات المبنية آنفاً بشأنها، يرى الباحث أن المنهج التاريخي الوصفي والتحليل التركيبي هما الأنسب لتحقيق الأهداف المتوخاة، بمعنى أن تتم دراسة أحداث الماضي بهدف التوصل إلى استنتاجات عامة تساعد في تحليل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل من خلال منهج وصفي تم من خلاله جمع معلومات حول موضوع الدراسة بهدف الاستفادة في الجوانب التي تم تحديدها في أهداف الدراسة. أما استخدام المنهج التحليلي التركيبي فيعني تحليل الظاهرة التي تشكل الموضوع ليعاد تركيبه من جديد بإسقاط ما هو غير مهم والإبقاء على ما هو مهم وذو دلالة علمية.

مدخل تاريخي:

تثبت الوثائق التاريخية والسياسية وبالذات الأوروبية منها، أن فكرة إنشاء الدولة العبرية في فلسطين تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر، وأن حركة الهجرة إلى فلسطين بهدف تجسيد هذه الفكرة قد تعاظمت ونفذت على ضوء سياسات وبرامج وخطط بعد النصف الثاني من ذلك القرن التاسع عشر. لقد ارتفع عدد اليهود في فلسطين من ٢٤ ألفاً في عام ١٨٢٢ إلى حوالي ٨٤ ألفاً في أواخر القرن التاسع عشر ليصل إلى نحو ١٠٠ ألف في بداية الحرب العالمية الأولى. (الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠ ص. ٢٤١). وقد تميزت هذه الفترة بهجرة يهودية واضحة إلى مدينة القدس. حيث ارتفع عدد اليهود فيها من ٣ آلاف في عام ١٨٣٨ إلى ١٢ ألفاً عام ١٨٧٦ ثم إلى نحو ٢٩ ألفاً عام ١٨٩٦ (Maguite, 1981.p.14). إن ما يسترعي الانتباه في موضوع الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال هذه الفترة هو العلاقة الواضحة بين ظهور المؤسسات والجمعيات الصهيونية (أمثال بني موشيه، ووكلاء روتشليد والبيكا، وجمعية الاستعمار اليهودي)، وتنامي حركات الهجرة من جهة وارتفاع حصة القدس من المهاجرين اليهود إلى فلسطين من جهة أخرى. لقد استحوذت القدس على ٤٨٪ و ٥٨,٧٪

من مجموع اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين في عامي ١٨٧٦ و ١٩١٧ على التوالي . (Miguite . 1981, p.14)

وتعود أسباب تنامي أعداد سكان المدينة اليهود على حساب العرب إلى عاملي تردي الظروف العسكرية والاجتماعية خلال فترة الحكم العثماني وأثرها على نمو السكان العرب ثم إلى تعاظم حركات الهجرة اليهودية من أوروبا خلال تلك الفترة وتوجهها إلى المدن الفلسطينية (الشريقي ، بدون تاريخ ، ص ٢٠٧)

لقد نمت مدينة القدس واتسعت كنتيجة لموجات الهجرة المتلاحقة عليها وشهدت فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشاراً للمباني خارج الأسوار ، وإن كان معظمها لوجهاء المدينة العرب . كذلك سمح لليهود والمسيحيين خلال فترة حكم إبراهيم باشا وما تلاها ببناء الكنائس والأديرة خارج السور (لندمان ، ١٩٨٤ ، ص٩٠) . أما اليهود فقد شرعوا ببناء الأحياء اليهودية فيها منذ عام ١٨٦٥ حيث أقيمت ضاحية منتفيوري عند باب صهيون ، وتلا ذلك إنشاء مجموعة من الأحياء مثل ، نحلة شبع (١٨٦٩) و ابن يعقوب (١٨٧٠) ومساكن إسرائيل (١٨٧٦) وذكرى زخرون موشى (١٨٨٠) وأهل موشى (١٨٩٠) وسكوت شلوم (١٨٨٧) وبيت يهودا (١٨٨٨) وشعر بينا وبيوت تيمن (١٨٩٠)وقد بلغ عدد هذه الأحياء حتى عام ١٨٩٢ اثني عشر حياً خارج الأسوار . (الموسوعة الفلسطينية ، ١٩٩٠ ، ص٢٨٦ . أبو عرفة ١٩٨٥ ، ص ٢٩ . العارف ١٩٦١ ، ص ٣٥٠) . وقد أدى الاتساع العمراني للمدينة إلى نمو مساحة المدينة من ٦٩٤ دونماً عام ١٨٩٠ إلى ٤١٣٠ دونماً عام ١٩١٨ ، ((Amiran. 1981, P.61) . أي مضاعفة مساحتها بنحو ٦ مرات عما كانت عليه عام ١٨٩٠ .

يستدل مما سبق ذكره عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين والقدس أن فكرة إنشاء الدولة اليهودية التي تعود إلى فكرة سلالة اليهود الأشكناز قد خطط لها قبل أن يعلن ثيودور هرتزل عن حركته في نهاية القرن التاسع عشر بنحو ١٦٠ عاماً . يؤكد ذلك ما صدر عن مؤتمر حاخامات اليهود الذي انعقد عام ١٧٣١ في سالزبورغ من قرارات بهذا الخصوص . فقد ركزت هذه القرارات على جمع شمل الشعب اليهودي وتوجيهه إلى الأراضي المقدسة . (الشريقي ، ص ٢١٤) .

في الوقت ذاته يكشف تطور أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين وتوزيعهم عن أبعاد الفكر الصهيوني التوراتي النظرة إلى القدس ومستقبلها . وهذا ما ستحاول الورقة معالجته من خلال بعدي التهويد الديموغرافي والجغرافي لمدينة القدس اللذان استخدمها الفكر

الصهيوني في صياغة مخططات التهويد لها كأساس لا يمكن دون تحقيقه نجاح فكرة تهويد فلسطين برمتها .

مخططات التهويد الإسرائيلية للقدس

بعد الإطلالة السريعة على أفكار وأيديولوجيا الصهيونية بخصوص الهجرة إلى فلسطين ومخططات تهويدها ، سنتناول في القسم التالي عرضاً لسياسات ومخططات التهويد للمدينة وفق التسلسل التاريخي التالي : -

١- مرحلة الانتداب البريطاني (١٩٢٠-١٩٤٨):

استطاعت المؤسسات الصهيونية قبيل بداية الحرب العالمية الأولى تنفيذ جزء رئيس من مخططها الرامي إلى إقامة قواعد للكيان اليهودي المنبثقة أصلاً من قرارات مؤتمر سالزبورغ عام ١٧٣١ الداعى إلى إعادة بناء الدولة العبرية " مملكة داوود في أرض كنعان (الشريقي ، ص ٢٢٧) . فحتى ذلك التاريخ تمكن رئيس مجلس الصندوق القومي للاستيطان أدموند روتشيلد من تشكيل لجنة لشراء الأراضي وإنشاء المستعمرات الزراعية والمهنية وجمعيات لخدمات المهاجرين اليهود في فلسطين .

لقد تميزت هذه الفترة بزيادة عدد المستوطنات وشراء الأراضي واستقدام المهاجرين الجدد . فقد زاد عدد المستوطنات من ٢٦ عام ١٩٠٥ إلى ٤٦ مستوطنة في عام ١٩١٣ . وقد تركز معظمها على السهل الساحلي ومنطقة الجليل ومنطقة القدس ومرج بن عامر والكرمل . في الوقت ذاته تمكن اليهود من شراء ٤٢٠,٠٠٠ دونم من أراضي فلسطين خلال الفترة من ١٨٨٠ - ١٩١٤ . (الموسوعة الفلسطينية ١٩٩٠ . ص . ٥٨٩) . وتقدر المصادر التاريخية أن نحو ٤٥,٠٠٠ مستوطن من مجموع ٨٢,٠٠٠ مهاجر يهودي قد استقر في مدينة القدس أو حولها ، في حين بلغ عدد سكان المستوطنات ١١,٥٨٠ نسمة .

ولم تقتصر آثار فترة الانتداب على تغيير البناء والتركيب الديموغرافي لسكان المدينة فحسب بل شمل أيضاً نمو وتوجيه اللاند سكيب الحضري لها بما يخدم مصالح الصهيونية وأهدافها في التهويد . فمن جهة الشمال الغربي للمدينة تم بناء نحو ٤٠ حياً يهودياً بمحاذاة الحواف الغربية للمدينة منها أحياء (بيت هكيرم ، وكيرم أفراهام ، و تل ارزا) ، أما من جهة الجنوب الغربي فقد أقام العرب أحياء لهم فيه مثل (الطالبية ، القطامون ، والبقعة) أنظر خريطة (١) .

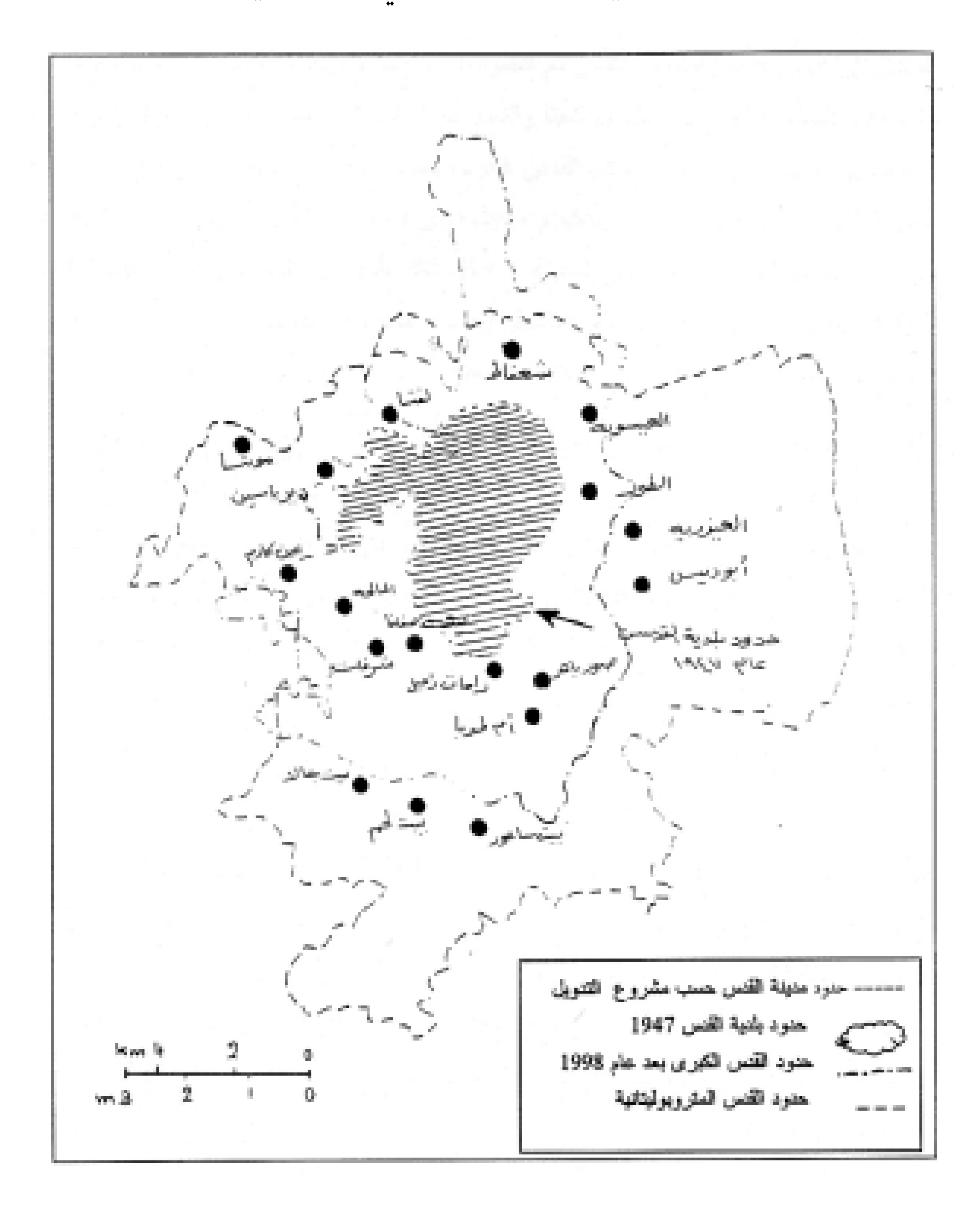
وفي جهة الشمال شهدت المدينة نمواً مشتتاً شمل أحياء الشيخ جراح، لفتا، وادي الجوز، شعفاط، ودير ياسين وخلة الطالبية، في حين أقام اليهود تجمعات سكنية لهم ضمن هذه المنطقة مثل حي النبي يعقوب، وسلوان، ليبوليتس ورامين راحيل. أما القسم الممتد من الباب الجديد عبر شارع يافا وحتى ميدان هيروت " Herut Square " فقد حولته حكومة الانتداب إلى منطقة تجارية.

ومن الجدير بالذكر هنا أن القسم الغربي والجنوبي الغربي من المدينة هي المناطق الأنسب للتوسع الحضري لها لملائمة الظروف الطبوغرافية والعوامل الاقتصادية فيها لهذا التوسع. (Dumber ,1997, p.89). ولضمان توجيه التطور الحضري للمدينة على ضوء مخططات حكومة الانتداب قامت السلطات الانتدابية بإقرار خطة Kendall التي اعتبرت المدينة القديمة منطقة حضارية ودينية وثقافية وإدارية يقوم اقتصادها على تقديم الخدمات المطلوبة لهذا الشأن وذلك تحت ستار حماية الأماكن المقدسة والمعالم الحضارية للمدينة. في الوقت ذاته منعت سلطات الانتداب العرب من تشييد منازل لهم بالقرب من أسوار المدينة كما أنها لم تعط شأناً للأغراض الاقتصادية أيضاً، تحت ذريعة أن ذلك يقلل من خصائص وأهمية الموقع والأهمية الدينية والحضارية للمدينة. على ضوء ذلك قامت سلطات الانتداب بتخصيص منطقة صناعية بالقرب من محطة القطار والطريق المؤدي للساحل غرباً، وذلك خدمة منها للقسم الغربي من المدينة الذي تركزت فيه أحياء المهاجرين اليهود للمدينة.

بعد أن تم تصنيف المنطقة المحيطة بالمدينة منطقة خضراء ومنع إنشاء المباني فيها وتحقق فصل المدينة عن محيطها وعدم السماح لها بالنمو الطبيعي ووجه نموها وتطورها للعفوية والعشوائية ونمت بشكل مطاطي على سفوح الأودية والمنحدرات البعيدة عن سورها في أطرافها الشرقية والجنوبية والشمالية بما لا يمت للمدينة والقسم الغربي منها بصلة. أصبح عزل المدينة المقدسة عن محيطها الغربي حقيقة مهدت عمليات التقسيم مستقبلاً. والملفت للنظر أن نمو الشطر الشرقي من المدينة ظل محكوماً حتى بعد انتقالها تحت السيادة الأردنية.

وبالرغم من التحفظات حول دقة الأرقام وصحتها فقد شهدت نسبة السكان اليهود في المدينة ارتفاعاً ملحوظاً حتى أنها بلغت نحو ٦٠,٤ ٪ من مجموع سكان المدينة عام ١٩٤٦ (Dumber. 1997 , P.62).

شكل (١) حدود مدينة القدس كما وردت في خطة التدويل ١٩٤٧



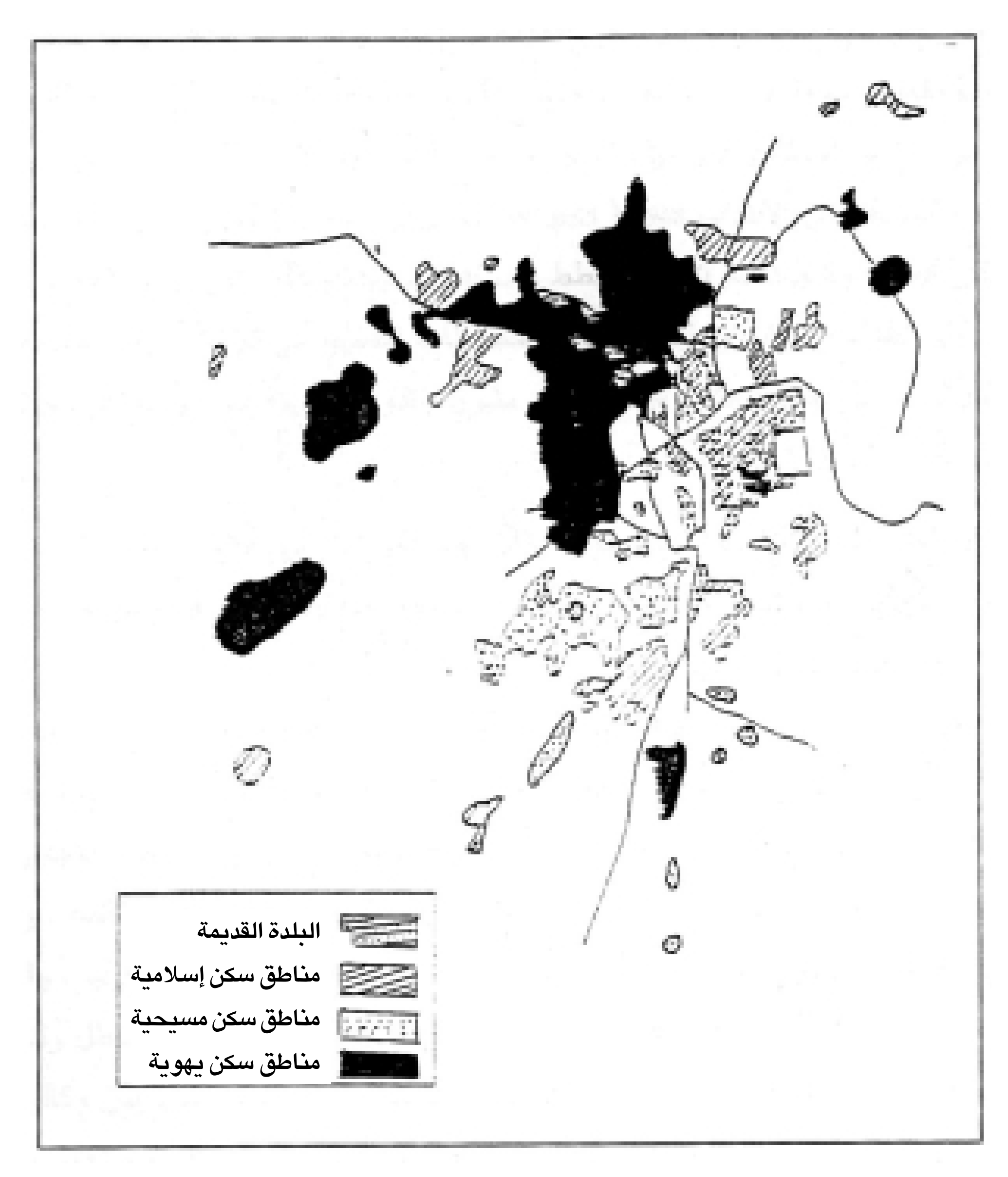
United Nations , The Status of Jerusalem , New York ,1979

لقد مهد توزيع السكان داخل حدود المدينة وتركز اليهود في القسم الغربي منها – والمبالغة في أعداد اليهود سواء من خلال تسجيل المهاجرين اليهود غير الشرعية أو المهاجرين الذين جاءوا لمنطقة القدس ثم انتقلوا إلى منطقة تل أبيب وكذلك استثناء سكان التجمعات السكانية الملاصقة للقدس كلفتا والشيخ بدر والطور وسلوان وعين كارم ودير ياسين وشعفاط والمالحة من مجموع سكان القدس العرب وضم مناطق يهودية تقع خارج حدود المدينة كأحياء مونتفيوري، وبيت هكيرم، بيت فغان، جفعات شأول، ميكورحايم وتل بيوت ورامات راحيل إلى مجموع سكان المدينة –، كل ذلك، أدى إلى المساهمة في التمهيد لمخطط التهويد للشطر الغربي للمدينة والذي استكمل بإصدار مشروع التقسيم لشطريها بموجب اتفاق الهدنة الذي أبرم عام ١٩٤٩ . (Dumber ,1997,p.6)

إضافة إلى ما سبق فقد أسهمت طريقة حساب إعداد المسيحيين المقيمين ضمن حدود بلدية القدس زمن الانتداب، والتي لم يراع خلالها التفريق بين المسيحيين العرب والغربيين في تخفيض نسبة السكان العرب خلال المدة من ١٩٢٢ وحتى ١٩٤٦ . فعلى ضوء هذه الطريقة بلغت نسبة السكان العرب نحو ٢٠ ٪ في حين بلغت نسبة السكان المسيحيين ٣٣ , ٤ ٪، ٢٠ , ٨ ٪ و ١٩ ٪ للأعوام ١٩٢٢ , ١٩٣١ , ١٩٤٦ على التوالي. وبناءاً على الاعتبارات السابقة ارتفعت نسبة السكان اليهود من ٤٥ , ٤ ٪ من سكان المدينة عام ١٩٢٢ إلى ٦٠ , ٤ ٪ عام ١٩٤٦ . (Dumber .1997.P.P.62-63)

يبين شكل (٢) توزيع السكان داخل حدود المدينة عام ١٩٤٥ ويتضح منه أن غالبية السكان الفلسطينيين يتركزون في القسمين الشمالي والجنوبي، في حين تركز معظم اليهود في القسم الغربي والجنوبي منها. وهذا يؤكد تعاون سلطات الانتداب مع الحركات الصهيونية في التمهيد لعملية فصل المدينة وتقسيمها مسبقاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نمواً سكانياً للفلسطينيين قد أخذ في التزايد داخل أسوار المدينة بعد ترك اليهود لها خلال تلك الفترة والاتجاه للسكن خارج أسوارها. في حين اتجه قسم كبير من المسيحيين العرب للسكن في القسم الغربي من المدينة.

شكل (٢) توزيع السكان حسب أصولهم ١٩٤٥



المصدر : M.Gilbert . 1997 .P.63

يبدو من خريطة توزيع السكان في المدينة ومحيطها تركز السكان اليهود في القسم الغربي على طول (المنطقة التجارية على طول شارع يافا والأحياء اليهودية المحيطة كرحابيا وجفعات شاؤول وكريات موشيه وبيت هكيرم وبيت فجان إضافة إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة كميأشعاريم وأحياء الهنجارية والبخارية وروميما وسيطرتهم على ٨٤,٢ ٪ من مساحة المدينة زمن الانتداب ١٩٤٨ (Dumber,1997,p.65) . معنى ذلك أن عمليات الفصل بين السكان العرب واليهود سارت وفق خطط مسبقة ومعدة وبالتعاون بين المؤسسات الصهيونية وسلطات الانتداب وعليه فقد جاءت مخططات التقسيم التي تم اقتراحها من قبل هيئة الأمم سواء على صعيد مشروع التقسيم أو مشروع تدويل المدينة على ضوء خطط إسرائيلية مدروسة وجيدة الإحكام.

لم يقتصر دور المؤسسات الصهيونية خلال هذه المرحلة على ما سبق ذكره بل ومن أجل إكمال مخطط تهويد شطر المدينة الغربي قامت بتنفيذ خطة تتكون من أربع مراحل خلال الفترة ٤٧-١٩٤٨ على النحو التالي :

المرحلة الأولى: وتهدف إلى إثارة الرعب وخلق أوضاع عدم الاستقرار لدى السكان العرب في المدينة من خلال عمليات النسف والتفجير لبعض المؤسسات في الشطر الغربي . على ضوءها تم نسف فندق سميراميس ومقر الوكالة اليهودية إضافة إلى مهاجمة المحال التجارية العربية في المدينة وكان ذلك في شهر أغسطس (آب) من عام ١٩٤٧ . **المرحلة الثانية:** وقد **نفذت بهدف اجتزاء ممر يربط تل أبيب بالقدس من خلال تحويل القتال باتجاه الغرب.** والتي بدأت في شهر مارس (نيسان) ١٩٤٨ ، استشهاد عبد القادر الحسيني واحتلال القسطل وتنفيذ مذبحة دير ياسين وتدمير العديد من القرى الفلسطينية الواقعة غرب المدينة كسيريس وكالونيا وبدو وصوبا . **المرحلة الثالثة** : وتهدف إلى إكمال السيطرة على الأحياء السكنية الفلسطينية في القدس الغربية . وبالرغم من عدم تحقيق أهداف الخطة بالكامل إلا أنها نجحت في فرض سيطرة العصابات الصهيونية على أجزاء من المدينة مثل أحياء القطمون، الطالبية، البقعة العليا والسفلى والحي الألماني والحي اليوناني . **أما المرحلة الرابعة** : فقد تم خلالها السيطرة على المناطق الاستراتيجية التي أخلاها الجيش البريطاني بعد انسحابه . وبالرغم من عدم تحقيق الحملة غايات الخطة في فرض سيطرة يهودية كاملة على المدينة القديمة إلا أنها استطاعت السيطرة على بعض الأحياء السكنية الملاصقة لأسوار

المدينة من جهة الشمالي الغربي بالإضافة إلى سيطرة اليهود على القسم الغربي للمدينة بالكامل بحلول ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ وإجبار نحو ٢٨ ألفاً من الفلسطينيين العرب على مغادرة ديارهم وممتلكاتهم في هذا القسم مقابل مغادرة نحو ٢٠٠٠ يهودي للقسم الشرقي من المدينة . (Hud son,1989.p.93) .

٢- مرحلة احتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٦٧)

منذ أن تم الإعلان عن قيام دولة إسرائيل والتوقيع على الهدنة مع الأردن عام ١٩٤٩ وبعد أن أعلنت إسرائيل عن اتخاذ مدينة القدس (الشطر الغربي) عاصمة لدولتها بعد سيطرتها الكاملة على الأرض واقتلاع سكانها الأصليين منها ، سارعت إسرائيل مجدداً إلى تبني إجراءات إضافية لتهويد المدينة ، فشرعت في إعادة توزيع السكان وزيادة أعدادهم وإسكان اليهود في الأحياء العربية التي تم إخلاؤها بالقوة . في الوقت ذاته قامت الحكومة بتطوير مدخل القدس الغربي والممر الذي يربطها بالساحل وأنشأت العديد من المستوطنات الزراعية في مناطق شمال وجنوب المدينة لاستيعاب نحو ١٨ ألف نسمة . ولإضفاء الصبغة اليهودية على المدينة ومحيطها أقدمت السلطات الإسرائيلية على هدم وتدمير ٣٧ قرية عربية من أصل ٤١ قرية تحيط بالمدينة غرباً لإقامة مستوطنات يهودية على أنقاضها ليرتفع عدد المستوطنات من ٦ إلى ٣٩ مستوطنة . أدى ذلك إلى ارتفاع عدد سكان المدينة اليهود من ٨٢,٠٠٠ عام ١٩٤٨ إلى ١٩٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٦ (Schmelz,1987 .p.48)

ظل إقبال المهاجرين للسكن فيها دون مستوى توقعات هذه المخططات بالرغم من تركيز المخططات الصهيونية في توجيه الهجرة اليهودية إلى المدينة . إلا أن المحاولات الإسرائيلية الهادفة إلى زيادة عدد سكان المدينة ورفع الوزن الديموغرافي والجيوبولتكي للمدينة لم تتوقف منذ ذلك الحين وحتى الوقت الحاضر ، وهذا ما سنحاول إيضاحه في كل مرحلة من المراحل التاريخية اللاحقة .

أما فيما يتعلق بأسباب عدم إقبال اليهود المهاجرين للاستيطان في القدس الغربية فيعزى إلى : (Dumber .1999, P.67)

١ . العزلة الجغرافية المفروضة على المدينة وبعدها عن الساحل .

٢ . بقاء الأماكن الدينية خارج سيطرة إسرائيل في الشطر الشرقي .

٣ . محدودية مجالات التوسع الاقتصادي وضيق السوق المحلي .

٤ . إضطراب حالة الأمن وانتشار الخوف نظراً للموقع الحدودي للمدينة .

إلا أن هذه الأسباب وإن حالت دون إعطاء المدينة الوزن والأهمية الجيوبولوتيكية المطلوبة فإنها لم تثن السلطات الإسرائيلية عن اتخاذ العديد من السياسات والخطط بهدف استكمال مخططات التهويد للشطر الغربي مع ضمان تحقيق مهمات التهويد للشطر الشرقي مستقبلاً . حيث ساعدت الظروف فيه إلى تسهيل تنفيذ طموحات التهويد وخططه بعد عام ١٩٦٧ ، خاصة بعد اتخاذ قرار اعتبار مدينة عمان عاصمة للمملكة الأردنية الهاشمية بعد إعلان قرار وحدة الضفتين وما واكب ذلك من تناقص في أعداد سكان الشطر الشرقي من المدينة لا سيما بين السكان المسيحيين الذين انخفضت نسبتهم من ٣٨ ٪ عام ١٩٤٨ إلى ١٥٪ من جملة السكان المسيحيين من عدد سكان المدينة عام ١٩٦٧ . (Benvenisti,1976,P.53) .

لقد تبنت مخططات التهويد للشطر الغربي للمدينة خلال هذه المرحلة كخطة ران Ran (١٩٤٩) أو خطة Shaviv (١٩٥٥) استراتيجيات تقوم على زيادة الوزن الديموغرافي للمكان من خلال إيجاد بيئات سكن ملائمة في المناطق الفارغة وتطوير القائم منها . وتم خلال هذه المرحلة استغلال معظم المساحات الفارغة في شمال وغرب المدينة وبالقرب من حائط السور الغربي للمدينة . في الوقت ذاته لم تهمل خطة شافيف على سبيل المثال تطوير المنطقة التجارية التي نمت باتجاه الغرب تحت تأثير الواقع السياسي وكتلبية لاحتياجات السكان في الضواحي الغربية تجاه الساحل . وبحلول عام ١٩٦٧ كانت معظم الأراضي داخل حدود البلدية في هذا الشطر قد استغلت ولم يتبق منها سوى مساحات محدودة محصورة في منطقة وادي سوريك بالقرب من عين كارم . وبهذا فإن مشاريع التطوير ومراكز الخدمات والمنشآت التي أقيمت على بعد بضعة أمتار عن حدود الشطر الشرقي للمدينة لم تكن أخطاء وقع بها المخطط بل كانت وليدة أفكار وأيديولوجيا مشروع التهويد الصهيوني للمدينة بشطريها . إذ سهل هذا الواقع فيما بعد إجراء وتنفيذ سياسات الضم التي أعلن عنها خلال مدة وجيزة من احتلال إسرائيل للقسم الشرقي من المدينة في أعقاب حرب حزيران عام ١٩٦٧ .

٣-مرحلة الاحتلال الإسرائيلي لأراضي الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٦٧-١٩٩٣.

لا تختلف تصريحات المسؤولين الإسرائيليين عن مخططات التهويد واستراتيجياته . حيث تؤكد ومنذ أكثر من قرن ونصف وحتى الآن على أن القدس هي قلب فكرة الدولة اليهودية . وعليه فإن السيطرة عليها يعني تجسيد هذه الأفكار . وللمثال لا للحصر يؤكد تصريح رابي

كوهين نائب رئيس بلدية القدس عام ١٩٦٧ الذي أدلى به في الاجتماع الذي عقده المجلس البلدي للمدينة في ١٣/ ٨/ ١٩٦٧ والذي قال فيه " يمكن القول بجرأة وبصراحة أننا بحاجة لعمل كل شيء ضمن إمكانياتنا لإقامة القدس الكبرى، لتكون أكبر مدينة يهودية في العالم، مدينة يهودية حقيقية وذلك من خلال أعداد السكان فيها ومن خلال إعطائها الملامح والصفة اليهودية الدائمة (Dumber,1997,p.53) . إلا دليل على ما سبق.

وما تصريحات مردخاي إش شالوم وهو رئيس بلدية سابق الذي صرح بعد انتهاء حرب ١٩٦٧ " بأن المطلوب وبسرعة هو اليهود، العديد من اليهود في القدس، لا داعي لأي تقييدات في الهجرة. (Dumber .1997.p.53) وما صرح به موشي ديان وهو يقف على الحائط الغربي للمسجد الأقصى ٢٢/ أيلول عام ١٩٦٨ : " يا أورشليم لن نتركك بعد الآن أبداً " . (Aronson,1990, p.28). وتصرح غولدامائير في ٢٦/ أيلول/ ١٩٧٢ بقولها " بأن الحدود حيث يقيم اليهود لا حيث يوجد خط على الخريطة " (Aronson,1990,p. ٢٨). إلا أدلة على صحة ما ذكرناه.

لقد دأبت الصهيونية وبكل السبل على تأكيد حيوية القدس لموضوع الحقوق اليهودية في فلسطين. وظل قادة إسرائيل يرون أنه إذا كان من حق كل يهودي العودة إلى أرض إسرائيل، فكيف لا تؤكد إسرائيل حقها في السيادة على القدس كلها. وعليه فهم يرون أن إخفاق إسرائيل في تأكيد حقوقها في أقدس الآثار المقدسة في الديانة اليهودية يعني الإخفاق في الوجود الإسرائيلي في كل بقعة تواجدت فيها في فلسطين. وإن عدم قدرتها على الضم هو دلالة ضعف وشيك في حق إسرائيل في فلسطين.

على ضوء هذه الأفكار والأيديولوجيات التي لم تختلف في جوهرها منذ بداية تشكيل الحركات الصهيونية الأولى في القرن التاسع عشر استمرت سياسات وبرامج ومخططات تهديد المدينة وتوسيع رقعة التهويد، وظل العامل الديموغرافي وهاجس الأمن مرتكزا خطط التهويد. ولتحقيق مخطط التهويد الكامل للمدينة بعد أن تمكنت إسرائيل من احتلالها الشطر الشرقي لها عام ١٩٦٧ نفذت إسرائيل خطة تهويد هذا الشطر من خلال : -

٣-١: صياغة الإطار القانوني لتهويد الشطر الشرقي:

في ٢٥/ ٦/ ١٩٦٧ وبعد مضي أقل من عشرين يوماً على احتلال إسرائيل للقسم الشرقي من المدينة في ٧/ ٦/ ١٩٦٧، أصدرت حكومة الاحتلال الإسرائيلي قانوناً ينص بسريان

القانون الإسرائيلي على القدس . بعد يومين من ذلك صدر قانون آخر معدل لقانون أنظمة السلطة والقضاء لسنة ١٩٤٨ تضمن بعد إضافة المادة (١١ ب) له سريان قانون الدولة وقضاءها وإدارتها على كل مساحة أرض إسرائيل حددتها الحكومة في مرسوم في ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧ وعليه أعلنت الحكومة الإسرائيلية أن سلطتها تسري على منطقة الحدود الجديدة التي حددتها حدوداً إضافية لمدينة القدس والتي كانت جزءاً من أراضي الضفة الغربية وتبلغ مساحتها ٦٩, ٩٠٠ كم٢ . تلى ذلك تعديل إسرائيل لقانون البلديات (تعديل رقم ٦ لعام ١٩٦٧) والذي بموجبه تم توسيع نطاق بلدية القدس ليشمل المنطقة المبينة في ذيل قرار الضم والذي يشمل مناطق وادي الجوز والشيخ جراح والمصرارة والعيساوية وشعفاط ، بيت حنينا حتى مطار قلنديا إضافة إلى مطار القدس وبيت صفافا وسلوان ، الثوري ، صور باهر ، أم طوبا ، جبل المكبر . (غنيم ، ١٩٩١ ، ص ٣٦) .

وكتجسيد عملي على أرض الواقع لأهداف الأنظمة والقوانين والتشريعات السابقة أعلنت حكومة إسرائيل في ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧ حل بلدية القدس العربية ورفع الحواجز التي تفصل التجمعات الواقعة ضمن الحدود الجديدة . أعقب ذلك تنفيذ عملية إحصاء لسكان القطاع الذي تعرض للضم ومنح سكانه بطاقة هوية شخصية مميزة عن هوية باقي السكان في الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، وأعلنت إسرائيل منذ ذلك سريان الأنظمة والتعليمات الإسرائيلية على كافة جوانب الحياة داخل حدود المدينة على اعتبارها جزءاً من إسرائيل . (بنيزيمان ، ١٩٧٦ . ص ٦١) .

إلا أن عملية الضم لم تكن شرعية سواء على صعيد رفض مؤسسات وسكان المدينة وضواحيها لذلك أو على صعيد المؤسسات والمنظمات الدولية . ولإضفاء الصبغة الشرعية على ذلك قامت إسرائيل بسن قانون أساسي بتاريخ ٣/ ٧/ ١٩٨٠ تعتبر القدس بموجبه عاصمة لإسرائيل ، وقد قدم القرار للكنيست الإسرائيلي لإقراره حيث تمت المصادقة عليه وإقراره من قبلها رغم رفض الفلسطينيين والعالم ممثلاً بهيئاته ومؤسساته الدولية والشرعية له .

٢-٣: سياسات التفريغ والإحلال الديموغرافي:

وصولاً إلى شعار أن فلسطين أرض بلا شعب وأنها أرض الميعاد وعد الله بها شعبه المختار ، كرست المؤسسات الصهيونية خططها على الإخلال بالميزان الديموغرافي في فلسطين لصالح اليهود أولاً وصاغت على ضوء ذلك خطط ومشاريع تقسيم المكان . جاء ذلك من أجل ضمان

برامج التهويد وخططه.

في هذه الحقبة وبعد التمهيد القانوني والنظري لمخطط تهويد القسم الشرقي من المدينة حرصت إسرائيل على تخفيض نسبة السكان العرب في المدينة ومحيطها. وتم لها ذلك من خلال ممارسات عدة. كان أولها إجبار نحو ٣٠,٠٠٠ من سكان المدينة من ترك منازلهم وعدم السماح لهم بالعودة إليها على أثر حرب حزيران عام ١٩٦٧. وفي محاولة أخرى منها لطرد السكان العرب من المدينة أصدرت السلطات الإسرائيلية أوامر وقرارات تحول دون السماح لمواطني القدس الذين لم يتواجدوا خلال ساعات العد السكاني للمدينة أو لم تصل إليهم فرق العد لأسباب مقصودة العودة إلى المدينة أو الاستقرار داخل حدودها. مباشرة وخلال الأيام الأوائل من فرض إسرائيل سيطرتها على المدينة قامت سلطات الاحتلال بإجبار نحو ٦٥٠ مقدسياً من ترك منازلهم من منطقة حي المغاربة وهدم وتدمير ١٣٥ منزلاً عربياً في الحي والشروع في إنشاء حي للمستوطنين اليهود يبلغ تعداد سكانه اليوم قرابة ٢٥٠٠ نسمة (رافع، ١٩٩٦، ص ٢٩٣. خوري، ١٩٩٦، ص ٥٤٣).

بعد أقل من عام من احتلال المدينة قامت سلطات الاحتلال بترحيل قرابة ٥٥٠٠ مقدسياً من حارة اليهود في المدينة فارضة سيطرتها على ١١٠ دونماً تحوي ٧٠٠ منزلاً تتكون من ١٠٤٨ وحدة سكنية ونحو ٤٣٧ محلاً تجارياً تعود ملكية معظمها للعرب قبل عام ١٩٤٨. وتتابعت منذ ذلك الحين خلق البؤر الاستيطانية داخل أسوار المدينة وخارجها عاملة على رفع الميزان الديموغرافي لصالح اليهود، إضافة إلى آثارها السلبية على مجالات قطع الاتصال بين الأحياء والمواقع العربية الفلسطينية.

٣-٣: خطة التطوير ومشاريع الاستيطان:

أدركت إسرائيل أن إيجاد أغلبية يهودية في حدود بلدية القدس لن يتحقق من خلال طرد السكان الأصليين العرب وإنما من خلال خلق ظروف تجبرهم على مغادرة مناطق سكناهم. من أجل ذلك شرعت بوضع سلسلة من القوانين تتعلق بشروط المواطنة والإقامة في حدود القدس إضافة إلى القوانين الخاصة بأنظمة البناء ضمن حدود البلدية ومحيطها الخارجي. رافق هذه السياسات ممارسات بالخفاء تمثلت في سياسة مصادرة الأراضي والممتلكات وتزوير الملكية وعمليات شراء وبيع الأراضي. جاء ذلك من خلال إعداد خطط تطويرية للقسم الشرقي من المدينة تسمح بإنشاء وإقامة العديد من المواقع والبؤر الاستيطانية بهدف توفير

المساكن لليهود سواء المهاجرين الجدد أو الذين تستهويهم امتيازات الإقامة والسكن في المستوطنات، وقيدت في الوقت ذاته النمو والتوسع للتجمعات العربية بل وعملت كل ما بوسعها للحد منها. ففي الجهة الشمالية من المدينة شيدت السلطات الإسرائيلية أحياء استيطانية في كل من (المشارف وجبل الزيتون، رامات أشكول، جبل اسكوبس والنيفي يعقوب) ومن جهة الجنوب أقامت مستوطنات في (تل بيوت وجبل المكبر). لقد تسارع نمو السكان اليهود في الشطر الشرقي للمدينة حيث وصل عددهم في عام ١٩٩٥ إلى ١٦٥,٠٠٠ نسمة مقابل ١٧٠,٠٠٠ نسمة من السكان العرب. وظلت نسبة السكان اليهود داخل حدود بلدية القدس الموحدة لا تقل عن ٧٠٪ من مجموع سكان المدينة. في الوقت الذي تسعى فيه سياسات التهويد إلى تخفيض نسبة العرب إلى نحو ٢١٪ من خلال إضافة العديد من الوحدات السكنية في المستوطنات المحيطة بالمدينة. (Jerusalem of Statistical year book .1996. P.25).

وبالرغم من النمو المتسارع في عدد السكان اليهود في الشطر الشرقي للمدينة، فقد ظلت نسبة السكان العرب داخل حدود البلدية تقارب ٥٠٪ من مجموع السكان في حين تصل نسبتهم إلى نحو ٨٥٪ في المناطق الواقعة خارج حدود البلدية ضمن حدود ما يسمى بالقدس الكبرى (غنيم، ١٩٩٠، ص١٣٢). (أنظر شكل رقم ٣)

شكل (٣) المستوطنات الإسرائيلية في حدود بلدية القدس



وبالرغم من كل العقبات التي وضعت أمام بقاء أو تزايد السكان العرب في المدينة مقابل الحوافز التي تركت للسكان اليهود، إلا أن معدلات نمو السكان العرب فاقت مثيلتها عند السكان اليهود. فقد بلغت معدلات النمو عند اليهود ٢,٨٪ مقابل ٦,٣٪ عند العرب. (Jerusalem . Municipality .www)

ودعماً لسياسة إسرائيل في زيادة نسبة السكان اليهود في المدينة والحفاظ على طابع الأغلبية لم يكن أمام الحكومة والبلدية سوى العمل على إنشاء وتوفير مساكن رخيصة وخدمات لجلب مهاجرين جدد إليها من خلال تشجيع تحويل الغالبية العظمى من المهاجرين الجدد. في الوقت ذاته حرصت الحكومة على الحد من نمو السكان العرب الفلسطينيين من خلال تطبيق أنظمة وقوانين الخطط الهيكلية " Zoning plans " وفرض القيود والتعليمات الصارمة البناء ومنح تراخيص البناء للعرب.

ترتب على هذه السياسات زيادة عدد السكان اليهود داخل حدود القدس الكبرى حيث ارتفع عددهم من ١٩٨,٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٧ إلى ٤٢١,٢٠٠ نسمة عام ١٩٩٦. في الوقت ذاته زاد عدد السكان العرب من ٦٩,٠٠٠ إلى ١٨٠,٠٠٠. وبالرغم من كل هذه السياسات وبالرغم من مضاعفة عدد السكان اليهود إلا أن الزيادة السكانية للعرب ظلت هي الأكبر. وظلت نسبة السكان العرب إلى اليهود ضمن حدود القدس الموحدة تتراوح بين ٢٥ إلى ٢٨ ٪ من مجموع سكان المدينة لمدة تزيد عن ربع قرن (Dumber .1997.p.121). وعليه فإن مأساة الوضع الديموغرافي في نظر ساسة الفكر الصهيوني ظلت ماثلة في وجه الحكومات الإسرائيلية دون أن تجد حلاً لها. وظل النمو السكاني العالي للفلسطينيين في المدينة وضواحيها أمراً مقلقاً للحكومة الإسرائيلية ولبلدية عاصمتها.

وتواجه ساسة الفكر التهويدي في إسرائيل مشكلة كآراء تنطوي على كيفية تحقيق التهويد وتوسيع الحدود دون إحداث تغيير في الميزان الديموغرافي بل وإمالته لصالحهم.

هذه الحقيقة توضح أسباب تردد الحكومة الإسرائيلية وتأخرها في تنفيذ عمليات الضم. إضافة إلى تأثير كل من عوامل الطبوغرافيا والإسكان والتجارة التي لم تكن مشجعة أدركت السلطات الإسرائيلية أنه كلما زادت مساحة الأراضي المضمومة ستزداد نسبة السكان العرب الذين سيضافون، وهذا من جانبه يفسر اختلاف وجهات النظر والتناقض بين البلدية والحكومة الإسرائيلية حول إقامة مستوطنات يهودية في حدود القدس الكبرى.

ظل إيجاد سيطرة وأغلبية يهودية ضمن حدود القدس الكبرى أمراً مثيراً للجدل بين الجهات الرسمية في البلدية. ففي حين يراه البعض عاملاً مساعداً في زيادة السكان اليهود اعتبره البعض الآخر أن نقل السكان اليهود من القسم الغربي وتوطينهم في القسم الشرقي من المدينة سيؤثر على الوزن الديموغرافي للشطر الغربي وتفريغه. من جانب آخر يرى فريق ثالث أن استمرار نمو السكان الفلسطينيين داخل حدود البلدية في القسم الشرقي أو محيطها سيؤدي خلال فترة وجيزة إلى وضع الإسرائيليين أمام معضلات جديدة. ولمعالجة واحتواء ما قد يفرض مستقبلاً اتخذت المؤسسات الإسرائيلية الخطوات الاستراتيجية المتمثلة فيما يلي:

١) تسهيل توطين أكبر عدد ممكن من المهاجرين الجدد.
٢) توفير ظروف اقتصادية واجتماعية لجذب السكان اليهود من خارج حدود القدس إليها.
٣) الحد من النمو الفلسطيني في القدس وحولها.

ومع ذلك فقد أخفقت السياسات والإجراءات الإسرائيلية في خلق غلبة يهودية في محيط المدينة الخارجي فقد فاق معدل النمو الطبيعي للسكان الفلسطينيين ٣٤ بالألف مقابل ١٩ بالألف للسكان اليهود. (Statistical Yearbook of Jerusalem, 1996). وانخفض إسهام النمو الطبيعي لسكان المدينة عرباً ويهوداً وأصبح عامل النمو السكاني متأثراً بصافي الهجرة، حيث شكلت نسبة الزيادة المترتبة عنها ٥٠ ٪ من نسبة النمو السكاني فيها خلال الفترة ١٩٨٠-١٩٩٠.

وبالرغم من النمو المضطرد في سكان المدينة خلال الفترة منذ بداية السبعينات وحتى الوقت الحاضر حيث ارتفع عدد سكان المدينة من ٣١٣,٨٠٠ نسمة عام ١٩٧٢ إلى ٦٠٢,١٠٠ في عـــام ١٩٩٦ (Jerusalem Institute for Israel Studies , Statistical Year Book of Jerusalem, 1996)، إلا أن معدل الزيادة السنوية لليهود والمقدرة بنحو ٧,٠٠٠ نسمة كانت دون أهداف الحكومة. بالمقابل حققت الزيادة السكانية بين الفلسطينيين العرب خلال الفترة ذاتها ارتفاعاً ملحوظاً عندما ارتفع عدد السكان من ٨٣,٠٠٠ إلى ١٨٠,٩٠٠. فبالرغم من أن عدد اليهود قد ارتفع من ٢٣٠,٠٠٠ عام ١٩٧٢ إلى نحو ٤٢١,٢٠٠ نسمة عام ١٩٩٦ إلا أن المسؤولين الحكوميين كانوا قلقين من الحقائق التي تكشفها الخصائص الديموغرافية لكلا الفئتين من السكان التي يستدل من تحليلها أن ٥١,٤٪ من مجموع السكان العرب في المدينة هم ضمن فئة العمر ٠-١٩ عاماً. مقابل نسبة ٤٠,٩ ٪ عند السكان اليهود لنفس الفئة. في الوقت ذاته ترتفع نسبة كبار السن ٦٥ فأكثر بين سكان المدينة اليهود لتصل

إلى ٩,٧٪ مقابل ٩,٣٪ عند السكان العرب، فإذا ما أضفنا مشكلة الخصائص النوعية للسكان العرب إلى جملة المشاكل الديموغرافية المتمثلة في حجم السكان وتوزيعهم ومعدلات النمو الطبيعي لهم، تكتشف أن ما يتردد على لسان الساسة الإسرائيليين من مقولة القنبلة الديموغرافية الفلسطينية الموقوتة هي أخطر ما يواجه أطماع التهويد والاحتلال وأن ذلك ليس شعاراً فحسب بل واقعاً خطراً يشكل عقبة كأداء تسعى إسرائيل لحلها من خلال برامج وسياسات تتسم تارة بالعنف وتتمثل بالترحيل وسحب الهويات وعدم توفير فرص العمل وتشديد الخناق على لقمة العيش ومكان الإقامة وتارة أخرى بالديموقراطية والحضارة من خلال برامج حملات التوعية وتنظيم الأسرة التي تهدف إلى تخفيض معدلات الخصوبة والنمو السكاني عند السكان العرب. (Municipality of Jerusalem . www).

ويعتقد صانعو ومنفذو سياسات وإجراءات التهويد الديموغرافي للمدينة أن عامل النمو والزيادة الطبيعية للسكان اليهود في المدينة وصافي الهجرة الداخلية إليها لن تؤدي إلى تحقيق مخططات الإحلال الديموغرافي أو الحفاظ على نسبة الأغلبية التي تم تحقيقها على مدار خمسين عاماً مضت. ويرون أن تشجيع الهجرة الخارجية للمدينة وللشطر الشرقي لها والمحافظة على تخفيض نسبة الهجرة المعاكسة من المدينة إلى محيطها الخارجي أو إلى مدن أخرى من خلال إيجاد مصادر تمويل وتوفير للمساكن لتفي حاجات السكان الجدد وتشكل مغريات لهم مع توفير فرص عمل مناسبة هي الطرق الأفضل لتحقيق سياساتها.

على ضوء ذلك أولت الحكومة وبلدية القدس موضوع الهجرة الخارجية للمدينة عناية خاصة وتكشف البيانات الديموغرافية المتوفرة على الصفحة الألكترونية لبلدية القدس أن معدل المهاجرين الجدد للمدينة خلال الثمانينات بلغ نحو ٢٥٠٠ مهاجراً سنوياً، إلا أنها ارتفعت بشكل كبير في مطلع التسعينات لتصل إلى ١٣,٦٠٠ عام ١٩٩٠ ثم إلى ١٤,٤٠٠ عام ١٩٩١ ثم انخفضت إلى ٧,٥٠٠ ثم ٧,٧٧٥, ٥,٥٣٠ ثم ٤٨٠٠ ثم إلى ٤٤٧٠ للأعوام ١٩٩٢, ١٩٩٣, ١٩٩٤, ١٩٩٥, ١٩٩٦ على التوالي.

لقد بلغ عدد المهاجرين الجدد إلى المدينة نحو ٥٢,٠٠٠ نسمة سكن ٣٥٪ منهم خلال الفترة من ١٩٨٩ – ١٩٩٥ في ضواحي المدينة التي تم إضافتها بعد عام ١٩٦٧ في مستوطنات بسجات زئيف والنيفي يعقوب وجيلو وراموت ورامات أشكول وكريات يوفيل.

ومع ذلك كله فقد شهدت المدينة هجرة معاكسة لسكانها تمثل معظمها خلال عقد الثمانينات والتسعينات. ويستدل من الإحصاءات المتوفرة من قسم الاستيعاب في وزارة الداخلية

الإسرائيلية المنشورة على الصفحة الألكترونية لبلدية القدس أيضاً أن نحو ١٦,٠٠٠ نسمة من السكان اليهود قد غادروا المدينة سنوياً خلال الفترة ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٦، وأن نحو ثلث هؤلاء السكان قد استقر في تجمعات استيطانية بعيدة عن مركز المدينة كمستوطنة معاليه أدوميم وميغاسيريت زيون وجفعات زيئيف وأفرات وبيتارإلتا وبيت شيمش، بينما انتقل نحو ٢٠-٢٥ ٪ منهم إلى تل أبيب. ومما يثير الدهشة أن نسبة عالية من الهجرة الداخلية العكسية هم أصلاً من المهاجرين الجدد الذين قدموا للمدينة من خارج إسرائيل. وتشير الإحصاءات المتوفرة عن الهجرة المعاكسة من المدينة إلى خارجها أن قرابة ٢١ ٪ من هؤلاء المهاجرين للأعوام ١٩٩٤, ١٩٩٥ هم من المهاجرين الجدد.

على صعيد حركة السكان وتنقلهم داخل حدود مدينة القدس فقد شهدت فترة التسعينات نشاطاً ملحوظاً في تغيير أماكن السكن لدى السكان اليهود وتراوح عدد الذين غيروا أماكن سكنهم بين ١٨٠٠٠ نسمة عام ١٩٩١ إلى ٣٢, ٥٠٠ نسمة عام ١٩٩٦. ويستدل من اتجاه حركة السكان أن مركز المدينة والأحياء المحيطة شهدت تناقصاً في أعداد سكانها بينما تشهد الضواحي الجديدة زيادة في السكان بفعل انتقال سكان جدد إليها. (Jerusalem Municipality. www)

لقد أدى تشجيع السكان الانتقال إلى المستوطنات المقامة فوق الأراضي التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ إلى تدني معدلات نمو السكان في الشطر الغربي من المدينة، وبدا وكأن تطوير القسم الشرقي منها يتم على حساب شطرها الغربي مما دفع برئيس بلديتها السابق تيدي كوليك وفي رده على الاتهامات الموجهة إليه حول هذه الظاهرة إلى تصريحه بالقول " لقد عملت شيئاً يذكر للقدس اليهودية خلال ال ٢٥ عاماً الماضية، ولكني لم أعمل شيئاً للقدس الشرقية. ما عملته هو لا شيء، مجرد أرصفة شوارع ؟ لاشيء، مؤسسات ثقافية ولا واحدة، نعم لقد أنشأنا شبكة مجاري لهم وحسنا شبكة مياه الشرب ؟ أتعرفون لماذا ؟ أتظنون أنها لمصلحتهم ولرفاههم، إنسوا ذلك، لقد كان هناك بعض حالات من الإصابة بالكوليرا، وكان الخوف أن يتأثر اليهود بها ؟ . . . . . . " (معاريف، أكتوبر، ١٩٩٠).

إن ما يثير قلق الباحثين والمهتمين اليهود هو إدراكهم لحقيقة أن نمو عدد السكان في المستوطنات في القسم الشرقي يتم على حساب تناقص عدد السكان في القسم الغربي من المدينة. وبالرغم من تواضع نسبة عدد اليهود في القسم الذي تمت إضافته والتي لا تزيد عن عن ٤٠-٤٥ ٪ من مجموع سكان هذا القسم إلا أن انخفاض عدد اليهود سكان أحياء المصرارة

ونهالون الواقعة في القسم الغربي تعني أن زيادة عدد السكان في القسم الشرقي تتم على حساب القسم الغربي .

إن استمرار وجود نحو ٩٠ ٪ من سكان منطقة القدس الكبرى خارج حدود البلدية عرباً يعني تهديداً واضحاً وخسارةً لآي مكاسب تم تحقيقها بالنسبة للإسرائيليين في المنطقة المضافة ، لهذا الواقع تقوم إسرائيل بوضع خطط وبرامج تسعى إلى زيادة الوجود اليهودي في هذه المنطقة وتتخذ إجراءات تضمن ذلك . إن إصدار رابين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق لقراره اعتبار المستوطنات في محيط القدس الكبرى مستوطنات أمنية ، أي غير خاضعة للتفاوض مستقبلاً ما هو إلا إجراء لخلق توازن ديموغرافي في تلك المنطقة خدمة لتحقيق مشاريع التهويد مستقبلاً ، أما مشروع القدس الكبرى ومشروع متروبوليتان القدس (شكل ٤) اللذان تم إعدادهما وإقرارهما والمباشرة في تنفيذهما بعد توقيع اتفاقية إعلان المبادئ عام ١٩٩٣ فهي إثبات لنوايا التهديد وأهدافه .

شكل (٤) مدينة القدس الكبرى



٣-٤: مصادرة الأراضي وفرض قوانين التنظيم والبناء:

استطاعت حكومة الاحتلال الإسرائيلي خلال سنوات الاحتلال للمدينة أن تضع مجموعة من القوانين والأنظمة في مجال التنظيم والبناء استكمالاً لتلك التي وضعتها المؤسسات الصهيونية بالتعاون مع حكومة الانتداب في السابق والتي استهدفت الاحتفاظ بأوسع قطاع ممكن من الأراضي الفلسطينية للاستيطان اليهودي. أما فيما يتعلق بمدينة القدس الشرقية فقد شرعت قوات الاحتلال بإعداد مخطط هيكل للمدينة رقم ٤/ ٩/ لعام ١٩٦٩ شمل ١٥ كم٢ إضافة إلى المساحة الأصلية لنفوذ البلدية، تم بموجبه منع البناء في ٨٠ ٪ من مساحة المخطط جاء ذلك بهدف حصر الوجود العمراني الفلسطيني على ما كان عليه عام ١٩٦٧ وعدم السماح بأي تطور عمراني فلسطيني والاحتفاظ بكامل المنطقة لصالح الاستيطان. وقد أعقب ذلك إصدار مجموعة كبيرة من الأوامر العسكرية والقوانين والأنظمة والتي هدفت إلى تكريس منهج حصر الامتداد العمراني الفلسطيني والاحتفاظ بأوسع قطاع ممكن من الأراضي للاستيطان بإبقائها مناطق خضراء مفتوحة ثم إعداد مخططات تنظيم هيكلية خاصة بمشاريع الاستيطان قدرت طاقتها الاستيعابية على ضوء مشروع متروبوليتان القدس بنحو ٢ مليون يهودي حتى عام ٢٠١٥ منهم ٥٠ ٪ يهود. يضاف إلى ذلك أنها تعمل على فصل القدس تماماً عن الضفة الغربية. لقد رسمت هذه المخططات بعناية وتكامل. لقد أسفرت هذه المخططات عن مصادرة ٢٥٨٤٠ دونماً تشكل ٣٤٪ من الأراضي التي تم ضمها بعد ١٩٦٧ ضمن مشروع القدس الكبرى، في حين تم تخصيص نحو ٣٩٥٢٠ دونماً أي ٥٤ ٪ من المساحة كأراضي خضراء وإبقاء ١٢ ٪ فقط من مساحة المخطط للعمران الفلسطيني في الوقت الذي يشغل الفلسطينيون ١٠ ٪ منه في البناء. (جمعية الدراسات العربية، ١٩٩٦).

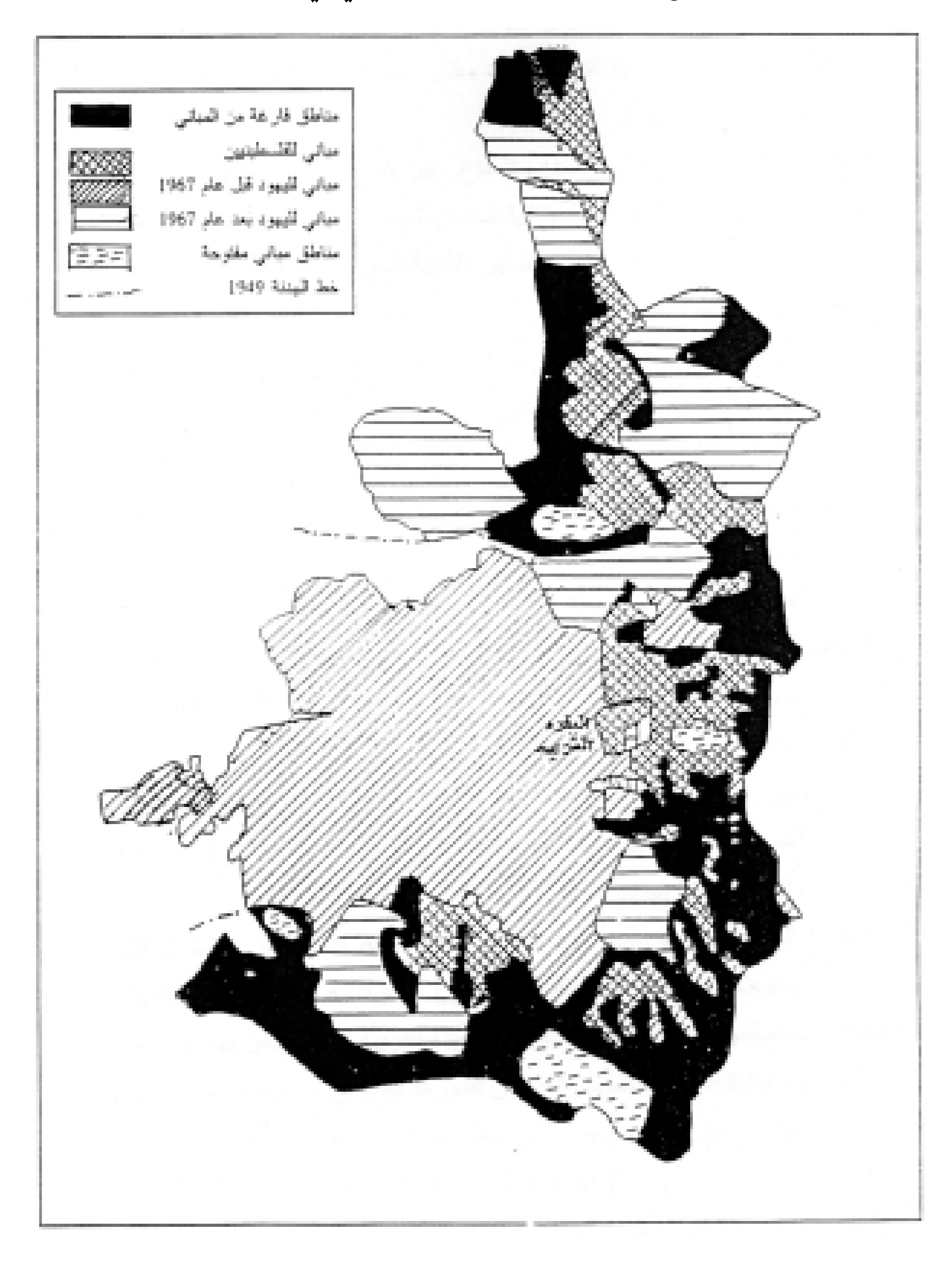
وتدل عدد الوحدات التي تم إنشاؤها أيضاً على قساوة القيود التي فرضتها سلطات الاحتلال على الحد من التوسع العمراني بين السكان الفلسطينيين مقابل اليهود بلغ عدد الوحدات التي تم بناؤها نحو ٧٧٠٠١ منها لليهود ٥٣٩٥١ و ٢٣٠٥٠ للعرب، حيث عمدت على وضع ما يسمى بالمخططات الهيكلية لحياء القدس وأنظمة البناء والتي من خلالها استطاعت إسرائيل أن تتحكم في أنظمة وقوانين البناء في الأحياء العربية وقسمت المدينة إلى ٢٢ حياً تنظيمياً مما أدى إلى تقطيع أوصال التجمعات السكنية والحد من نموها ويظهر ذلك جلياً في مواقع كثيرة أهمها ما نجده في قرى العيسوية وبيت صفافا وبيت حنينا وشعفاط، سلوان، صور باهر،

رأس العامود، الطور، المكبر . . . وغيرها من القرى الفلسطينية المحيطة بمدينة القدس . (شكل رقم ٥) . نتج عن هذه السياسة الإهمال والحد من التوسع العمراني للفلسطينيين كما وعملت الحكومة الإسرائيلية على الحد من مساحة المخططات الهيكلية لكافة القرى المحيطة بالمدينة ووضعت معايير خاصة بالبناء في المناطق العربية وحددت عدد رخص البناء في كل منطقة ولم تسمح ببناء مساكن ترتفع أكثر من ثلاثة أدوار وزادت من نسبة مساحة المناطق الخضراء التي لا يسمح بها البناء والتي تشكل فواصل بين مناطق السكن الفلسطينية وحلقات الاستيطان اليهودي حول المدينة . (رافع ،١٩٩٦ ، ص ٢٩٦ ، غنيم ١٩٩٩ ، ص ٥٦ , ٧٢)

من جهة أخرى مارست إسرائيل سياسة التهويد والترحيل من خلال سياسة هدم المنازل بحجة عدم الترخيص ، فقد تم هدم ١٨٨٢ بيتاً ضمن حدود البلدية حتى عام ١٩٩٨ (غنيم ،١٩٩٩ ، ص٥٧) . إضافة إلى وجود نحو ٣٠٠٠ بيتاً مهدداً بالهدم تسلم أصحابها إنذارات بذلك .

أما فيما يتعلق بالمصادرة بهدف التهويد فقد استولى المستوطنون بواسطة جمعيات دينية وشركات احتيال مثل عطروت كوهانيم وشركة تطوير البلدة القديمة على ٥٥ منزلاً في المدينة و ٧ منازل في سلوان ومبنى في الصوانة و ٥ مباني في رأس العامود وكنيس في الشيخ جراح بحجة أنها أماكن تخص اليهود وأخرى يخططون للسيطرة عليها تسلم أصحابها إنذارات بذلك بحجة عدم الحصول على التراخيص اللازمة للبناء . ويدعي اليهود أن عدد سكانها حالياً هو ١٤٠٠ مستوطن (غنيم ،١٩٩٩ ، ص ١٨٩)

شكل (٥) توزيع المستوطنات واستخدامات الأراضي في القدس الشرقية



على ضوء ما سبق يمكن تلخيص مرتكزات سياسة التهويد الجغرافي والديموغرافي للمدينة خلال الفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٩٣ بالتالي :

١- سياسة التهجير القسري المبكر عشية حرب عام ١٩٦٧ وإجبار ٥٠ ٪ من سكان المدينة مغادرة موطنهم ، فقد انخفض عدد سكان المدينة من ٦٥٨٥٧ نسمة إلى ٢٣٤٠٠ نسمة بعد الحرب مباشرة .

٢- عزل المدينة عن محيطها في الضفة والقطاع . من خلال اتخاذ خطوات وتدابير استيطانية بإحاطة المدينة بأحزمة متتالية من المستوطنات تحول دون اتصالها بالأطراف أو توسعها . علاوة على التدابير الأمنية المفروضة على مواضيع المواطنة والإقامة فيها .

٣- العمل على أسرلة المدينة من خلال ربط أل ٣٠٪ من سكان القدس الفلسطينيين خدماتياً ببلدية القدس ومحاولة هدم وتغيير واقع خدمات التعليم والصحة والمؤسسات الخدمية الأخرى كشركة الكهرباء التي تم تحويلها إلى مسوق لشركة الكهرباء القطرية الإسرائيلية فقط ويأتي ذلك كله بهدف إنهاء الحدود الحضارية بين شطري المدينة واستيعاب وهضم الأقلية العربية ضمن الأغلبية الإسرائيلية في المدينة معززة ذلك برصد الموازنات اللازمة لرفع كفاءة الأداء لمؤسساتها بهدف إفشال المؤسسات الفلسطينية .

٤- الإحلال الديموغرافي والاستيطان الجغرافي للمدينة ومحيطها والذي تم تنفيذه على مراحل كالتالي :

أولاً : تغيير الواقع الجغرافي لأحياء البلدة القديمة وبخاصة حي المغاربة وحارة الشرف وحارة النبي داود وحارة الميدان وإنشاء ساحة المبكى وحارة اليهود وإسكان ٢٥٠٠ يهودي فيها .

ثانياً : إزالة الحواجز بين شطري المدينة في منطقة الخط الأخضر من خلال إنشاء مستوطنات يهودية فيه ، وفرض القوانين الإسرائيلية على المدينة وسكانها .

ثالثاً : بناء مجموعة من المستوطنات بين الأحياء العربية في القدس بهدف عزلها ومنع امتدادها وتواصلها والحد من تطورها الطبيعي . سمحت باستيعاب نحو ١٨٦ ألفاً من السكان اليهود حتى الوقت الحاضر ويجري التخطيط لتمديدها لتكون قادرة على استيعاب ٢٥٠ ألفاً من السكان حتى ٢٠١٠ .

رابعاً: عزل المدينة بأحزمة متتالية عن محيطها في الضفة الغربية ودمجها جغرافياً باتجاه الغرب. حيث تم حتى الآن إقامة ثلاثة حلقات استيطانية خارج حدود البلدية استوعبت ٦٠ ألفاً (أنظر شكل ٤).

خامساً: استكمال تنفيذ الطوق الاستيطاني في محيط القدس الخارجي وربط أحزمة الاستيطان بعدد من الطرق الإلتفافية لوصل المستوطنات معاً ويتم التركيز في هذه المرحلة على مناطق جنوب وشرق المدينة، لتصبح مدينة بيت لحم جنوباً والقدس شمالاً مجرد مناطق عربية في مدينة يهودية، شرعت إسرائيل بتنفيذ ذلك بعد أن قررت إنشاء مستوطنة هار حوماه على أراضي جبل أبو غنيم وتعمل على ربطها مع كفار عصيون ومعاليه أدوميم وكريات شكول وبسجات زئيف والنفي يعقوب.

٥- صبغ المدينة بالصفة اليهودية من خلال تغيير معالم المدينة الحضارية وتزوير نتائج الحفريات والآثار وتغيير أسماء الأماكن والشوارع.

٤- المرحلة الانتقالية منذ توقيع اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ وحتى الآن:

لم تكتف إسرائيل بما تم القيام به حتى خلال فترة مفاوضاتها لإيجاد تسوية سلمية للقضية الفلسطينية التي تعتبر القدس جوهرها بل استمرت في تعزيز مخططات التهويد للمدينة وكان من أهم الخطط التي تبنتها إسرائيل خلال هذه المرحلة ما يسمى بخطة تعزيز القدس وخطة متروبوليتان القدس الإسرائيليتان. ففي عام ١٩٩١ صادقت لجنة توجيه وانطلاق مشروع متروبوليتان القدس على اقتراح الطاقم الذي شكل برئاسة شمرياهو كوهين وآدم مازور (غنيم، ١٩٩٩، ص١٣٣-١٣٦). لقد تضمن المشروع جوانب عديدة تتعلق بالسكان والمجتمع والاقتصاد والأراضي والسكن والعمران والتنظيم والمشهد العام والبنية التحتية والمواصلات والأبعاد القانونية وبالرغم من انعقاد مؤتمر مدريد وما تلاه من محادثات سرية وعلنية بخصوص حل الصراع العربي الإسرائيلي والفلسطيني الإسرائيلي فقد طلب من فريق العمل المكلف إعداد خطة المشروع في شباط عام ١٩٩٣ وتم الانتهاء منها في أيار عام ١٩٩٤ أي بعد توقيع اتفاقية إعلان المبادئ في أوسلو ١٩٩٣. والغريب أن الخطة هدفت إلى توسيع حدود القدس على مساحة تقدر ب ٤٠٪ من مساحة الضفة الغربية لتشمل الأراضي الممتدة

بين بيت شيمش غرباً وأريحا والبحر الميت شرقاً ومداخل مدينة الخليل جنوباً ومنطقة اللبن شمال رام الله شمالاً بمساحة تقدر ب ٢٨٥٠ كم٢ . ومع إدراك مصممي المخطط لضرورة احتواء المنطقة على أكثر من ٦٠٠ ألف فلسطيني إلا أن التعليمات المعطاة لهم طلبت بتجاهل هذا الوجود . في الوقت ذاته أعد الطاقم المكلف بإعداد المشروع مجموعة من السيناريوهات للتعامل مع ما سينجم عنه مستقبلاً . من هذه السيناريوهات أن يتم اعتبار العرب الفلسطينيين سكاناً يعيشون في إسرائيل أو من خلال إضعاف ثقلهم الديموغرافي بجعل التجمعات السكانية الفلسطينية الواقعة ضمن المخطط مجرد نتوءات مبعثرة وغير مرئية مقابل إيجاد تركيز وثقل يهودي ديموغرافي متواصل يبعثر هذه التجمعات ويحول دون ترابطها . (غنيم ، ١٩٩٩ ، ص١٣٦)

أما أهداف المشروع فقد صيغت لتحقيق دعم وتعزيز مكانة القدس الخاصة كعاصمة لإسرائيل مع ضمان نوعية حياة عالمية خاصة لسكانها ترتكز على قدرتها الاقتصادية والاجتماعية والبيئية وتهدف إلى تعزيز مكانتها الاقتصادية بحيث تظل قادرة على جذب السكان اليهود إليها ورفع نصيبها في الناتج القومي .

ويتوقع من تحقيق هذين الهدفين تحقيق مجموعة من الأهداف يمكن إجمالها في : - (غنيم ، ١٩٩٩ ، ص ١٣٤-١٣٧)

* تحقيق الفصل بين المناطق الفلسطينية وتقسيم أراضي الضفة إلى أجزاء ثلاثة .
* خلق وإيجاد الترابط بين المستوطنات الإسرائيلية وربطها بإسرائيل .
* إحكام سيطرة إسرائيل على قسم كبير من أراضي الضفة الغربية ومنع أي جهود فلسطينية لتحقيق وحدة جغرافية في هذه المنطقة .
* الحيلولة دون قيام عاصمة فلسطينية في مدينة القدس .
* الحيلولة دون تحول مراكز الاستيطان الإسرائيلي شرقي الخط الأخضر إلى جيوب منفصلة .
* ربط منطقة القدس الكبرى بكل من منطقتي تل أبيب وحيفا .
* السيطرة على مصادر وخزانات المياه الجوفية .

لقد آثر مصممو مخطط التهويد الجديد للمدينة أن يتم تنفيذ المشروع دون الإعلان عنه بعد أن واجهوا عقبات جمة من قبل المجالس المحلية ومؤسسات الحكم المحلي الفلسطيني وبالتالي

خلصوا إلى أن خلق أمر واقع على الأرض ثم عرضه سيمتلك قوة أكبر بحيث لا يستطيع الفلسطينيون مواجهته بعد ذلك. (غنيم، ١٩٩٩، ص١٣٤-١٣٧).

في ضوء المستجدات التي حدثت بعد عام ١٩٩٣ أصدرت لجنة توجيه المشروع تعليماتها إلى لجنة التنفيذ والتي نصت على ضرورة تعزيز مكانة القدس كعاصمة موحدة لإسرائيل مع تجاهل الجانب السياسي والمستقبل السياسي للضفة الغربية والتركيز على الأسس الفنية للمشروع فقط. يضاف إلى ذلك عدم تطرق اللجنة لمعالجة أي قضايا قانونية أو حدودية يقتضيها تنفيذ المشروع عند توسيع المستوطنات التي تقع ضمن المخطط والتي تشكل في توسيعها اعتداءً مباشراً على ملكية الأراضي في التجمعات العربية. كما وأوصت اللجنة الطاقم المنفذ بعدم التطرق إلى أبعاد المشروع التفصيلي للمخطط مع عدم السماح لأي حل سياسي بمنع حرية المرور للأشخاص والبضائع ورأس المال من غير ترك خط حدود مفتوح واعتبارها مناطق تطوير مشتركة وليس فواصل سياسية.

وبالرغم من صعوبة تنفيذ المشروع ضمن هذه القيود ونظراً لما أصبح واقع على صعيد المفاوضات السياسية فقد استمر الطاقم في تجاهل كل المعطيات السياسية والديموغرافية ذات العلاقة بالوضع الجديد ووضع بدلاً عن ذلك مجموعة من البدائل التي يمكن من خلال تنفيذها إجراء تغييرات في محيط الواقع الديموغرافي والجغرافي والسياسي للمدينة.

بعد أقل من نصف عام من الشروع بتنفيذ المشروع وبعد انتخاب أهود أولمرت رئيساً للبلدية في تشرين ثاني ١٩٩٤ اجتاز المشروع أول اختبار سياسي من خلال البديل الذي تم وضعه للتعاطي مع مقتضيات المشروع والذي ينص على دمج مجموعة البدائل التي فرضها الواقع السياسي، وبالرغم من استناده على التغيرات السياسية التي سوف تتم في الضفة الغربية استناداً إلى ما ورد في اتفاقية أوسلو إلا أنه في الوقت ذاته اعتبر اتفاقية أوسلو في مراحلها النهائية لن تتخطى الحكم الذاتي وبالتالي لن تشكل أساساً للتعارض مع مشروع المتروبولتان بل على العكس من ذلك ستساعد على نجاحه بعد انتزاع الطاقات التي تؤهل الفلسطينيين على الاستمرار بالمواجهة والصراع. (غنيم، ١٩٩٩، ص١٢٩-١٣٩)

وبالرغم مما يحيط بالمشروع من صعوبات سياسية وفنية واقتصادية ديموغرافية وقانونية ودينية إلا أن شراهة سياسات ومخططات التهويد تستمر في مشروعها. فبعد أن قدم رئيس لجنة المشروع موشيه ليون أحدث مشروع تهويد والسالف الذكر إلى رئيس وزراء إسرائيل بنجامين نتنياهو في ١١/ ٥/ ١٩٩٨ حيث كان واضحاً له ولحكومته مدى خطورة المشروع

على عملية السلام إلا أن نتنياهو استمر في التضليل للعالم أجمع حيث أعلن أن هذه المشروع سيؤدي إلى تطوير المنطقة وأن المشروع ينطوي فقط على تغيير إداري في حدود القدس وليس تغييراً سياسياً وأن بلدية القدس الحالية ستكون بلدية عليا يشترك فيها ٢٢ ممثلاً يمثلون ٢٢ منطقة تنظيم يشملها المشروع .

لقد أضاف المشروع إلى حدود القدس الكبرى السابق عشرة مستوطنات يقطنها نحو ٣٤ ألف مستوطن . ولا يعني المشروع هذا فحسب بل يرفع مساحة القدس الكبرى من ١٢٣ كم٢ إلى نحو ٦٠٠ كم٢ من ٢٨٥٠ كم٢ التي تشكل مساحة القدس المتروبوليتانية وهذا يعني السيطرة على أكثر من ثلث مساحة الضفة الغربية (أنظر شكل رقم ٦ التي تبين حدود التوسيع المقترح) .

تفصح معطيات المشروع وأهدافه عن خلفية الأطماع الإسرائيلية وامتدادها في مجال تهويد المدينة بغض النظر عن وسائل وآليات التهويد . ولم يخف معدي الخطة خوفهم الدائم من إمكانية انقلاب الواقع لصالح الفلسطينيين من خلال تأكيدهم عندما يؤكدون أن هناك متروبولتان عربي ينشأ بصمت في محيط القدس الأمر الذي يتطلب التخطيط والإعداد لمتروبولوتية يهودية يوقف انتشار المتروبوليتان العربي ويهضمه ويفرغه من محتواه .

لقد حققت سلطات الاحتلال الإسرائيلي نجاحات لا مجال لإنكارها في مشروع التهويد والاستيطان على أرض القدس وفلسطين عامة ، واستطاعت أن تحافظ على خلق أغلبية يهودية في منطقة نواة المتروبوليتان التي تخطط له وصلت إلى ٧٠٪ يهوداً مقابل ٣٠٪ عرباً ، ومع ذلك لا زالت حلقتا المتروبوليتان (شكل ٦) الأخريين يضمان أغلبية عربية رغم كل المحاولات التي تستخدمها إسرائيل والتي تتمثل في :

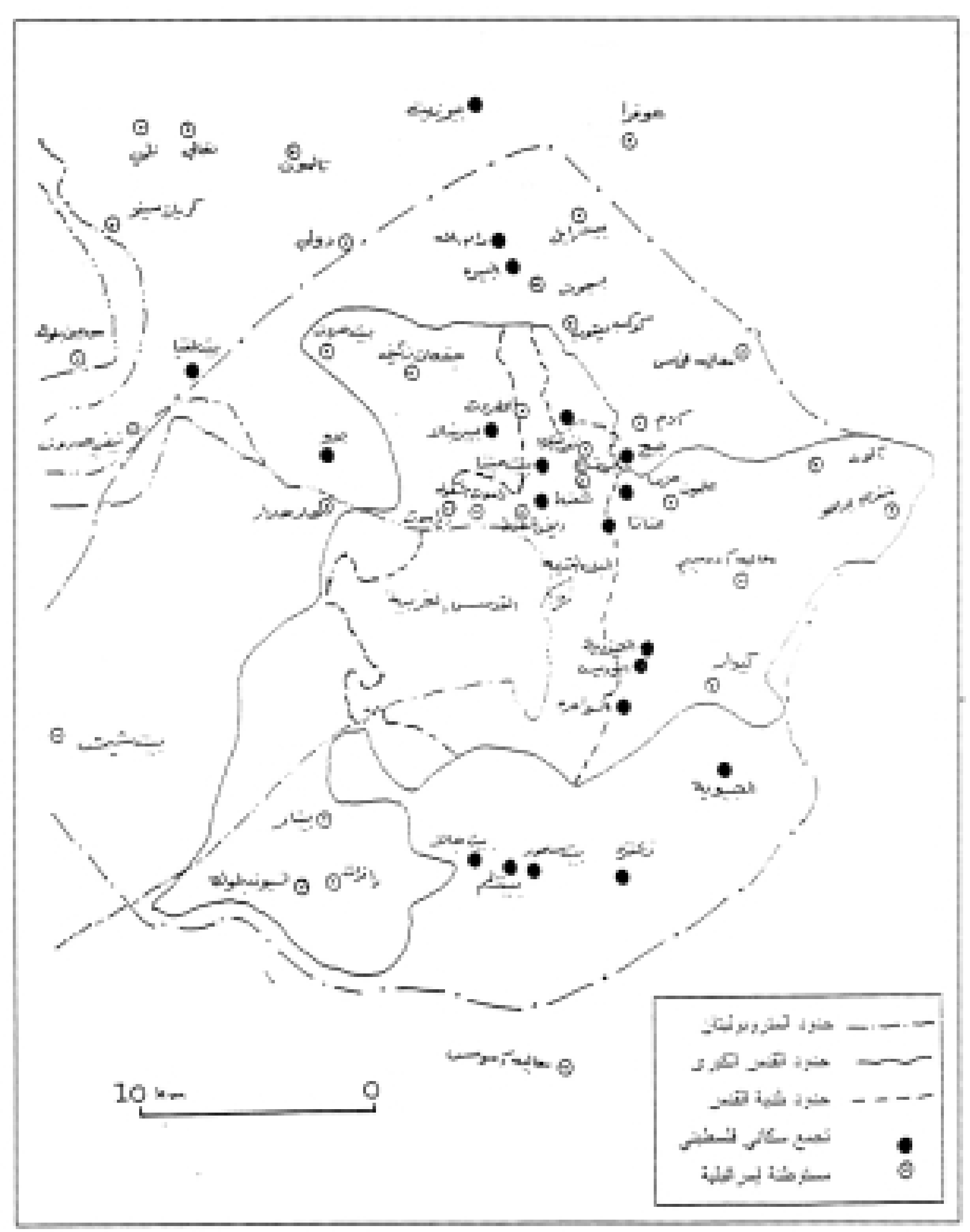
١- زيادة القيود المفروضة على الوجود الفلسطيني في القدس بكل وجوهه ومقوماته ورفع الوجود اليهودي فيها .
٢- عدم الاستجابة للزيادة الطبيعية للمواطنين الفلسطينيين والعمل على ترحيلهم وتحديد مجال إقامتهم .
٣- فرض قيود على عمليات البناء والتنظيم .
٤- هدم البيوت ومصادرة الأراضي .
٥- التضييق الاقتصادي من خلال الضرائب الباهظة وعدم توفير فرص العمل المناسبة للمقدسيين .

ومع كل الإجراءات التي تم اتخاذها حتى الآن فإن المشروع يقر بأن المنطقة ستبقى بأكثرية عربية يقدر أن يبلغ عدد العرب فيها ٦١٠ آلاف مواطن مقابل ٥٢٥ ألأف يهودي بالرغم من كل عوامل الجذب والتشجيع للهجرة والاستيطان اليهودي مقابل الضغط والحصار المفروض على المواطنين العرب .

يضاف إلى هذه الصعوبة مجموعة أخرى من الصعوبات سواءً على الصعيد السياسي والفني والقانوني والمالي والزمني التي تواجه المشروع وتعيق من تنفيذه وفوق هذا كله إرادة الصمود والثبات والعمل الجاد والتخطيط السليم لتحدي سياسات التهويد من قبل أبناء فلسطين على كافة مستوياتهم .

إن استعراض نظريات فرض السيطرة الإسرائيلية على المدينة والتي تراوحت بين نظرية اتخاذ مركز المدينة بؤرة تحيط به عناقيد من الضواحي إلى نظرية إنشاء سلسلة من المدن الصغيرة على حواف الجبال وإحاطة المدينة بأشرطة استيطانية أو من خلال نظرية اعتبار المدينة مركزاً يجب إحاطته بحلقات من الطرق يتم تغذيتها من مداخل ست في الجهات الغربية والشمالية الغربية والشمالية والشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية ، أو بتطبيق النظرية الرابعة التي نادت باعتبار المدينة وضواحيها مدينة واحدة مرتبطة عضوياً بثلاث شريانات أو ممرات (الغرب ، الشمال والجنوب) وهي التي يتم تنفيذها حالياً ، (أبو عرفة ، ١٩٨٥ ، ص ٨٣) . ومقارنة ذلك بالواقع يبين لنا فشل مخططات التهويد من جهة في تحقيق غاياتها رغم قساوة القيود المفروضة على القدس وأهلها وقدرة الفلسطينيين على كسر كماشة الطوق الاستيطاني الخارجي الذي من خلاله يمكن كسر كماشة الطوق الاستيطاني الداخلي من خلال الصمود والبناء . إن دمج ٣٠ مستوطنة داخل حدود مخطط متروبوليتان القدس لن يستطيع تحدي ٥٠ قرية تقع داخل الطوق وخارجه ووجود ٣٤ مستوطنة في محيط الطوق لن يصمد أمام إصرار نحو ١١٣٨٩٦ مواطن عربي يسكنون محيط الطوق وحوله .

شكل (٦) القدس الكبرى والقدس المتروبوليتانية كما صممت إسرائيلياً



المصدر : PASSIA , Annual Report, 1996

الخاتمـة:

وهكذا يمكن القول أن الإجراءات الإسرائيلية المتعاقبة والتي كانت ترجمة لاستراتيجيات ومشاريع صهيونية مسبقة، بدءاً بقرارات مؤتمر حاخامات اليهود الذي انعقد في سالزبورغ عام ١٧٣١ ومروراً بمؤتمر بال عام ١٨٩٧، فخطة Kandall فمشروع التقسيم عام ١٩٤٧، فخطة ران Ran ١٩٤٩، وخطة شافيف Shaviv ١٩٥٥، فقرار توحيد شطري القدس في في ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧، ومشروع ألون ١٩٦٧، ومشروع غولدامائير ١٩٧١، وخطة بيغن، وخطة شامير، وغيرها من المشاريع (رابايعة، ١٩٩٥، ص٧٠)، فقد جمعت قاسماً مشتركاً بشأن القدس يتلخص في تركيز الجهود على تهويد المدينة والعمل على كل ما من شأنه أن يبقي القدس مدينة موحدة تحت سيادة إسرائيل كعاصمة أبدية لها، ولا تخضع للمساومة ورفض ما دون ذلك.

لقد تسارعت مخططات التهويد وسارت وفق منهجية الاستراتيجية الصهيونية المشار إليها سابقاً وهي " تنفيذ مرتكزات الصهيونية من خلال تطبيق أسلوب التهويد العملي المتدرج والمزاوجة الفعالة بين عناصر الاستراتيجية الصهيونية الشاملة. فقد تمكنت إسرائيل من السيطرة على ٨٤٪ من مساحة المدينة حتى عام ١٩٤٨ وإجبار جميع سكان هذا الجزء على مغادرته وتركه. وأعلن رئيس وزراءها آنذاك " ديفيد بن غوريون " في ٢ شباط فبراير ١٩٤٩ أن " القدس الغربية جزء من دولة إسرائيل وأنها لم تعد أرضاً محتلة ".

ولم تكتف إسرائيل ببسط سيطرتها ونفوذها على الحدود الجغرافية للمدينة كما كانت عليه عام ١٩٦٧، فبعد احتلالها لأراضي الضفة الغربية عام ١٩٦٧، قامت الدوائر الإسرائيلية بإصدار قراراتها بتوسيع حدود المدينة والقسم الشرقي " لتصبح مساحة "القسم الشرقي " من المدينة نحو ٢٧-٢٨٪ من مساحة الضفة الغربية وهذا يبين كيف استخدمت إسرائيل القدس مرتكزاً في تنفيذ استراتيجية التهويد الصهيوني لفلسطين.

استمرت مخططات التهويد تتسارع من خلال إصدار مخططات متتالية تهدف إلى توسيع حدود المدينة، فبعد أن أصدرت إسرائيل خطة القدس الكبرى، عملت إسرائيل ومنذ عام ١٩٩٦ على تنفيذ خطة القدس المتروبوليتانية التي تقدر مساحتها ب ٤٤٠ كم٢ يقع أقل من ربع هذه المساحة فقط داخل حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧.

بالمقابل استطاعت خطط التهويد والاستيطان المتلاحقة المدعومة بمصادرة الأراضي والسيطرة عليها والمشفوعة بالخطط والقوانين والممارسات الإسرائيلية. رفع نسبة السكان اليهود في حدود بلدية القدس إلى ما يقارب عدد السكان الفلسطينيين في حين تحافظ إسرائيل ومنذ عام ١٩٦٧ على أن تظل نسبة الفلسطينيين أقل من ٣٠٪ من مجموع سكان القدس الكبرى لاستخدام ذلك كله كوسائل ضغط في أي مفاوضات مستقبلية حول القدس ولتكون هذه المعطيات ذات آثار إيجابية في خدمة مصالحها (جابر، ١٩٩٥، ص٣) (Passia.org/puplications.www)

وبالرغم من عدم اعتراف الأمم المتحدة بشرعية الإجراءات والممارسات الإسرائيلية واعتبار كل ما قامت به إسرائيل سواء باحتلال شطرها الغربي عام ١٩٤٨ أو باحتلال كامل المدينة عام ١٩٦٧ باطلاً. وبالرغم من عدم قبول الشرعية الدولية رغم موقفها الهش بما تقوم به إسرائيل من إجراءات، وبخاصة في القسم الشرقي من المدينة الذي تم احتلاله بعد عام ١٩٦٧، فإننا نجد أنفسنا أمام سؤال ونحن نتأمل نتائج هذه المخططات. والسؤال هو: " ماذا نحن فاعلون ؟ " في ظل النجاحات التي حققتها الحرب النفسية التي تشنها الصهيونية وحلفائها على الأمة العربية والإسلامية وهذه التغيرات المتسارعة على الأرض. وللإجابة على هذه السؤال يمكن القول أن ما يتبقى عمله فلسطينياً وعربياً في التعامل مع هذه المخططات هو مواجهتها بصفاء وطمأنينة ورباطة جأش وذلك من خلال قراءة صحيحة لواقعنا وواقع الطرف الآخر وإدراك كيفية التعامل مع مخططات الطرف الآخر، وكذلك من خلال تكثيف حملات التوعية لمخططات الصهيونية وإجراءاتها سواء كانت هذه الحملات موجهة للعرب أم لليهود مما من شأنه كشف حقيقة الصهيونية وإجراءاتها الصعرى وجرائمها تجاه العرب واليهود على حد سواء.

وكذلك التمسك بطرح " قضية القدس كلها " على العالم باعتبارها جزءاً من قضية فلسطين التي هي قضية أرض وشعب وحضارة وبجزأيها الغربي والشرقي. إضافة إلى التأكيد على رفض الأمر الواقع في القدس الشرقية الذي أوجده الاحتلال الصهيوني، وذلك بعدم الاعتراف بالمستوطنات الصهيونية الثمانية التي قامت فيها وعدم القبول ب ألـ ١٨٠,٠٠ ألف مستوطن الذين غزوها ضد إرادة الشرعية الدولية. (الدجاني، ١٩٩٩، ص٣٢٥)

ويبدو واضحاً أن ما يتبقى عمله فلسطينياً وعربياً يقتضي أموراً كثيرة ويتطلب وضع خطة شاملة لمواجهة الصهيونية في القدس وحصر أوراقنا التي نستخدمها في تنفيذ هذه الخطة مع

التركيز على دعم صمود أهلها ومتابعة تحديد الأخطار المتفاقمة التي تهددها لتحديد كيفية مواجهته في صورته الأخرى.

على الصعيد العاجل فإن الحد من هجرة المواطنين للمدينة بحجة عدم توفر المسكن الملائم وعدم القدرة على إنشاء المساكن يتطلب توفير مشاريع سكنية في أراضي الوقف الإسلامي. كما وتحتاج المؤسسات الخدمية والمجتمعية في المدينة إلى مزيد من الاهتمام والدراسة والعمل على رفع قدرتها في تقديم الخدمات للمواطنين الفلسطينيين في المدينة.

المراجع العربيـة

١) الإمام، رشاد، " **بيلوغرافيا القدس** " في نشرة القدس، العدد / ١٠/ ١٩٩٥ .

٢) أبو صبيح، عمران، " **الهجرة اليهودية، حقائق وأرقام: رصد وتحليل للهجرة اليهودية من فلسطين وإليها (١٨٨٢ – ١٩٩٠)** ". دار الجليل، عمان، ١٩٩١ .

٣) أبو عرفة، عبد الرحمن، " **القدس تشكيل جديد للمدينة** "، جمعية الدراسات العربية، القدس ١٩٨٥ .

٤) أرونسون، جيفري، " **سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية** " . **إسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، جامعة البحرين ترجمة، حسني زينة، بيروت، ١٩٩٥ .

٥) بلدية القدس. تقرير " **متروبوليتان القدس، خطة أساس وخطة تطوير** " (وزارة الداخلية وزارة الإسكان، إدارة أراضي إسرائيل، (وثيقة، القدس ١٩٩٤)

٦) بنزيمان، عوزي، " **القدس مدينة بلا أسوار** "، وكالة أبو عرفة للصحافة، القدس، ١٩٧٦ .

٧) تفكجي، خليل، "**الاستيطان في مدينة القدس** "، القدس، دراسات فلسطينية وإسلامية ومسيحية (إعداد) جريس خوري وآخرون، اللقاء، مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، القدس، ١٩٩٦ .

٨) جابر، فايد: " **ملف القدس** "، اللجنة الملكية لشؤون القدس، عمان، ١٩٩٥ .

٩) الحديثي، خليل إسماعيل: " قضية القدس في الأمم المتحدة "، في القدس في الخطاب السياسي، شفيق جابر (محرر) المؤتمر الأول لكلية الآداب / جامعة الزرقاء الأهلية. ١٢-١٣ أيار، ١٩٩٨ . ص٩٢-١٢٥ . عمان. ١٩٩٩ .

١٠) الخطيب، روحي، "**القدس في ظل الاحتلال الإسرائيلي** "، مجلة شؤون عربية، تونس، العدد ٤٠/ ١٩٨٤ .

١١) خوري، جريس. القدس: " **المخططات الصهيونية، الاحتلال، التهويد** " بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١ .

١٢) خوري، جريس وآخرون، (إعداد)، "القدس"، **دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية**" مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، القدس، مركز اللقاء، ١٩٩٦ .

١٣) الدجاني، صدقي أحمد، " **قراءة في تاريخ القدس والاستعمار الاستيطاني** "، " القدس في الخطاب المعاصر "، شفيق جاسر (محرر)، ص ٣١٦-٣٢٩، في المؤتمر الأول لكلية الآداب بجامعة

الزرقاء الأهلية، الزرقاء. الأردن، ١٢-١٣ أيار ١٩٩٨ . عمان. ١٩٩٩ .

١٤) رافع، علي، القدس، " **دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية** " ، مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، القدس، مركز اللقاء، ١٩٩٦ .

١٥) ربايعة، غازي، " **القدس في الصراع العربي الإسرائيلي** " ، بيروت، ١٩٩٥ .

١٦) زيادة، نقولا: " **فلسطين، مجلة شؤون عربية** " ، تونس، عدد ١٤/ ١٩٨٢ .

١٧) سابيلا، برنارد، " **هجرة الفلسطينيين المسيحيين من منطقة القدس** " . القدس، دراسات فلسطينية وإسلامية ومسيحية (إعداد) جريس خوري وآخرون، اللقاء، مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، (ص ٤٠١ - ٤٢٠)، القدس، ١٩٩٦ .

١٨) الشريقي، إبراهيم، " **أورشليم وأرض كنعان، حوار مع أنبياء udhk أعيان وملوك إسرائيل** " . لندن، (بدون تاريخ).

١٩) الشناق، فاروق، " **بيلوغرافيا القدس** " ، في "نشرة القدس " ، العدد ١٠ , ١٩٩٥ .

٢٠) العارف، عارف: " **المفصل في تاريخ القدس** " ، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١

٢١) غنيم، أحمد، " **القدس نداء أخير** " ، القدس، ١٩٩٩ .

٢٢) غوانمة، يوسف، " **عروبة القدس في ضوء الحقائق التاريخية** " ، مجلة شؤون عربية، تونس، العدد ٤٠ , ١٩٦٩ .

٢٣) القضاة، أحمد، " **مكانة القدس في الإسلام من خلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة " القدس في الخطاب المعاصر** " ، شفيق جاسر (محرر)، بحث مقدم في المؤتمر الأول لكلية الآداب بجامعة الزرقاء الأهلية، الزرقاء، الأردن، ١٢-١٣ أيار، ١٩٩٨ ,عمان، ١٩٩٩ ،

٢٤) لندمان، شمعوم، " **أحياء أعيان القدس خارج أسوارها في القرن التاسع عشر** " ، دار النشر العربي، تل أبيب، ١٩٨٤ .

٢٥) محمد، فاضل زكي، " **الاستراتيجية الصهيونية الإسرائيلية في الشرق العربي** " ، دراسة تحليلية للاستراتيجية الصهيونية الإسرائيلية في فلسطين، وزارة الثقافة والإعلام، السلسلة الإعلامية، ص ٣٧ وما بعدها، بغداد، ١٩٧٤ .

٢٦) معهد الأبحاث التطبيقية - القدس، أريج، " **تغيير معالم القدس، الإجراءات الإسرائيلية لتحديد مصير القدس** " ، القدس، ١٩٩٧ .

٢٧) " **الموسوعة الفلسطينية،القسم العام** " ، دمشق، ١٩٨٤ .

المراجع الأجنبية

1) Amiran .D, H. “ The development of Jerusalem 1860-1970 in Amiran et " ., eds .1973
2) Amiran, D., “Jerusalem urban Development,’’ Middle East Review,Spring -Summer. 1981.
3) Aronson ,G.,”Soviet Jewish Emigration“,The United States and the Occupied Tessitories“ , Journal of Palestinian Studies 19.No.4.Summer 1990.
4) Benvenisti,Meron, “Jerusalem:The Torn City“.Jerusalem. Istaeli Typest Ltd. 1976 .
5) Dumber ,Michael . “The Polities of Jerusalem Since 1967" . New York , Columbia University Press , 1997.
6) Dumber ,M. “Israeli Settlement in the Old City of Jerusalem ,” Journal of Palestine Studies .21., no.4 summer 1992 .
7) Gilbert, M. Jerusalem : “Illustrated History Atlas“ . Jerusalem Steimat 2Ky. 1977 .In Dumber .The Polities of Jerusalem .1977.
8) Hudson, M. “The Transformation of Jerusalem , 1917 -1987" , in Al Asali ed. 1989 .
9) Jerusalem Institute for Israel Studies“The Metropolitan Area of Jerusalem “ The Urban Development of Metropolitan Area of Jerusalem .no.1 . Jerusalem . The Jerusalem Institute for Israel Studies , 1984.
10) Kimhi,y. “ Outline of the Development of Jerusalem“ ,
1988-1993 “ Urban Geography in Jerusalem ,
1967-1992.Jerusalem : The Jerusalem institute for Israel Studies .1993
11) Ma‘arive ,October , 1990
12) Maguire, E, Kate. “ The Israelisation of Jerusalem,”The Arab Research Center .London. 1981.
13) Mustafa,Walid,”Jerusalem :Population and Urbanization -from 1850-200" Jerusalem media and communication center .2000
14) Municipality of Jerusalem , Jerusalem , “Extending the Area of Jurisdiction . City Planning Department and Jerusalem Development Authority“, April .1991 .

15) PASSIA Annual Report , 1996 . “Jerusalem :Palestine Academic Society for the Study of International Affaires , 1997 .
16) “Report on Israel Settlement in the Occupied Tessitories“ , Foundation for Middle East Peace , July ,1995 , February , 1994 .
17) “Report on Israel Settlement in the Occupied Territories“ ,Washington ,D.C. February .1994.
18) Schmelz, U.O. “Modern Jerusalem Demographic Evolution“ .Jerusalem: Jerusalem Institute for Israel Studies, 1987 .
19) “Statistical Year Book of Jerusalem, No.9,1990. Jerusalem : The Jerusalem institute for Israel Studies ,Year 1991-1992 .
20) Israel Central Bureau of Statistics, Selected Years , 1980-1996 .
21) “Statistical Year Book of Jerusalem“ ,M. choshen , S Green baurn , and N. Shaher , eds . No. 11 , 1992 . Jerusalem : Jerusalem institute for Israel Studies 1994 .
22) United Nations , “The Status of Jerusalem“ , New York .1979
23) www.Passsia.org/pulications/passia-diary/agenda28/Jerusalem/Jerusalem.htm.

ملحق – ١–

سياسات التهويد الديموغرافي والجغرافي للقدس في حقائق وأرقام

معدل نمو السكان (١٩٦٧ - ١٩٩٥)	
فلسطينيون	١٤٤ ٪
إسرائيليون	١٠٥ ٪
عدد الإسرائيليين في القدس الغربية	
١٩٦٧	١٩٨,٠٠٠
١٩٩٥	٢٤٠,٠٠٠
عدد الإسرائيليين في القدس الشرقية	
١٩٦٧	---
١٩٩٥	١٦٠,٠٠٠
عدد الوحدات السكنية التي تم بناؤها في شرق القدس	
١٩٩٢	٣١١٦ وحدة سكنية
١٩٩٣	٢٧٢٠ وحدة سكنية
نسبة الأراضي المصادرة	
* ٦٠٠٠ دونم	٣٤ ٪
أراضي معرضة للاستيطان - مجمدة	
* ١٥٠٠ دونم	٨,٥ ٪
مناطق ممنوع البناء فيها	
* ٧٧٥٠ دونم	٤٤ ٪
مناطق السكن الفلسطينية	
* ٢٣٧٥ دونم	١٣,٥ ٪

* نسبة مساحة أراضي القدس الشرقية من ضمن قانون الضم

*** عدد البيوت التي تم هدمها خلال الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٨**

١٩٩٠ - ١٩٩٣	١١٠
١٩٩٤ - ١٩٩٦	٣٩
١٩٩٧ - ١٩٩٨	٣٢
المجمـــوع	**٢١٥**

عدد المنازل التي تم هدمها بعد اتفاقية واي ريفر وحتى ٩٩/٣/١٥

هدم ٩ منازل   إخلاء ٦ منازل   الادعاء بشراء ٦ منازل

= Report on Israeli Settlement , Vol. 5 , No. 4, July 1995 , p. 8 .

= بيت الشرق - مركز الدراسات والحقوق المدنية والاجتماعية، معلومات غير منشورة ١٩٩٩ .

ملحق - ٢ -

المساحات المصادرة في القدس ١٩٦٧ - ١٩٩٥

المساحة / كم٢	الموقع	المصدر
٣٣٤٥	التلة الفرنسية	
	المشارف	النشرة الرسمية ١٤٣٥ ص ٦٨٨ ٨/ ١/ ٦٨
	راموت	
٤٨٥	معلوت دفنا	
٧٦٥	النبي يعقوب	النشرة الرسمية ١٤٤٢ ص ١٢٣٨ ١٤/ ٤/ ٦٨
١١٦	حارة اليهود	
٤٧٠	النبي يعقوب	
٤٨٤٠	راموت	
٢٢٤٠	شرق تلبيوت	
٢٧٠٠	جيلو	النشرة الرسمية، ١٦٥٦ ٢٨٠٨ ٢٠/ ٨/ ٧٠
١٢٠٠	عطروت	
١٣٠	وادي الدبابة	
١٠٠	الشجاعة	
٦٠٠	رامات راحيل	
٤٤٠٠	بسجات زئيف	النشرة الرسمية ٢٦١٤ ص ١٣٠٥ ١/ ٧/ ٨٢
١٣٧	عطروت	النشرة الرسمية ٢٨٧٧ ص ٢٨٣١ ٢١/ ٤/ ٩٢
١٨٥٠	هار حوماه/ أبو غنيم	
٣٣٥	راموت	أوامر نشرها وزير المالية في شهر نيسان ١٩٩٥
٢٠٠	بيت صفافا	

* مساحة الأراضي المصادرة = ٠٩٣ , ٢٤ كم٢ من مساحة القدس البالغة ٥ , ٧٠ كم٢ أي ٢ , ٣٤ ٪ من مساحة القدس .

= المصدر : خوري جريس، القدس دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية . مركز اللقاء، القدس، ١٩٩٦، ص ٥٤٢ .

صناعة زيت الزيتون في فلسطين
واقعها وآفاقها المستقبلية

د.ذياب علي ذياب جرار*

* أستاذ مساعد في العلوم الإدارية والاقتصادية، جامعة القدس المفتوحة، منطقة رام الله والبيرة التعليميه.

ملخص البحث:

تعتبر صناعة زيت الزيتون في فلسطين من الصناعات الريادية في الاقتصاد الوطني حيث تمتاز هذه الصناعة بميزة نسبية وتنافسية تؤهلها المنافسة في الاسواق الخارجية وبالتحديد العربية منها ، كما تعمل هذه الصناعة على تشجيع التشابكات الامامية والخلفية بين القطاع الزراعي والقطاع الصناعي وكذلك داخل القطاع الصناعي نفسه . ونظراً لأهمية زيت زيتون باعتباره سلعة استراتيجية تمس الامن الغذائي الفلسطيني والعربي جاء هذا البحث لإستعراض وتحليل واقع هذه الصناعة وآفاقها المستقبلية وذلك تمهيداً لوضع خطة عمل واضحة ومحدده لتطوير هذا القطاع كي تساعد على مواجهة الاحتياجات الفلسطينية من هذه المادة الاساسية بالكمية والنوعية المطلوبة . ولإعداد هذا البحث تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن . وللوصول الى نتائج ذات اهمية تم حصر الدراسة في الفترة ٩٩-١٩٩٥ ، أي في عهد السلطة الفلسطينية ، وتم الاعتماد بشكل رئيسي على الاحصاءات ذات العلاقة والمتوفرة لدى الجهاز المركزي للاحصاء الفلسطيني من خلال المسوحات المختلفة التي قام بإعدادها .

Abstract

The Palestinian olive oil industry is one of the promising industries in the national economy as it enjoys a high comparative and competitive advantages that make it qualified enough to compete in export markets , especially the Arab markets. In addition, this industry encourages forward and backward linkages between both the agricultural and industrial sectors and within the Industrial sector itself . In view of the importance of olive oil as a strategic commodity necessary to achieve food security to the Palestinian and Arab Societies, the study tries to overview and analyse the reality and future of this Industry so as to make a clear-cut plan to develop this Industry in order to satisfy the Palestinian needs from this commodity according to the required quantity and quality. To perform this study, the descriptive, analytical and comparative methodology was used. To reach to findings of significance, the researcher mainly relied on related surveys made by the Palestinian Central Bureau of Statistics during the period 1995 -99 i.e , the peace era.

صناعة زيت الزيتون في فلسطين واقعها وآفاقها المستقبلية

المقدمة:

انطلاقاً من أهداف السلطة الفلسطينية في تطوير الصناعة الفلسطينية وإيجاد افضل الصيغ العلمية والعملية وصولاً إلى صناعة وطنية متقدمة وتوفير المواد الأولية اللازمة لها محلياً، ونظراً لأهمية زيت الزيتون باعتباره سلعة استراتيجية محلياً تمس الأمن الغذائي الفلسطيني والعربي، جاء هذا البحث لاستعراض واقع ومستقبل صناعة زيت الزيتون في فلسطين تمهيداً لوضع الخطط والآليات اللازمة لتطوير هذه الصناعة. لذا، جاء هذا البحث منقسماً إلى سبعة مباحث رئيسية، حيث يستعرض المبحث الأول واقع القطاع الزراعي في فلسطين من خلال مجموعة من المؤشرات الرئيسية، أما المباحث الأخرى فتستعرض قطاع الزيتون من حيث مساهمته في الاقتصاد الوطني، مراحل العملية الإنتاجية للزيتون ومنتجاته، أنواع معاصر الزيتون العاملة في فلسطين حسب مستوى الأتمتة، تحليل لأهم المؤشرات الاقتصادية لنشاط معاصر الزيتون في فلسطين، دور الحكومة في تطوير هذا القطاع ومستقبل صناعة الزيتون في فلسطين واختتمت الدراسة بخلاصة تضم النتائج والتوصيات العامة والتي من شأنها أن تساهم في تطوير هذا القطاع الهام من الاقتصاد الوطني.

الأهداف العامة للبحث:

تلعب الزيوت النباتية وبالتحديد زيت الزيتون دوراً أساسياً في تحقيق الأمن الغذائي الفلسطيني والعربي، وعليه جاءت هذه الدراسة لتشخيص واقع ومستقبل صناعة زيت الزيتون في فلسطين من حيث الإنتاج، التصنيع، الاستهلاك والتسويق وكذلك الإمكانيات المتوفرة لدى هذا القطاع الهام من الاقتصاد الوطني، دور الحكومة في تطوير هذا القطاع وكذلك أثر الاتفاقيات المبرمة على مستقبل هذه الصناعة. نتيجة لذلك جاءت هذه الدراسة تمهيداً لوضع خطة عمل واضحة ومحددة لتطوير هذا القطاع كي تساعد على مواجهة الاحتياجات الفلسطينية من هذه المادة الأساسية بالكمية والنوعية المطلوبتين.

منهجية البحث:

لقد تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن لإعداد هذا البحث. ولقد تم استخدام اسلوب التوزيع النسبي والمتوسطات المختلفه لغرض التحليل والمقارنة. ولذات الغرض تم الاعتماد وبشكل رئيسي على الإحصاءات المتوفرة لدى الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني وبالتحديد مسح معاصر الزيتون للأعوام ١٩٩٥-١٩٩٩ ، المسح الزراعي للعام ٩٧-٩٨ ، الحسابات القومية ٩٥-٩٩ ، حسابات التجارة الخارجية ٩٤-٩٨ ، تقديرات إحصاءات السكان في الأراضي الفلسطينية ١٩٩٧-٢٠٢٥ وغيرها. كما تم الرجوع إلى البيانات الإحصائية المتوفرة لدى الجهات الرسمية وغير الرسمية ذات العلاقة بهذا القطاع مثل وزارة التجارة والاقتصاد، وزارة الصناعة، وزارة الزراعة، وزارة التموين، مؤسسة المواصفات والمقاييس، اتحاد معاصر الزيتون، لجان الإغاثة الزراعية... وغيرها.كما تم إجراء مقابلات شخصية معمقة مع العديد من أصحاب معاصر الزيتون ومنشآت التعبئة والوكلاء. وتم كذلك الاطلاع على العديد من الدراسات وأوراق العمل المعدة بخصوص هذه الصناعة.

فرضيات البحث:

لغرض إعداد البحث، تم وضع الفرضيات التالية :

* تعتبر معاصر الزيتون في فلسطين كثيفة رأس المال capital Intensive وقليلة العمالة.
* إن مراحل إنتاج الزيتون والزيت في فلسطين ابتداءً من مرحلة القطف وحتى مرحلة عصر الزيتون وتخزينه لا يراعى فيها الأسس العلمية وبالتالي أثر ذلك سلباً على جودة ومواصفات الزيت المستخلص.
* إن جودة ومواصفات زيت الزيتون الفلسطيني ليست بعيدة كثيراً عما حدده مجلس الزيوت الدولي من مواصفات عالمية لهذا المنتج.
* لا يوجد هناك اهتمام كافي من قبل الحكومة بهذا القطاع الهام من الاقتصاد الوطني.
* هناك تذبذب ولكن بشكل متناقص في معظم المؤشرات الاقتصادية والصناعية لصناعة الزيت في فلسطين وهذا يعود جزئياً إلى ظاهرة تبادل الحمل.
* إن معدل استهلاك زيت الزيتون الفلسطيني يتزايد بشكل أكبر من معدل الزيادة في الإنتاج.

محددات البحث:

يقتصر هذا البحث على دراسة وتحليل واقع صناعة زيت الزيتون في فلسطين من خلال تحليل نشاط معاصر الزيتون خلال الفترة ١٩٩٥-١٩٩٩، أي في عهد السلطة الفلسطينية وبالاعتماد الرئيسي على المسوحات المختلفة ذات العلاقة والتي قام بإعدادها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني منذ نشأته في العام ١٩٩٤، وبالتالي يجب الحذر في تعميم النتائج على فترات زمنية ما قبل فترة الدراسة، وتجدر الإشارة إلى انه قد تم الاعتماد وبشكل ضيق على بعض الإحصاءات الإسرائيلية لغرض تدعيم البحث رغم إيماننا بأن هذه الإحصاءات مشوهة ومصحوبة بأهداف سياسية. في الواقع اعتمادنا بشكل رئيسي على مسوحات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني نابع من هذه الحقيقة وكذلك كون معظم منشآت ومعاصر الزيتون الفلسطينية غير معتادة على توثيق بياناتها لسنوات سابقة، أضف إلى أنها غالباً ما تحاول حجب المعلومات الفعلية عن الباحثين.

الزراعة في فلسطين - مؤشرات رئيسية[1]

يعتبر النشاط الزراعي في الضفة الغربية وقطاع غزة من الأنشطة الإنتاجية الهامة، حيث يساهم هذا القطاع بما يقرب من ٣٨,٦٪ من إجمالي الإنتاج المحلي لعام ١٩٩٧ وبما يزيد عن ذلك في مجال الاستخدام، ومن المعروف أن القطاع الزراعي يؤدي دوراً رئيسيا في الاقتصاد القومي حيث تساهم الصادرات الزراعية بنصيب هام في التجارة الخارجية، وتوفير العملات الأجنبية، كما يوفر القطاع الزراعي الكثير من المواد الأولية لمختلف القطاعات الاقتصادية الأخرى. وتبرز أهمية القطاع الزراعي في طبيعته الحضارية حيث يشكل الارتباط بالأرض والعمل الزراعي صلة وصل مع الجذور الحضارية والوطنية للشعب الفلسطيني. كل ذلك إلى جانب حقيقة مفادها أن القطاع الزراعي يشكل مصدر رزق للمجتمع الفلسطيني وخاصة في ظل الأزمات المتكررة التي مرت في تاريخه المعاصر، سواء أكان ذلك من خلال توفير الغذاء للسكان أو من خلال امتصاص فائض العمالة.

بلغ إجمالي المساحة المزروعة بالمحاصيل الحقلية وأشجار الفاكهة والخضروات والزهور في الأراضي الفلسطينية خلال العام الزراعي ٩٧-٩٨ ما مقداره ١,٨٦١ ألف دنم، منها ٨٩,٦٪ في الضفة الغربية مقابل ١٠,٤٪ في قطاع غزة. أما من حيث أعداد المواشي، تشير

الإحصاءات أن هناك ما مجموعه ٠٥٠ , ٢٢ رأس بقر و٢٥٦ , ٧٩٠ رأساً من الأغنام والماعز. بالنسبة لأعداد الدواجن فتبلغ ٣٨,٥٥٠ ألف طير من الدجاج اللاحم و ٠٦١ , ٢ ألف طير من الدجاج البياض. كما بلغ إجمالي قيمة الإنتاج الزراعي ٦ , ٩٥٣ مليون دولار موزعة بنسبة ١ , ٦٤٪ للإنتاج النباتي و ٩ , ٣٥٪ للإنتاج الحيواني. وقد بلغت نسبة مساهمة قطاع غزة ٢ , ٢٦٪ من إجمالي قيمة الإنتاج الزراعي. أما على مستوى المحافظات فقد ساهمت كل من جنين، والخليل، ونابلس في قيمة الإنتاج الزراعي بالنسب ٥ , ١٤٪، ٨ , ١٣٪، ٤ , ٩٪ على التوالي. أما إجمالي تكاليف مستلزمات الإنتاج الزراعي فبلغت ٨ , ٣٨٢ مليون دولار. وقد تضمنت تكاليف مستلزمات الإنتاج قيمة المستلزمات التالية: البذور والتقاوي ٢ , ٤٪، الأسمدة ٦ , ١٢٪، المبيدات ٣ , ٧٪، المياه والكهرباء ٥ , ٤٪، الملش ٢٪، الزيوت والوقود ٦ , ١٪، الصيانة وإصلاح الآلات والمعدات ٤ , ٢٪، الأعلاف ٧ , ٤٢٪، الأدوية البيطرية ٢ , ٨٪، الصيصان ٧ , ٦٪، ومستلزمات أخرى ٨ , ٧٪. كما بلغ إجمالي الدخل القومي للقطاع الزراعي (القيمة المضافة) حوالي ٨ , ٥٧٠ مليون دولار وتشكل الضفة الغربية ما نسبته ٢ , ٧١٪ من إجمالي القيمة المضافة للقطاع الزراعي في الأراضي الفلسطينية، بينما تشكل غزة ما نسبته ٨ , ٢٨٪ من إجمالي الدخل القومي للقطاع الزراعي. ومن الجدير بالذكر أن محافظات جنين، الخليل، ونابلس من أكثر المحافظات مساهمة في تشكيل القيمة المضافة للقطاع الزراعي.

قطاع الزيتون في فلسطين - مؤشرات رئيسية:

تشكل الأشجار المثمرة العمود الفقري للقطاع الزراعي الفلسطيني ويشكل الزيتون العمود الفقري للأشجار المثمرة حيث تعتبر زراعة الزيتون من أهم الزراعات التقليدية البعلية في منطقتنا بل وفي منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث تعتمد عليها نسبة كبيرة من السكان. وقد ارتبطت شجرة الزيتون ارتباطاً وثيقاً بتراثنا ووجداننا وديننا وهي تشكل مصدر أمل وقوة للمزارعين، وتتميز بتحملها قسوة الطبيعة، ولا تحتاج إلى عناية ورعاية كبيرة كبقية الأشجار المثمرة وتنمو في معظم أنواع التربة. فهي عماد الزراعة في فلسطين وتشكل حلقة وسيطة بين الزراعة والصناعة، وفي هذا شكل تكاملي للاقتصاد المحلي، فمنها نشأت صناعة الصابون وصناعة الخشب للسياح، ويستعمل الجفت في التدفئة والأعلاف، وبذلك فهي تشكل مصدراً للرزق وتوفر العمل للكثير من العمال حيث تحتل ٤٥٪ من مساحة الأراضي

المستغلة وحوالي ٦ ,٧٣٪ من مساحة الأشجار المثمرة و١٠٪ من الدخل القومي و٢٥٪ من الدخل الزراعي خلال السنوات العشر الأخيرة[٢]. ويساهم زيت الزيتون بحوالي ٥٠٪ من احتياجات الفرد من زيوت الطعام والذي يقدر بحوالي ٦ لتر زيت زيتون للفرد كمتوسط بين سكان المدن والقرى والمخيمات. وتشير الإحصاءات إلى أن المساحة المزروعة بالزيتون للعام الزراعي ١٩٩٦/ ١٩٩٧ قد بلغت حوالي ٨٣٧ ألف دونم، أي ما نسبته ٧ ,٤٥٪ من إجمالي المساحة المزروعة في الأراضي الفلسطينية و ٦ ,٧٣٪ من إجمالي مساحة الأشجار المثمرة، كما بلغت قيمة إنتاج الزيتون لنفس العام حوالي ٧٣ مليون دولار (يتضمن زيت الزيتون والزيتون المكبوس، ومخلفات الزيتون كذلك) أي ما نسبته ١٥٪ من إجمالي قيمة الإنتاج الزراعي النباتي وكذلك ٢ ,٣٨٪ من إجمالي قيمة إنتاج الأشجار المثمرة[٣]. وبلغ متوسط عدد أشجار الزيتون في الأراضي الفلسطينية للدونم الواحد ٨ ,١٢ شجرة، وبلغ متوسط إنتاجية الزيتون للعام ١٩٩٧ حوالي ٧ ,٥٧ كغم للدونم. وتشير البيانات إلى أن قطاع غزة ومناطق جنوب الضفة الغربية كان لها أعلى إنتاجية حيث بلغت ١ , ٢٢٥ كغم للدونم و ٧ ,٨٦ كغم للدونم على التوالي[٤]. ويرجع السبب في ذلك إلى نوعية الأصناف وري بعض مساحات الزيتون في قطاع غزة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن إنتاج الزيتون في فلسطين يتذبذب بين سنة ماسية، حيث يكون الإنتاج وفيراً، وأخرى شلتونية حيث يتدنى الإنتاج تدنياً ملحوظاً، فقد يصل إنتاج الزيتون بين ٨٠-٩٠ ألف طن في السنوات الماسية وقد ينخفض إلى ١٠ آلاف طن في السنوات الشلتونية، ويستطيع الفلاح الفلسطيني أن يضمن موسم ماسي للزيتون إذا كانت الأمطار وفيرة، ولم تحدث عوامل طبيعية سلبية مثل الصقيع ورياح الخماسين والحر الشديد، خصوصاً في فترة الأزهار، وكذلك إذا توفرت المواد الغذائية اللازمة للتربة. هذه الظاهرة والتي تدعى بظاهرة (تبادل الحمل)، في الواقع تصيب شجرة الزيتون التي وصلت مرحلة الهرم والتي من الممكن إعادة شبابها من خلال التقليم الجيد والتسميد الكيماوي وتكثيف خدمات البستنة والفلاحة الصحيحة. وتجدر الإشارة إلى أن حوالي ٨٠٪ من مساحة الزيتون في فلسطين هي أشجار هرمة وكبيرة يزيد عمرها عن ٥٠ سنة ولهذا السبب فإن ظاهرة تبادل الحمل أكثر وضوحاً في فلسطين[٥].

يبلغ متوسط مساحة الحيازة للمزارع، أو العائلة بحدود هكتار واحد، ومعظم مزارعي الزيتون أصبحوا غير متفرغين في السنوات الأخيرة وذلك بسبب توجه المزارعين لقطاع الصناعة والبناء والتجارة وكذلك العمل داخل إسرائيل نظراً للأجور العالية التي يتقاضونها

ثم انخفاض الربحية لوحدة المساحة من الزيتون بسبب ارتفاع التكاليف وعدم ارتفاع الأسعار للزيت حيث ثبات النسب تقريباً.

تشير الإحصاءات إلى أن ١٥٪ من مساحة الزيتون فقط تعالج بالأسمدة الكيماوية البسيطة والمركبة ومعظم المساحة الباقية لا تتلقى أي تسميد عضوي أو كيماوي إذ أن عملية التسميد العضوي تتم على مساحة صغيرة وهي المساحات القريبة من القرى، كما أن كميات الأسمدة العضوية لا تكفي لسد احتياجات البساتين(٦).

أما بخصوص مكافحة الآفات فهي لا تتم إلا في بعض البساتين الحديثة أو البساتين المعدة للكبيس أو في الأصناف ذات الإصابة العالية بذبابة الزيتون وأنواع السوس المختلفة ولا تزيد المساحة التي تعامل بالمبيدات الحشرية عن ٥٠٠ هكتار ومعظمها تقع في منطقة الخليل حيث أن الأصناف الموجودة هناك حساسة للإصابة بحشرات السوس وذبابة الزيتون. كذلك يتم استخدام مبيدات فطرية لمكافحة مرض عين الطاووس في المناطق الرطبة في شمال وغرب فلسطين وخاصة الصنف الصوري الحساس لهذا المرض. وبشكل عام تعتبر ذبابة الزيتون وعثة الزيتون وعثة الياسمين وحفار الساق وسوسة الأغصان ثم مرض عين الطاووس من أهم آفات الزيتون في فلسطين. ومن المبيدات المستخدمة في مكافحة هذه الآفات هي سوبراسيت، دورسبان، روجور، ميتاسستوكس، كمبيدات حشرية ثم سكور والمبيدات النحاسية لمكافحة مرض عين الطاووس(٧).

يتميز زيت الزيتون عن غيره من الزيوت النباتية بصفات بيولوجية واحتوائه على مواد عطره ومميزة وفيتامينات ودهنيات بسيطة، وقد دأبت شعوب البحر الأبيض المتوسط عبر العصور على استهلاك زيت الزيتـون، لذلك لا تزال زراعة الزيتون آخـذة في التوسع رغم ارتفاع كلفة العمليات الزراعية اللازمة خاصة عمليات القطف التي تصل إلى ٥٠٪ من مجمل الكلفة في بعض البلدان. إن إنتاج زيت الزيتون في فلسطين يصل إلى حـوالي ٣٤٠٠٠ طن كمعـدل للسنوات التي يكـون فيها إنتاج زيت الزيتون جيداً، أما في السنوات القليلة الإنتـاج (الشلتونية) فيكون معـدل إنتاج زيت الزيتون حوالي ١٠٠٠-٦٠٠٠ طن، حيث يستعمـل المزارع والمستهلك ما تـم خزنه من زيت في السنـوات السابقة. في الحقيقة، يعتبر زيت الزيتون الفلسطيني من أجـود أنواع الزيوت عالمياً لكـونه من صنف الصوري (souri) المسمى بالنبالي المحسن ذو التكوين والمـذاق الممتاز. ولذلك، يجب المحافظة على نوعيـة ومواصفات هـذا الزيت الفلسطيني المميز حتى يستطيع المنافسة في الأسواق العالمية.

أصناف الزيتون في فلسطين:

هناك ثلاثة أصناف من الزيتون منتشرة في فلسطين(٨):

النبالي : هذا الصنف يستخدم للزيت والكبيس وتبلغ نسبة الزيت فيه ٣٣٪ وزيته من النوعية الفاخرة وينتشر في معظم مناطق فلسطين وهو الصنف الغالب والتي تزيد مساحته عن ٥ , ٨٧٪ من المساحة العامة ويبلغ وزن الثمرة من ٤-٦ غم. هذا الصنف من الزيتون مقاوم للأمراض ولا ينصح بزراعته في مناطق يقل معدل الأمطار فيها عن ٤٠٠ ملم.

الصوري: هذا الصنف أيضاً يستخدم للزيت والكبيس وتبلغ نسبة الزيت فيه كحد أقصى ٣٨٪ وهو يشبه الصنف الأول إلا أن ثمرته أكثر استطالة ومساحته بحدود ١٠٪ وموجود بشكل رئيسي في المناطق الشمالية من فلسطين، ويبلغ معدل وزن الثمرة ٣-٥غم.

النبالي المحسن: تبلغ نسبة الزيت فيه حوالي ١٨-٢٠٪ إلا أن المزارع الفلسطيني يحصل فقط على ٨-١٢٪ زيت وذلك بسبب القطف المبكر لهذا الصنف إذ أن هذا الصنف ينضج متأخراً بالمقارنة مع الأصناف الأخرى ولذلك يفضل استعماله للكبيس. ينتشر هذا الصنف بشكل رئيسي في منطقة الخليل بمساحة ٣٠٠٠ هكتار ويبلغ وزن الثمرة ٦-٨غم، وتستعمل المشاتل في فلسطين هذا الصنف للعقل الطرفية لانتاج الأشتال وذلك لسهولة تجذيره في المشاتل. إلا أن هذا الصنف من الزيتون قليل المقاومة للآفات ولا يتحمل الجفاف ويحتاج إلى ري. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى انه يوجد في فلسطين حوالي ٣٥ شتلاً لانتاج الزيتون والتي يبلغ معدل إنتاجها السنوي حوالي مليون شتلة، ٦٠٪ منها تنتج بطريقة العقل الطرفية، ٤٠٪ بطريقة زراعة البذور والتطعيم عليها. ويفضل المزارع الفلسطيني الأشتال الناتجة من بذور حيث يتم زراعة بذور الصنف (آريكوين البري) لأن هذا الصنف يحتمل العطش.

مراحل العملية الإنتاجية للزيتون ومنتجاته:

قطف الزيتون:

أثبتت التجارب العلمية أن أفضل كمية ونوعية للزيت يمكن الحصول عليها عند اتباع أفضل موعد لقطف ثمار الزيتون السليمة هو بعد نضجها. ويبدأ النضج عادة حينما تبدأ الثمرة

اكتساب اللون الأحمر على سواد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التبكير أو التأخير في عملية قطف الزيتون له أثار سلبية على كمية ونوعية الزيت المستخلص. لذا، نصت معظم التحاليل المخبرية على عدم البدء بقطف ثمرة الزيتون في أي مكان في فلسطين قبل منتصف تشرين أول، علماً بأن التعليمات السابقة قبل قدوم السلطة الفلسطينية كانت تحدد العاشر من شهر تشرين أول كبداية السماح بالقطف. لقد تم اقتراح مواعيد القطف التالية للمناطق الفلسطينية المختلفة.

جدول رقم(١)

المحافظة	موعد القطف
طولكرم، جنين، غزة	بعد ١٠/ ١٥
نابلس	بعد ١٠/ ٢٠
رام الله	بعد ١١/ ١
بيت لحم، الخليل	بعد ١١/ ١٠

* المصدر: عساف سعيد، إرشادات حول الإنتاج الوفير والفاخر من زيت الزيتون الفلسطيني، المركز الوطني للبحوث الزراعية، ١٩٩٦، ص.٦.

إن الطريقة المتبعة لقطف ثمار الزيتون في فلسطين هي طريقة الحلابة باليد بنسبة ٧٦,٥٪ أو بواسطة أمشاط خاصة تباع تجارياً في الأسواق. كما يستخدم بعض الناس العصي بنسبة ٢٪ للقطف مع أن هذا يضر الثمار ويجرحها ويضر بالأشجار بشكل عام حيث يؤدي إلى تكسير النوات التي ستحمل الثمار في الموسم التالي مما يزيد من احتمالات ظاهرة تبادل الحمل[٩].

كما تستخدم أحيانا المواد الكيماوية والهرمونات على نطاق ١٠٠ هكتار [١٠] فقط في مختلف المناطق وذلك برش الشجرة من هذه المحاليل الكيماوية والهرمونية وتبقى لمدة أربعة أيام ثم تهز الأشجار المرشوشة بهزازة ميكانيكية أو ما يماثلها بقوة اليد، وتجمع الثمار عن البلاستيك والبسط. في الواقع لا يحبذ المزارعون هذه الطريقة للقطف حيث أنهم يخشون أن الزيادة في تساقط أوراق الشجرة يؤثر على الحمل للسنة التالية كما أنها ذات تكلفة عالية.

ناهيك عن جدوى استخدام الهرمونات في القطف قد يفقد تبريره في ظل بطالة العمال المستفحلة في الريف الفلسطيني.

تنقية ونقل وتخزين الثمار: أما الخطوة التي لا غنى عنها والتي لها تأثيرها على جودة الزيت، فهي انه لا بد من فصل الثمار المقطوفة مما علق بها من أوراق الزيتون ومن الأغصان المتكسرة ومن الثمار التي كانت قد تساقطت على الأرض قبل بدء عملية القطف. فزيت الأخير ذو حموضة عالية وخصائصه تختلف نوعياً عن خصائص الزيت الذي نستخلصه من الثمار المقطوفة عن الشجرة. وفيما يخص نقل الثمار، فمن المعروف أن الأكياس البلاستيكية عديمة التهوية هي العبوات المستعملة في بلادنا وأثناء رحلة الثمار هذه تتعرض للخدوش أو الرضوض والجروح مما يعرضها إلى تبادل العدوى التي تنعكس في زيتها الذي يفقد بذلك جودته. والمعروف انه يجري استعمال هذه الأكياس لنقل الجفت ثم لنقل الزيتون ثانية، والنتيجة معروفة طبعاً. كما جرت العادة بأن يقوم المزارعين بتكويم الثمار لفترة طويلة حتى يحين موعد العصر مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الثمار وبالتالي تؤدي إلى تخمرها بالإضافة إلى التفاعلات الأنزيمية ونتيجةً لذلك يتم إنتاج زيت غير صالح للأكل حيث تكون رائحته كريهة وحموضته مرتفعة. ولتلافي هذه المشكلة يجب تحريك الثمار يومياً عدة مرات بحيث لا يزيد بقاء الزيتون في الأكياس أو الأرض أكثر من ٣-٤ أيام.

عصر الزيتون وتخزين الزيت: قبل عصر الزيتون، تتم عملية غسيل الثمار وذلك لإزالة ما تبقى من الأوراق وغبار وأجسام غريبة وعادة ما ينتظر المزارعون حتى تمطر السماء على الثمار وتغسلها من الغبار وهذه عادة حسنة ولكن يجب مراعاة عدم اتساخها أثناء عملية القطف خاصة إذا ما تم العصر في معاصر قديمة لا تتوافر فيها وسيلة لغسل الثمار أوتوماتيكياً. بعد غسل الثمار تجري عملية تصفية الثمار من الماء ثم يتم هرسها وفق معايير ومقاييس محددة، ثم تخلط بطريقة مناسبة لكسر التماسك بين الزيت والماء في عصارة الثمرة. بعد خلط الثمار المهروسة بشكل كاف تبدأ مرحلة فصل الزيت عن عناصر الثمرة الأخرى، فنحصل على الزيت في نهاية المطافٍ، وعلى الجفت والماء النباتي. بعد ذلك تجري عملية تخزين الزيت، حيث يقوم المزارع الفلسطيني بنقل زيته وجفته إلى بيته فور استخلاصه ويقوم بتعبئة الزيت بعبوات من الصفيح سعة ١٧ لتراً، وعادة ما يخزن الزيت ببراميل كبيرة سعة ٢٠٠ لتراً أو ٥٠ لتراً من الصفيح أو البلاستيك وعند البيع يعبأ بصفائح سعة ١٧ لتراً وهي وحدة البيع الدارجة

بالبلاد. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصفائح عادة ما تحتوي على مواد كيماوية تتفاعل مع الزيت وتؤكسده. إن أفضل طريقة لتخزين الزيت هي براميل مصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ وذلك للحفاظ عليه لمدة طويلة دون أن يفقد الكثير من خواصه الطبيعية ولبقائه ضمن المواصفات العالمية، ولكن لغلاء ثمن مثل هذه البراميل فيمكن استعمال براميل بلاستيكية من البلاستيك المقوى. وقد ثبت أن البراميل البلاستيكية بسعة ٥٠ كغم تعطي نتائج جيدة في جميع عمليات خزن الزيت. ويوجد في فلسطين مصنعان لعبوات الصفيح إحداهما بنابلس والآخر بجنين.

لقد جرت محاولتان في فلسطين في الثمانينيات لإقامة مصنعين للصفيح لتعبئة زيت الزيتون بتمويل من اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة ومؤسسة "أنيرا" إحداهما تابع لتعاونية دير شرف في منطقة نابلس للعبوات بوزن ٢-٤ كغم زيت، والثاني تابع لجمعية عين سينا برام الله للعبوات بوزن ١-٣ كغم زيت، وكان ذلك في عامي ١٩٨٣ , ١٩٨٤. وقد عمل المصنع الأول بصورة تجريبية لمدة سنتين وسوق الإنتاج إلى الأردن ولم يجر التسويق محلياً، أما الثاني فلم يجرب ولم تقم الشركة المنتجة وهي إيطالية بأية محاولة للتشغيل أو التدريب رغم مراجعتها بذلك. وقد بذل كل من المصنعين جهوداً أقل من المطلوب بكثير للتغلب على الإشكاليات الفنية، المالية والإدارية التي تتجاوز قدرتهم. هذا وقد مولت مؤسسة "أنيرا" إعادة تشغيل مصنع تعبئة عين سينا ولكن بائت كل المحاولات بالفشل. وتم حديثاً تأسيس مصنع لتعبئة الزيت بأحجام مختلفة في شعفاط (بالقدس) ويقوم هذا المصنع بتصدير منتجاته إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

مخلفات عصر الزيتون:

جفت الزيتون: وهي المادة الجافة التي تبقى بعد عصر ثمار الزيتون المهروسة ويحتوي الجفت على جلد الثمار ولبها وخشب نواة بذور الزيتون بالإضافة إلى بعض الماء الذي تتراوح نسبته من ٢٥٪ - ٥٠٪ حسب أسلوب عصر الزيت في المعصرة. ويوجد في الضفة الغربية مصنعان لاستخلاص الزيت المتبقي في الجفت والذي تتراوح نسبته من ٤-١٠٪ من وزن الجفت. ولوجود معاصر حديثة لا تترك سوى نسبة قليلة من الزيت فقد قلت الجدوى الاقتصادية لاستخلاص هذا الزيت السيئ النوعية من الجفت والذي عادة يستعمل لانتاج الصابون. والجدير بالذكر أن أكبر استعمال للجفت في فلسطين هو كوقود للتدفئة (٧ , ٦٢٪)

وإننا ننصح بتكريس هذا الاستعمال لعدم وجود بترول في فلسطين وغلاء أسعار الطاقة وسهولة الحصول على الجفت بأسعار متدنية، وفي الفترة الأخيرة بدأت التجارب على استغلال جفت المعاصر في تركيب أعلاف الأغنام كمصدر للألياف والبروتين، حيث بلغت نسبة الحائزين المستخدمين للجفت كعلف ٢, ١٪ (١١).

الزيبار: هي المادة السائلة السوداء المتبقية بعد عصر ثمار الزيتون المهروسة، ويجمع الزيبار في أغلبية المعاصر (٨٣٪) في برك مجاورة للمعصرة ليجفف بها أو يشفط منها مباشرة حيث يتم التخلص منها في أماكن معروفة وعادة ما يتم التخلص منها في الوديان الوعرة البعيدة مما يؤدي إلى آثار سلبية على البيئة والإنسان. علماً أن هناك استخدامات مفيدة للزيبار كاستعماله مثلاً بدلاً من الماء لخلط الأسمنت كما يستخدم في التخمر مع مواد عضوية أخرى يعمل وبال لتسميد التربة ولكن في فلسطين ليس له أي استخدام.

أنواع المعاصر في فلسطين

المعاصر القديمة:

يعود تأسيسها إلى العشرينيات من هذا القرن، وقد أستمر استعمالها حتى أواخر الستينيات وتتكون المعصرة القديمة من ثلاث وحدات رئيسية هي الحجارة والمكبس والفرازة. وتدار جميع آلاتها بواسطة محرك بطيء الدوران (حوالي ١٨٠ دورة في الدقيقة) وتنتقل الحركة منه إلى بقية الآلات بواسطة أحزمة (قشط) خاصة. وتتم عملية درس الثمار بواسطة حجرين ذوي شكل اسطواني ولمدة نصف ساعة، تفرغ بعدها عجينة الدريس من حوض الحجارة إلى حوض آخر، ثم يعبئ الدريس يدوياً في أوعية نسيجية سميكة مصنوعة من الليف (القفف). ترتب القفف تحت المكبس الذي يعمل بواسطة ضغط السوائل لمدة نصف ساعة. ونتيجة لهذا الضغط ينفصل الزيت والماء عن المكونات الصلبة للثمرة ويتجمعان في حفرة خاصة، ثم تنضح السوائل المتجمعة دورياً إلى الفرازة التي تعمل بمبدأ الطرد المركزي فينفصل الزيت عن المواد الأخرى.

المعاصر نصف الأتوماتيكية:

سميت كذلك لأن بعض مراحل العمل فيها تتم بصورة آلية والبعض الآخر يتم بواسطة

الأيدي العاملة. وقد بدئ باستعمال هذه المعاصر في أوائل السبعينيات، أما وحداتها الرئيسية فتشمل الجاروشة (تستعمل الحجارة أحياناً) والمكابس (مكبسان في الغالب) والفرازات (واحدة أو اثنتان). ويتميز هذا النوع من المعاصر بأنه يشمل آلات لغسل الثمار قبل درسها، كما أنها مزودة بروافع آلية تغني عن الأيدي العاملة في بعض مراحل الدرس. وتصل كفاءة المكبس إلى ٣٠٠ ضغط جوي، ويتم توزيع الدريس أوتوماتيكياً على الكفف ثم تنقل القفف على عربات.

المعاصر الأتوماتيكية:

أدخل هذا النوع من المعاصر إلى فلسطين في أواخر السبعينيات وتتميز هذه المعاصر بكفاءتها العالية إذ يمكنها أن تعمل بخط أو خطي إنتاج، إضافة إلى ميكنة جميع مراحل الإنتاج فيها دون الحاجة إلى مجهود عضلي مقارنة بأنواع المعاصر الأخرى. كما أنها تتميز عن سابقاتها من المعاصر بأنها تشمل آلات لإزالة الأوراق والشوائب إضافة إلى آلات لغسل الثمار قبل درسها. كما يتم فصل الزيت والمكونات الأخرى للثمار عن بعضها وعادة ما تزود المعصرة بفرازتين لا واحدة، فيفرز الزيت في إحداهما والسوائل الأخرى في الثانية.

تحليل لأهم المؤشرات الاقتصادية لنشاط معاصر الزيتون في فلسطين

المعاصر العاملة في فلسطين خلال الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩)

المعاصر العاملة في فلسطين:

جدول رقم (٢)

المعاصر العاملة في فلسطين حسب مستوى الأتمتة

البيان	1995	1996	1997	1998	1999
إجمالي المعاصر العاملة:	214	(%6)228	(%8-)209	(%7)227	(%27-)165
معاصر قديمة	19	(%37-)12	(%25-)9	(%55-)4	-
معاصر نصف أوتوماتيكية	96	(%13)109	(%18-)89	(%17)104	(%47-)55
معاصر أوتوماتيكية	99	(%8)107	(%4)111	(%7)119	(%7-)110
معاصر مغلقة مؤقتاً	-	-	47	(%55-)21	(%281)80
معاصر مغلقة نهائياً	-	-	156	(%87-)20	-
نسبة المعاصر القديمة إلى المعاصر العاملة	% 9	%5	%4	%2	-
نسبة المعاصر نصف أوتوماتيكية إلى المعاصر العاملة	%45	%48	%43	%46	%33
نسبة المعاصر الأوتوماتيكية إلى المعاصر العاملة	%46	%47	%53	%52	%67

* المصدر : الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (١٩٩٦, ٩٧, ٩٨, ٩٩, ٢٠٠٠)، مسوحات معاصر الزيتون، ١٩٩٥, ٩٦, ٩٧, ٩٨, ٩٩- النتائج الأساسية، رام الله - فلسطين.
* تم احتساب النسب بواسطة الباحث.
* النسب بين قوسين هي نسب التغير، حيث تم احتساب نسبة التغير في كل سنة مقارنة مع السنة التي تسبقها.

تشير البيانات الواردة في جدول رقم (٢) إلى أن نسبة المعاصر القديمة التي تعمل بالحجارة وبالمكابس آخذة بالتناقص حيث كانت نسبتها في العام ١٩٩٥ , ٩٪ وفي العام ١٩٩٨ , ٢٪ فقط وتلاشت تماماً في العام ١٩٩٩. وتشير البيانات إلى أن نسبة المعاصر نصف الأوتوماتيكية والمعاصر الأوتوماتيكية وبالتحديد الأخيرة آخذة بالتزايد حيث أن نسبتها كانت ٤٦٪ في العام ١٩٩٥ وارتفعت إلى ٥٢٪ في العام ١٩٩٨ ثم إلى ٦٧٪ في العام ١٩٩٩. هذا التراجع في عدد المعاصر القديمة يعود إلى قدرتها المنخفضة في الانتاج على الرغم من أن العديد من

المستهلكين يفضلون زيت هذه المعاصر، وتبلغ الطاقة الانتاجية للمعصرة القديمة ٤-٦ طن في اليوم الواحد بينما تبلغ طاقة المعصرة نصف أوتوماتيكية ١٢-١٥ طن والمعصرة الأوتوماتيكية ٢٤-٣٠ طن. والسبب الآخر لتراجع المعاصر القديمة هو عدم قدرتها على الاستخلاص التام للزيت من الجفت وكذلك الجودة الرديئة للزيت الذي يستخلص من هذه المعاصر. وبخصوص مصدر معاصر الزيتون في فلسطين، فالنسبة الأعظم (٩٥٪) منها تستورد من إيطاليا ونسبة بسيطة جداً من السويد واليونان، أما الشكل القانوني للمعاصر في فلسطين فمعظمها مسجلة كشركات خاصة والبعض ملك أفراد وهناك حوالي ١٩ جمعية تعاونية تمتلك معاصر زيتون موزعة في أربعة محافظات هي رام الله، الخليل، طولكرم، ونابلس. وبخصوص صيانة معاصر الزيتون في فلسطين ٧٣,٥٪ من العاملين في صيانة معاصر الزيتون هم فنيين محليين، ٢٦٪ من المالكين والمساهميين و ٠,٥٪ من الفنيين الأجانب.

جدول رقم (٣)

العاملين في المعاصر وتعويضاتهم

المعاصر العاملة في فلسطين، العاملين فيها وتعويضاتهم

البيان	1995	1996	1997	1998	1999
عدد المعاصر العاملة	214	228	209	227	165
عدد العاملين بالمعاصر	2.281	(51-)1.111	(7-)1.038	(19)1.237	(48-)641
عاملون بأجر	1927	920	786	892	372
% من إجمالي عدد العاملين	%84	%83	%77	%72	%58
عاملون بدون أجر	354	191	252	345	269
% من إجمالي عدد العاملين	%16	%17	%23	%28	%42
تعويضات العاملين (بالألف دولار)	615	(21)745	(49-)383	(128)872	(78-)193
معدل أجر العامل بأجر (دولار)	319	809	487	977	518
متوسط عدد العاملين بالمعصرة الواحدة	10.6	4.8	4.9	5.4	3.8

* المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (١٩٩٦, ٩٧, ٩٨, ٩٩, ٢٠٠٠)، مسوحات معاصر الزيتون للمواسم ٩٩, ٩٨, ٩٧, ٩٦, ١٩٩٥، النتائج الأساسية، رام الله - فلسطين.
* تم احتساب النسب والمعدلات بواسطة الباحث.
* النسب بين قوسين هي نسب التغير، حيث تم احتساب نسبة التغير في كل سنة مقارنة مع السنة التي تسبقها.

يتضح من الجدول رقم (٣) أنه بالرغم من أن السواد الأعظم (٧٥٪) من إجمالي العاملين في معاصر الزيتون خلال الفترة ١٩٩٥-١٩٩٩ هم عاملون بأجر وحوالي ٢٥٪ عاملون

بدون أجر، إلا أنه يتضح أن نسبة العاملين بأجر خلال الفترة تتناقص حيث بلغت في العام ١٩٩٥ حوالي ٨٤٪ وانخفضت إلى ٧٢٪ في العام ١٩٩٨ ووصلت إلى ٥٨٪ في العام ١٩٩٩، ومقابل هذا الانخفاض في عدد العاملين بأجر هناك زيادة ملحوظة في عدد العاملين بدون أجر حيث بلغت ١٦٪ في العام ١٩٩٥ ثم ٢٨٪ في العام ١٩٩٨ ووصلت إلى ٤٢٪ في العام ١٩٩٩. هذا الانخفاض في أعداد العاملين بأجر يعود إلى ظاهرة تبادل الحمل بالاضافة إلى كلف العاملين بأجر (٣١٩-٩٧٧ دولار للعامل الواحد) والتي يعتبرها أصحاب المعاصر مرتفعة إلى حد ما الأمر الذي أدى إلى الأعتماد على العاملين بدون أجر (ملاك المعاصر والمساهمين) لغرض التخفيف من هذه الكلف. وتشير البيانات إلى أن عدد العاملين في المعصرة الواحدة يتراوح بين ٣,٨ - ٦ , ١٠ عامل أي بمعدل ٥ , ٩ عامل للمعصرة الواحدة، وهذا يشير إلى أن معاصر الزيتون في فلسطين قليلة العمالة وكثيفة رأس المال ويستدل على ذلك أيضاً من خلال حصة العاملين في القيمة الدفترية للمعاصر خلال الخمسة مواسم والتي تساوي ٦٩٦٧ دولار مقارنة مع ٥٥٣٦ دولار للقطاع الصناعي و ٦١١٥ دولار لقطاع الصناعات الغذائية. ويتضح كذلك أن تعويضات العاملين تتذبذب من موسم لآخر تبعاً لكون الموسم ماسي أم شلتوني وكذلك تبعاً لتراجع عدد العاملين باجر وتزايد عدد العاملين بدون أجر.

جدول رقم (٤)

الإنتاج الفلسطيني من زيت الزيتون

إنتاج فلسطين من زيت الزيتون خلال الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩)

البيان	1995	1996	1997	1998	1999
كمية الزيتون المهروسة (طن)	50.050	(%2)50.884	(53-)24.127	(166)64.213	(76-)15.092
كمية الزيت المستخرجة (طن)	13.154	(6-)12.344	(52-)5.961	(152)14.998	(77-)3436
نسبة السيولة	%26	%24	%25	%23	%23
قيمة الإنتاج المحلي من زيت الزيتون (بالمليون دولار)	54	(1.8-)53	(51-)26	(188)75	(76-)18

❊ المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ , ٢٠٠٠)، مسوحات معاصر الزيتون للموسم ٩٩ , ٩٨ , ٩٧ , ٩٦ , ١٩٩٥، النتائج الأساسية، رام الله - فلسطين.

❊ تم احتساب النسب بواسطة الباحث.

❊ النسب بين قوسين هي نسب التغير.

❊ نسبة السيولة: تمثل كمية الزيت المستخرج مقسومة على كمية الزيتون المهروسة.

❊ قيمة الإنتاج المحلي مصدرها، الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، الحسابات القومية (٩٥-٩٩)، بيانات غير منشورة.

ملاحظة(١): يتضح من الجدول رقم (٤) أن هناك تباين في كمية الزيتون المهروسة وكمية الزيت المستخلصة من سنة ماسية إلى سنة شلتونية. ففي السنوات الماسية يكون هناك إنتاج وفير من الزيتون والزيت وأما في السنوات الشلتونية يتدنى إنتاج الزيت والزيتون. وكما يشير الجدول، تراجعت قيمة الإنتاج من زيت الزيتون من ٥٤ مليون دولار في العام ١٩٩٥ إلى ٢٦ مليون في العام ١٩٩٧ ثم عادت وارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً في العام ١٩٩٨، ووصلت إلى أدنى قيمة لها في العام ١٩٩٩ (١٨ مليون دولار). إن قيمة الإنتاج المحلي كما يظهر تذبذبت تبعاً لكمية الإنتاج من زيت الزيتون والتي تختلف من سنة ماسية إلى سنة شلتونية، كما أن تذبذب قيمة الإنتاج أيضاً ناتج عن تذبذب أسعار الزيت والتي تراوحت بين ١٠٥, ٤- ٢٢٨, ٥ دولار للكيلو غرام خلال فترة الدراسة.

ملاحظة (٢): كمية الزيت المستخرجة الواردة في الجدول ناتجة عن عصر ثمار الزيتون فقط ولا تشمل كمية الزيت الناتجة عن عصر الجفت والتي تقدر بحوالي ٤-١٠٪ من كمية الجفت والذي بدوره يشكل حوالي ٤٠٪ من كمية الثمار التي تم عصرها.

ملاحظة (٣): تنتج فلسطين حوالي ١٪ من الإنتاج العالمي من زيت الزيتون والذي يقدر بحوالي ١,٧٥ مليون طن، وتعتبر هذه النسبة ضئيلة للغاية مقارنة مع دول أخرى منتجة لزيت الزيتون، حيث بلغ في إسبانيا ٢٧,٥٪، إيطاليا ٢٤,٥٪، اليونان ٢٠,٤٪، تركيا ٩٪، تونس ٥,٧٪، سوريا ٥,١٪، المغرب ٢,٥٪، البرتغال ١,٨٪[١٢].

ملاحظة (٤): تتراوح نسبة السيولة لزيت الزيتون الفلسطيني بين ٢٣-٢٦٪ أي بمعدل ٢٤,٢٪ من الزيتون المهروس. وتجدر الإشارة إلى أن نسبة السيولة تتفاوت حسب وقت بدء القطف وعادات التخزين وتختلف أيضاً من منطقة إلى أخرى، حيث تشير الدراسات إلى أن أعلى نسبة سيولة هي ٢٦٪ في محافظة طولكرم وأدنى نسبة سيولة بلغت ١٩٪ في غزة ودير البلح.

ملاحظة (٥): من المتعارف عليه أن تتقاضى المعاصر نسبة من الزيت الناتج مقابل عملها، وتتراوح هذه النسبة بين ٨-١٢٪ من الزيت الناتج وهناك بعض المعاصر تتقاضى نقداً مقابل عملها.

جدول رقم (٥)

القيمة المضافة لنشاط معاصر الزيتون

القيمة المضافة لنشاط معاصر الزيتون خلال الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩)

البيـــــان	1995	1996	1997	1998	1999
إجمالي إيرادات المعاصر (بالألف دولار)	3.439	(%3)3.539	(%45-)1.845	(%128)4437	(%70-)1335
إجمالي قيمة الاستهلاك الوسيط (بالألف دولار)	1.042	(%38)1.442	(%54-)669	(%79)1199	(%69-)367
• مستلزمات سلعية	322	520	198	234	70
• نسبة من إجمالي الاستهلاك الوسيط	%31	%36	%30	%20	%19
• وقود وزيوت	181	280	116	198	66
• نسبة من إجمالي الاستهلاك الوسيط	%17	%19	%17	%17	%18
• كهرباء وماء	234	293	153	268	85
• نسبة من إجمالي الاستهلاك الوسيط	%22	%20	%23	%22	%23
• مصاريف أخرى	305	349	202	499	146
• نسبة من إجمالي الاستهلاك الوسيط	%29	%24	%30	%42	%40
نسبة الاستهلاك الوسيط إلى إجمالي إيرادات المعاصر	%30	%41	%34	%27	%27
القيمة المضافة لنشاط معاصر الزيتون (بالألف دولار)	2.398	(%13-)2.097	(%39-)1.276	(%154)3.237	(%70-)968
نسبة الاستهلاك الوسيط إلى القيمة المضافة	%43	%69	%52	%37	%38

* المصدر الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (١٩٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ , ٢٠٠٠)، مسوحات معاصر الزيتون، ١٩٩٥ , ٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩، النتائج الأساسية، رام الله -فلسطين.
* القيمة المضافة= الإنتاج الإجمالي للمعاصر (إيرادات المعاصر) - الاستهلاك الوسيط.
* الاستهلاك الوسيط= هو قيمة مستلزمات الإنتاج السلعية والخدمية المستخدمة في الإنتاج.
* مصاريف أخرى تتضمن: إيجارات الأبنية، استئجار معدات، صيانة وإصلاح الآلات والأبنية، سفريات، تدقيق حسابات، ضيافة، نفقات طبية للعمال، رسوم غرف تجارية، نقل البضائع، دعاية وإعلان...إلخ.
* المستلزمات السلعية تتضمن: مواد تعبئة، معدات مستهلكة، قرطاسية، ملابس، مواد تنظيف وأخرى.
* إيرادات المعاصر: تتضمن الإيرادات النقدية والعينية.
* تم احتساب النسب بواسطة الباحث.
* النسب بين قوسين هي نسب التغير.

تشير البيانات الواردة في الجدول رقم (٥) أن القيمة المضافة لمعاصر الزيتون تتراجع بنسب متفاوتة، حيث تراجعت بنسبة ١٣٪ في العام ١٩٩٦ وبنسبة ٣٩٪ في العام ٩٧ وصعدت بنسبة ١٥٤٪ في العام ١٩٩٨ ثم عادت وتراجعت بنسبة ٧٠٪ في العام ١٩٩٩. هذا التراجع في القيمة المضافة للمعاصر جاء نتيجة لتذبذب إيراداتها وزيادة قيمة الاستهلاك الوسيط حيث تراوحت نسبة الاستهلاك الوسيط إلى القيمة المضافة خلال الخمسة مواسم بين ٣٨-٦٩٪ أي بمتوسط٤٨٪ وتراوحت نسبة الاستهلاك الوسيط من إيرادات المعاصر بين ٢٧-٤١٪ بمتوسط ٣٢٪. ولقد شكلت قيمة المستلزمات السلعية، نفقات الكهرباء والمياه والمصاريف الأخرى النسبة الأعظم (٨٢٪) من إجمالي قيمة الاستهلاك الوسيط، وهذا مؤشر لارتفاع أسعار المستلزمات والخدمات في فلسطين.

جدول رقم (٦)

حركة رأس المال الثابت لنشاط معاصر الزيتون

حركة رأس المال الثابت لنشاط معاصر الزيتون خلال الفترة (١٩٩٥-١٩٩٩)

البيـــــان	1995	1996	1997	1998	1999
القيمة الدفترية في بداية العام (بالألف دولار)	8877	(8-)8194	(10-)7392	(18-)6093	(31)7962
الإضافات الإجمالية.	68	(1162)858	(34-)563	(332)2434	(88-)296
نسبة من القيمة الدفترية بداية العام.	%1	%10	%8	%40	%4
التالف والمفقود.	0	0	0	-	-
الأصول المباعة.	0	40	0	-	-
الإهلاك السنوي.	1879	(36-)1205	(15-)1022	(3.6)1059	(0.19)1057
نسبة من القيمة الدفترية في بداية العام.	%21	%15	%14	%17	%13
القيمة الدفترية في نهاية العام (بالألف دولار)	7066	(10)7807	(11-)6933	(3)7303	(1.4-)7201
تكلفة رأس المال إلى العمل (دولار)(K/L)	3495	7201	6900	5414	11827
التكاليف الرأسمالية المضافة لمعاصر الزيتون (بالألف دولار).					
تكاليف الأصول الجديدة.	68	(1162)858	(34-)563	(332)2434	(88-)296
مباني وإنشاءات.	35	9	93	72	0
نسبة من تكاليف الأصول الجديدة	%51	%1	%17	%3	-
أجهزة ومعدات.	32	784	460	2279	295
نسبة من تكاليف الأصول الجديدة.	%47	%91	%82	%94	%99
أصول أخرى.	0	65	10	83	1
نسبة من تكاليف الأصول الجديدة	-	%8	%2	%3	%0.5
التكوين الرأسمالي الثابت الإجمالي (بالألف دولار)	68	858	563	2300	296

❋ المصدر: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (١٩٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ , ٢٠٠٠)، مسوحات معاصر الزيتون، ١٩٩٥، ٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩، النتائج الأساسية، رام الله -فلسطين.

❋ التكوين الرأسمالي الثابت الإجمالي= قيمة الإضافات والتحسينات والمشتريات من الأصول الثابتة خلال العام – الأصول الثابتة المباعة.

❋ القيمة الدفترية نهاية العام = القيمة الدفترية للأصول في بداية العام + الإضافات الإجمالية – (التالف والمفقود + الاستهلاك السنوي).

يتبين من الجدول رقم (٦) أن نسبة الإضافات والتحسينات الإجمالية (التكوين الرأسمالي الثابت) خلال المواسم الخمسة قد تراوحت بين ١-٤٠٪ من القيمة الدفترية للأصول الثابتة في بداية العام أي بمتوسط ٦, ١٢٪، هذا في الواقع، يشير إلى ضعف الاستثمار في رأس المال الثابت لمعاصر الزيتون، ناهيك عن أن الأصول الثابتة خلال المواسم قد تم اهتلاكها بنسبة تتراوح بين ١٣-٢١٪ أي بمتوسط ١٦٪، وهذه النسبة في الواقع أكبر من نسبة الإضافات والتحسينات التي تمت على الأصول الثابتة في بداية العام. أي أن ما تم إضافته من أصول ثابتة ثم تآكله من خلال نسب الإهتلاك المرتفعة. ويلاحظ من الجدول كذلك أن الإضافات على الأصول الثابتة تركزت على بندي الأجهزة والمعدات والإنشاءات حيث بلغت متوسط نسبة كل منهما ٦, ٨٢٪ و ٤, ١٤٪ على التوالي من إجمالي الإضافات والتحسينات. كما تشير البيانات في الجدول إلى أن معاصر الزيتون تعتبر كثيفة رأس المال حيث بلغ متوسط كثافة رأس المال إلى العمل خلال المواسم الخمسة حوالي ٦٩٦٧ دولار مقارنة مع ٦١١٥ دولار لقطاع الصناعة الغذائية و ٥٥٣٦ للقطاع الصناعي ككل.

تشير البيانات الواردة في الجدول رقم (٧) إلى أن متوسط نسبة منشآت معاصر الزيتون من إجمالي منشآت الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي خلال المواسم ١٩٩٥-١٩٩٩ قد بلغت حوالي ٣, ١٤٪ و ٦٤, ١٪ على التوالي. أما متوسط نسبة العاملين في معاصر الزيتون من إجمالي العاملين في الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي فقد بلغت ٣, ١٩٪ و ٢٧, ٢٪ على التوالي. بالرغم من هذه الحصة الملحوظة لمنشآت معاصر الزيتون والعاملين فيها في منشآت الصناعات الغذائية والعاملين فيها وكذلك منشآت القطاع الصناعي والعاملين فيه، إلا أنه وكما هو واضح أن هناك تراجعاً ملحوظاً في هذه النسب خلال المواسم الخمسة. هذا التراجع في الواقع يعود إلى أن هناك أعداد كبيرة من معاصر الزيتون قد تم إغلاقها مؤقتاً (٤٧ معصرة خلال موسم عام ١٩٩٧ , ٢١ معصرة خلال موسم ١٩٩٨ , ٨٠ معصرة خلال موسم ١٩٩٩)، أو نهائياً (١٥٦ معصرة خلال موسم ١٩٩٧ , ٢٠ معصرة خلال موسم ١٩٩٨) [١٤] وذلك بسبب تذبذب إنتاج الزيتون بل تراجعه خلال الأعوام السابقة بسب تخلي الكثير من المزارعين الفلسطينيين عن الأرض المشجرة بالزيتون واستخدامها لغرض البناء والأعمار، ونتيجة لتراجع عدد منشآت معاصر الزيتون والعاملين فيها أدى ذلك إلى تراجع وتذبذب تعويضات العاملين حيث بلغت نسبة متوسط تعويضات العاملين في معاصر الزيتون خلال المواسم الخمسة من تعويضات العاملين في الصناعات الغذائية، والقطاع الصناعي حوالي ٣٤, ٣٪ و ٣٧, ٠٪ على التوالي، كما أن تراجع تعويضات العاملين كنسبة من تعويضات

جدول رقم (٧)
مؤشرات مقارنة لصناعة زيت الزيتون مع قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي ككل خلال الفترة(١٩٩٥-١٩٩٩)

	1995					1996					1997					1998					1999						
البيان	القطاع الصناعي	الصناعات الغذائية	معاصر الزيتون	نسبة من الغذائية	نسبة من القطاع الصناعي	القطاع الصناعي	الصناعات الغذائية	معاصر الزيتون	نسبة من الغذائية	نسبة من القطاع الصناعي	القطاع الصناعي	الصناعات الغذائية	معاصر الزيتون	نسبة من الغذائية	نسبة من القطاع الصناعي	القطاع الصناعي	الصناعات الغذائية	معاصر الزيتون	نسبة من الغذائية	نسبة من القطاع الصناعي	القطاع الصناعي	الصناعات الغذائية	معاصر الزيتون	نسبة من الغذائية	نسبة من القطاع الصناعي	متوسط النسبة من الغذائية	متوسط النسبة من القطاع الصناعي
[illegible]	10912	1282	214	17	2	10925	1308	228	17	2	13464	1420	209	14.7	1.55	14471	1694	227	13	1.57	14849	1590	165	10	1.1	14.30	1.64
[illegible]	47814	6255	2281	36	4.7	50696	6062	1111	18.3	2.19	61775	6323	1038	16.4	1.68	65099	7058	1237	17.5	1.9	72660	7332	641	8.7	0.88	19.38	2.27
[illegible]	122	13896.4	615	4.4	0.50	134.8	14410.9	745	5.17	0.55	156712	14013	383	2.7	0.24	179.4	19526	872	4.46	0.48	227.740	20734	193	0.93	0.08	3.54	0.37
[illegible]	913.5	164991.2	3439	2.08	0.37	979.3	151063	3539	2.34	0.36	1889671	178552	1945	1.09	0.18	1286	218288	4437	2.03	0.34	1613736	228430	1335	0.58	0.082	1.62	0.26
[illegible]	565.2	136034.5	1042	0.82	0.18	556.7	106928	1442	1.35	0.26	610499	117352	669	0.57	0.109	69004	133599	1199	0.89	0.17	826594	145483	367	0.25	0.04	0.77	0.15
[illegible]	348.2	38436	2398	6.2	0.68	422.5	44134	2097	4.752	0.49	479172	61200	1276	2.08	0.266	595.6	84688	3237	3.8	0.54	787142	82947	968	1.16	0.12	3.6	0.42
[illegible]	203.7	3245	68	2.09	0.03	34.5	2080	858	41.25	2.5	42390	4851	563	11.6	1.32	23	2780	2300	82.7	10	34241	9529	296	3.10	0.86	28.15	2.94

* المصدر : الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٢٠٠٠ , ٩٩ , ٩٨ , ٩٧ , ٩٦ ، المسح الصناعي، ٩٩ , ٩٨ , ٩٧ , ٩٦ , ٩٥ ، نتائج أساسية ، رام الله ، فلسطين.
* الإحصاءات الواردة في الجدول بدون القدس.
* الإحصاءات بخصوص معاصر الزيتون مصدرها : الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني (٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ , ٢٠٠٠) مسوحات معاصر الزيتون، ٩٥ , ٩٦ , ٩٧ ، ٩٨ , ٩٩ ، النتائج الأساسية ، رام الله – فلسطين.
* تم احتساب النسب بواسطة الباحث.

العاملين في الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي يعود إلى تراجع أعداد العاملين بأجر لصالح العاملين بدون أجر (ملاك المعاصر والمساهمين). ولا يفوتنا أن نذكر أنه في السنوات الشلتونية تضطر معاصر الزيتون الاستغناء عن بعض العاملين نظراً لشح إنتاج الموسم وكذلك للتخفيف من كلف الإنتاج. كما تشير البيانات في الجدول إلى أن متوسط نسبة القيمة المضافة لمعاصر الزيتون من إجمالي القيمة المضافة لمنشآت الصناعات الغذائية ومنشآت القطاع الصناعي تتراجع خلال السنوات الخمسة حيث بلغت ٦ ,٣٪ و ٤٢ , ٠٪ على التوالي. ويتضح كذلك أن متوسط نسبة إنتاج معاصر الزيتون من إجمالي قيمة إنتاج الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي أيضاً تتراجع حيث بلغت ٦٢ , ١٪ و ٢٦ , ٠٪ على التوالي. هذا التراجع في القيمة المضافة والإنتاج يعود إلى ظاهرة تبادل الحمل وكذلك زيادة قيمة الاستهلاك الوسيط وبالتحديد قيمة المستلزمات السلعية ومصاريف الكهرباء والمياه والمصاريف الأخرى والتي تستحوذ على نسبة ٨٢٪ من إجمالي قيمة الاستهلاك الوسيط لمعاصر الزيتون. أما متوسط نسبة التكوين الرأسمالي الثابت الإجمالي لمعاصر الزيتون من إجمالي التكوين الرأسمالي الثابت للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي، فقد شكلت نسبة جيدة حوالي ١٥ ,٢٨٪ و ٩٥ , ٢٪ على التوالي بالرغم من تراجعه في بعض السنوات. هذه النسبة الملحوظة للتكوين الرأسمالي الثابت لمعاصر الزيتون ناتجة عن عدم وجود أصول مباعة أو أصول تالفة ومفقودة خلال العام وهذا يشير إلى أن نسبة الإضافات في الأصول الثابتة لمعاصر الزيتون كانت جيدة بالمقارنة مع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي.

يتضح من الجدول رقم (٨) أن المتوسطات الخمسة الأولى لمعاصر الزيتون تتذبذب ارتفاعاً وانخفاضاً تبعاً لموسم الزيتون إن كان ماسياً أم شلتونياً. أما المؤشر السادس (نسبة القيمة المضافة إلى الإنتاج) فهي في تصاعد مستمر خلال الفترة ٩٥-٩٩، حيث بلغت النسبة ٧ , ٦٩٪ في العام ١٩٩٥ ثم انخفضت طفيفاً إلى٥٩٪ في العام ١٩٩٦ ثم واصلت ارتفاعها إلى ٦٦٪ في العام ١٩٩٧ إلى أن وصلت إلى ٧٣٪ في العامين الأخيرين. وهذا مؤشر على أن صناعة زيت الزيتون في فلسطين تعتبر ذات قيمة مضافة عالية. أما المؤشر السادس (نسبة تعويضات العاملين من القيمة المضافة)، فقد أظهرت تراجعاً ملحوظاً خلال الفترة، حيث كانت ٢٦٪ في العام ٩٥ ثم صعدت إلى ٣٦٪ في العام ٩٦، وفي السنوات الثلاث الأخيرة تراجعت بشكل ملحوظ حيث تدرجت من ٣٠٪ إلى ٢٧٪، ثم إلى ٢٠٪ في الأعوام ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ على التوالي. هذا التراجع في تعويضات العاملين كنسبة من القيمة المضافة كان على حساب الزيادة في الاستهلاك الوسيط، اهتلاكات رأس المال... إلخ. وعند عمل مقارنات ما بين هذه المتوسطات

جدول رقم(٨)

متوسطات ونسب مقارنة مستخلصة من المسح الصناعي ومسح معاصر الزيتون (١٩٩٥-١٩٩٩)

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	3881.60	7288.56	3854.60	3962.54	4486.93
الصناعات الغذائية	3347.04	6556.21	3799.73	4471.02	4359.44
معاصر الزيتون	319	809.7	487	977.5	519
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	4694.8				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	4506.6				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	622				
نسبة من القطاع الصناعي	%13				
نسبة من الصناعات الغذائية	13.8				

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	19103.6	57742.1	17639.3	19364.9	21185.5
الصناعات الغذائية	26577.4	27197.3	28238.6	30828.9	31273.4
معاصر الزيتون	1507.	3185	1874	2587	2083
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	27007				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	28783				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	5161				
نسبة من القطاع الصناعي	%19				
نسبة من الصناعات الغذائية	%17.9				

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	29060.6	82024.3	26800.9	30094.8	31786.5
الصناعات الغذائية	39737.7	48601.1	48414.5	49636.7	49559.0
معاصر الزيتون	1785	3847	2474	4974	3589
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	39953				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	47169.8				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	3333.8				
نسبة من القطاع الصناعي	%8.3				
نسبة من الصناعات الغذائية	%7				

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	7282.94	17029.0	7756.73	8820.16	10085.8
الصناعات الغذائية	6144.97	14725.8	9678.98	11750.5	11229.0
معاصر الزيتون	1051	1887	1229	2617	1510
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	10194.9				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	10701.8				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	1658.8				
نسبة من القطاع الصناعي	%16.2				
نسبة من الصناعات الغذائية	%15.5				

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	11078.8	24190.1	11785.4	13707.2	15132.6
الصناعات الغذائية	9257.42	26314.7	16594.4	18886.9	17722.9
معاصر الزيتون	1244	2279	1623	3629	2602
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	15178.7				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	17755				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	2275.8				
نسبة من القطاع الصناعي	%14.99				
نسبة من الصناعات الغذائية	%12.8				

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	38.12	29.49	43.97	45.55	47.61
الصناعات الغذائية	23.30	54.14	34.28	38.05	35.91
معاصر الزيتون	69.7	59	66	73	73
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	%40.9				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	%37				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	%68.14				
نسبة من القطاع الصناعي					
نسبة من الصناعات الغذائية					

البيان	[illegible]				
	95	96	97	98	99
القطاع الصناعي	35.04	30.13	32.70	28.91	29.63
الصناعات الغذائية	36.16	24.91	22.90	23.67	24.60
معاصر الزيتون	26	36	30	27	20
القطاع الصناعي (متوسط الخمس سنوات)	31.28				
الصناعات الغذائية (متوسط الخمس سنوات)	26.4				
معاصر الزيتون (متوسط الخمس سنوات)	27.8				
نسبة من القطاع الصناعي					
نسبة من الصناعات الغذائية					

* تم احتساب هذه المتوسطات والنسب من قبل الباحث بناءً على احصاءات المسح الصناعي للجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩، ٢٠٠٠، النتائج الأساسية، رام الله. وكذلك مسوحات معاصر الزيتون (٩٦ , ٩٧ , ٩٨ , ٩٩ , ٢٠٠٠)، النتائج الأساسية، رام الله.

والنسب لمعاصر الزيتون وبين نفس المتوسطات لقطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي، نلاحظ أن متوسط نصيب العامل بأجر من تعويضات العاملين خلال الفترة ٩٥-٩٩ لمعاصر الزيتون قد بلغت ٦٦٢ دولار وهي تشكل حوالي ٨ ,١٣٪ و ١٣٪ من المؤشر نفسه للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي على التوالي. وبلغ متوسط إنتاجية العامل في الإنتاج لمعاصر الزيتون خلال الفترة نفسها حوالي ٥١٦١ دولار أي بنسبة ٩ ,١٧٪ و ١٩٪ من نفس المؤشر للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي على التوالي. أما متوسط نصيب إنتاجية العامل باجر من الإنتاج فقد بلغت ٨ ,٣٣٣٣ دولار بنسبة ٧٪ و ٣ ,٨٪ من نفس المؤشر للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي على التوالي. بخصوص متوسط نصيب العامل من القيمة المضافة فقد بلغت ٨ ,١٦٥٨ دولار بنسبة ٥ ,١٥٪ و ٢ ,١٦٪ من نفس المؤشر للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي على التوالي. وبلغ متوسط نصيب العامل بأجر من القيمة المضافة لمعاصر الزيتون ٨ ,٢٢٧٥ دولار بنسبة ٨ ,١٢٪ و ٩٩ ,١٤٪ من نفس المؤشر للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي. كل هذه المؤشرات الإنتاجية، في الواقع، تشير إلى أن مساهمة معاصر الزيتون في المتوسطات المختلفة لقطاع الصناعات الغذائية وللقطاع الصناعي تعتبر جيدة ومتقاربة إلى حد كبير. أما بخصوص نسبة القيمة المضافة إلى الإنتاج لمعاصر الزيتون فهي تعتبر كبيرة ومتزايدة (١٤ ,٦٨٪) مقارنة مع نفس النسبة للصناعات الغذائية (٣٧٪) والقطاع الصناعي(٩ ,٤٠٪)، وهذا يشير إلى أن القيمة المضافة لمعاصر الزيتون عالية وأن المكون المحلي لصناعة زيت الزيتون في فلسطين تعتبر عالية يؤهلها بسهولة تشكيل قواعد المنشأ التي تتطلبها أسواق التصدير. أما نسبة تعويضات العاملين إلى القيمة المضافة لمعاصر الزيتون (٨ ,٢٧٪) بالرغم من ارتفاعها، فهي تعتبر متقاربة مع نفس النسبة للصناعات الغذائية (٤ ,٢٦٪) والقطاع الصناعي (٢٨ ,٣١٪).

تحليل الإنتاجية والأجور في معاصر الزيتون:

لقد أولى الاقتصاديون ورجال الأعمال ومتخذو القرار اهتماماً كبيراً بالإنتاجية نظراً لارتباطها بالكفاءة في استغلال الموارد والتكاليف والأرباح وهي تمثل مدى مساهمة تلك الموارد في إنتاج السلع والخدمات المختلفة. وغالباً ما يتم التركيز على إنتاجية العمل نظراً لأن عنصر العمل يشكل في كثير من الأحيان جزءاً كبيراً من التكاليف. وتحسب إنتاجية العمل في هذا على أساس:

إنتاجية العمل = قيمة مساهمة العاملين في الإنتاج / عدد العاملين في المنشأة

وهناك عدد من الصعوبات العملية في حساب إنتاجية العمل، ولعل أولها و اهمها هو كيفية حساب قيمة مساهمة العاملين في الإنتاج. ويلجأ بعض الاقتصاديين إلى استخدام متوسط قيمة الإنتاج القائم للعامل، ولكن هذا المعيار قد لا يعكس المساهمة الحقيقية لعنصر العمل لأنه لا يأخذ بالاعتبار قيمة مستلزمات الإنتاج التي لم يتم إنتاجها داخل المنشأة وتم شراؤها من مصادر خارجية وبالتالي فهي (أي مستلزمات الإنتاج المشتراة من الخارج) لا تمثل مساهمة العاملين في المنشأة ويجب أن لا تحسب ضمن إنتاجيتهم. وكبديل لذلك يلجأ العديد من الاقتصاديين إلى استخدام القيمة المضافة كمعيار لمدى مساهمة المنشأة في الإنتاج وبالتالي تكون :

إنتاجية العمل=القيمة المضافة/عدد العاملين الإجمالي في المنشأة

أما بالنسبة لعدد العاملين، فمن الطبيعي استخدام عدد العاملين الإجمالي وليس فقط العاملين بأجر. والسبب في ذلك هو أن جميع العاملين قد أسهموا في تحقيق الإنتاج للمنشأة، بغض النظر عن طبيعة الأجر الذي يحصلون عليه. وفي الواقع أنه لا يمكن القول أن أصحاب المشروع يعملون مجاناً (بدون أجر)، وذلك أنهم يحصلون على ما يسمى في الاقتصاد تكلفة الفرصة البديلة (opportunity cost) أو الأجر الضمني مقابل جهد العمل الذي بذلوه في إنتاج السلع. وكما يتضح من الجدول رقم(٨) أن متوسط إنتاجية العامل (متوسط نصيب العامل من القيمة المضافة) لمعاصر الزيتون خلال فترة الدراسة، بلغت حوالي ١٦٥٨,٨ دولار حيث شكلت حوالي ١٥,٥٪ من نفس المؤشر للصناعات الغذائية و ١٦,٢٪ من نفس المؤشر للقطاع الصناعي.

وقبل عمل تحليل للإنتاجية والأجور لمعاصر الزيتون، فحسب النظرية الاقتصادية لتوزيع الدخل فإن عناصر الإنتاج تحصل على عوائد تساوي قيمة الناتج الحدي (الإنتاجية) لتلك العناصر. بمعنى أن العامل الذي تصل إنتاجيته إلى خمسة آلاف دولار سنوياً يمكن أن يحصل على عائد أو دخل يساوي ذلك المبلغ تقريباً. ولكن هذه النظرية تقوم على افتراض وجود منافسة كاملة (perfect competition) في كل من سوق السلع وسوق عناصر الإنتاج، وهو افتراض يفتقر إلى الواقعية في فلسطين والدول النامية، وبالتالي فإننا نتوقع أن يحصل العامل على أجور أو تعويضات أقل من إنتاجيتهم، وهو ما يظهره الجدول رقم (٨) الذي

يبين بالإضافة إلى الإنتاجية متوسط نصيب العامل بأجر من تعويضات العاملين بالدولار. وتشمل تعويضات العاملين هنا إجمالي الرواتب والأجور والمزايا الأخرى النقدية والعينية المستحقة للعاملين، وكانت قيمة متوسط نصيب العامل باجر من هذه التعويضات لمعاصر الزيتون خلال فترة الدراسة ١٩٩٥-١٩٩٩ حوالي ٦٢٢ دولار. وعند مقارنة هذه الأجور بالإنتاجية يلاحظ أن متوسط أجور العاملين في معاصر الزيتون (٦٢٢ دولار) تشكل فقط حوالي ٣٧٪ من إنتاجيتهم (١٦٥٨,٨ دولار) أي أن إنتاجية العامل في معاصر الزيتون أكبر بحوالي مرتين ونصف من الأجور التي يتقاضونها.

ولأغراض المقارنة تم حساب الإنتاجية والأجور في قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي خلال نفس الفترة. وكما يتضح من نفس الجدول، فقد بلغ متوسط نصيب العامل بأجر من تعويضات العاملين خلال فترة الدراسة لقطاع الصناعات الغذائية حوالي ٤٥٠٦,٦ دولار و٤٦٩٤,٨ دولار للقطاع الصناعي. كما بلغ متوسط إنتاجية العامل (نصيب العامل من القيمة المضافة) في قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي حوالي ١٠٧٠١,٨ دولار و ١٠١٩٤,٩ دولار على التوالي. وبذلك شكل نصيب أجور العاملين في قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي حوالي ٤٢٪ و ٤٦٪ من إنتاجيتهم على التوالي أي ما يقارب نصف إنتاجيتهم. وهذه النسب في الواقع تبقى أعلى من نصيب أجور العاملين في معاصر الزيتون من إنتاجيتهم حيث بلغت هذه النسبة حوالي (٣٧٪) أي مرتان ونصف أقل من إنتاجيتهم.

يعتبر المجتمع الفلسطيني من المجتمعات المستهلكة بكثافة لزيت الزيتون، حيث أشارت الإحصائيات إلى أن معدل استهلاك الفرد الفلسطيني من زيت الزيتون يقدر بحوالي ٦كغم، وهذا يعتبر معدل استهلاك مرتفع إذا ما قورن مع معدل استهلاك الفرد في دول أخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط مثل تركيا (٣,١كغم)، البرتغال (٤,٨كغم)، مصر (٠,١كغم)، شمال أوروبا (٠,١كغم)، اسرائيل (٠,١كغم) ولكن يعتبر معدل استهلاك الفرد الفلسطيني من زيت الزيتون متواضع مقارنة مع دول متوسطيه أخرى مثل اليونان (٢٠كغم)، تونس (١٤,٢كغم)، إسبانيا (١٠كغم)، إيطاليا (٨,٨كغم) [١٥].

البيانات الواردة في الجدول رقم(٩)، تشير إلى أن الاستهلاك السنوي للأسرة الفلسطينية من زيت الزيتون يتزايد سنة بعد أخرى، حيث تشير التقديرات إلى أن الاستهلاك سيقفز من ٢٠,٤٦١ طن في العام ١٩٩٧ إلى ٢٢,٢٠٠ طن في العام ١٩٩٩ ثم إلى ٢٤,٢٥٤ طن في العام ٢٠٠١، وسيصل إلى ٣٧,٦١٩ طن في العام ٢٠١١، وحوالي ٤٢,٣٣٥ طن في العام

استهلاك زيت الزيتون

جدول رقم (٩)
تقديرات لاستهلاك زيت الزيتون في الأراضي الفلسطينية ١٩٩٧-٢٠١٥

البيـــــان	عدد السكان	عدد الأسر الفلسطينية	استهلاك الأسر الفلسطينية من زيت الزيتون (طن)
1997	2.783.084	456.243	20.461
1999	3.019.704	495.033	(%8)22.200
2001	3.298.951	540.812	(%9)24.254
2003	3.634.495	595.819	(%10)26.720
2005	3.986.813	653.576	(%10)29.311
2007	4.355.594	714.032	(%9)32.022
2009	4.740.283	777.095	(%9)34.850
2011	5.116.894	838.835	(%8)37.619
2013	5.434.866	890.962	(%6)39.957
2015	5.758.360	943.993	(%6)42.335

* المصدر : الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ١٩٩٩ ، السكان في الأراضي الفلسطينية، ١٩٩٧-٢٠٢٥، رام الله - فلسطين.
* تم احتساب عدد الأسر الفلسطينية على أساس أن معدل عدد أفراد الأسرة الفلسطينية ١ , ٦ شخص كما قدره الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.
* تم احتساب استهلاك الأراضي الفلسطينية بضرب عدد الأسر الفلسطينية بمعدل استهلاك الأسرة السنوي من زيت الزيتون والذي قدره الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ٨٤٧ , ٤٤ كغم.
* النسبة بين قوسين هي نسبة التغير.

٢٠١٥. وعند مقارنة استهلاك الأراضي الفلسطينية مع ما تنتجه من زيت الزيتون نجد أن أقصى إنتاج حققته الأراضي الفلسطينية من زيت الزيتون خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٩ هو ٢٨,٣٠٠ طن في العام ١٩٩٠ و ٣٤,٥٠٠ طن في العام ١٩٩٢[١٦]. وإذا افترضنا أن إنتاج العام ١٩٩٢ سيتم تحقيقه في الأعوام اللاحقة الماسية وعلى افتراض أن المساحة المزروعة بأشجار الزيتون ستبقى كما هي عليه حالياً، فإن هذا الإنتاج سيغطي احتياجات السوق الفلسطيني حتى العام ٢٠٠٩. وبعد العام ٢٠٠٩ سيكون هناك فجوة بين الإنتاج والاستهلاك الأمر الذي يتطلب العمل على توسيع مساحة الأرض القابلة لزراعة الزيتون واستصلاح الأرض القابلة للزراعة لشجرة الزيتون وكذلك العمل على تحسين إنتاج وإنتاجية الزيتون بالإضافة إلى استصلاح أشجار الزيتون الغير مثمرة والأشجار الهرمة والموجودة بكثرة في فلسطين.

تشكل صادرات فلسطين من زيت الزيتون حوالي ٢٠٪ من الصادرات الزراعية و ١٠٪

من إجمالي الصادرات السلعية، وكما يتضح من الجدول رقم (١٠) تتراوح صادرات فلسطين من زيت الزيتون بين ٤٠٨-٢٠٠٠ طن خلال الفترة ١٩٩٤-١٩٩٨ أي بنسبة ١٠٪ من إجمالي الإنتاج الفلسطيني من زيت الزيتون خلال نفس الفترة. وتشير البيانات إلى أن هناك تراجعاً في الصادرات الفلسطينية من زيت الزيتون حيث بلغت ٢٠٠٠ طن في العام ١٩٩٤ و ١٣٣٦ طن في العام ١٩٩٦ وانخفضت إلى ٧٨٦ طن في العام ١٩٩٨. يعود السبب في هذا التراجع إلى ظاهرة تبادل الحمل وسبب آخر هو أن الأردن الذي يعتبر الجهة الرئيسية الذي يصدر إليه زيت الزيتون الفلسطيني ومنه يتم تصديره إلى دول الخليج العربي وأوروبا، أصبح ينتج كميات كبيرة من زيت الزيتون وأن أسواق الأردن تستورد زيوتاً من مصادر أخرى خاصة من تونس وإسبانيا وهما البلدان اللذان يتمتعان بميزة نسبية عالية في إنتاج وتصدير هذه السلعة من حيث السعر والجودة، وكذلك عدم مطابقة الزيت الفلسطيني لشروط الاستيراد الأردنية وأسواق التصدير الأخرى. كما أن السياسات الزراعية الأردنية التي وجهت لدعم القطاع الزراعي في الأردن من جهة، وفقدان الأردن لأسواق التصدير في منطقة الخليج العربي منذ بداية التسعينيات من جهة أخرى، كانت من الأسباب التي أدت إلى التراجع الحاد في قيمة وكمية الصادرات الزراعية الفلسطينية بما فيها زيت الزيتون إلى الأسواق الأردنية والأسواق العربية. كما أن فك الارتباط الإداري والقانوني بين الأردن والضفة الغربية في العام ١٩٨٨ وفي أعقاب توقيع الاتفاق التجاري الأردني الفلسطيني أدى إلى التعامل مع فلسطين ككيان سياسي وإداري مستقل حرم بعض المنتجات الفلسطينية من بعض المزايا التفضيلية التي كانت تمنحها الحكومة الأردنية والتي كان لها كبير الأثر على منتجاتنا وخاصة الزراعية منها وانحسر تدفق الزيت في السنوات الأخيرة إلى الأردن على شكل هدايا وضمن مدة زمنية محددة بقرار من مجلس الوزراء الأردني ومن خلال ترتيبات تجريها وزارة الزراعة الأردنية، وهذا يتجلى في البيانات الواردة في الجدول أعلاه، حيث بلغت كمية الهدايا من زيت الزيتون الفلسطيني إلى الأردن ٩٢٥ طن في العام ١٩٩٦ , ٨٠٤ طن في العام ١٩٩٧ و ٥١٦ طن في العام ١٩٩٨، أي بنسبة (Ratio) تقارب ٦٨٪ إلى إجمالي الصادرات الفلسطينية من زيت الزيتون.

أما بخصوص الواردات، فإن فلسطين تعتبر من الدول المنتجة والمصدرة لزيت الزيتون وبالتالي لم يتم إلا استيراد كميات قليلة من زيت الزيتون البكر الصالح للأكل ولكن تم استيراد كميات أكبر لغرض استخدامه في الصناعة. وتشير البيانات الواردة في الجدول إلى أنه قد تم

الصادرات والواردات من زيت الزيتون

جدول رقم (١٠)

الصادرات والواردات الفلسطينية من زيت الزيتون خلال الفترة(١٩٩٥-١٩٩٩)

القيمة بالألف دولار، الكمية بالطن

السنة	الصادرات			الواردات						[illegible]	[illegible]	الهدايا من زيت الزيتون إلى الأردن		
	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]						
				[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]			[illegible]	[illegible]	[illegible]
1994	-	2000	11	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
1995	-	408	3	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
1996	4625	1336	11	249	1110	211	1130	1359	1341	15.7	15.8	3305	925	69
1997	4210	1191	20	12	912	8	846	924	854	0.9	0.67	2895	804	68
1998	1978	786	5	23	2	9	2	25	11	82	1.1	2166	516	66

❋ المصدر(١) : السنوات(١٩٩٤-١٩٩٥) CBSI,national Account of Judea samaria and , Gaza
١٩٩٣.-Area statistics,١٩٦٨

❋ المصدر (٢) : .Judea,Samaria and Gaza Area statistics xxiv,١٩٩٦

❋ المصدر (٣) : السنوات(١٩٩٦-١٩٩٨)، الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ٢٠٠١، إحصاءات التجارة الخارجية ١٩٩٦ , ١٩٩٧ , ١٩٩٨ (بيانات غير منشورة).

❋ تم احتساب النسب بواسطة الباحث.

❋ الواردات تشمل زيت الزيتون البكر الصالح للأكل وزيت الزيتون الصناعة,

استيراد ٢١١ طن من زيت الزيتون البكر الصالح للأكل في العام ١٩٩٦، وفي الأعوام ١٩٩٧ , ١٩٩٨ تم استيراد فقط ٨ و ٩ أطنان على التوالي، وفي المقابل تم استيراد ١١٣٠ طن من زيت الزيتون للصناعة في العام ١٩٩٦ و ٨٤٦ طن في العام ١٩٩٧ وفقط ٢ طن في العام ١٩٩٨. ويستنتج من ذلك، أن الجزء الأكبر من الواردات الفلسطينية من زيت الزيتون هي لأغراض الصناعة وجزء بسيط جداً يتم استيراده لغرض الأكل. وشكلت نسبة (Ratio) الواردات الفلسطينية من الزيت البكر الصالح للأكل إلى الصادرات الفلسطينية من زيت

الزيتون حوالي ٨ ,١٥٪ ، ٦٧ , ٠ و ١ , ١٪ في الأعوام ١٩٩٦ , ٩٧ , ٩٨ على التوالي. أي بمتوسط نسبته ٨ , ٥٪ للأعوام الثلاثة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن منشأ الواردات الفلسطينية هو إيطاليا بشكل رئيسي ثم إسرائيل وتركيا.

مواصفات زيت الزيتون الفلسطيني

إن درجات جودة الزيت تصنف حسب نسبة الحموضة بالزيت كما حددها تماماً المجلس الدولي لزيت الزيتون وهي كما يلي (١٧) :

- ❋ أقل من ١٪ حموضة - زيت بكر اكسترا الممتاز ، وهو أفضل أنواع زيت الزيتون ، أي درجة أولى ومعتمد من السوق الأوروبية المشتركة كزيت له صفات مميزة يستحق تسعيرة عالية ، وهذا ما يجب أن نسعى لإنتاجه في فلسطين.
- ❋ أقل من ٥ , ١٪ حموضة - زيت جيد.
- ❋ أقل من ٣ , ٣٪ حموضة - زيت شبه جيد.
- ❋ أكثر من ٣ , ٣٪ حموضة - زيت للإضاءة والصناعة وغير صالح للأكل.

ولأهمية الحصول على زيت ممتاز فإننا نبين أدناه الوصف المخبري لزيت البكر اكسترا الممتاز والذي حدده المجلس الدولي لزيت الزيتون كما يلي (١٨) :

الحموضة	أقل من ١٪
عامل الامتصاص الضوئي	٢٥٪
درجة الانكسار الضوئي	٤٦٨ , ١-٤٦٩ , ١
رقم البيروكسايد	أقل من ٢٠
اللون	أصفر على خضار
أرقام أخرى	تبين خلو الزيت من الماء والشوائب وأي إضافات غريبة أخرى ولتؤكد أن الزيت بكر وبدرجة اكسترا

في فلسطين ، هناك بعض المراكز والمختبرات مثل المركز الوطني الفلسطيني للبحوث الزراعية ، مؤسسة أنيرا ، ومختبر بيتا في مدينة نابلس ، تقوم بعمل تحاليل مخبرية على زيت

الزيتون الهدف منها هو تحسين جودة ونوعية زيت الزيتون الفلسطيني. كما أن مؤسسة المواصفات والمقاييس الفلسطينية قامت بإعداد مواصفة لزيت الزيتون، علماً بأن هذه المواصفة لا تختلف كثيراً عما أقره مجلس الزيوت العالمي، حيث حددت المواصفة الفلسطينية رقم ١٨٨ والتي صدرت في العام ١٩٩٧، المواصفات التالية لزيت الزيتون الفلسطيني.

الحموضة: زيت زيتون بكر اكسترا - لا تزيد عن ١٪.
زيت زيتون بكر معتدل "جيد" - ١-٥ , ١٪.
زيت زيتون بكر عادي - لا تزيد عن ٣ , ٣٪.
رقـم البيروكسايد: لا يزيد عن ٢٠.
المـواد المتطايرة: لا تزيد عن ٢ , ٠٪.
الشـوائب: لا تزيد عن ١ , ٠٪.

وعلى الرغم من أن فلسطين تمتلك أجود أنواع الزيتون وهو "النبالي المحسن" إلا أن المشكلة التي تواجهها هي درجة الحموضة المرتفعة في الزيت، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ٢٠٪ من إنتاج الزيت في فلسطين يمتاز بحموضة تتراوح بين ١-٥ , ١٪ وحوالي ٨٠٪ من إنتاج الزيت يمتاز بحموضة تتراوح بين ٥ , ١-٣٪، أي أن الغالبية العظمى من زيت الزيتون الفلسطيني ينحصر من حيث درجة الحموضة بين جيد وعادي (شبه جيد). في الواقع، هناك العديد من المزارعين الذين يحصلون على زيت بحموضة أقل من ١٪ وذلك بسبب المعاملات الخاصة للثمار أثناء القطف والنقل والتخزين والعصر. كما تتباين نسبة الحموضة في فلسطين من منطقة إلى أخرى، فمناطق الوسط تنتج عادة زيت زيتون بدرجة حموضة أقل من المناطق الأخرى. في الواقع، التبكير أو التأخير في قطف ثمار الزيتون، الحفظ السيئ للثمار، تخزين الثمار لفترة طويلة، ظاهرة غش الزيت، خلط الثمار الطازجة مع ثمار الجول (الثمار التي تتساقط على الأرض) هي من أهم العوامل التي تؤدي إلى زيادة نسبة الحموضة في زيت الزيتون. لذا، للحصول على محصول ممتاز من الزيت من حيث الجودة ومطابقاً للمواصفات العالمية، يجب أن تؤخذ العوامل آنفة الذكر بالاعتبار.

أما بخصوص رقم البيروكسايد في زيت الزيتون الفلسطيني فيتراوح بين ٨-١٥ في بداية الموسم ثم ترتفع مع تقدم فترة التخزين، وهذا يشير إلى أن رقم البيروكسايد في الزيت

الفلسطيني يبقى ضمن ما هو معتمد في المواصفة الفلسطينية وما أقره مجلس الزيوت العالمي. في الواقع، الزيت المتأكسد يكون دائماً سيئ المذاق ومضر كما أن تسويقه عالمياً يصبح شبه مستحيل، إضافة إلى أن هناك تناسب عكسي بين درجة الحموضة والتأكسد للزيت وبين سعره.

مستقبل زيت الزيتون الفلسطيني ودور الحكومة في تطوير هذا القطاع:

لقد قامت السلطة الفلسطينية بوضع خطة شاملة لتطوير قطاع الزيتون في فلسطين بدءاً من عملية الإنتاج وحتى عملية التصنيع والتسويق. وقد بدأت السلطة الفلسطينية بتركيز وتكثيف الإرشاد الزراعي حول كيفية خدمة شجرة الزيتون بهدف الإنتاج بمواصفات عالية وتقليل تكاليف الإنتاج. وكخطوة هامة، قامت وزارة الزراعة الفلسطينية بإنشاء مختبر مركزي (مختبر بيتا/ نابلس) وكذلك المركز الوطني الفلسطيني للبحوث الزراعية بإمكانيات متواضعة بهدف عمل التحاليل المخبرية اللازمة لتحسين مواصفات وجودة زيت الزيتون الفلسطيني وتأهيله للدخول إلى الأسواق العالمية. كما قامت وزارة الزراعة بإنشاء ثلاث محطات أبحاث زراعية في كل من عسكر، قباطية، والعروب تقوم بعمل أبحاث في مجالات عدة مثل دراسة سلوك أكثر من ٦٠ صنف زيتون عالمي ومحلي وملاءمتها لظروف المنطقة وكذلك دراسة مواعيد وأساليب القطف وطرق التخزين والنقل والعصر وكذلك استخدام الهرمونات والآليات الأخرى في القطف بالإضافة إلى استخدام طرق مكافحة لأهم الآفات والأمراض التي تصيب ثمار الزيتون. كما تم إنشاء مختبران (مختبر بيتا ومختبر العروب) لفحص التربة وذلك لتحديد احتياجات الأشجار في بعض المواقع، كما تقوم الوزارة بالرقابة على إنشاء وتشغيل معاصر الزيتون ومتابعة العمل فيها وتقديم الإرشادات لأصحابها، وتقوم الوزارة كذلك بتحديد مواعيد قطف الزيتون وتشغيل المعاصر لكل منطقة، وتقوم كذلك بتنشيط القطاع الخاص ليقوم بدور التسويق المحلي والخارجي بصورة أفضل وتطوير قطاع التعبئة وإيجاد أسواق خارجية. بالإضافة إلى الدور الذي تقوم به السلطة الفلسطينية، هناك العديد من المنظمات غير الحكومية لها علاقة بقطاع الزيتون والتي تقدم المساعدة الفنية والإرشاد والدعم المتواصل لتطوير هذا القطاع، ومن هذه المنظمات:

* اتحاد معاصر الزيتون.
* الاتحاد التعاوني الزراعي.
* اتحاد لجان العمل الزراعي.
* لجان الإغاثة الزراعية.
* مركز العمل التنموي.
* مركز الخدمات الزراعية.

وبالرغم من الدور الذي تقوم به السلطة الفلسطينية لتطوير قطاع الزيتون وتحسين إنتاجيته وجودته، إلا أن هناك بعض المعيقات المحلية والدولية التي من شأنها أن تقف عائقاً أمام تطور هذا القطاع كما هو مخطط له. فكما تشير الإحصاءات أن هناك فائضاً محدوداً في إنتاج زيت الزيتون في السنوات الماسية وأن هناك استهلاكاً متزايداً للزيت الأمر الذي يتطلب القيام ببعض الإجراءات اللازمة لتحسين الإنتاج والإنتاجية، وذلك من خلال توسيع واستصلاح الأراضي القابلة لزراعة الزيتون ومعالجة الأشجار غير المثمرة وكذلك استخدام الأساليب الزراعية الحديثة للعناية بهذه الشجرة. في الحقيقة، يجب أن يكون هناك اهتمام أكبر من قبل السلطة الفلسطينية والقطاع الخاص بالزيتون على صعيد الإنتاج والتصنيع والتسويق باعتبار أن صناعة زيت الزيتون تلعب دوراً هاماً في الأمن الغذائي الفلسطيني وتساهم بنسبة ٥-١٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي[١٩]. في الواقع، تسويق المنتجات الزراعية بما فيها زيت الزيتون هو أحد المشاكل التي تواجه الزراعة الفلسطينية. الأردن كان من أهم أسواق الزيت الفلسطيني والذي عبره كان يصدر إلى دول الخليج العربي وأوروبا، حيث وصلت الصادرات من تلك السلعة إلى أعلى مستوى لها من حيث القيمة والكمية سنة ١٩٨٨ ثم بدأت بالتناقص تدريجياً بسبب زيادة الإنتاج الأردني من ٣٠ ألف طن في السبعينيات إلى ٧٠ ألف طن في التسعينيات[٢٠]. وبالرغم من هذا الإنتاج الوفير إلا أن الأردن ما زال يعتبر مستورداً لزيت الزيتون خاصة من تونس وأسبانيا، حيث الجودة الأعلى والسعر الأقل إذ تزيد قيمة واردات الأردن من زيت الزيتون عن ٢٠ مليون دولار سنوياً[٢١]. ولقد فرض الأردن العديد من القيود على اثر فك الارتباط مع الضفة الغربية في العام ١٩٨٨، وبعد توقيع الاتفاقية التجارية بين البلدين في العام ١٩٩٥ والتي على أثرها تم التعامل مع فلسطين على أنها كيان سياسي مستقل وأصبحت التجارة بين البلدين خاضعة لقوانين وأنظمة التجارة العالمية وانحصر تدفق الزيت في السنوات الأخيرة إلى الأردن على شكل هدايا وأمانات وضمن مدة زمنية محددة وبقرار من مجلس الوزراء الأردني ومن خلال ترتيبات تجريها وزارة الزراعة الأردنية. وبنظرة سريعة على الاتفاق التجاري الأردني الفلسطيني وبالتحديد القوائم السلعية، نلاحظ أنها لا تشتمل على منتج زيت الزيتون الأمر الذي يتطلب البحث عن أسواق بديلة لهذا السوق التقليدي. أما بالنسبة للاتفاق الزراعي الإسرائيلي الفلسطيني، فقد نصت المادة الأولى على ما يلي "سيكون هناك نقل للمنتجات الزراعية بين الجانبين، خال من الجمارك وضرائب الاستيراد، وذلك وفقاً للاستثناءات والترتيبات اللاحقة "[٢٢]. أما البنّد الأهم في الاتفاقية هو ذلك المتعلق بالمواصفات

والمعايير التي اتفق ان تحكم حرية انتقال المنتجات الزراعية بين اسرائيل والأراضي الفلسطينية، كما اتفق على أن يلتزم الطرفان بإصدار شهادات صحية تتفق مع المعايير التي تضعها المؤسسات الدولية المتخصصة(٢٣). وعلى الرغم من وضوح وصراحة الاتفاق إلا أن إسرائيل تضع وستبقى تضع العراقيل أمام تدفق المنتجات الزراعية بما فيها زيت الزيتون إلى إسرائيل تحت ذرائع أمنية وتحت ذريعة أنها لا تتفق والمواصفات المطلوبة الأمر الذي أثر وسيؤثر سلباً على حجم الصادرات من الزيت إلى إسرائيل والخط الأخضر. وبالرغم من هذه العراقيل، فإننا نرى بأن المصالح الفلسطينية تقتضي المحافظة على السوق الإسرائيلي وسوق فلسطيني إسرائيلي لتسويق منتجات الزيتون هناك. أما بالنسبة للدول الأخرى مثل مصر، أمريكا، أوروبا، الخليج العربي، فلا يوجد اتفاقيات صريحة معها بهذا الخصوص ولكن هناك اتفاقيات تجارة حرة مع أمريكا وأوروبا واتحاد دول الآفتا، لكن وجود المنافسة الشديدة في هذه الدول لزيت الزيتون الفلسطيني من قبل الزيت التونسي والأسباني واليوناني غدا هناك عائقاً يحول دون تدفق الزيت الفلسطيني إليها، ولكن ما زال هناك مجال لتصدير الزيت إلى هذه الأسواق بشرط تحسين الجودة وتخفيض التكلفة وذلك للاستفادة من المزايا التفضيلية التي تقدمها هذه الاتفاقيات وبالتحديد اتفاقية الشركة الأوروبية، الاتفاقية مع أمريكا، واتفاقية التجارة الحرة مع اتحاد الآفتا. كما أن هناك مجال لبذل جهود متواصلة من قبل الممثليات التجارية الفلسطينية في الخارج وكذلك مؤسسات القطاع الخاص لخلق أسواق ومنافذ تسويقية للزيت الفلسطيني في الأسواق الخارجية. كما يمكن التفاوض مع الدول المستضيفة للجاليات الفلسطينية لتسويق منتجات الزيتون إليها حيث أن هذه الجاليات مرتبطة ارتباطاً معنوياً بفلسطين ومنتجاتها وخاصة الزيتون.

النتائج الرئيسية للبحث

فيما يلي النتائج الرئيسية للبحث والتي أثبتت صحة الفرضيات التي تم وضعها في بداية البحث :

* هناك ثلاثة أصناف من الزيتون في فلسطين وهي النبالي، الصوري، والنبالي المحسن. أما الصنف الغالب فهو النبالي حيث تزيد مساحته عن ٥ , ٨٧٪ من المساحة العامة.
* لا تراعى الأسس العلمية في كافة مراحل إنتاج الزيت والزيتون بدءاً من مرحلة القطف وحتى مرحلة العصر والتخزين، الأمر الذي يؤثر سلباً على جودة ومواصفات الزيت المستخرج.
* عدم تجانس الزيت الفلسطيني. فقد جرت العادة أن يسوق الزيت محلياً وخارجياً دون تحقيق أي تجانس فيه قبل تسويقه سواءً من ناحية اللون أو نسبة الحموضة، مما يسبب إرباكا لدى المشترين ويثير شعوراً بعدم الثقة في الزيت مما يضطرون إلى فحص معظم العبوات المسوقة لأن كل عبوة قد تحتوي زيتاً تختلف مواصفاته عن زيت العبوات الأخرى.
* إن زيت الزيتون في فلسطين لا يزال يعبأ في عبوات تقليدية من صفائح التنك سعة ١٧لتراً، وهذا في الحقيقة لا يناسب أذواق المستهلكين وإمكانياتهم المادية فضلاً عن أن تخزين الزيت في مثل هذه الصفائح لفترة طويلة يؤثر على مذاق وجودة الزيت.
* عدم توفر المؤسسات المالية الكافية لدعم المزارعين والمؤسسات المعنية بإنتاج وتسويق الزيت.
* إن نسبة المعاصر القديمة التي تعمل بالحجارة والمكابس آخذة بالتناقص وأن نسبة المعاصر نصف الأوتوماتيكية والأوتوماتيكية وبالتحديد الأخيرة آخذة بالتزايد وذلك نظراً لطاقتها الإنتاجية الكبيرة وجودة الزيت المستخرج من خلالها مقارنة مع المعاصر القديمة.
* أن معاصر الزيتون في فلسطين تعتبر كثيفة رأس المال وقليلة العمالة وهذا واضح من خلال مؤشر كثافة رأس المال إلى العمل مقارنة مع نفس المؤشر بالنسبة للصناعات الغذائية والقطاع الصناعي.
* إن كمية وقيمة الإنتاج من زيت الزيتون في فلسطين تتذبذب من سنة ماسية إلى سنة شلتونية تبعاً لظاهرة تبادل الحمل. كما قدر حجم إنتاج فلسطين من زيت الزيتون بحوالي ١٪ من حجم الإنتاج العالمي من الزيت. أما نسبة سيولة الزيت الفلسطيني فبلغت حوالي

٢٤,٢٪ من كمية الزيتون المهروس، وتتفاوت نسبة السيولة من منطقة إلى أخرى.

* هناك تراجع للقيمة المضافة لمعاصر الزيتون خلال فترة الدراسة، وهذا التراجع جاء نتيجة لتذبذب إيرادات المعاصر وزيادة قيمة الاستهلاك الوسيط وبالتحديد المستلزمات السلعية، نفقات الكهرباء والمياه والمصاريف الأخرى.

* على الرغم من زيادة التكوين الرأسمالي الثابت لمعاصر الزيتون في بعض سنوات الدراسة وتراجعه في السنوات الأخرى، إلا أن نسبة التكوين الرأسمالي الثابت (الإضافات والتحسينات الرأسمالية) من القيمة الدفترية للأصول الثابتة في بداية العام تعتبر متواضعة للغاية (١٢,٦٪). هذا في الواقع يشير إلى ضعف الاستثمار في رأس المال الثابت لمعاصر الزيتون، ناهيك عن نسب الاهتلاك المرتفعة للأصول الثابتة والتي تراوحت بين ١٣-٢١٪ وهي نسبة أكبر من نسبة الاضافات والتحسينات على الأصول الثابتة، أي أن ما تم اضافته من أصول ثابتة تم تآكله من خلال نسب الاهتلاك المرتفعة. وتشير النتائج إلى أن الإضافات على الأصول الثابتة تركزت على بند الأجهزة والمعدات.

* إن مساهمة معاصر الزيتون في عدد من المؤشرات الاقتصادية لقطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي تتراوح ما بين متواضعة إلى جيدة وبالتحديد مؤشرات مثل عدد المنشآت، العاملين، تعويضات العاملين، القيمة المضافة، التكوين الرأسمالي الثابت، إلا أن هناك تراجع في معظم هذه المؤشرات لمعاصر الزيتون خلال سنوات الدراسة، ما عدا مؤشر التكوين الرأسمالي الثابت، فعلى الرغم من تراجع مساهمة هذا المؤشر لمعاصر الزيتون في قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي في بعض السنوات إلا أن هذه المساهمة كانت مرتفعة ارتفاعاً ملحوظاً في سنوات أخرى (أنظر جدول رقم(٧).

* عند عمل مقارنة ما بين عدد من المتوسطات لمعاصر الزيتون مع نفس المتوسطات لقطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي (أنظر جدول رقم(٨))، تشير النتائج إلى أن مساهمة معاصر الزيتون في المتوسطات المختلفة لقطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي تعتبر جيدة ومتقاربة إلى حد كبير، أما بخصوص نسبة القيمة المضافة إلى الإنتاج لمعاصر الزيتون فهي تعتبر كبيرة ومتزايدة (٦٨,١٤٪) إذا ما قورنت مع نفس النسبة للصناعات الغذائية (٣٧٪) وللقطاع الصناعي (٤٠,٩٪). هذا يشير إلى أن

القيمة المضافة إلى الإنتاج لمعاصر الزيتون عالية وان المكون المحلي لصناعة الزيتون يعتبر كبيراً يؤهلها بسهولة تشكيل قواعد المنشأة المطلوبة للتصدير(Rules of origin).

* عند عمل تحليل للإنتاجية والأجور في معاصر الزيتون، تشير النتائج إلى أن نصيب العامل بأجر من تعويضات العاملين شكلت حوالي ٣٧٪ من إنتاجيتهم، أي مرتان ونصف أقل من إنتاجيتهم، وهذا يعتبر أقل من نصيب أجور العاملين في قطاع الصناعات الغذائية والقطاع الصناعي من إنتاجيتهم حيث بلغت النسب ٤٢٪ و ٤٦٪ على التوالي.

* يقدر معدل استهلاك الفرد الفلسطيني من زيت الزيتون حوالي ٦ كغم سنوياً، حيث يعتبر هذا المعدل مرتفعاً إذا ما قورن مع معدل استهلاك الفرد من زيت الزيتون في بعض دول البحر الأبيض المتوسط مثل تركيا، البرتغال، مصر، شمال أوروبا وإسرائيل، ولكنه متواضع إذا ما قورن مع دول متوسطية أخرى مثل اليونان، أسبانيا، إيطاليا، وتونس. كما تشير النتائج إلى أن معدل الزيادة في استهلاك السوق الفلسطيني من زيت الزيتون هو أكبر من معدل الزيادة في إنتاج الزيت وهذا سيظهر بالتحديد بعد العام ٢٠٠٩ إذ عند هذه السنة سيتوازى أقصى إنتاج وصلت إليه فلسطين من زيت الزيتون خلال السنوات العشر الماضية (٣٤,٥٠٠ طن) مع حجم الاستهلاك المتوقع من زيت الزيتون في العام ٢٠٠٩ والذي قدر بحوالي ٣٤,٨٠٠ طن، على افتراض أن هذا الرقم من الإنتاج سيتم تحقيقه في السنوات الماسية اللاحقة.

* تشكل الصادرات الفلسطينية من زيت الزيتون حوالي ٢٠٪ من الصادرات الزراعية و ١٠٪ من إجمالي الصادرات السلعية وحوالي ١٠٪ من إجمالي الإنتاج الفلسطيني من زيت الزيتون. وتشير النتائج إلى أن هناك تراجع في الصادرات الفلسطينية من زيت الزيتون خلال سنوات الدراسة وهذا يعود إلى ظاهرة تبادل الحمل وكذلك السياسات الحمائية التي انتهجتها الأردن حيال قطاعها الزراعي، كما أن محاولة فك الارتباط مع الضفة الغربية في العام ١٩٨٨ وعلى أثر الاتفاق التجاري الأردني الفلسطيني في العام ١٩٩٥، أدى إلى التعامل مع فلسطين على أساس قواعد منظمة التجارة العالمية الأمر الذي أثر على الصادرات الفلسطينية إلى وعبر الأردن وحصرها على شكل هدايا وأمانات حيث شكلت الأخيرة حوالي ٦٨٪ من إجمالي الصادرات

الفلسطينية من زيت الزيتون.

* أما الواردات الفلسطينية من زيت الزيتون، فالجزء الأعظم من هذه الواردات كانت لأغراض الصناعة والجزء القليل جداً لغرض الأكل (زيت بكر صالح للأكل).
* لقد أظهرت النتائج أن المواصفات والمقاييس الفعلية لزيت الزيتون الفلسطيني، تقع ضمن ما حدده مجلس الزيت العالمي وكذلك المواصفة الفلسطينية لزيت الزيتون. كما أظهرت الدراسة أن الغالبية العظمى من الزيت الفلسطيني (٨٠٪) يمتاز بدرجة حموضة تتراوح بين (٥ , ١-٣٪) أي ينحصر ما بين جيد وعادي، وأما النسبة المتبقية (٢٠٪) من الزيت يمتاز بحموضة تتراوح بين (١-٥ , ١٪). أما رقم البيروكسايد في زيت الزيتون الفلسطيني فيتراوح بين ٨-١٥، حيث يبقى أقل مما أقره مجلس الزيت العالمي والمواصفة الفلسطينية والمحدد بحوالي ٢٠.
* على الرغم مما تقوم به السلطة الفلسطينية من جهود لتطوير قطاع الزيتون، إلا أن هذه الجهود ما زالت بعيدة عن الحد الأدنى المطلوب لتطوير هذا القطاع. كما أن تدني جودة الزيت الفلسطيني وارتفاع تكلفة إنتاجه لم يتح المجال للاستفادة من المزايا التفضيلية التي أتاحتها اتفاقيات التجارة الحرة التي أبرمتها السلطة الفلسطينية مع العديد من الدول، ناهيك عن أن بند زيت الزيتون لم يدرج في قوائم الإعفاء في بعض الاتفاقيات المبرمة ونخص بالذكر الاتفاقية مع الأردن وكذلك اتفاقية الشراكة الأوروبية. كما أنه وبالرغم من أن اتفاق باريس الاقتصادي يعتبر الأراضي الفلسطينية وإسرائيل وحدة اقتصادية واحدة وينص على حرية انتقال السلع والأفراد، إلا أن إسرائيل تضع العراقيل أمام دخول المنتجات الزراعية والصناعية الفلسطينية ومنها زيت الزيتون وذلك تحت ذرائع صحية وأمنية.

التوصيات الرئيسية للبحث

* تطوير طرق القطف والتخزين، وذلك من خلال إنشاء مؤسسة إرشاد زراعي الهدف منها هو إرشاد وتوعية المزارع الفلسطيني على استخدام الأساليب السليمة في عملية القطف والنقل والتخزين، التقليم، الحماية من الآفات...الخ.
* تنظيم عملية توريد الثمار إلى المعاصر وذلك من خلال وضع نظام ومواعيد مسبقة مع المزارعين الهدف منها هو تلافي تكويم الثمار لفترة طويلة مما يؤدي إلى تعفنها وزيادة درجة الحموضة في الزيت.
* تطوير طرق العصر وفلترة الزيت في المعصرة حيث لا زالت توجد أعداد من المعاصر القديمة لا تقوم بفلترة الزيت.
* تطوير صناعة وطرق تعبئة الزيت، وذلك باستخدام عبوات بلاستيكية أو زجاجية بأحجام مختلفة، وذلك للانسجام مع أذواق المستهلكين وإمكانياتهم المادية.
* العمل على إنشاء مؤسسة متخصصة لتسويق الزيت، الهدف منها هو تجميع الزيت من المزارعين والمعاصر، وفحصه في المختبرات، وذلك للتأكد من تطابقه مع المواصفات العالمية كخطوة أساسية لتسويق الزيت عبر الحدود. هذه المؤسسة تقوم بوضع علامات تجارية على عبوات الزيت تبين مواصفاتها والجهة المسؤولة عنها من أجل المحافظة على سمعة الزيت الفلسطيني وإيجاد أسواق جديدة لها.
* إن التفكير في إنشاء معصرة جديدة يجب أن يكون مبنياً على أسس علمية واضحة، فتجري دراسات تفصيلية للمنطقة المراد إقامة المعصرة فيها تغطي كميات الزيتون المتوقعة، عدد المعاصر الموجودة في القرية أو القرى المجاورة، إمكانية استخدام المزارعين من القرى المجاورة للمعصرة المنوي إقامتها، إضافة إلى العوامل الأخرى كتوفر مصادر الطاقة والمياه وطرق المواصلات، ومن ثم يتخذ القرار المناسب بإنشاء المعصرة. ويمكن التحقق من كل هذه الأمور عن طريق إجراء دراسة جدوى اقتصادية قبل المباشرة في مشروع إنشاء معصرة.
* العمل على تشجيع إنشاء معاصر حديثة واستبدال القديم منها حيث أن المعاصر القديمة تعاني من مشاكل عدة منها عدم القدرة على الاستخلاص الكامل للزيت، كثرة الشوائب في الزيت، هدر الوقت، ضعف الطاقة الإنتاجية...الخ.
* إنشاء مختبرات لفحص الزيت، وذلك للتأكد من خلوه من الغش وتصدير الصالح

منه حسب المواصفات التي تحددها الأسواق المستوردة. وإن قامت وزارة الزراعة بإنشاء المركز الوطني للبحوث الزراعية، إلا أنه (أي المركز) بحاجة إلى تطوير,

* العمل على تخفيض كلفة الإنتاج وتحسين الإنتاج والإنتاجية، وذلك من خلال توسيع واستصلاح الأرض القابلة لزراعة الزيتون، وكذلك معالجة أشجار الزيتون غير المثمرة والمتوفرة بكثرة في بلادنا، كما يجب العمل على استبدال الأشجار الهرمة بأشجار جديدة، وكذلك من خلال استخدام معاصر ذات تكنولوجيا حديثة.
* إنشاء قسم متخصص لقطع الغيار (مركز توريد للمعدات) لآلات عصر الزيتون، وتشكيل جهاز فني مدرب لصيانة هذه الآلات، وتأسيس وحدة صيانة متنقلة تتحرك خلال وقت قصير أثناء الموسم إلى مكان الخلل لإصلاحه بغية تقليص النفقات وكسب الوقت للحيلولة دون عطب الزيتون نتيجة للانتظار والاستفادة القصوى من معاصر الزيتون خلال فترة عملها القصيرة جداً.
* الاستفادة من الزيت المستخلص من الجفت في صناعات مثل الصابون والاستفادة من الجفت في صناعة الأعلاف بعد التأكد من عدم تأثيره السلبي على المواشي كما يمكن الاستفادة من الجفت في صناعة الأسمدة.
* العمل على إنشاء مؤسسات مالية متخصصة لتقديم الدعم المالي وبشروط ميسرة للمؤسسات المعنية بإنتاج وتسويق الزيت حتى تأخذ على عاتقها مسؤولية تسويق هذا الإنتاج بصورة جيدة.
* العمل على إبرام اتفاقيات تجارية مع الدول العربية والإسلامية والأجنبية، وذلك لتسهيل إيصال منتجاتنا الزراعية بما فيها الزيتون إلى الأسواق العالمية وكذلك الاستفادة من الاتفاقيات التجارية المبرمة مع العمل على تغيير بعض البنود في هذه الاتفاقيات والتي تعتبر مجحفة بحق الزراعة والصناعة الفلسطينية. كما يجب العمل على إدراج زيت الزيتون ضمن قوائم السلع التي من الممكن تصديرها إلى وعبر الأردن وذلك من خلال تعديل هذا البند في الاتفاقية التجارية الأردنية الفلسطينية. كما يجب التفاوض مع الدول التي تستضيف جاليات فلسطينية لتسويق منتجات الزيتون إليها حيث أن هذه الجاليات مرتبطة ارتباطا معنوياً بفلسطين ومنتجاتها وخاصة الزيتون.
* نظراً لأهمية الاستثمار في رأس المال من أجل قيام صناعة تنافسية فإن على متخذ القرار الفلسطيني أن يقدم التسهيلات اللازمة لتشجيع هذا القطاع على زيادة استثماراته

الرأسمالية. ويمكن أن يتم ذلك عن طريق إعفاء السلع الرأسمالية، بما في ذلك قطع الغيار من الرسوم الجمركية وصياغة قانون لتشجيع الاستثمار يربط بين الإعفاءات الضريبية ورأس المال والتكنولوجيا المتطورة مما سيشكل حافزاً للمنشآت الصناعية لاستيراد ما يلزمها من معدات وآلات لتمكينها من المنافسة في السوق المحلي وفي الأسواق الخارجية.

الهوامش

١) تم اقتباس كل الأرقام الإحصائية الواردة في هذا الباب من الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ١٩٩٩، الإحصاءات الزراعية ٩٧/ ١٩٩٨، رام الله - فلسطين.
٢) الجابي فارس، الوضع الحالي والمستقبلي لإنتاج وتصنيع زيت الزيتون، ورقة عمل مقدمة إلى منظمة الفاو، وزارة الزراعة الفلسطينية ١٩٩٧، ص.١
٣) دائرة الإحصاءات المركزية الفلسطينية، ١٩٩٩، مسح موسم الزيتون ١٩٩٨. النتائج الأساسية، ص ١٥، رام الله - فلسطين.
٤) دائرة الإحصاءات المركزية الفلسطينية، ١٩٩٩، مسح موسم الزيتون ١٩٩٨: النتائج الأساسية، ص ٢٠، رام الله - فلسطين.
٥) الجابي فارس، مرجع سابق، ص.٦
٦) الجابي فارس، مرجع سابق، ص.٥
٧) الجابي فارس، مرجع سابق، ص٦ / دائرة الاحصاءات المركزية، ١٩٩٩، مسح معاصر الزيتون ١٩٩٨، النتائج الاساسية، ص .١٩
٨) الجابي فارس، مرجع سابق، ص.٧
٩) دائرة الإحصاءات المركزية الفلسطينية، ١٩٩٩، مسح موسم الزيتون ١٩٩٨: النتائج الأساسية، ص ٢٢، رام الله - فلسطين.
١٠) الجابي فارس، مرجع سابق، ص.٥
١١) دائرة الإحصاءات المركزية الفلسطينية، ١٩٩٩، مسح موسم الزيتون ١٩٩٨: النتائج الأساسية، ص ٢٢، رام الله - فلسطين.
١٢) عساف سعيد، إرشادات حول الإنتاج الوفير والفاخر من زيت الزيتون الفلسطيني، المركز الوطني للبحوث الزراعية، ١٩٩٦، ص.١
١٣) لتحليل ذلك، تم احتساب قيمة الأصول الثابتة في الصناعة (على أساس متوسط القيمة الدفترية في بداية العام ونهايته) ثم قسم ذلك على عدد العاملين في الصناعة ذاتها للحصول على نسبة رأس المال/ العمل (capital/ labor (k/L) Ratio).
١٤) دائرة الإحصاءات المركزية الفلسطينية، ١٩٩٩، مسح موسم الزيتون ١٩٩٨: النتائج الأساسية، ص ٤٤، رام الله - فلسطين.
15) FAO.yearbook,1994.
١٦) ملفات وزارة الزراعة الفلسطينية، رام الله - فلسطين.
١٧) عساف سعيد، مرجع سابق، ص.٤
١٨) عساف سعيد، مرجع سابق، ص.٤
19) Ministry of planning & international cooperation (mopic), Building competitive Advantge in the Palestinian economy, August 1998, p.101
٢٠) الجعفري محمود، الاتفاقية التجارية الأردنية الفلسطينية - متطلبات التعديل، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، نابلس ١٩٩٧، ص.٧

٢١) الجعفري محمود، مرجع سابق. ص.٣٣
٢٢) بروتوكول حول العلاقات الاقتصادية بين حكومة إسرائيل و م.ت.ف، نسخة مترجمة عن الإنجليزية، المادة VIII، ص.٢١
٢٣) بروتوكول حول العلاقات الاقتصادية بين حكومة إسرائيل و م.ت.ف، مرجع سابق، ص.٢١

قائمة المراجع

١) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني: ٩٦, ٩٧, ٩٨, ٩٩, ٢٠٠٠، مسوحات معاصر الزيتون، ٩٥, ٩٦, ٩٧, ٩٨, ١٩٩٩: النتائج الأساسية، رام الله - فلسطين.
٢) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ٢٠٠٠, ٩٩, ٩٨, ٩٧, ٩٦، المسح الصناعي ١٩٩٩, ٩٨, ٩٧, ٩٦, ١٩٩٥: نتائج أساسية، رام الله - فلسطين.
٣) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ١٩٩٩، السكان في الأراضي الفلسطينية ١٩٩٧-٢٠٢٥، رام الله، فلسطين.
٤) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ٢٠٠١، إحصاءات التجارة الخارجية، رام الله - فلسطين.
٥) الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، ١٩٩٩، الإحصاءات الزراعية، ٩٧/ ٩٨، رام الله - فلسطين.
٦) الجابي فارس، الوضع الحالي والمستقبلي لإنتاج وتصنيع زيت الزيتون في فلسطين، ورقة عمل مقدمة إلى منظمة الفاو، وزارة الزراعة الفلسطينية، ١٩٩٧.
٧) الجابي فارس، الخدمات الإرشادية والضروريات الفنية لتطوير إنتاج شجرة الزيتون، شؤون تنموية، ص٦، المجلد الثاني.
٨) اللجنة الوطنية لتطوير شجرة الزيتون بمواصفات جيدة، آب ١٩٩٦، رام الله - فلسطين.
٩) الريشة مازن، تنميط الإنتاج الزراعي: المشكلات القائمة وإمكانيات التغير، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، نابلس، كانون ثاني.١٩٩٧
١٠) الملتقى الفكري العربي ولجان الإغاثة الزراعية، التقرير النهائي عن معاصر الزيتون في الضفة الغربية وقطاع غزة. المجلد الأول - العدد السابع ١٩٩٣، المجلد الثاني- العدد الرابع ١٩٩٤، المجلد الثالث- العدد الأول .١٩٩٥
١١) الجعفري محمود، التجارة الخارجية الفلسطينية الإسرائيلية - واقعها وآفاقها المستقبلية، معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس)، آب ٢٠٠٠، رام الله - فلسطين.
١٢) الموسى شريف والجعفري محمود: القوة والتجارة - البروتوكول الاقتصادي الفلسطيني الإسرائيلي - مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد ٢١, .١٩٩٥
١٣) بروتوكول باريس الاقتصادي بين حكومة إسرائيل و م.ت.ف .١٩٩٤
١٤) جبر أحمد، ظاهرة تبادل الحمل في الزيتون وتأثيره على الدخل القومي، مجلة المهندس الزراعي الفلسطيني، العدد السادس، كانون ثاني ١٩٩٦، ص٣١-.٣٣

١٥) مركز البحوث والدراسات الفلسطينية، ندوة حول الزراعة الفلسطينية - إلى أين، نابلس، شباط ١٩٩٩.
١٦) عساف سعيد، إرشادات حول الإنتاج الوفير والفاخر من زيت الزيتون الفلسطيني، المركز الوطني للبحوث الزراعية، ١٩٩٦، رام الله - فلسطين.
١٧) عساف سعيد، مزايا الزيتون الفلسطيني الممتاز وطرق إنتاجه، مجلة المهندس الزراعي الفلسطيني - العدد الثاني، تشرين ثاني ١٩٩٢، ص٤-٦.
١٨) عورتاني، هشام: العلاقات الأردنية الفلسطينية في المجالات الزراعية، العوامل المحددة وآفاقه المتاحة، مجلة صامد الاقتصادي، السنة الثامنة عشرة، العدد ١٠٤ , ١٩٩٦.
١٩) عورتاني، هشام: واقع ومستقبل شجرة الزيتون في الضفة الغربية، مركز الدراسات الريفية، جامعة النجاح الوطنية .١٩٨١
٢٠) عبد الجابر تيسير: اتفاقيات التجارة وآثارها المحدودة على حجم التجارة بين الأردن وفلسطين وإسرائيل، بحث مقدم إلى مؤتمر الاقتصاد الرابع في جامعة اليرموك، أربد - الأردن .١٩٩٦
٢١) صقر أحمد صقر وآخرون: أبعاد الاتفاق الاقتصادي الفلسطيني الإسرائيلي، مركز دراسات الشرق الأوسط - عمان .١٩٩٤
٢٢) زيت الزيتون والصحة، نشرة تصدر عن المجلس الدولي لزيت الزيتون، مدريد، أسبانيا .١٩٩٠

شعر قهوة البن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي – دراسة موضوعية

د. مشهور الحبازي*

* كلية الآداب / جامعة القدس

ملخص

تناولت هذه الدراسة موضوعاً جديداً من مواضيع الشعر التي ظهرت في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. وهو موضوع شعر قهوة البن. وقد تمت دراسة الموضوع ضمن محاور ثلاثة، في الأول بينت معنى القهوة وأنواعها وموطنها ومكتشفها. وفي الثاني، ناقشت الجدل الذي ثار حول تحريمها وتحليلها وبيان مضارها وفوائدها ودور الشعر في نشر تلك المضار والفوائد. وفي الثالث، تناولت المديح الذي قيل في قهوة البن والغزل بها، وحث الشعراء على شربها من خلال بيان أدوات شربها وما يمزج بها والتعريف ببيوت القهوة ومجالس شربها. ما أدى إلى شيوعها بين الناس في ذلك الزمن بحيث أصبحت عادة يشربها عامة الناس وخاصتهم، لا بل إن بعضهم كان يدمن على شربها. وقد لعب الشعر دوراً مهماً في إشاعتها وانتشارها في المجتمع باعتبارها مشروباً طهوراً مباركاً له فوائد كثيرة.

Abstract

This study deals with a new topic among the poetry subjects that appeared in the tenth century (Hijri) (16th century A.D.) which is Coffee. The study encompasses the topic in three dimensions: In the first I deal with the different kinks of coffee, its sources and discoverer. In the second one I discuss the arguments that have arisen about forbidding or allowing it showing the benefits and harms and the role of poetry in propating these. In the third part I deal with the praises and flirtation of coffee and the urges of the poets to drink it by the instruments used for that and what is mixed in it as well s the acquaintances with coffee shops and the clientele which caused the spread of drinking coffee between people in that age, and so it became a custom to the ordinary people and the elite. However, some were addicts.

poetry played and important role in spreading coffee in society as a purified and blessed drink with many benefits.

شعر قهوة البن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي – دراسة موضوعية

المقدّمة

موضوع شعر قهوة البن في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، موضوع شعريّ قال فيه الشعراء إسهاماً منهم في الجدل الاجتماعي والفقهي الذي دار في المجتمع العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية، حول قهوة البن، هل هي حلال أم حرام ؟.

وبالرّغم من أن شعراً كثيراً قيل في قهوة البن في تلك الفترة الزمنية إلا أنه مثل كثير من قضايا الأدب العربي في العصر العثماني لم يلق الاهتمام اللازم من الدارسين المحدثين، ومن درسه منهم لم تكن دراسته كافية وشاملة. وأهم من تحدّث عنه هما: نعيم الحمصي في الجزء الثاني من كتابه "نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه"، وجاء حديثه موجزاً وعاماً في ثلاث صفحات ونيف. وعمر فرّوخ في كتابه " معالم الأدب العربي في العصر الحديث " الجزل الأول، وجاء حديثه أوسع من حديث سابقه وأكثر أمثله شعرية لكنه لا يفي الموضوع حقه، وذلك بالرغم من أنه ورد في ثمان صفحات.

من هنا وجدت أن من المهم دراسة هذا الموضوع الجديد، لأنه يعبّر عن قضية مهمة من قضايا المجتمع العربي الإسلامي التي كان للشعر فيها دوراً مهماً، كما أنه لم يدرس دراسة علميّة متكاملة. وقد اعتمدت في الدراسة المنهج التكاملي بحيث أخذت من مناهج متعددة بما يخدم كل محور من محاور الدراسة الثلاثة؛ معنى القهوة وأنواعها وموطنها ومكتشفها. والجدل حول تحريمها وتحليلها. ومديحها والغزل فيها.

أولاً. تمهيد تاريخي

في أثناء مطالعتي لعدد من كتب الأدب والتراجم والتاريخ التي وضعت في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، لفت انتباهي ما ورد فيها من ألفاظ وتراكيب دلّتني على طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها أهل بلاد الشام بخاصة، والمسلمون في أنحاء البلاد الإسلامية بعامة، وقد اتصلت تلك الألفاظ

والتراكيب بالعلاقات الفردية والجماعية واللباس والعمران والمذاهب الدينية، وفرق التصوف وغيرها من الأمور.

أثار اهتمامي ما كتبه الحسن البوريني في "تراجم الأعيان من أبناء الزمان" في ترجمة الشاعر أحمد ابن أحمد النابلسي المتوفى ١٠١٤/ ١٦٠٥، حيث قال: " وكانت عادته في كل يوم على الصباح أن يُجيب في الغالب داعي الفلاح، ثم يسير إلى بيت من بيوت القهوة، يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة، ويشرب من قهوة البن أقداحاً، ويرتاح بها كأنه عاقرَ راحاً، ثم يشرع في الكتابة "(١). وما قاله في ترجمة الشيخ أبي الفتح ابن عبد السلام المالكي المغربي حيث قال: " وله في القهوة البنيّة مواقف ومشاهد، وذلك مع شيخ الإسلام يونس العيثاوي الشافعي، فإنه كان يرى تحريمها، وكان الشيخ أبو الفتح يكاد يرى وجوبها، فحصل بينهما شقاق طال أمده، وتأجج حسده، وحضرا مرّة لدى قاضي الشام علي أفندي الشهير بقنلي، وتباحثا فيما يتعلق بالقهوة. وذكر كلٌّ منهما دليله، فظهر الشيخ أبو الفتح في البحث على الشيخ يونس حيث لم تكن أدلة التحريم ناهضة. وشرع الشيخ أبو الفتح بعد ذلك في نظم مقطّعات وموشّحات وقصائد في محاسن القهوة وبيان منافعها "(٢). وقد أورد البوريني له بعض الأشعار حول القهوة البنية، مفتياً بحلّها وحاثّاً على شربها، ومبيناً فوائدها وخواصها(٣).

حاولت معرفة مزيد من المعلومات حول شعر قهوة البن، فوجدت كثيراً من الأخبار والأشعار في كتب سبقت البوريني، تتحدث عن قهوة البن؛ نشأتها وطريقة صنعها، وخواصها، وفوائدها ومضارها، وما إن كانت حلالاً أم حراماً والجدل الذي ثار بين الفقهاء والشعراء حول ذلك.

أما في العصر الحديث فلم أجد إلا إشارات قليلة حول الموضوع، ومن أهمها ما قاله نعيم الحمصي: " وظهر لونان جديدان في هذا المضمار لم يكونا معروفين قبل هذا العهد (العثماني): أحدهما، الحديث عن قهوة البن وما فيها من متعة وما دار حولها من أقوال التحليل والتحريم "(٤).

ثم تحدث في موضع آخر عن شعر قهوة البن مشيراً إلى معرفة أهل العصر العثماني لما كان يسمى بيت القهوة (المقهى). واختلاف الفقهاء والشعراء فيها، وأورد بعض الأشعار في ذلك(٥). ومع أهمية ما قاله إلا أنه لا يفي الموضوع حقه.

وتحدّثت ليلى الصباغ عن قهوة البن، واعتبرتها بدعة لم يستطع المجتمع السوري ردّها، وقد عرفت في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وقد أثار ظهورها الجدل حول تحليلها أم تحريمها. وعدّها علماء ذلك العصر مصيبة، لكن وبالرغم من الجدل حولها

فإنها انتشرت بسرعة في سوريا حتى أقيمت بيوتها في معظم مدنها، وأصبح شربها عادة في معظم الأوساط الشعبية(٦). وفي مؤلف آخر لها اعتبرتها ليلى الصباغ من المشروبات التي تأصّلت في سوريا، وأصبح لها بيوتها التي تُتعاطى فيها جهراً، ما أدى إلى تغزّل الشعراء بها، والدفاع عنها(٧).

ولا شك في أنه تظهر في كل عصر من العصور موضوعات للقول تثير اهتمام الناس بها، وبخاصة منهم الشعراء والأدباء والفقهاء. وفي العصر العثماني ظهر موضوع قهوة البن، وانتشر وأثار جدلاً واسعاً في المجتمعات الإسلامية هل هي حلال أم حرام؟ وتدخل في الموضوع الشعراء والفقهاء وأهل الحكم، وخاصة الناس وعامتهم.

تدخل الشعراء في موضوع قهوة البن أدى إلى قولهم فيها أشعاراً كثيرة بحيث يمكنني القول إنه فن جديد من فنون الشعر التي ظهرت في العصر العثماني، وتستحق الدراسة العلمية.

١- معنى القهوة

القهوة لفظ أصله قها، وأقهى عن الطعام واقتهى: ارتدّت شهوته عنه من غير مرض. وأقهاه الشيء عن الطّعام: كفّهُ عنه أو زهَّده فيه، وقهيَ عن الطعام: لم يشتهه، تركه. والقهوة: الخمرُ، سميت بذلك لأنها تُذْهب شهوة شاربها عن الطعام، وقيل: تشبعه(٨). وقد استخدمها الشعراء بهذا المعنى على مرّ العصور قبل اكتشاف قهوة البن، وأورد الأصفهاني في الأغاني عدة أمثلة على ذلك، منها قول الوليد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان (٩):

من قهوة زانها تقادمها ... فهي عجوز تعلو على الحقبِ
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ... من الفتاةِ الكريمة النّسبِ

وأكثر من استخدمها بمعنى الخمر الشاعر العباسي أبو نواس، قال(١٠):

وقلتُ: "إني نَحَوْتُ الخَمْرَ أَخْطِبُها... ... قال: " الدراهمَ! هل للمَهرِ إبطاءُ؟!"
لما تبيَّنَ أني غَيْرُ ذي بَخَلِ ... وليسَ لي شُغْلٌ عنها وإبطاءُ
أَتَى بها قَهْوةً كالمسكِ صافيةً ... كدَمْعَةٍ منَحَتْهَا الخَدَّ مَرْهاءُ

فهو أراد خطبة الخمرة، والساقي طالبه بمهرها، ولما تيقَّن الساقي من تلهفه لها جاءه بها صافية أو كالدمعة تسكبها فتاة غير مكتحلة.

وذكرها مسلم بن الوليد، فقال(١١):

ومانِحَةٍ شُرَّابها المُلْكَ قَهْوةٍ	**مَجُوسيَّةِ الأنسابِ مُسْلِمَةِ البَعْلِ**
رَبِيْبَةِ شَمسٍ لم تُهَجَّنْ عُروقُها	**بنارٍ ولم يُقْطع لها سَعَفُ النَّخْلِ**

فالخمر عنده تمنح شاربيها الملك عندما يسكرون، وهي مجوسيّة النسب مسلمة الزوج.

٢- أنواع القهوة

خلال بحثي في المصادر والمراجع التي ذكرت موضوع قهوة البن تمكنت من الوصول إليها، وجدت أن الناس في العصر العثماني كانت تعرف أربعة أنواع من قهوة البن هي(١٢):

أ. قهوة قشر البن، أو القهوة القشريّة، وهي المتخذة من قشرة البن.

ب. القهوة البنيّة، وهي المتخذة من قشرة البن مع حبِّه المقليّ المجحَّم المدقوق، وهي أشدُّ حرارة وفعلاً من سابقتها.

ج. القهوة البنيّة المحكَّمة الإسْتوى، والمحكّمة، تُقرأ بتشديد الكاف وتركه. وكان بعض الناس يجعلونها ذات مذَاقٍ مرّ.

د. مَرْقَحةُ القَهوة. ومَرْقَحةُ: لغة يمانية، وهي حسب ما أكّده المباشرون لشربها، أنه كان يحصل من شربها نشاط وروحنة وطيب خاطر، وتُذهب عن البدن الكسل والنّعاس.

٣- بداية ظهور القهوة

اختلف المؤرخون حول بداية معرفة الناس لقهوة البن، والمكان الذي عرفت فيه أول الأمر، ويمكن عرض الآراء حول بداية ظهورها على النحو الآتي:

أ. أنها ظهرت قبل سنة ٨٦٦/ ١٤٦١ بقليل، ودليل ذلك قول الجزيري في عمدة الصفوة: " وإلى أننا الآن الذي هو عام ست وستين وتسعمائة تزيد مدّتها عن مائة عام(١٣) ".

ب. أنها ظهرت سنة ٨١٧/ ١٤١٤، وانتشرت في مكة المكرمة وفق ما جاء في أرجوزة كتبها شرف الدين العمريطي(١٤).

ج. أنها ظهرت في برّ ابن سعد الدين وبلاد الحبشة والجبرت وغيرهما من برّ العجم في

زمن لا يعلم أوله ولا كيفية سببه، قال الجزيري: " لأن ظهور القهوة في برّ ابن سعد الدين وبلاد الحبشة والجبرت وغيرهما من برّ العجم، فلا يعلم متى كان أوله ولا علمنا سببه "(١٥).

٤- موطن القهوة وانتشارها في الأقطار

لا توجد روايات تاريخية مؤكدة حول الموطن الأول لشجرة البن، ومع ذلك يمكن القول إن أول موطن للشجرة هو منطقة كافا في الحبشة حيث عثر عليها بكثرة بين الأعشاب البرية كما كان فيها منذ زمن قديم(١٦).

ومن الحبشة انتقلت إلى اليمن على يد أبي الحسن بن عمر المتوفى سنة ٨٢١/ ١٤١٨ حيث عاش فترة من حياته في الحبشة ثم انتقل إلى اليمن بعد أن كان انضم إلى الطريقة الصوفية الشاذلية. وقد كثر البن في اليمن وحوالي مخا(١٧) وحسنت زراعته، وصار هو أحسن بُنّ يخرج في الدّنيا(١٨). وقيل إنها انتقلت من الحبشة إلى عدن على يد محمد بن سعيد الذُّبحاني المتوفى سنة ٨٧٥/ ١٤٧٠، الذي عرفها عندما كان مقيماً إقامة جبرية على الساحل الأفريقي وعند عودته كرّس نفسه للصوفية ونشر شرب القهوة(١٩). ولا بد من ملاحظة أن البن وجد بمكة المكرمة وغيرها قبل القهوة بسنين كثيرة حيث استخدم للتنقُّل به أي للتسلية به على الشراب من دون القهوة، وكان قشره يرى في قمامات مكة قبل اشتهار القهوة(٢٠).

ومن اليمن انتقلت إلى مكة المكرمة، وثار جدل كبير بين فقهائها حول ما إن كانت حلالاً أم حراماً، وألف علماؤها مصنّفات في حلّ شربها وعدمه(٢١). لكن ذلك لم يمنع انتشارها، وفتح بيوت خاصة لها، وفد إليها الناس لشرب قهوة البن، كما لم يتعرّض أحد لشرّابها حتى شربت في المسجد الحرام، ولم يكن يعمل مَوْلد أو ذكر إلاّ بحضورها، وفشت في المدينة المنوّرة حتى طبخها الناس في بيوتهم(٢٢). وهذا الأمر استدعى إصدار فتاوى من بعض الفقهاء بتحريمها لا بل قاموا هم أنفسهم بتخريب بيوتها ومنهم الشيخ محمد بن علي ابن عبد الرحمن الشافعي(٢٣). وفي سنة ٩١٧/ ١٥١١ صدر قرار من قضاة مكة المكرمة بالاستناد إلى أمر من السلطان المملوكي قانصوة الغوري بمنعها(٢٤).

وانتقلت إلى مصر، فظهرت أولاً في حارة الجامع الأزهر بالقاهرة في العشر الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وقد نقلها إلى مصر اليمانيون في رواقهم بالأزهر، وشاركهم في شربها من سكن معهم في الرواق من أهل الحرمين الشريفين (مكة

والمدينة)، ومن حضر إليهم من عوام الناس في القاهرة. وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة وهم يشتغلون بما يجب عليهم قراءاته من الأذكار والمديح النبويّ(٢٥). ومن ثم انتشر شرب قهوة البن في مناطق أخرى من مصر وشربها عدد لا يحصى من الناس. وبذلك يتضح أن اليمانيين الذين قدموا للدراسة في الأزهر الشريف، أو المصريين الذين زاروا الأماكن المقدسة في مكة والمدينة للحج هم أول من نقل هذه المادة إلى مصر.

وانتقلت قهوة البن إلى بلاد الشام من مكة والمدينة ومصر جراء العلاقات التي كانت تربطها بتلك البلاد في مجالات الحياة كلها. وكان أول ظهور لقهوة البن في دمشق سنة ٩٤١/ ١٥٣٤. إذ قال النجم الغزّيّ في ترجمته لقاضي مكة الشيخ بديع بن الضياء المتوفى سنة ٩٤٢/ ١٥٣٥ أنه خرج من دمشق يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة ٩٤١/ ١٥٣٤ بعد أن حضر ليلة الجمعة عند الشيخ علي الكيزواني في مسجد العفيف بالصالحية وسمع المولد النبويّ وشرب هو والشيخ علي الكيزواني وجماعته القهوة البنية(٢٦). ونقل عن أحمد ابن طولون قوله: " ولا أعلم أنها شربت في بلدنا هذه يعني دمشق قبل ذلك، قال وكان عمي الشيخ جمال الدين بن طولون يقول بتحريمها "(٢٧).

وقد أدى ظهور قهوة البن في دمشق إلى إثارة جدل بين العلماء حول ما إن كانت حلالاً أم حراماً. وهاجمها كثير من العلماء وعدّوها مصيبة من المصائب التي حاقت بالبلاد(٢٨). ولكنها انتشرت بسرعة في بلاد الشام ومنها انتقلت إلى تركيا وإيران(٢٩). وقيل إن السلطان سليم الأول حمل البن معه إلى القسطنطينية من مصر بعد أن فتحها عام ٩٢٢/ ١٥١٦، وانتشرت تدريجياً إلى أن ظهرت القهاوي في تركيا عام ٩٦٠/ ١٥٥٤، وكان أهل تركيا يستعملون قشر البن لا لبه(٣٠).

٥- مكتشف قهوة البن

كما اختلف المؤرخون حول زمن اكتشاف قهوة البن وموطنها الأول، اختلفوا حول مكتشفها. وقد تمكنت من رصد الروايات الآتية حول أول من اكتشف قهوة البن:

أ. أول من اكتشف قهوة البن هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بالذُّبْحاني المتوفى سنة ٨٧٥/ ١٤٧٠، وهذا رأي الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، كما ورد في عمدة الصفوة للجزيري إذ قال: " ثم بلغنا بعد ذلك بمدّة (بعد أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر

الميلادي) أن ظهورها (قهوة البن) وانتشارها فيه (اليمن) كان على يد المشهور بالعلم والولاية. . . جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بالذُّبْحاني. . . نسبة إلى ذبحان بلدة معروفة باليمن "(٣١).

وقد أكد الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار هذا الخبر في رواية أخرى، إذ كتب لصديقه الفقيه جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الغفار باعلوي، وهو من بيت علم ودين في مدينة زبيد، يسأله عن أول حدوث قهوة البن في اليمن، فكتب إليه جواباً مضمونه: أنه بحث عمّن شربها من أهل اليمن، وسأل جماعة من المعمّرين وأولهم عمّه الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن بن إبراهيم وعمره قد زاد على التسعين وقت سؤاله، فأخبره قائلاً: " كنت بمدينة عدن فوصل إلينا بعض الفقراء السالكين، وكان يعمل القهوة ويشربها، وأنه كان يعمل للشيخ العلامة خاتمة العلماء بثغر عدن الفقيه محمد بافضل الحضرمي، والشيخ العارف بالله تعالى محمد الذّبحاني ويشربانها بمحضر من الناس، وكفى بهما حجة في ذلك "(٣٢).

وبعد هذا الخبر يخلص الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار إلى أن من المحتمل أن يكون الذُّبحاني أول من أدخلها عدن، كما هو المشهور، ويحتمل أن يكون الذي أدخلها غيره ولكنها نسبت إليه لكونه هو السبب في ظهورها وانتشارها(٣٣).

وقد أكد الجزيري اكتشافها للذّبحاني في رواية ثانية عن مصدر آخر هو العلامة المجيد فخر الدين أبو بكر بن أبي يزيد المكي، إذ قال ما لفظه: " قيل وأول من أنشأها الشيخ الصالح المسلك أبو عبد الله محمد بن سعيد الذُّبحاني "(٣٤).

ويشير العلامة فخر الدين في روايته للخبر إلى أنه علم عن جمع يبلغ حدّ التواتر أن قهوة الكَفْتة المأخوذة من ورق القات كانت معروفة قبل قهوة البن قال: " وأن أول من أنشأها وأظهرها، وبأرض اليمن أشاعها وأشهرها، سيدنا الشيخ العارف بالله تعالى علي بن عمر الشاذلي. . . وأنها كانت قبل من الكفتة أعني الورق المسمّى بالقات لا من البن ولا من قشره. فما زالت تنتقل من بلد إلى آخر حتى وصلت إلى ثغر عدن المحروس، فعدمت الكفتة من عدن في زمن سيدي الشيخ محمد بن سعيد الذُّبحاني المذكور أولاً "(٣٥).

وهذه الإشارة من العلامة فخر الدين أبو بكر بن أبي يزيد المكي تنفي ما ذكره محقق كتاب العمدة للجزيري، إذ يشير إلى أن الصوفي علي بن عمر الشاذلي المتوفى سنة ٨٢١/ ١٤١٨، هو أول مكتشف لقهوة البن(٣٦)، ولعلّه لم ينتبه إلى هذه الرواية التي تفرّق بين قهوة الكَفْتة وقهوة البن، مع أن الجزيري ينص على أن لا تناقض فيما أورده من الروايات السابقة فقال: "

ولا منافاة بين الكلامين، كما لا يخفى، إذ من نقل الأول رأى إلى القهوة القشرية. ومن نقل الثاني رأى إلى القهوة القاتية " (٣٧).

أما الخبر الذي نقله عن العلامة عبد الرحمن بن محمد العيدروس المتوفى سنة ١١١٢/ ١٧٠٠، في أنفاس الصفوة. في أثناء حديثه عن ظهور القهوة، وهو " كان أول حدوثه ـ أي مشروب القهوة البنية ـ أول القرن التاسع وأواخر القرن الثامن باليمن المبارك ومنشئه الشيخ الإمام الحجة الهمام صاحب المناقب الفاخرة علي الشاذلي بن عمر الشهير بدعسين " (٣٨). فهو خبر بين ناقله وعلي بن عمر الشاذلي ٢٩١ سنة، وهذه مدّة ليست قصيرة، ويمكن أن تؤدي إلى عدم الدّقة، كما أن الخبر لا ينص على نوعيّة القهوة المنسوب إليه اكتشافها.

ب. أول من اكتشفها هو أبو بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروس المتوفى سنة ٩١٤/ ١٥٠٩. وقد أثبت له هذا الاكتشاف النجم الغزّي في الكواكب السائرة، إذ قال في ترجمته " وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن " (٣٩). ثم ذكر قصة اكتشافه لها، إذ كان في أحد الأيام سائحاً في اليمن على عادة الصالحين من الصوفية، فمرّ في سياحته بشجر البن، فأكل " من ثمره حين رآه متروكاً مع

كثرته، فوجد فيه تجفيفاً للدماغ، واجتلاباً للسهر، وتنشيطاً للعبادة، فاتخذه قوتاً وطعاماً وشراباً، وأرشد أتباعه إلى ذلك " (٤٠).

وأثبت له هذا الاكتشاف عدد من الشعراء، فهذا عبد اللطيف بن سليمان ابن أبي كثير المكي المتوفى سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣، قال من قصيدة له يذكر أول من قال في قهوة البن وهو الشيخ العيدروس(٤١):

شاذليّ المخا لها أسَّس	**وهو قطب الزمان**
ولها العيدروس قد كيّس	**وابنُ ناصرٍ أعان**
وفحول اليمن أولو اليُمنِ	**كأسها يحتسي**
وشراب العصير والدّنِ	**منذ جاءت نسي**

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن الشاذلي أظهرها من بلدة المخا وأسس لانتشارها، فيما العيدروس استخرج منافعها وأشاعها بين الناس وأعانه في ذلك ابن ناصر. بحيث بات أهل اليمن يحتسونها علناً ونسوا بوجودها شرب العصير والخمر.

أما أبو الفتح بن عبد السلام المالكي المتوفى سنة ٩٧٥ / ١٥٦٧ ، فقال(٤٢) :

ما طاف بالبيتِ طيفها وسعى إلا وقال الإمام حين دعا: أهلا

وللنّدامى الكرام جهّزها

من خدرها العيدروس أبرزها

وبالمعاني الحسان طرّزها

وهيّم القوم عندما وضعا لها اسم راح ونعم ما وضعا: فعلا

فهذه الأبيات تؤكد ما ورد في سابقتها من أن العيدروس هو الذي أبرزها وأشهرها بين الناس وزيّنها لهم بإظهار منافعها لهم، وأعطاها اسم القهوة ليهيم الناس بها هيامهم بالخمر، التي من أسمائها القهوة.

ونقل القاسمي في رسالته خبراً قال فيه إن ابن الحنبلي كتب إلى الشيخ علي بن محمد بن علي بن عراق المتوفى سنة ٩٦٣/ ١٥٥٥ ، وهو بحلب يستفتيه في القهوة أبياتاً، وأجابه ابن عراق عليها شعراً، قال فيه(٤٣) :

فابتداء الأمر فيها هكذا وحكوه عن وليّ دون مين

وقد علّق القاسمي على كلمة وليّ فقال: هو أبو بكر بن عبد الله الشاذلي المعروف بالعيدروس، وذلك استناداً إلى ما ذكره النجم الغزّي في ترجمته له في الكواكب السائرة.

ج . أول من اكتشفها هو الفقيه الصوفي علي بن عمر الشاذلي المتوفى سنة ٨٢١/ ١٤١٨ ، وهو اكتشف القهوة القاتيّة وليس قهوة البن أو قشر البن، وذلك وفق رواية فخر الدين أبي بكر بن أبي يزيد المكّي التي أوردها الجزيري في إثباته اكتشاف قهوة البن للذُّبحانيّ قال: " والذي بلغنا عن جمع يبلغ حدّ التواتر أن أول من أنشأها وأظهرها، وبأرض اليمن أشاعها وأشهرها، سيدنا العارف بالله تعالى علي بن عمر الشاذلي . . . وأنها كانت قبل من الكَفْتة أعني الورق المسمّى بالقات لا من البن ولا من قشره . . . فعدمت الكَفْتة من عدن في زمن سيدي الشيخ محمد بن سعيد الذُّبحاني(٤٤) .

ومن هنا يتضح أن علياً بن عمر الشاذلي لا علاقة له بقهوة البن أو قشره، وبالتالي فإن نسبة محقق كتاب العمدة اكتشاف قهوة البن أو قشره إليه(٤٥) لا دليل عليها.

ثانياً: الجدل حول تحليل قهوة البن أو تحريمها

ثار جدل كبير بين الفقهاء والعلماء والشعراء حول تحليل قهوة البن أم تحريمها، إذ انقسم هؤلاء إلى قسمين: قسم قال بتحريمها، وآخر قال بتحليلها. ويمكن مناقشة الموضوع كما يأتي:

١- تحريم قهوة البن

أفتى من قال بتحريم قهوة البن بذلك لاعتبارات عديدة أهمها: أنها مسكرة كالخمر، ومضرّة للجسد والبدن الإنسانيّ، ولأنها تشرب من قبل سفهاء الناس، ولأنها تشرب في مجالس تدار فيها كما تدار الخمر، ولأنها تخلط بالمحرّمات من الموسيقى والدّف والرّقص والنساء والغلمان المُرْد، وبوجود الغيبة والنميمة في مجالسها. وقد ورد في تحريم القهوة أو النهي عن شربها أخبار كثيرة في عدة بلدان ويمكن الحديث عن ذلك وفق الآتي:

أ. في مكة المكرّمة

١. الإنكار الأول للقهوة حدث في مكة المكرّمة عام ٩١٧/ ١٥١١، ثم طلب أهلها أمراً سلطانياً من السلطان المملوكي قانصوة الغوري بتحريمها، وقبل وصول الأمر قام أمير مكة خاير بك بتعزير عدد من باعتها وكبس محلاتهم وأخرج ما وجده فيها من قشر البن وأحرقه وسط المسعى في الحرم، فاضطر الناس إلى شربها خفية. لكن الأمر السلطاني جاء على غير المراد حيث علم أنها لم تحرّم، فتجاسر الناس بعد أن أتى الأمر السلطاني. وقال بعض الشعراء في التحريض على أمير مكة(٤٦).

قهوة البنِّ حرِّمت   فاحتسوا قهوة الزّبيب
ثم طيبوا وعربدوا   وانزلوا في قفا الخطيب

والخطيب هو الشيخ شمس الدين الخطيب الذي أغرى أمير مكة خاير بك ومحتسبها بمنع القهوة البنية في مكة.

وقال شاعر آخر(٤٧):

قهوة البنِّ حرِّمت   فاحتسوا قهوة العنب
واشربوها وعربدوا   والْعنوا من هو السبب

وفي عام ٩١٨/ ١٥١٢، قدم إلى مكة الأمير قطلباي صحبة الركب الشريف إلى الحج عوضاً عن خاير بك، فأكثر من شرب قهوة البن، فعاد الناس إلى شربها بكثرة، ولم يعترض أحد على ذلك(٤٨).

٢. في عشر الخمسين وتسعمائة / عشر الألف وخمسمائة وثلاث وأربعين. ورد أمر سلطاني عثماني في موسم الحج إلى مكة المكرمة بمنع قهوة البن وإبطالها ومنع باعتها من التسبب بها وإبطال محالها(٤٩).

ب. في مصر

١. في سنة ٩١٨/ ١٥١٢ أصدر السلطان المملوكي قانصوة الغوري أمراً بتحريم قهوة البن لأنها تشرب على هيئة شرب الخمر، ويخلط فيها المسكر. ويغنّى عليها بآلة وتقام حفلات الرّقص ويسكر الشاربون، وورد في ثنايا الأمر أن ماء زمزم إذا شربت على هذه الهيئة كان حراماً(٥٠). وبالرغم من أن الفتوى وجهت إلى أهل مكة إلا أن الأمر ينطبق ومن دون شك على مصر.

٢. في سنة ٩٣٢/ ١٥٢٥، أشار محمد بن عراق على حكام مصر بإبطال بيوت القهوة لما يُفعل فيها من منكرات مع تصريحه بحلّها في حدّ ذاتها غير مرّة لغير واحد(٥١).

٣. عام ٩٣٩/ ١٥٣٢، أفتى الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي بتحريمها استناداً إلى أنها مسكرة، وفي عام ٩٤١/ ١٥٤٣، أكد على حرمتها في مجلس وعظه بالجامع الأزهر، فخرج عوام الناس إلى بيوت القهوة وكسّروا أوانيها وضربوا من كان فيها، وحصلت فتنة بين الناس وقيل في ذلك شعر كثير، منه ما قاله أحد الشعراء في تصوير الفتنة التي أحدثتها تلك الفتوى(٥٢):

إن أقواماً تعدّوا — والبلا منهم تأتّى
حرّموا القهوةَ عمداً — ورووا إفكاً وبُهتا
إن سألتَ النّصَ قالوا: — إن ابن عبد الحقّ أفتى
يا أولي الفضلِ اشربوها — واتركوا ما قال بهتا
ودع العذّال فيها — "يضربون الماءَ حتّى"

فالنص يوضح أن الفتوى تعدّ على حرية الناس، ونشر للفتنة والبلاء بينهم، وهي أحدثت ما أحدثته حادثة الإفك المشهورة في عهد الرسول(، ودليل ذلك هو عدم وجود دليل شرعي يستند إليه القائلون بالتحريم إلا فتوى ابن عبد الحق التي لا تساوي شيئاً لافتقارها إلى نص شرعي. ومن هنا فالشاعر يدعو إلى شرب قهوة البن ويحث على ترك كذبة التحريم.

ج. في بلاد الشام

١. حرمها الشيخ يونس العيثاوي، وأصرّ على إنكارها وألف رسالة في ذلك، وحدث أن صلى والي الشام مصطفى باشا في جامع يزديك (الجامع الجديد) خلف الشيخ العيثاوي ومعه الدفتر دار والأغوات(٥٣). فتعرّض في خطبته لتحريم القهوة، فعقد عليه مجلساً فيه الشيخ أبو الفتح المالكي الذي كان من أشد أنصار القهوة، وقد أنصف القاضي الشيخ العيثاوي. كما وافق على إنكارها عدد من قضاة دمشق وعلمائها ومنهم محمد بن عبد الأول الحسيني الجعفري(٥٤). وأبو عبد الله محمد بن محمد بن سلطان المتوفى سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣، الذي عدّها من جملة المصائب التي حدثت في زمانه بدمشق وبلاد الشام (٥٥).

٢. في حلب أنكرها عدد من العلماء ومنهم محمد بن خليل بن قنبر، قال النجم الغزّي: " وكان لطيف المحاضرة... شديد النكير على شراب القهوة بالشرط المخالف للشرع "(٥٦).

٣. وفي شوال من سنة ٩٥٣/ ١٥٤٦، ورد أمر السلطان العثماني سليمان خان القانوني بن سليم الأول بإبطالها. ونودي بذلك في عدة مدن من بلاد الشام ومنها دمشق(٥٧)، وفي سنة ٩٦١/ ١٥٥٣، منع الحكام من شرب القهوة فقال الشيخ علاء الدين بن عماد متعرّضاً للشيخ أبي الفتح المالكي وهو من أنصار القهوة بسخرية(٥٨):

قـُل أبـي الفـتـح إذا جـئـتـه	**قـول عـجـولٍ غـيـر مـسـتـانـي**
أدرك بني البرش(٥٩) على برشهم	**قـد مـنـعـواً مـن قـهـوة الـبن**

وقد أدى انتشار شرب قهوة البن حتى بين السفهاء من الناس إلى دفع بعض العلماء والفقهاء لإصدار دعوة إلى الناس بتجنّب شربها كونها أصبحت مشروباً للسفهاء. فهذا مفتي الدولة العثمانية المولى أبو السعود يقول عندما سئل عن القهوة وقد تقرّر له اجتماع الفسقة على شربها: " ما أكبّ أهل الفجور على تعاطيه فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتّقيه "(٦٠). فهو هنا لا يحرّمها في ذاتها، بل يرى أن الأولى تركها حذراً من التشبّه بالفجّار، وهذا

الشاعر علي جلبي بن هلال الحمصي يقول(٦١) :

أقول لأصحابي عن القهوةِ انتهوا ولا تجلسوا في مجلس هي فيه
وما كان تركي شربها لكراهةٍ ولكن غدت مشروب كل سفيه

وهذا الشاعر عبد الواحد بن عاشر الفاسي يقرُّ بأنها حلال وآمنة من الآفات والأضرار لكنه يحذِّر مما يضاف إليها، قال(٦٢) :

يقولون لي قهوة البُنِّ هل تُحلُّ وتؤمَنُ آفاتها
فقلت: نعم هي مأمونة وما الصَّعْبُ إلاّ مضافاتها

وقد سئل عن مضافاتها فقال: هي ما يستعمل معها من المكيّفات التي تشمل البرش والأفيون والحشيش وغيرها من أنواع المخدّرات.

ولم أجد في تحريم قهوة البن شعراً كثيراً يبيِّن أسباب تحريمها، ومضارها بشكل مفصَّل كما هو الحال لمن قال بتحليلها وبيان فوائدها، وأهم ما وجدته من الشعر في بيان أسباب تحريمها هو جواب الشيخ مفتي الشام أبي الفتح بن عبد السلام المالكي لمن سأله عن رأيه في قهوة البن، فقال إن من دعا إلى تحريمها ومنعها يستند إلى أربعة أسباب هي(٦٣) :

فاسمع لما أقول يا مستفتي مقال حِبر في العلومِ ثَبْتِ
إنّ الذي أصبحَ منها يمنع له ثلاث شُبهٍ بل أربع
أوّلها ادعاؤُه الإسكارا وأنّها تستتبعُ الخمارا
وبعده الأضرارُ بالأبدانِ بالبَردِ واليُبْسِ وهذا الثاني
أو هي من الأولى وأما الثالثة وهي على ذمِّ الجهول باعثة
إدارة القهوةِ مثل الخَمْرِ وذا مقال باطلٌ لعمري
رابعهنَّ خوف من قد ربّما أن يخلطوا بشربها المحرّما
إذن فلا يؤمن عند المنكر من مَزْجها بمسطل أو مسكر
هذا قصارى شبهة الأخصام وغاية التشنيعُ بالأوهام
فخذْ هُديتَ ردَّها مُفصّلاً ونقضَهُنّ أوّلاً فأوّلا

٢- مضار قهوة البن

استند من قال بتحريم قهوة البن من العلماء والفقهاء والشعراء في تحريمهم لها إلى أسباب عديدة أجملها أبو الفتح المالكي في فتواه بتحريمها بأربعة أسباب رئيسة ؛ أولها أنها مسكرة كالخمرة. وثانيها، أنها مضرّة بأجسام الناس. وثالثها، أنها تدار عند شربها كما تدار الخمرة، ورابعها، أنهم يخلطونها
بالمحرّمات.

وجراء ذلك فقد بدأ القائلون بتحريمها بتحذير النّاس من مضار القهوة كي يقنعوهم بعدم شربها، وقد تمكنت من حصر ما قالوه من مضار لها فيما يأتي:

أ. أن الإفراط في شربها إذا نضجت قد يحصل منه لأصحاب الأمزجة اليابسة وبخاصة في الدماغ زيادة في اليبس(٦٤).

ب. أن من يعتاد شربها لا يستطيع تركها، فيحصل له صداع شديد يجد له ألماً قوياً وثقلاً زائداً في الرأس وفتوراً في البدن بحيث لا ينتفع بنفسه(٦٥).

ج. أنها تدار كما تدار الخمر، ويتكلّم عليها كما يتكلّم عليه، ويجمع على مجالسها النساء والغلمان المرد، والغيبة والنميمة، وهذا كله تشبه بأهل الفساد لا بل هو بذاته فساد(٦٦).

د. أنها تفسد الكبد(٦٧).

هـ. أن طبّاخها يشبه المجوس وعباد النار ومن يشربها يبعث يوم القيامة ووجهه أسود من قعور أوانيها(٦٨).

و. تَضُرُّ من يغلب على مزاجه اليُبس، فتحدث له جفاف المنيِّ لما فيها من اليبس، فلذلك تضعفه، لأن مراعاة أحوال المنيِّ لها تأثير في القوة والقدرة على الجماع (٦٩).

ز. تسبب أضراراً عديدة إذ جاوز شاربها المعتاد (٧٠).

٣- تحليل قهوة البن

في مقابل من أنكر قهوة البن وحرّمها من العلماء والشعراء والفقهاء، ظهر عدد غير قليل ممن أفتوا بتحليلها وحثّوا على شربها، وذهب هؤلاء إلى القول أنها شراب طهور مباركة، ولها فوائد كثيرة ذكروها بالتفصيل. وقد أصدروا في حلّها فتاوى عديدة ردّاً على أسئلة كانت

تردهم من عامة الناس وخاصتهم وتحدّث عنها الجزيري مطوّلاً (٧١).

وقد علّق الجزيري على أمر السلطان المملوكي قانصوة الغوري الذي ورد إلى مكة المكرمة بشأن القهوة، بقوله إنه ليس فيه ما يدل على منع شربها وتحريمها في ذاتها، كما أنه لم يمنعها في مصر التي هي مركز حكمه(٧٢).

ونقل النجم الغزّي رأي محمد بن محمد المولى أبي السعود مفتي السلطنة العثمانية في قهوة البن عندما سئل عنها ووصفوا له هيئة شربها فقال: " ما أكبَّ أهل الفجور على تعاطيه فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتّقيه "(٧٣). وعلق الغزّي على ذلك بقوله: إن هذا ليس فيه تصريح بتحريمها بل يقتضي أن الأولى تركها حذراً من التشبّه بالفجار، ثم أضاف قائلاً: " والكلام في القهوة الآن قد انتهى إلى الاتفاق على حلِّها في نفسها وأما اجتماع الفَسقة على إدارتها على الملاهي والملاعب وعلى الغيبة والنميمة فإنه حرام بلا شك "(٧٤).

أما في الشعر فقد أكثر الشعراء من القول بحلّها في شعرهم، وحثّوا على شربها وأهم من قال من الشعراء هم:

قال محمد بن محمد بن عراق المتوفى سنة ٩٣٣/ ١٥٢٦(٧٥):

**هـذه القـهـوةُ هـذي		هـذه المـنْـهِـيُّ عَـنْـهـا**

**كيف تـدعـى بحـرامٍ		وأنـا أشـربُ مـنـهـا**

وقال عبد اللطيف بن أبي كثير المتوفى سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣ من موشح قاله في القهوة(٧٦):

**شربها بالقياس والإجماع		مـسـتـحـلٌّ مـبـاح**

وقال أبو الحسن محمد بن محمد البكري الصديقي المتوفى في عشر الستين وتسعمائة / عشر الألف وخمسمائة واثنتين وخمسين من قصيدة يذكر فيها حلّ قهوة البن(٧٧):

**كاللبن الخالـص فـي حلِّهِ		مـا فـارقـتـه بـغـيـر الـسـوّادِ**

وقال أبو الفتح المالكي المغربي المتوفى سنة ٦٧٥/ ١٥٦٧ من قصيدة طويلة أجاب فيها على من سأله عن القهوة، وفنّد فيها أسباب تحريمها عند من قالوا بالتحريم، وذكر كثيراً من فوائدها، قال (٧٨):

**أقـول والـلـه هـو المـوفـق		وإنّـمـا بـه تـعـالـى أنـطـقُ**

يا سائلي عن قهوة البن التي — كم من فتى على هواها ما فتى

ســـألت عنهـا وبهـا خبيرا — فاستمع التحقيقَ والتَّحريرا

واعلم على طريقة الإجمـال — بـأنـهـا مـن جـمـلـةِ الحـلال

وقال من موشح أشار فيه إلى يونس العيثاوي الذي تجادل معه حولها(٧٩) :

أنا أفتي بمقتضى الظاهــر — أنـــــهـــــا مـــغـــنـــم

ليتَ شعري من أين للماهر — أنـــــهـــــا تحـــرم

وقال أيضاً(٨٠) :

أقـول لقـومٍ قهـوةَ البنّ حـرّمـــوا — مـقـالـة مـعـلـوم المـقـامِ فـقـيـه

فلو وصفت شرعاً بأدنى كـــراهـــةٍ — لمـا شُربت في مجـلـس أنـا فـيـه

وقال محمد بن محمد بن عماد الدين الصالحي المتوفى سنة ٩٨٦/ ١٥٧٨(٨١) :

هذه الـقـهــوةُ الحـــلال أتـتـكــم — تـتـهـادى والـطـيـبُ يـعـبقُ مـنـهـا

ســـوّدوهـــا عـلـى الحـــرام بحـــلٍّ — وأمـاطـوا غـوائـل الـغـولِ عـنـهـا

وقال إبراهيم بن المبلط القاهري المتوفى سنة ٩٩١/ ١٥٨٣(٨٢) :

أرى قهـوة الـــبنِّ فـي عـصـــرنـــا — عـلـى شـربـهـا الـنّـاس قد أجـمـعـوا

وصـــارت لـشـــرّابـهـــا عـــادة — فـلـيـســت تـضـــرُّ ولا تـنـفـعُ

فالقهوة عند شاعرنا أصبحت محطّ إجماع الناس على شربها، كما أنها أصبحت عادة لديهم يشربونها من دون النظر إلى ضررها أو نفعها.

وقال عبد الواحد بن عاشر الفاسي المالكي(٨٣) :

يقولون لـي قهوة البنِّ هـل — تُـحـلُّ وتـؤمـن آفـاتـهـا

فقلت نعـم هـي مأمـونـة — ومـا الصـعـبُ إلا مضافاتـهـا

فالشاعر هنا يبين أنها حلال مأمونة الخلو من الأضرار، وأن ما يضرّ هو ما يضاف إليها وهو المكيّفات.

وقال زين العابدين علي بن محمد البكري الصديقي المتوفى سنة ١٠١٣/ ١٦٠٤(٨٤):

اسقنا قهوة غدافيّة اللـو　　ن حلالاً تفرِّج الهمَّ عنّا

فهذا الشاعر الصوفي يحث غلامه على أن يسقيه قهوة سوداء اللون وهي حلال لا حرمة فيها لتفرِّج همومه.

وقال نجم الدين الغزّي المتوفى سنة ١٠٦١/ ١٦٥١ من قصيدة ردّ فيها على سؤال ورده يطلب منه صاحبه الحكم في قهوة البن، قال(٨٥):

أيها السائل الذي جاء يرجو　　عندنا أن نبيحه شُرْبَ قهوه

قهوة البنِّ لا تكونُ حراماً　　إنّها لا تفيدُ في النّفس نشوه

فهو هنا يحلّها لأنها لا تبعث في نفس شاربها النشوة التي تحدثها الخمر، ثم يواصل فتواه فيحرّمها في بيوت القهوة لما يرافق شربها من مجون ومحرّمات، لكنه في المقابل يبيحها إن شربت في بيوت الناس، قال:

غير أنّ الذي يجيء بيوتاً　　هي فيها تدار عادم نخوه

إذ يرى المُرْدَ والمعارف والنّرد　　وكلٌّ يلهو فيتبع لهوَه

ثم لم يقوَ أن يغيِّر نُكراً　　خشيةَ أن يُعَدَّ ذلك هفوه

إلى أن يقول:

وإذا شئت شرب قهوة بنٍّ　　حسوة قد أردتَ أو ألف حسوه

فليكن ذلك وسط بيتك مهما　　لم تشب صفوها بموجب صبوه

واذكر الله أولاً وأخيراً　　وتوثّق منه بأوثقِ عروه

يتضح مما سبق أن قهوة البن حلال في ذاتها، ولا حرمة فيها، ولا دليل شرعي يستند إليه من قالوا بحرمتها. لكنها تحرّم إذا شربت في مجلس فيه منكرات من مثل: العزف والدف والنّرد والرقص والغناء، ومرافقة النساء والغلمان المرد، والغيبة والنميمة أو أديرت في شربها

كما تدار الخمر . أو إذا مزجت بها أشياء منكرة محرمة كالمكيّفات والمخدّرات(٨٦) .

٤- فوائد قهوة البن

ذهب من قال بحلّ قهوة البن بأنواعها إلى ذكر فوائدها التي ثبتت لهم جراء التجربة الشخصية لمن داوموا على شربها، وقد أوردوا تلك الفوائد في أشعارهم التي نظموها لحث الناس على شربها في مواجهة من قالوا بتحريمها وقالوا شعراً لحث الناس على الامتناع عنها، وتحذيرهم من آثارها المضرّة لهم .

وقد قرن القائلون بحل القهوة من أهل الصلاح باليمن اسمها بأحد أسماء الله جلّ شأنه وهو القوي، وذلك استناداً إلى أن عدد حروف (القهوة) بحساب الجمل يساوي ١١٦ وكذلك عدد حروف (القوي) . وإن المناسبة من الموافقة في حساب الجمل مع ما في بركة اسم الله (القوي) من ذهاب الضرر وحسن عاقبة الأثر والتقاوي بخير البشر، كما قرنوها بما ورد في كتب السنة عن بركة ماء زمزم وهو " ماء زمزم لما شرب له " وعن بركة قراءة سورة الفاتحة في القول " فاتحة الكتاب لما قرئت له " . وأن القهوة جمعت سرَّي الفاتحة وماء زمزم(٨٧) . إلا أن الجزيري يرى أن ما سبق إنما هو شطحة لا يجب أن تروى، وأن الأفضل تفسير قولهم " قهوتنا لما شربت له " وفق الحديث الشريف " إنما الأعمال بالنيّات " ، فمن شرب القهوة على نيّة أداء العبادة أو الذكر بها ألجأته القدرة الإلهية إلى استعمالها بسبب من الأسباب(٨٨) .

ويمكن إجمال الفوائد التي ذكرت في الشعر لقهوة البن فيما يأتي :

أ. دوام السّهر وطرد الفتور والكسل والنوم.

هذه هي الفائدة الأولى لقهوة البن التي لاحظها مكتشف قهوة البن في اليمن واستعان بها لقضاء عبادته وأذكاره، وقد لاحظ من شرب قهوة البن أنها أفضل منجد للمرء الساعي للخير في حياته . فهي تبعث في شاربها نشاطاً لا مثيل له، حتى إنها تمكنه من المبيت على قدميه خاشعاً مبتهلاً إلى ربّه، ومن القيام بما يريد من عمل أو ذكر أو عبادة أو سهر في تلاوة ورد أو في صلاة التهجّد أو دراسة للقرآن أو أي علم ذي فائدة، لا بل هي عند بعضهم مفتاح الهمم الإنسانية ومثيرها لعمل الخير والعبادة .

قال أبو الفتح المالكي في معرض ذكره فوائد قهوة البن في أثناء ردّه علي القائلين بحرمتها بحجة أنها مسكرة(٨٩) :

هل وجدَ القومُ لها منْ أثرٍ سوى انتفاع بدوام السَّهر
بل صحّ أن القهوة المكرّمة تفعل ضدّ هذه المحرّمة
من طرد نومٍ وفتور وكسل وكل ما رامَ به المرؤ حَصَل
من عملٍ أو ذكرٍ أو عبادة أو درسِ قرآنٍ أو استفادة
أو سهر في وردٍ أو تهجّدٍ فهي لباغي الخير خَيْرُ مُنجدِ

وواضح من هذه الأبيات أن أبا الفتح المالكي الذي كان من أشد الداعين لشرب قهوة البن والقائلين بحلّها والمدافعين عنها، أنه جمع غالبية فوائدها الناتجة عن فعل النشاط الذي تبعثه في نفس الإنسان، وهو قد ركّز في ذلك على الأعمال الدينية والخيِّرة المفيدة للإنسان، وحشد فيها عدداً من الألفاظ الدينية ليبعث الطمأنينة في نفس قارئها، وبخاصة أن من قالوا بحرمتها ركّزوا على النواحي الدينية.

وهذه الفوائد التي ذكرها في الأبيات السابقة دفعته للدعوة إلى شربها، من خلال تقديم نفسه قدوة لغيره في المداومة على شربها. قال في موشّح مردوف يبيّن أنها تذهب النعاس في الليل شديد الظلمة بعدما حثّ صديقيه على اسقائه إيّاها صرفة غير مشوبة بما يخلط بها من المحرّمات التي يحتج بها القائلون بحرمتها(٩٠):

اسْقيانـي قُهـوة البـُنِّ صـرفـة الأكـؤوسِ
كيْ أميطَ الكرى عن الجفنِ فـي دجـى الحـنـدَسِ

ثم قال: إنه يشربها اقتداء بالأولياء الصالحين من الصوفية الذين حرصوا على شربها في دروسهم (٩١):

أنا بالأولياء لـي أُسوةٌ فـي اغـتـنـامِ الأجـورِ
بارتشافي في درسي القهوة بـالـهـنـا والـسـرور

أما الجزيري صاحبَ كتاب عمدة الصفوة فأكد بعثها النشاط في نفس شاربها، وأنها المفتاح الذي يبعث همم الناس للعبادة والمداومة عليها، وجاء تأكيده بأسلوب بديعي جميل، هو أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذّم، قال(٩٢):

لا عيبَ فيها سوى تنشيط شاربها وفي العبادة مفتاح لذي الهِمَمِ

ففعلها في نشاط لا يُعادِ لُها فيه سواها ومشفاةٌ من السَّقمِ

وفي معنى العبادة نفسه قال الفقيه محمد بن شرف اليمني(٩٣):

تُعينُ أهل قيامِ الليّل إنْ كَسِلوا عن القيامِ وتنفي عنهم الكَسَلا

منْ يحتَسِي شُرْبَةً منها يبيتُ على أقدامِه خاشعاً للهِ مُبْتَهَلا

وهذا الفقيه شهاب الدين الجيلي يؤكد أنها تقرِّب شاربها إلى الله جراء مساعدته على السَّهر والذكر، قال يحث على شرّبها(٩٤):

واشربوها فإنّها تدني للحمى الأقدسِ

أما الإمام الصوفي علي بن عراق، فهي عنده مشروب أهل التّقوى يشربونها ليلاً لتساعدهم في مناجاة الله، قال(٩٥):

والصَّفا في شربها مع فئة أخلصوا التّقوى وشدّوا المئزرين

ثمَّ ناجوا ربّهم جُنْحَ الدُّجى بخشوع ودموع المقلتين

اب. فوائد نفسية ومعنوية

ركّز الشعراء والفقهاء والعلماء ممن قالوا بحلّ قهوة البن على قضية ذاتية مهمة لدى من يشربونها، وهي الناحية النفسية والمعنوية لهم، فقهوة البن عندهم تحقق فوائد عديدة في هذه الناحية، إذ أن شربها يفرّج الكروب ويزيل الأكدار، والهموم والأحزان من الصدور. ويُشفي النفوس مما يلازمها من انقباض وغمّ وحزن، لا بل إنها تشرح قلب شاربها، وتجلو الهموم عنه، وتبعث الصفاء في النفوس بعامة.

ومن خلال الفوائد السابقة فإن شارب قهوة البن يبدو هانئاً مسروراً، وقد انبسطت أعضاؤه واستراح بدنه. قال الشيخ محمد بن محمد، أبو الحسن البكري المتوفى سنة ٩٦٥/ ١٥٥٧، من قصيدة يبيّن فيها بعض فوائد قهوة البن(٩٦):

أقولُ لمن قدْ ضاقَ بالهمِّ صدرُهُ وأصبحَ من كَثْرِ التَّشاغلِ في فكْرِ

عليك بشُرْبِ الصّالحين فإنّهُ شرابٌ طهورٌ سامي الذّكرِ والقَدْرِ

فمطبوخُ قِشْرِ البن قد شاعَ ذكرُهُ عليكَ بهِ تَنْجو منَ الهمِّ في الصَّدْر

وخَلِّ ابن عبد الحقّ يفتي برأيه وخذها بفتوى من أبي الحسن البكري

وقال وجيه الدين بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد العمودي المتوفى سنة ٩٦٧/ ١٥٥٩ في بيان فوائدها(٩٧):

وتشرَحُ القلبَ والأعضاءَ تبسطُها وتُذهبُ الهمَّ والأحزانَ والكدرا
فاشرَبْ فدَيْتُكَ منها ما قدِرْتَ لَهُ وقُمْ نَصَحْتُكَ بالأسمارِ ما يَسَرا
واخْلُصْ لدى نية مهما شربتَ لها وكُنْ كيساً بها الخيرات مُدَّخِرا
واقتَدِ [في] (٩٨) شربها مِمَّن مضى خلَفاً ذوي الصّلاحِ ولا تَقْتَدْ بمَنْ خَسِرا
واسألْ إلهكَ أنْ يفضُل برحمتِهِ على نَبِيِّكَ خَيْرِ الخلقِ والبَشَرا

أما عبد اللطيف بن سليمان باكثير المتوفى سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣، فقال في موشح عدّد فيه بعض فوائد قهوة البن، إنها مرهم الحزن وبلسمه الشافي للنفوس فيتركها طَربةً مرتاحة(٩٩):

قهوةُ البن مرهمُ الحزن وشفا الأَنْفُسِ
فهي تنفي... الأشباع والكرب والرياح
وتنيل الحواس والأسماعَ طرباً وارتياح

وقال العلامة أبو بكر بن أبي كثير يحثُّ على شربها باعتبارها وسيلة لراحة الأجساد وإرواء القلب وجلائه، ومفرّجة للكروب صغرت أم عظمت. لا بل إنها تشرب وسيلة للتسلية مع الأصدقاء والخلاّن(١٠٠):

صاحِ بادْرِ لراحة الأبدانِ وارْوِنِيْها الجنان
وتسلّى بها وبالنّدمان عن نبات الزمان
تُفْرِجُ الكَرْبَ قلَّ أو جـ لا يا لها من جُلا

وذهب أحد الشعراء إلى تعميم فائدة قهوة البن في هذا المجال مكانياً، فهي عنده تبعد الهمَّ والحزن عن حانات شربها، ومن وجد فيها، قال(١٠١):

لا يوجد الغمُّ بحاناتها قد خضعَ الغمُّ لسلطانها
بمائها نَغْسِلُ أكدارنا ونَحْرِقُ الهمَّ بنيْرانها

أما الجزيري فقد ذهب أبعد من الشاعر السابق في تعميم فائدتها على مكان وجودها، فالأحزان والهموم لا تستطيع الحضور إلى أيّ مكان وجدت فيه قهوة البن، قال(١٠٢):

سمراءُ لا تَنْزِلُ الأكدارُ ساحتها ... تُشْفِي من النّومِ أو عرف بذا نعم

وقال مثل ذلك شهاب الدين الجيلي، وزين العابدين بن محمد البكري وغيرهما(١٠٣).

ج. فوائد تظهر على وجه الإنسان ولونه ورائحته

لم يكتف بعض الشعراء ومن قالوا بحلِّ قهوة البن بما سبق من فوائد بل ذهبوا إلى حدّ القول بأن شاربها يشرق وجهه وتطيب رائحة فمه، قال الشاعر شهاب الدين الجيلي المكي (١٠٤):

وشذاها يطيّب الأنفاس ... سيَّما في الصَّباح

وقال عبد اللطيف باكثير(١٠٥):

فهي تكسو شقائق الحسن ... مَنْ لها يَحْتَسِي

أما الجزيري فأشار إلى أن شاربها يتغيّر لونه، فيبدو مشرقاً، بعدما يذهب الغمُّ عنه، قال(١٠٦):

تفيد في اللون إشْراقاً حرارتُها ... وتذهبُ الغمَّ في بدءٍ ومُخْتَتَمِ

د. فوائد طبية

نسب عدد من الشعراء الذين قالوا بحلّ قهوة البن إليها فوائد طبية كثيرة بحيث يثير سرد تلك الفوائد نوعاً من الدّهشة والتساؤل عن مدى صحة بعض تلك الفوائد. وما إن كانت تلك ناتجة عن رأي طبي علمي، أم من باب الدّفاع عنها في وجه من قال بتحريمها.

وقد أجمل الشاعر والإمام مفتي الشام أبو الفتح بن عبد السلام المالكي عدداً كبيراً من فوائدها في قصيدة طويلة، ردّ فيها على الادّعاءات التي دفعت من حرّموها إلى القول بتحريمها، وهي أربعة، أحدها أن من طبعها اليُبس والبرودة، فأكد أن هذا الطبع في شيء لا ينشأ عنه تحريم حلال الجنس واستشهد على ذلك بلحم البقر، فقال(١٠٧):

ألا تـرى أن لـحـوم الـبـقــر	**ببـردها ويُبْسِـها المُشْتَهر**
ومن يقل بجهله لحم البقـر	**محـرّم لـضـرّه فـقـد كـفـر**
لأنـه قـد صـادمَ الـقُـرآنـا	**وقـال زُوراً وأتـى بـهـتـانـا**
وكم عقاقيرٌ وكـم مـن أدويـة	**ببـردها ويبسِـها مقـوِّيـة**
وكـم غـذاء بـاردٍ ويـابـسٍ	**ونـفـعـه يـذكَرُ في المجالـس**

وبالرغم من نفيه للبرودة واليبس عنها هنا فإنه أثبته لقهوة قشر البن وليس لقهوة البن، قال(١٠٨):

وليس وصفها لـدى الحذّاق	**بالبرد واليُبْسِ على الإطلاق**
بل ذاك طبع القهوة القشريّـة	**فقط وأما القهوة البـنّـيّـة**
فإنّها فـي غـايـة الحـرارة	**وبقي الكلام في الإدارة(١٠٩)**

أما فوائدها الطبيّة التي ذكرها أبو الفتح المالكي وغيره من الشعراء فكثيرة، منها: أنها تبرئ العلّة، وتذهب الصداع، وتذيب الباسور والحصاة والبلغم وتذهبها، وتساعد في هضم الطعام، وتمنع القيء، وتشفي المعدة من الداء، وتذهب الرياح من الأحشاء، وتزيد الشهية للطعام، وتنفع في معالجة رمد العيون وجرب الجفون، وغيرها، قال(١١٠):

بل نفعها وفضلُـها عـظـيـمُ	**وإّنما يـعـرِفُـهُ الحـكـيـمُ**
فمـنـهُ أنـها تذيـبُ البلغَما	**وتمنـعُ القيءَ وتنفعُ الغَما**
وتقطعُ الرطوبـةَ الغريبـة	**وكم لـها منـفـعـةٌ عجيبـة**
مـن البواسيرِ وداءِ المعـدة	**وطَرْحِ ريحٍ في الحشاءِ ممدَّه**
وتذهبُ القولنجَ والصـداعـا	**إنْ كـانَ مـن حـرارةٍ لـدّاعـا**
وهـي من المهضِّمات للأكـلِ	**بشربها في الغدواتِ والأصلِ**
تـنـبِّه الشـهـوة للـغـذاءِ	**وتمنع الطّرفَ من الإغضاءِ**
ونفعُها من بعض أنواعِ الرمد	**وجَرَبِ الجِفنِ صحيحٌ يُعتمدْ**
وتمـنـع الأبخـرة الـرَّديـّة	**عن الـدِّماغِ سيَّما عشيّة**
لأجلِ هـذا بعـثت علـى السَّهرِ	**وصَفَّت الحواسَ عن كُلِّ كدرِ**

وقال الجزيري في ذكر بعض فوائدها من قصيدة قالها في تحليل قهوة البن والحث على الذهاب إلى حاناتها وشربها لاغتنام فوائدها التي منها: إزالة الحصى والصداع والبلغم والبواسير وتحريك شهوة الجماع وزيادة القدرة عليه(١١١):

وللحصاةِ مـعَ الإدرارِ ثـق بشـفا — وللـصّداعِ ففيـها أيُّ معتـصـمِ
تنشـِّف البلـّة الرطبـا فـي معـد — وللـبلاغـمِ قل مـا شئـت إن تـدمِ
وفعلـُها في بـواسير تـداولـه — أهل التجارب حتى صارَ كالعلـمِ
وفي المـزاج لمـرطوب المـزاج تـزد — حتى يرى ذاكَ في فعلٍ وفي عدمِ

وقال الشاعر أحمد العناياتي النابلسي من قصيدة له، يبيّن أنها تفيد في إزالة الصداع(١١٢):

قهوة لا صداعَ فيها نعمٌ فيـ — ـها مزيلٌ من الصداعِ مريحُ

وقال الإمام الشيخ عبد اللطيف بن سليمان باكثير المتوفى سنة ٩٥٠/ ١٥٤٣ في ذكر فوائدها وأنها تزيل الباسور والبلغم وتساعد في هضم الطعام(١١٣):

ولـذي الباسـور والبلـغـم — طـبـعـهـا حـاسـم
وهي تنفي صراير الإشباع — والـكـرب والـريـاح

وقال أحد الشعراء يبين أنه لا شيء يهضم الطعام مثلها، ويحث على شربها(١١٤):

ما يهضم الزّادَ سوى قهوةٍ — فقرِّبوهـا نـحْوَنـا واقـرَبـوا
ولا تخافوا الإثمَ في شُرْبها — فالله قَدْ قال كُلوا واشربـوا

ثالثاً: مدح قهوة البن

بعد ذكر فوائد قهوة البن، لا بد من الإشارة إلى أن من قال بحلّها وعدّد فوائدها، قد مدح قهوة البن وتَغزّل بها، وحبَّبها إلى نفوس الناس بصور شتى، وكثيرة، ومن أهم ما قيل في مدح قهوة البن:

قال الشيخ محمد البكري، وينسب للشاعر محمد ماماي الرومي، على لسان قهوة البن

تتغزّل بنفسها(١١٥) :

**أنـــا المعشوقـةُ السَّمـــرا		وأُجْلـــى فـــي الـفـنـــاجـــين**

**وعـودُ الهنـدِ لـــي طيـبٌ		وذكـري شـاع فـي الـصـين**

وقال الجزيري، إنها شراب كريم طيب المورد، يشربه أهل الله (الصوفية) وهي مع مذاقها المرّ فإنها حلوة الفكاهة، وهي حلال خالص(١١٦) :

**أكرمْ بها منْ شرابٍ طابَ مـــوردهُ		إلـهـام آلِ طـريـقِ الـلـه إن تـَرُمِ**

**حلـوٌ فكاهتهـــا، مُــرٌّ مـذاقتهـــا		حلٌ مساغتها في الحكم فاحتكم**

وهذا الشاعر أحمد العناياتي النابلسي يتغنّى بها وهي سوداء مصانة في الفنجان الصيني من خلال تشبيه الشفاه السمراء عندما تبتسم فتلوح الأسنان البيض بها، وأنها تشرب في ليل الوصل وصباح اللقاء مع الأحبة، وقد زاد قلب التشبيه من جمال المعنى في البيت الأول، قال(١١٧) :

**صِيْنَ في الصِّينِ مِسْكُها فحكاها		لَعَسٌ في بياضِ ثَغْرٍ يلوحُ**

**ليلُ وصلٍ في صبحِ لُقْيا حبيبٍ		طابَ منها غبوقُها والصَّبوحُ**

وقد تغنى عدد من الشعراء(١١٨) بقهوة البن، وحثّوا على شربها مرّات مع الإخوان والأصدقاء، وبذل نفيس المال في سبيلها كالفضة والذهب. وشبّهوها في سوادها وسط الفنجان الأبيض ببؤبؤ العين الأسود وسط محيطه الأبيض، فهذا الشاعر إبراهيم بن المبلط يقول(١١٩) :

**يــا عائباً لسوادِ قهـوتنـــا الــتـــي		فيها شفـاء النّفسِ من أمراضـهـا**

**أو ما تراهـــا وهـــي فـي فنجانــهـــا		تحكي سواد العين وسط بياضـها**

وقال النجم الغزّي (١٢٠) :

**إشرب من القهوةِ صاعين		ولـو بـبـذلِ الـورقِ والـعــينِ**

**سوداء في بيضٍ فنجانها		كـأنّـهـا الإنـسـان ومـن عـينِ**

وهذا عبد الملك بن جمال الدين الاسْفراييني ّ يشبّه القهوة السوداء في الفنجان الأبيض بالعين المكحولة، والدّخان الصاعد منها لحظة صبِّها في الفنجان بأهداب تلك العين التي تزيدها جمالاً، وذلك في تشبيه بديع جديد، قال(١٢١):

فنجانُ قهوةٍ ذا المليحُ وعينهُ الـ ـكحلاءُ حارت فيهما الألبابُ

فسوادها كسـوادهـا وبياضُـها كبياضِـها ودُخانُـها الأهدابُ

ومثل هذا التشبيه قاله أحمد بن عبد المعطي المكي، فالقهوة تثير إعجابه وهي تصب في الفنجان الصيني الأبيض فيطيب له شربها، ويشبهها بالعين المكحولة ودخانها بالأهداف(١٢٢):

لـلــه مـحـكـم قـهـوةٍ تجـلـى لـنـا في أبيضِ الصينيّ طابَ شرابُها

فكـأنّمـا هـي مقلـةٌ مكحـولـةٌ دُخـانُـهـا مـن فـوقـهـا أهـدابـهـا

أما أبو المواهب البكري، فقد تحدّث عن فنجان القهوة في يد الساقي، فقال إن القهوة في الفنجان يحمله الساقي غزال تفوح منه رائحة المسك، وحبابها الشبك الذي يمنع ذلك الغزال من الهرب، قال(١٢٣):

وقهـوةٌ تنضحُ مسـكـاً ولا بِدْعَ ففي الفِنجان شكلُ الغزالْ

حبابُها مـن فوقهـا مـانـعٌ نِـفـارُهُ فـهـو شـبـاكُ الـّلالْ

أما الشاعر محمد ماماي الرومي فقد شبّه لونها بالمسك وإقبال الناس عليها كما يقبلون على اللبن المخيض في الزبادي. قال (١٢٤):

لونها قد حكى أذايبُ مسكٍ أو زبادٍ وسطَ الزّباد الجليّهْ

وقال في مكان آخر(١٢٥):

كأسها البدرُ والحبابُ نجومٌ وهي ليلٌ تُجلى بكفِّ الثّريّا

فهو جمع أربع صور للقهوة وإنائها في تشابيه بليغة جميلة وبديعة، فكأسها بدر، وحبابها نجوم وتلك تظهر في القهوة التي هي ليل في سوادها، يزيد جماله ظهور الثريا فيه والتي هي يد الساقي.

وأما محمد بن محمد بن عراق المتوفى سنة ٩٣٣/ ١٥٢٦ فقد جعلها العنبر في الأيدي، ولونها لون المسك وهي تشرب بالزّبادي، قال(١٢٦):

لشاربِ قهوةِ البنِّ التَّـغـادي فسرُّ شَرابها في الكونِ بادي

لها عرفِ العنابر في الأيادي ولونِ المسكِ تُشرَبُ بالزّبادي

والشاعر عبد المعطي بن حسن بن عبد الله المكي المتوفى سنة ٩٨٩/ ١٥٨١، يرحب بالقهوة الصافية، ويشبهها في سوادها وبياض فنجانها بالعين الكحلاء، قال(١٢٧):

أهلاً بصافـي قهـوةٍ كالأثـمـدِ جليت فزانت بالخمارِ الأَسْوَدِ

لما أُدِيْرَتْ في كؤوسِ لُجَيْنـهـا بيمين ساقٍ كالقضيبِ الأملَدِ

يحكي بياضَ إنائها وسوادها طرفاً كحيلاً لا بكُحلِ المروَدِ

وهذا غرس الدين الخليلي يحث على شربها مفضلاً إياها على الخمر، ويشبّه حبابها بعقد من الياقوت على عنق حسناء، قال(١٢٨):

دعِ الصهباءِ واشربْ صفوَ قِشْرٍ مشعـشـعـة تـدورُ بكفٍّ بدرِ

وان شئت الصفا بادر سريعـاً إلى حـانٍ لـهـا قَدْ حـانَ بدْرِي

كـأَنَّ حُبابُهـا المنظـومُ عـقـدٌ من الياقوتِ يُجْلَى فوقَ نَحْرِ

أما الشاعر أحمد بن شاهين الدمشقي، فالقهوة عنده شيء جميل تنقّل في تشبيهه سريعاً لأنها ملكت عليه نفسه، فهي عنبر مسحوق، وسوداء مثل عين العشيقة، ورائحتها كالمسك، وطعمها كرحيق الزّهر، وهي وسيلة لجمع الأصدقاء، قال(١٢٩):

وقَـهْـوةٍ كالعَنْبـرِ السَّحـيْـقِ سوداءُ مثل مقلة المعشوقِ

أتت كـمسـكٍ فـائـحٍ فـتـيـقِ شبَّهْتُها في الطّعم بالرّحيق

تُدني الصديقَ من هوى الصد يق وتربطُ الودَّ معَ الرَّفيقِ

وقال شاعر آخر يمدح القهوة بأنها أحلى من المنِّ ومن العسل(١٣٠):

أَرْسِـلْ إلـيـنـا قـهـوةً نُـطـفـي بـهـا جَـمْرَ الـكَـسـلْ

فإنَّهـا أحلـى مِنَ المـَنِّ ومـن طَـعْـمِ الـعَـسَـلْ

١- شيوع قهوة البن وانتشارها

بعد كل ما سبق من مدح القهوة والغزل بها، شاع شربها بين عامة الناس وخاصتهم وجاهر كثيرون بشربها لا بل والإدمان عليها، فهذا غرس الدين الخليلي الأنصاري، يقول(١٣١):

سأُدمنُ شُرْبَها ما دمتُ حيّاً ... ولا أُصغي إلى زيدٍ وعمرو

فرأيي الآنَ يا مَنْ رام نُصْحِي ... إذا شاهدتها في الحانِ فَاجْرِ

ولم لا وهْي مَشْروبُ العَوالي ... مِنَ السّاداتِ في برٍّ وبحرِ

أما إبراهيم بن المبلط فقال في قصيدة ذكر فيها وليمة عظيمة أقامها الشيخ جمال الدين محمد بن محمد البكري في القاهرة بمناسبة طهور أولاده سنة ٩٧٤/ ١٥٦٦ أنه أديرت في الوليمة قهوة البن للحضور فشربوها شراباً طاهراً، وأن من يشربها جهاراً بات لا يجد إنكاراً عليه من أحد، قال(١٣٢):

ولكم قد أُديرَ قهوةَ بنٍّ ... وسُقينا منها شراباً طهورا

مَن تعاطى منها شهاراً جهاراً ... لا يرى في الورى عليه نكيرا

وقال إن الناس في عصره أجمعوا على شرب قهوة البن، وأصبحت عادة عندهم لا يفكِّرون في مضارها ومنافعها(١٣٣):

أرى قهوةَ البُنِّ في عصرنا ... على شُرْبها الناسُ قد أَجْمَعوا

وصارت لِشُرَّابها عادة ... فليست تضرُّ ولا تنفعُ

والشيخ علي بن محمد بن عراق الصوفي أشهر شرب قهوة البن بدمشق فاقتدى به الناس وكثرت حوانيتها فيها من بعده، وذلك بالرغم من أنّ والده كان ينكرها إنكاراً شديداً وخرّب بيتها بمكةَ المكرّمة(١٣٤). والشاعر محمد ماماي الرومي قال على لسان قهوة البن: إن ذكرها شاع فوصل الصين(١٣٥)، وبلغ شيوع قهوة البن حدّ أنها كانت تقدم على ولائم الحكام، واستخدمت من قبل إبراهيم باشا والي مصر سنة ١٠١٣/ ١٦٠٤، وسيلة لقتل الشيخ الصوفي زين العابدين بن محمد البكري الصديقي، من خلال وضع السمِّ فيها(١٣٦).

ومن باب رياضة الذهن والتسلية استخدم اسمها في الألغاز الشعرية، فهذا الشاعر مصطفى

بن الضمدي اليمني يكتب مقطوعة شعرية يلغِّزُ فيها إلى القهوة ويرسلها إلى صديقه صلاح بن أحمد الشرفي، فيقول(١٣٧):

وجــاريــةٍ ســوداءَ إن هــيَ أَسْفـرَت ... يـقـبِّـلُـهـا أهـلُ المروءةِ والـنُّـهـى

إذا ما اشْتَهـى ظـلـمَ الحبيبةِ عـاشـقٌ ... فمجموعُها ظُلمٌ لعمريَ مُشْتَهى

إذا بـردَتْ أحشـاؤهـا طـال مكـثُـهـا ... وإن أصبحت محمومة طابَ صبُّها

وإن ذكـرَ الأحـبـابُ طيبَ أصـولِـهـم ... ليفْتَخِروا فالرَّشْقُ بالقلبِ أَصْلُها

وإن سُقيتْ من خالصِ المَحْضِ شربـة ... تَسارعَ فيها الشَّيْبُ وابيَضَّ جِسْمُها

٢- أدوات شرب قهوة البن

كان من نتيجة شيوع شرب القهوة بين عامة الناس وخاصتهم أن تنوّعت أدوات شربها، وقد ظهر لي وجود ثلاثة أنواع من الأدوات التي كانت تشرب بها وهي:

أ. أدوات يشرب بها خاصة الناس من الأثرياء والأمراء وأهل الحكم، وهي الصيني. قال الجزيري: " وقد يشربها في الصيني أهل الجِدَة "(١٣٨). وقال أحمد بن عبد المعطي شعراً(١٣٩):

لـلّــه محكــم قـهــوة تجلّـى لـنــا ... في أبيضِ الصينـيّ طابَ شرابُـها

ب. أدوات يشرب بها عامة الناس، وهي السكارج من الفخّار، قال الجزيري: " فإن القهوة في الغالب إنّما تشربُ في سكارج الفخّار "(١٤٠).

ج. أدوات عامة لم أستطع تحديد من يشرب بها، وهي الكؤوس والدّن(١٤١)، كما كانت توضع في أوعية خاصة كبيرة، وهي الماجور المصنوع من الفخار الأحمر، وكانت الصوفية تستخدمه لحفظ القهوة في مجالسها، وتغترف منه ليسقى أعضاء المجالس بالكؤوس أو السكارج الصغيرة(١٤٢). والأباريق الخاصة، وكان بعض الناس يضع قهوة البن فيها ويحملها معه في رحلاته الطويلة أو القصيرة كي يشربها وقتما يريد ويبدو أن ذلك كان جراء التعلق بها والإدمان عليها(١٤٣). كما كانت تشرب في وعاء يسمى بالزبادي، قال بعض الأولياء(١٤٤):

مـا عـرَفَ الحـَقَّ سِوى عــاقــلٍ ... يـشـربُ منْ وسطِ الـزَّبـادي زِبـادِ

وقال محمد ماماي الرومي الإنقشاري(١٤٥):

لونُها قدْ حكى أذايبُ مِسْكٍ　　　أو زبادٍ وسط الزّباد الجليّهْ

كما استخدمت الفناجين البيضاء الصينية أداة لشربها وقد تغزّل بها الشعراء كثيراً، وشبّهوها بسوادها في الفناجين البيضاء ببؤبؤ العين الأسود وسط بياضها، قال نجم الدين الغزّي(١٤٦):

إشْرَبْ منَ القهوةِ صاعَيْنِ　　　ولو ببذلِ الوُرْقِ والعَيْنِ

سوداء في بيض فناجينها　　　كأنها الإنسانُ منَ العينِ

٣- ما يمزج بقهوة البن

بالرغم من أن بعض من حرّم قهوة البن لجأ إلى تحريمها بحجة أنها تخلط بالمحرمات والمسكرات، إلا أنَّ من أحلّها وحثّ على شربها نفى أن تكون صالحة لأي شيء من المحرمات لأنها لا تقبله، بل يمزج معها القُرنفل والهال والمسك والصَّندل. قال أبو الفتح المالكي المغربي في ذلك شعراً(١٤٧):

مع أنهم ما وضَعوا قطُّ بها　　　محرّماً أصلاً فكُن مُنْتَبِها

إذ هيَ لا تقبلُهُ بحالٍ　　　فمزجُهُ بها من المحال

وإنّما تقبل كالقُرنْفُل　　　والهالُ والمسكُ وبعضُ الصندل

وما سوى ذاكَ فهو أجنبي　　　منها فَسَلْ كلَّ فتى مجرّبِ

ومثله قول الحريري مفتي حماة(١٤٨):

هاتِها قهوةً خلاصةَ بُنٍّ　　　مُرَّةَ الذَّوقِ تدفعُ النّومَ عنّي

واسْقِنيْها بالهالِ يَعْبِقُ منها　　　طيبةً فوقَ طِيْبِها وادْنُ منّي

كما كان يضاف إليها العود فيعطيها رائحة طيّبة، قال حسين الجزري الحلبي(١٤٩):

اسقني قهوةَ بُنٍّ　　　وامزجْ القهوةَ عُودا

فهيَ للصفراءِ والبلغـ　　　ـمِ تمحو وهي سودا

وقال محمد ماماي الرومي الإنقشاري(١٥٠):

أنا المعشوقة السّمرا أُجلّى في الفناجينِ
وعودُ الهندِ لي عِطْرٌ وذكْرِي شاعَ في الصِّيْنِ

وكان كثير ممن يشربونها يداومون على شربها ويعتادون عليها اعتياد آكل الأفيون له، وقد سُمِّي هؤلاء باسم "خُرَام" (١٥١)، وروى الجزيري أن أحمد بن عمر المُزَجِّد كان يشربها دائماً ولا يتركها أبداً، وفي مرض موته عجز عن تناول الطعام، وكان لا يقبل إلا القهوة الممزوجة باللّبن الحليب(١٥٢).

كما كان بعض الناس يفضل أن يشربها بإضافة الثلج إليها وبخاصة في فصل الصيف، قال الأديب أحمد بن شاهين القبرصي الدمشقي(١٥٣):

غنيتْ بالثّلجِ عن سَوداء حالكة من قهوةٍ لم تكنْ في الأَعْصُرِ الأُوَلِ
وقلتُ لما غدا خِلّي يُعنِّفُني (في طَلْعةِ الشّمسِ ما يُغْنيك عن زُحَلِ) (١٥٤)

٤- بيوت قهوة البن

بعد شيوع شرب قهوة البن بين الناس في مختلف البلدان الإسلامية، أُقيمت لشربها بيوت خاصة عرفت باسم بيوت القهوة، تعاطى فيها الناس القهوة جهراً(١٥٥). وقد سميت في بعض الأحيان باسم الخمّارة لأن الناس كانوا يجتمعون على شربها اجتماعهم على شرب الخمر(١٥٦). كما أطلق بعضهم على أماكن شربها اسم حانات اللهو، لأنها كانت تخلط بالمحرّمات، وتُدار على شاربيها كما تدار المسكرات، ويرافق شربها غيبة ونميمة وقذف المحصنات، واختلاق الكذب والإشاعات(١٥٧). كما أطلق عليها أهل الشام اسم بيوت المعرفة، لأنها كانت تجذب إليها الأدباء والعلماء(١٥٨).

وإضافة إلى شربها في الأماكن العامة تلك، فقد شربت قهوة البن في مجالس الصوفية(١٥٩)، وفي المساجد والزوايا والربط، ومنها: الحرمين الشريفين في مكة والمدينة والجامع الأزهر(١٦٠)، وفي بيوت الناس، عامتهم وخاصتهم(١٦١)، وعلى الطرقات العامة(١٦٢).

وبذلك فقد شربها عموم الناس من الرجال والنساء والأمراء والأرقاء والشيوخ والشبّان والكهول والأطفال، وصارت في غاية الشهرة في بلاد اليمن والحرمين والأقطار المصرية

والشاميّة والرومية وغير ذلك من البلاد(١٦٣).

ولا شك في أن ظهور بيوت القهوة في دمشق وغيرها من المدن في بلاد الشام وأنحاء العالم الإسلامي المختلفة في ذلك الوقت يدل على أحد أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي، إذ بالرغم من الاختلاف حول تحليلها أم تحريمها(١٦٤) وجدت لها بيوت عامة سميت باسمها. وكانت لها مميزات محددة، وتمارس فيها ممارسات عديدة، بعضها مقبول وبعضها الآخر مرفوض، وهذا انعكس على نظرة الناس لتلك البيوت ومدى تقبلهم لها.

ومن خلال تتبعي لما كان يجري في بيوت قهوة البن يمكن ملاحظة ما يأتي:

أ. أنها كانت تفتح أبوابها منذ الصباح الباكر وحتى ساعات متأخرة من الليل بل ربما كان بعض روّادها يبيتون فيها لكثرة مكوثهم فيها، فالشاعر الفقيه أحمد العناياتي النابلسي كان يذهب إلى بيت القهوة في دمشق بعد صلاة الفجر فيشرب أقداحاً عدة ليهيئ نفسه للكتابة شعراً ونثراً(١٦٥)، قال المحبي: " وكان في الغالب يقضي أوقاته في بيوت القهوة وربّما كان يبيت هناك " (١٦٦). والصوفية كانوا يشربونها لاعانتهم على السهر في مجالس العبادة والذكر، والخاصة والعامة كانوا يشربونها في الموالد والولائم(١٦٧).

ب. أنها كانت تشرب في جماعات من الناس وفي محافل عامة(١٦٨).

ج. كان أصحاب بيوت القهوة يهتمون بتوفير أجواء لطيفة لروّادها، كي يستريحوا فيها من عناء الدنيا وهمومها، ويتمكّنوا من الكتابة والإبداع والتفكير السليم(١٦٩)، ومن الأشياء التي اهتمّوا بتوفيرها في بيوت القهوة: الماء الجاري على شكل جداول أو نوافير، والساقي المليح وجهاً وعوداً، قال البوريني: " يكون فيه (بيت القهوة) الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة " (١٧٠).

د. كان يعمل في بيوت القهوة بعض الموسيقيين بهدف ادخال الطرب والسرور إلى نفوس روّادها، فقد ذكر النجم الغزي: أن مصطفى بن تنكز أستاذ الموسيقى والألحان في القرن الحادي عشر / السابع عشر عمل في قهوات دمشق ليلاً ونهاراً، وكان حسن الصوت، ما يعني أنه كان ملحناً ومغنياً(١٧١).

هـ. كان يؤم بيوت القهوة مجموعات متنوعة من الناس، فيدخلها الأدباء والعلماء وأهل العلم كما يدخلها السفهاء وسقط الناس(١٧٢).

و . كان لشربها في بيوت القهوة طقوس متنوعة منها :

١ . أن الصوفية كانوا يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر ، ويغترف منها النقيب بسكرجة صغيرة ، ويسقي أتباعه الأيمن فالأيمن مع استمرار ذكرهم المعتاد وهو (لا إله إلا الله الملك الحق المبين)(١٧٣) . كما كانوا يشربونها في خلواتهم أيام الشتاء عندما يصومون ثلاثة أيام متتالية وبعد الإفطار لا يشربون الماء بل القهوة ويستمرون في الذكر والعبادة آناء الليل وأطراف النهار (١٧٤) .

٢ . كان بعض الناس يضعونها في آنية خاصة ، ويحضرون آلات شربها ويتكلمون عليها بما يُتكلم على الخمر ويديرونها كما تدار الخمر مع حضور النساء والمرد من الغلمان(١٧٥) .

٣ . كانت تشرب في حانات لهو حيث تخلط بالمحرّمات وتدار كالمسكرات ويرافق شربها الغيبة والنميمة وقذف المحصنات واختلاق الكذب والإشاعات . كما كان يغنى عليها بآلة ، ويرقص الحاضرون(١٧٦) .

٤ . كانت تعمل في المحافل العامة التي يجتمع فيها القضاة وغيرهم من كبار القوم ، وذوي المناصب ، ولا يعمل مولد أو وليمة عامة ليلاً أو نهاراً في مسجد أو بيت أو رباط أو غيره من غير قهوة إلا نادراً(١٧٧) .

٥ . كان بعض الناس يشربها وهو يلعب النرد ، فقد ذكر المحبي في ترجمته للشاعر عبد الحي بن أبي بكر المعروف بطرز الريحان الدمشقي ، أنه كان يهوى غلاماً فمرّ عليه وهو يلعب النرد في أحد بيوت القهوة بدمشق فلم يكترث به الغلام فقال في ذلك (١٧٨) :

حَقّـَرَتْ هـنـدٌ ذمـَّـتـي واستعاضَت عن صُروح الـريـاضِ بالـعـفـريـتِ

وتـلاهَـتْ بـالـنّـرد فـي ذلـك الـمجـ ـلس خـوفَ اتّـهـامـهـا بـالـسُّكـوتِ

٦ . كانت تباع في مكة المكرمة عام ٩١٧/ ١٥١١ ، في أماكن على هيئة الخمارات ، ويجتمع عليه الناس من رجال ونساء بدفّ ورباب وغير ذلك من آلات الملاهي ، ويجتمع في الأماكن التي يباع فيها من يلعب بالشطرنج والمنقلة وغير ذلك بالرّهن وغيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهّرة(١٧٩) .

وقد دفعت الأحوال المنكرة التي كانت تشرب فيها قهوة البن في بعض بيوت القهوة ،

بعض الشعراء إلى أن يحذّروا الناس من دخولها، قال الشيخ محمد العلمي المقدسي في ذلك(١٨٠):

واحـذَرْ دخـولكَ للـقـهـوات إنَّ بـهـا — جُلَّ الفَواحشِ معْ كذبٍ وغَيْباتِ

كَـمْ قهوةٍ أصـبحـت للـهـو جـامـعـةً — وكَمْ بـلايـا بـهـا لأَهْـلِ الـدِّيـانـاتِ

كـمـحـنـةٍ شغلـتهـم عـن بيـوتـهـم — وعـن صـلاةٍ وأوْرادٍ وطـاعـاتِ

وقد أدى انتشار القهوة إلى أن يهتم بها الولاة العثمانيون في دمشق بحيث بنوا لها أسواقاً في المدن الكبيرة، إذ عمّر الأمير محمد بن منجك سوق القهوة في دمشق سنة ٩٩٥/ ١٥٨٦(١٧١)، كما أوقف مراد باشا الثاني الذي تولى دمشق عام ١٠٠٣/ ١٥٩٤ سوق القهوة في دمشق على الحرمين الشريفين(١٨٢)، وعمّر درويش باشا بن رستم باشا والي دمشق سنة ٩٨١/ ١٥٧٣، سوق الجوخ والقهوة بدمشق ووقفهما على الجامع الذي بناه وسمّاه باسمه(١٨٣).

٥- مجالس شرب قهوة البن

بعد أن شاع شرب قهوة البن أقيمت مجالس خاصة لشربها في بيوت الخاصة، وفي المتنزّهات، وفي مجالس الذكر الخاصة بالصوفية، وذلك بعد أن تمّ تجاوز إدعاء من قالوا بحرمتها لأنها تدار في مجالس شربها كما تدار الخمر، قال أبو الفتح المالكي من قصيدة طويلة قالها في الإفتاء بحلّ القهوة وردّ الإدعاءات حول حرمتها(١٨٤):

فـمـن يـقـولُ إنّهـا تـُـدارُ — كمـا يـدارُ الخـمـرُ والـعـقـارُ

فقلْ أخـي لقد حكمتَ بالـهَـوى — وإنّـمـا لـكـلِّ عـبـد مـا نَـوى

وهـيـئـةُ المجلـس لا تُعْـتَـبَـر — إذا لم يـزلْ فيها يدار الشُّكر

وغيـرهُ مـن لـبن ومـن عـسـل — بـين ذويـه علّلا بـعـد نـهـل

لا سيما والمصطفى بادي السَّنا — مـا بـين صحـبـه أدارَ الَّـلـبـنـا

ولكنّه يحرّم هيئة الشرب المماثلة لهيئة شارب الخمر الذي يحرّك رأسه وكفّه تمايلاً في أثناء الشرب، قال:

من هيئةٍ تنشأُ فـي التَّشـبيه	بشـاربِ الخُمور عن تمويـه
كواضعٍ في الكاس ماءً صَرْفا	مُـحـرِّكـاً رأسـاً لـهُ وكَـفَّـا

وكان مفتي الدولة العثمانية المولى أبو السعود سئل عن شرب القهوة فقال إنها حلال، لكنّه عقّب: " وأما اجتماع الفسقة على إدارتها على الملاهي والملاعب وعلى الغيبة والنميمة فإنه حرام بلا شك "(١٨٥).

وبناء على ذلك، فإن النجم الغزّي وبعدما أفتى بحلّ قهوة البن في ذاتها رداً على من سأله الفتوى، وقال يحذّر من شربها في مجلس تدار فيه كما تدار الخمرة، ويصحب شربها المنكرات من غلمان ومعازف ولعب نرد، ولغو يقود إلى فقدان الرشاد والتقوى وإضاعة الصلاة(١٨٦):

غيرَ أنَّ الذي يجـيء بـيـوتـاً	هـي فـيـهـا تـدارُ عـادم نـخـوه
إذ يرى المردَ والمعازفَ والنَّردَ	وكـلٌّ يـلـهـو فـيـتـبـعُ لَـهـوَهَ
ثـمَّ لـم يقْـوَ أنْ يغيِّرَ نـكـراً	خـشـيـةَ أنْ يُـعَـدَّ ذلـكَ هـفَـوَه
أو يجيبوهُ بالإهـانةِ والسوءِ	ويـجـفـونـه بـأعـظـمِ جَـفْـوه
أو يخلـي شيطـانَـه لهـواهُ	لهوه في تلك البيوت ولغوه
معرضـاً عن رشـاده وتُقـاه	ساليـاً عن صلاتـهِ أيّ سلْوَه
كـل هـذا مخـالـف لطـريـقٍ	خطة المصطفى وعرّج نحوه

ثمّ حثّ على شربها في البيت بعيداً عن مجالس السوء تلك، فقال:

وإذا شئتَ شربَ قهوةِ بـُنٍّ	حسوةً قد أردتَ أو ألفَ حسوه
فليكـنْ ذاكَ وسطَ بيتكَ مهما	لم تَشُبْ صَفْوها بموجب صبوه
واذكـرِ اللـهَ أوّلاً وأخيـراً	وتـوثّـق مـنـه بـأوثـق عُـروه

لكن الصوفية وغيرهم من الشعراء الملتزمين حثّوا على شربها في مجالس خاصة بها، وفي بيوت أقيمت لشربها سمّوها باسم الحانات، وقد حدّدوا شربها بما يتفق والشريعة الإسلامية، فهذا زين العابدين بن محمد بن علي البكري الصديقي، يحث على شرب القهوة في حانة تِشبه الجنة في بسطة عيشها ورقته وصحبته(١٨٧):

إنْ تشرب القهوةَ في حانِهـا	فاللّطفُ قد حَفَّ بنُدمانـها
حانٌ حكى الجنةَ في بسطها	بـرقَّـةِ الـعـيـش وإخـوانِـهـا
لا هـمَّ يبـقـى ولا غــمَّ إذا	قابلـكَ السّاقي بـفـنـجـانـها
قريبـة العهـد بِعَـدْنٍ فـإن	شكَكْتَ فانظر حُسْنَ ولْدانـها
لا يـوجـدُ الـغـمُّ بحاناتهـا	قدْ خضـعَ الغـمُّ لسلطـانـهـا

وهذا الجزيري يحث على شربها في الحانات الصوفية، حيث يلهج رُوَّادها بذكر الله في مجلس تسوده المسرَّة، وتملأه رائحة البخور والريحان، ويطلب فيه زوال النقم، ويحذّر من شربها مع التلهي بالمجون والمنكر، قال(١٨٨):

وادْخلْ لحاناتها واشربْ وكُنْ لهجـاً	بالذكرِ فهي طريقُ الصَّادقِ الفَهِمِ
واسْتَحْلِ في حانها واغنم مسرّتـهـا	في مجلسٍ صادقٍ لله ذي الكرمِ
مـع البخـورِ أو الرَّيحـان فـي مـلأ	تدفعُ بدعوتهم ما خفت من نقمِ
ولا تكُنْ بحـديثِ اللَّـهـوِ مشـتَغِـلاً	ففي البطالةِ أنواعٌ من الوصمِ

أما الفقيه محمد بن شرف اليمني فيحث على ارتياد حاناتها، التي هي مجلس للذكر الجميل، وأن لا يستمع من يرتادها إلى كلام اللائمين، قال(١٨٩):

حاناتُهـا مجلـسٌ للذّاكـريـنَ فـكـم	تلقى لأصواتهم في حانها زَجَلا
فانهض إلـى حانِـهـا لا تنثنـي أبـداً	ولا يصدَّنكَ عنها عذلُ من عَذلا

ويسير على الخطى نفسها الشيخ الشاعر عبد اللطيف بن سليمان باكثير، فهو في وصفه لمجلس شرب قهوة البن يحدّد الطريقة الفضلى للشرب، وهي أن تكون سخنة وأن يذكر الله ويقرأ سورة الفاتحة، ثم بعد ذلك لا ضير في ما يمكن عمله، فبالإمكان التَّصفيق والغناء أو الإفتاء والدراسة أو استحضار كل ما يدعو إلى إضفاء الحسن والجمال على المجلس، ومنه الساقي متمايل القدِّ. وينتقد أهل الشام على مغالاتهم في

نعتها، قال(١٩٠):

وأَدِرْها علـى دُرَى الـفَـنِ	سُـخْـنَـةَ المـلـمـسِ

قُـلْ لمـن شُرْبُـهـا ملّـة	ويصيبُ الصّواب
فاجتلي كاسها على اسم الله	واتلُ أم الكتاب
ثـمّ صـلِّ علـى رسـول اللـه	واجتليها ثُثاب
ثـمّ صفّق إن شئت أو غَـنِّ	واقْـتِ أو أدرس
واتْبعْ ما دعـا إلـى الحسن	واجتلب مائسِ
لـم أرَ قـطّ عاطفاً عاكفاً	وحظي بالمرام
وتغالى في نعتها الواصف	غير أهل الشّام

وقد وصف عدد من الشعراء الساقي في مجلس قهوة البن وأضفى عليه الصفات نفسها ـ تقريباً ـ التي وصف بها ساقي الخمر، والصفات التي كان الشعراء يضفونها على معشوقيهم من الغلمان المرد الذين كانوا يعملون في الأماكن العامة ومنها بيوت قهوة البن أو من كان يعمل لدى أسيادهم من الحكام والعلماء.

قال أبو المواهب البكري الصديقي في وصف مجلس لشرب قهوة البن في حانة(١٩١):

وقَهوةٍ تنضحُ مسكاً ولا	بدعَ ففي الفنجان شكلُ الغزالْ
حُبابها مـنْ فوقِها مانـع	نِفارُهُ فهو شباكُ اللآلْ
تُديرها هيفاءُ ممشوقةٌ	خُودٌ تثنّت في برودِ الدّلالْ
كادَ حجى من أقبلت نحوَهُ	يذهبُ من رنّات تلك الحجالْ
بعـرَّةٍ أو طـرّةٍ وزَّعت	أفكاراً بين الهُدى والضَّلالْ
تقولُ للشَّمْسِ وقد أقبلت	تلثَّمي ما أنتِ إلاّ خيالْ

فالساقي غزال تنعكس صورته في الفنجان، ويتولى حباب القهوة مهمة حبسه داخل الفنجان، وهو كالفتاة ممشوقة القدّ تتثنى في ثيابها دلالاً، ورنّات حجاله تكاد تذهب عقل الزبون، وهو بغرّته الجميلة يدخل الشك في نفسه فيتوزع عقله بين الدعوة للضلال والهدى، وهو مشرق الوجه يسبي عقل الزبون فلا يلتفت للشمس وقت اشراقتها التي يَدعوها للتلثم في حضرة الساقي. وقد ركّز عدد من الشعراء في وصفهم الساقي على إظهارهم لجمال الوجه وإشراقه، ومنهم محمد ماماي الرومي والشهاب الخفاجي(١٩٢).

وقال أبو بكر بن أبي كثير يصف مجلساً آخر لشرب قهوة البن، تدار فيه كما تدار الخمرة، فتبتهج النفس، ويتولى إدارة القهوة وسقايتها ليلاً فتى صاحب قدٍّ جميل نور وجهه كنور الشمس، ووجهه البدر، ويحيي المجلس مغنون وضاربو دفوف وزمّارون (١٩٣):

يا مديرَ القهوة البن بهجة الأنفس
أمِنَ القدِّ أم من الدِّن جدتَ بالأكؤوسْ
قد جمعتَ الشموسَ والأقمار تحتَ ليل بهيم
والمغني والدّف والمزمار والسِّرُ والمقيم

وقال أبو الفتح المالكي يصف مجلساً آخر قام وسط الطبيعة الغناء وقت الربيع فيه ساق جميل وزهور وطيور زادت المجلس جمالاً(١٩٤):

واسْقِنيها في الورد والريحان في زمان الربيعْ
مع غزالٍ بحسنه الفتّان للبرايا يُريعْ
قد زها زهر قدّه عن شان بالجمالِ البديعْ
ناعس الطرّفِ حبه فني لا ظبا الكنسْ
ساحرٌ باللحاظ والجفن فهي كالخنّسْ
وترنّم لنغمة القمري واجتليها عيانْ
بين زهر الرِّياض والزهر وسنا الأقحوانْ

فهو يفضل شربها في فصل الربيع بين الورود والرياحين، مع ساق جميل يريع الناس بحسنه، ويزهو على الزهر بقدِّه، ناعس العينين، ساحر اللحظ، جفنه كجفن الظبي، ومع غناء طيور القمري وهي تنتقل بين زهور الرياض.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة استطيع القول أن ظهور قهوة البن في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، قد أدى إلى إثارة جدل في المجتمعات الإسلامية حولها من حيث التحليل والتحريم. وكما تدخّل الفقهاء في الأمر، فقد تدخّل الشعراء فيه، وانقسموا إلى قسمين: الأول، مؤيد لقهوة البن، أخذ يحث على شربها ويبين فوائدها المختلفة، وفي أثناء ذلك تحدّث عن أول ظهورها، وأنواعها، وطرق صنعها، وأدوات شربها. والثاني: معارض لقهوة البن، أخذ يحذّر من الإقبال عليها، ويبين مضارها، وأوجه حرمتها.

تدخّل الشعراء في الجدل حول قهوة البن أدى إلى ظهور موضوع قول جديد لهم في هذا العصر، ما أدى إلى ظهور فن شعري جديد ومتكامل، هو شعر قهوة البن. وهذا يدلّ على قدرة الشعراء ليس فقط على التعبير عمّا كان يحدث في المجتمع من قضايا اجتماعيّة ودينيّة، لا بل والإسهام في إشاعة هذه القضايا أو القضاء عليها.

الهوامش والتعليقات

(١) الحسن البوريني، تراجم الأعيان، ١/ ٩٣ .
(٢) م . ن، ٢/ ٢٥٣ .
(٣) أنظر : م . ن، ٢/ ٢٥٣-٢٥٥ .
(٤) أنظر : نعيم الحمصي، نحو فهم جديد، ٢/ ١٤٧ .
(٥) أنظر : م . ن، ٢/ ١٥٦-١٥٩ .
(٦) أنظر : ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ١٦١-١٦٢ .
(٧) أنظر : ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربي، ص ٢٠٠-٢٠١ .
(٨) أنظر : ابن منظور، اللسان، مادة قها ؛ والفيروز أبادي، القاموس المحيط، ٤/ ٣٨٤ .
(٩) الوليد بن يزيد، الديوان، ص ١٧ ؛ وأنظر : الأصفهاني، الأغاني، ٦/ ١١٠ , و٨/ ٧٩ , و٢٠/ ١٨٠ .
(١٠) أبو نواس، الديوان، ١/ ٣٣، وأنظر أيضاً، ١/ ٧٥ , ٧٩ , ٨١ , ٨٣، وغيرها كثير .
(١١) مسلم بن الوليد، الديوان، ص ٣٥-٣٦ .
(١٢) أنظر : الجزيري، عمدة الصفوة، ص ٣٩-٤٢ و ٩٣-٩٥ .
(١٣) م . ن . ، ص ٤٧ .
(١٤) أنظر : موجز الموسوعة الإسلامية، ٢٧/ ٨٣٩٢ .
(١٥) الجزيري، م . س، ص ٤٧ .
(١٦) أنظر : القاسمي، رسالة ، ص ١٥ ؛ موجز الموسوعة الإسلامية، ٢٧/ ٨٣٩١ .
(١٧) مخا : موضع باليمن بين زبيد وعدن بساحل البحر . أنظر : ياقوت، معجم البلدان، ٥/ ٦٧ .
(١٨) القاسمي، م . س، ص ١٥ ؛ موجز الموسوعة الإسلامية، ٢/ ٨٣٩٢ .
(١٩) أنظر : م . ن . ، ٢٧/ ٨٣٩٢ .
(٢٠) أنظر : الجزيري، م . س . ، ص ٦٧ .
(٢١) أنظر : النجم الغزّي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٢٦ .
(٢٢) أنظر : الجزيري، م . س . ، ص ٤٩-٥٠ .
(٢٣) أنظر : النجم الغزي، م . س . ، ٢/ ١٩٧ .
(٢٤) أنظر : ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ١٦٢ .
(٢٥) أنظر : الجزيري، م . س . ، ص ٤٨-٤٩ .
(٢٦) أنظر : النجم الغزي، م . س . ، ٢/ ١٢٦ ؛ ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ١٦٢ .
(٢٧) النجم الغزي، م . س . ، ٢/ ١٢٦ .
(٢٨) أنظر : النجم الغزي، م . س . ، ٢/ ١٢ .
(٢٩) أنظر : ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري، ص ١٦٢ .
(٣٠) أنظر : القاسمي، م . س . ، ص ١٥ .
(٣١) الجزيري، م . س . ، ص ٤٥-٤٦ .
(٣٢) الجزيري، م . س . ، ص ٤٦ .

(٣٣) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٤٧.
(٣٤) الجزيري، م.س.، ص ٤٧.
(٣٥) الجزيري، م.س.، ص ٤٧-٤٨.
(٣٦) أنظر: عبد الله الحبشي، مقدمة عمدة الصفوة، ص ٦.
(٣٧) الجزيري، م.س.، ص ٤٨.
(٣٨) عبد الله الحبشي، مقدمة عمدة الصفوة، ص ٦-٧.
(٣٩) النجم الغزّي، م.س.، ١/ ١١٤.
(٤٠) النجم الغزي، م.س.، ١/ ١١٤.
(٤١) الجزيري، م.س.، ص ١٧٦؛ النجم الغزي، م.س.، ٢/ ١٧٩.
(٤٢) القاسمي، م.س.، ص ٢٣-٢٤.
(٤٣) النجم الغزي، م.س.، ٢/ ١٩٨-١٩٩؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٠.
(٤٤) الجزيري، م.س.، ص ٤٧-٤٨.
(٤٥) أنظر: عبد الله الحبشي، مقدمة عمدة الصفوة، ص ٦.
(٤٦) الجزيري، م.س.، ص ٥١
(٤٧) الجزيري، م.س.، ص ٥٢.
(٤٨) الجزيري، م.س.، ص ٥٢.
(٤٩) الجزيري، م.س.، ص٥٥.
(٥٠) الجزيري، م.س.، ص٦٩.
(٥١) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٥٢؛ النجم الغزي، م.س.، ١/ ٥٩.
(٥٢) الجزيري، م.س.، ص ٥٤.
(٥٣) الدفتردار: موظف يعنى بحساب ومصروفات الدولة العثمانية في الولاية، وتقابل في عصرنا مأمور المالية أو مدير القسم المالي، وهو يرأس الدفتردارية التي هي دائرة الشؤون المالية في ولاية الشام.
أنظر: عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر، ص ٦٨؛ العرب والعثمانيون، ص ٤٦.
الأغوات: مفردها آغا، وتعني رئيس الجند أو ضابط الجند. أنظر: ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربي، ص ١٧٢-١٧٥.
(٥٤) النجم الغزي: م.س.، ٣/ ٥٨.
(٥٥) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٥٨.
(٥٦) النجم الغزي، م.س.، ٢/ ١٣.
(٥٧) النجم الغزي، م.س.، ٢/ ٣٩-٤٠.
(٥٨) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ١٨٥.
(٥٩) البرش: تركيب مخدر كالأفيون، يسبب لآكله ضيقاً وأضراراً كبيرة، ويتوجب عليه المداومة على أكله، ويتكلف كلفة كبيرة حتى يستطيع تركه. أنظر: البوريني، م.س.، ١/ ٧٤.
(٦٠) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٣٥-٣٦ و ١٩٦.
(٦١) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ١٩٦.
(٦٢) القاسمي، م.س.، ص ٢١.
(٦٣) الجزيري، م.س.، ص ١٥٠-١٥١؛ القاسمي، م.س.، ص ٢١.

(٦٤) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ٩٦.
(٦٥) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١٢٤.
(٦٦) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١٣١.
(٦٧) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١١٩.
(٦٨) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١١٩.
(٦٩) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ٤٣.
(٧٠) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ٤٣.
(٧١) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ٦٩, ٧٤-٧٥, ٨٧-٩٩.
(٧٢) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ٦٩.
(٧٣) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٣٥.
(٧٤) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٣٦.
(٧٥) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٢٥ ؛ العيدروسي، النور السافر، ص ١٧٨ ، وفيه ورد البيت الأول هكذا: (هـذه القهـوة هـذه ليست المنهـيٌّ عنهـــا) ؛ القاسمي، م.س.، ص٢٢.
(٧٦) النجم الغزي، م.س.، ٢/ ١٨٠.
(٧٧) العيدروسي، م.س.، ص ٣٨٥ ؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٦.
(٧٨) الجزيري، م.س.، ص ١٥٠.
(٧٩) البوريني، م.س.، ١/ ٢٣٥.
(٨٠) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٢٥ ؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٢.
(٨١) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٤١.
(٨٢) النجم الغزي، م.س.، ٣/ ٩٢، القاسمي، م.س.، ص ٣٠.
(٨٣) القاسمي، م.س.، ص ٢١.
(٨٤) النجم الغزي، لطف السمر، ٢/ ٥٥١ ؛ المحبي، خلاصة الأثر، ٢/ ١٩٧.
(٨٥) النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٣/ ٣٦ ؛ القاسمي، م.س.، ص ١٩.
(٨٦) أنظر : النجم الغزي، الكواكب السائرة، ١/ ١١٤ , ٢/ ١٩٨-١٩٩ , ٣/ ٣٥-٣٦ ؛ العيدروسي، م.س.، ص ١٧٦ ؛ القاسمي، م.س.، ص ١٩-٢١.
(٨٧) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١٤٤.
(٨٨) أنظر : الجزيري، م.س.، ص ١٤٥.
(٨٩) الجزيري، م.س.، ص ١٥١-١٥٢.
(٩٠) الجزيري، م.س.، ص ١٥٧.
(٩١) الجزيري، م.س.، ص ١٥٨.
(٩٢) الجزيري، م.س.، ص ١٧٢.
(٩٣) الجزيري، م.س.، ص ١٧٤.
(٩٤) الجزيري، م.س.، ص ١٦٥.
(٩٥) الجزيري، م.س.، ص ١٦٩.
(٩٦) العيدروسي، م.س.، ص ٣٨٥.
(٩٧) العيدروسي، م.س.، ص ٢٣٩-٢٤٠..

(٩٨) في العيدروسي، م.س.، ص٢٣٩: بشربها، وبها لا يستقيم وزن البيت، والمثبت اجتهاداً مني لإقامة الوزن.
(٩٩) الجزيري، م.س.، ص ١٧٥؛ النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٨٠.
(١٠٠) الجزيري، م.س.، ص ١٦٠-١٦١.
(١٠١) الجزيري، م.س.، ص ١٧٥؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٥.
(١٠٢) الجزيري، م.س.، ص ١٧١.
(١٠٣) الجزيري، م.س.، ص١٦٥-١٧٤.
(١٠٤) الجزيري، م.س.، ص ١٦٤.
(١٠٥) الجزيري، م.س.، ص١٧٦.
(١٠٦) الجزيري، م.س.، ص١٧٢.
(١٠٧) الجزيري، م.س.، ص ١٥٢-١٥٣.
(١٠٨) الجزيري، م.س.، ص ١٥٤.
(١٠٩) هنا إشارة إلى الإدعاء الثالث لتحريم القهوة وهو أنها تدار في مجالس شربها كما تدار الخمر.
(١١٠) الجزيري، م.س.، ص ١٥٣-١٥٤.
(١١١) الجزيري، م.س.، ص ٤٢-٤٤, ١٧٢.
(١١٢) الشهاب الخفاجي: م.س.، ١/ ٤١٨؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٧.
(١١٣) الجزيري، م.س.، ص ١٧٦-١٧٧.
(١١٤) القاسمي، م.س.، ص ٢٧.
(١١٥) الشهاب الخفاجي، ريحانة الألبا، ١/ ٤١٩؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٩.
(١١٦) الجزيري، م.س.، ص ١٧٢.
(١١٧) الشهاب الخفاجي، م.س.، ١/ ٤١٩.
(١١٨) أنظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ٨٦-٨٧؛ الشهاب الخفاجي، م.س.، ١/ ٤١٧؛ القاسمي، م.س.، ص٢٧.
(١١٩) النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ٨٦ و ٣/ ٩٢.
(١٢٠) م.ن.، ٢/ ٨٦-٨٧.
(١٢١) الشهاب الخفاجي، م.س.، ١/ ٤١٧؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٩.
(١٢٢) العيدروسي، م.س.، ص ٣٣١؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٩.
(١٢٣) الشهاب الخفاجي، م.س.، ٢/ ٢٢٦، ومثله أبيات للخفاجي.
(١٢٤) العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٥.
(١٢٥) العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٤.
(١٢٦) العيدروسي، م.س.، ص ١٧٨.
(١٢٧) العيدروسي، م.س.، ص ٣٢٩.
(١٢٨) القاسمي، م.س.، ص ٢٤.
(١٢٩) القاسمي، م.س.، ص ٣١.
(١٣٠) القاسمي، م.س.، ص ٣١.
(١٣١) القاسمي، م.س.، ص ٢٥.

(١٣٢) العيدروسي، م.س.، ص ٢٧٠.
(١٣٣) النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٣/ ١٩٢ ؛ القاسمي، م.س.، ص٣٠.
(١٣٤) أنظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٩٨.
(١٣٥) أنظر: العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٥.
(١٣٦) أنظر: المحبي، م.س.، ٢/ ١٩٨.
(١٣٧) القاسمي، م.س.، ص ٢٨.
(١٣٨) الجزيري، م.س.، ص ٦٥.
(١٣٩) الجزيري، م.س.، ص ٦٥ ؛ العيدروسي، م.س.، ص ٣٣١.
(١٤٠) الجزيري، م.س.، ص ٦٥. السكارج: مفردها سُكْرجَة واسكُرجة: وهي لفظة فارسيّة معرّبة، وهي: إناء صغير معناه مقرب الخل، وقيل: إناء صغير توضع فيه بعض الأطعمة على الموائد ؛ أنظر: الشهاب الخفاجي، شفاء الغليل، ص ١٤ ؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات، ص ٢٥٤.
(١٤١) الدّن: ما عظم من الرواقيد، وهو وعاء ضخم للخمر. أنظر: ابن منظور، اللسان، مادة دنن ؛ إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، ١/ ٢٩٨.
(١٤٢) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٤٨.
(١٤٣) أنظر: البوريني، م.س.، ٢/ ١٣٩-١٤٠ + ١٥١.
(١٤٤) الجزيري، م.س.، ص ١٧٤.
(١٤٥) العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٥.
(١٤٦) النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ٨٦-٨٧, ٣/ ١٣ ؛ الشهاب الخفاجي، م.س.، ١/ ٤١٧-٤١٩, ٢/ ٢٢٦ ؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٧.
(١٤٧) الجزيري، م.س.، ص ١٥٦-١٥٧.
(١٤٨) القاسمي، م.س.، ص ٣١.
(١٤٩) القاسمي، م.س.، ص ٢٩.
(١٥٠) العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٥.
(١٥١) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ١٤٢.
(١٥٢) الجزيري، م.س.، ص ١٣٠.
(١٥٣) القاسمي، م.س.، ص ٣١.
(١٥٤) التضمين: عجز بيت شعر للمتنبي وصدره (خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به). أنظر: العكبري، التبيان في شرح الديوان، ٣/ ٨١.
(١٥٥) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٥٢ ؛ البوريني، م.س.، ١/ ٩٣ ؛ النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٩٧ ؛ ولطف السمر، ٢/ ٦٦٣ ؛ المحبي، م.س.، ٣/ ٢٢٦, ٤/ ٢٨٧.
(١٥٦) أنظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٣-١٤.
(١٥٧) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٩٥.
(١٥٨) أنظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ٣٨.
(١٥٩) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ١٣١-١٣٢ ؛ المحبي، م.س، ١/ ٣٨٩.
(١٦٠) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٤٨-٤٩.
(١٦١) أنظر: الجزريري، م.س.، ص ٥٠.

(١٦٢) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٨٩-٩٠.
(١٦٣) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٨٨.
(١٦٤) أنظر: شفيق جبري، بيت القهوة، مجلة مجمع اللغة العربية، م٤٢ ج٣، ص ٣٧٤-٣٧٥.
(١٦٥) أنظر: البوريني، م.س.، ١/ ٩٣.
(١٦٦) المحبي، م.س.، ١/ ١٦٧.
(١٦٧) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٨٩-٩١.
(١٦٨) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٨٩-٩٠.
(١٦٩) أنظر: البوريني، م.س.، ١/ ٩٣.
(١٧٠) البوريني، م.س.، ١/ ٩٣, ٢/ ١٥١.
(١٧١) أنظر: النجم الغزي، لطف السمر، ٢/ ٦٦٣-٦٦٤.
(١٧٢) أنظر: البوريني، م.س.، ١/ ٩٣؛ النجم الغزي، م.س.، ٢/ ٦٦٣-٦٦٤.
(١٧٣) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٤٨-٤٩.
(١٧٤) أنظر: المحبي، م.س.، ١/ ٣٨٩؛ ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص ٧٥.
(١٧٥) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٥٠, ١٢٩.
(١٧٦) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٦٩, ٩٥.
(١٧٧) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٨٩-٩٠.
(١٧٨) المحبي، م.س.، ٢/ ٣٣٤-٣٣٥.
(١٧٩) أنظر: الجزيري، م.س.، ص ٦٠.
(١٨٠) القاسمي، م.س.، ص ١٤.
(١٨١) أنظر: النجم الغزي، لطف السمر، ٢/ ٧١٥.
(١٨٢) أنظر: م.ن.، ٢/ ٦٥٥؛ المحبي، م.س.، ٤/ ٣٥٦.
(١٨٣) أنظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٣/ ١٥٠-١٥١.
(١٨٤) الجزيري، م.س.، ص ١٥٤-١٥٥.
(١٨٥) النجم الغزي، الكواكب السائرة، ١/ ٣٥-٣٦.
(١٨٦) النجم الغزي، م.ن.، ٣/ ٣٦.
(١٨٧) الجزيري، م.س.، ص ١٧٥؛ المحبي، م.س.، ٢/ ١٩٧؛ القاسمي، م.س.، ص ٢٥.
(١٨٨) الجزيري، م.س.، ص١٧٥.
(١٨٩) الجزيري، م.س.، ص ١٨٨.
(١٩٠) الجزيري، م.س.، ص ١٧٧؛ النجم الغزي، الكواكب السائرة، ٢/ ١٨٠.
(١٩١) القاسمي، م.س.، ص ٢٧.
(١٩٢) أنظر: العيدروسي، م.س.، ص ٢٦٤؛ الشهاب الخفاجي، م.س.، ٢/ ٢٢٦؛ القاسمي، م.س.، ص ١٦.
(١٩٣) الجزيري، م.س.، ص ١٦٠.
(١٩٤) الجزيري، م.س.، ص ١٥٩.

قائمة المصادر والمراجع

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١/ ١٣١١)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٣٨٨/ ١٩٦٨. الأجزاء ٣, ١٣, ١٥.

(٢) ابن يزيد، الوليد (ت١٢٦/ ٧٤٤)، الديوان، تحقيق حسين عطوان، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجيل، ١٤١٨/١٩٩٨.

(٣) أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت١٩٩/ ٨١٤)، شرح الديوان، ضبط وشرح إيليا الحاوي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب العالمي، ١٩٨٧، ج١.

(٤) الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت٣٥٦/ ٩٦٦)، الأغاني، [عن طبعة بولاق الأصلية]، بيروت: دار صعب، (د.ت)، الأجزاء: ٦, ٨, ٢٠، (روائع التراث العربي).

(٥) الأنصاري، مسلم بن الوليد (ت٢٠٨/ ٨٢٣)، شرح الديوان، تحقيق سامي الدهان، مصر: دار المعارف، (د.ت). (ذخائر العرب: ٢٦).

(٦) البوريني، الحسن بن محمد (ت١٠٢٤/ ١٦١٥)، تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٥٩ و ١٩٦٣، جزءان.

(٧) الجزيري، عبد القادر بن محمد (ت٩٧٧/ ١٥٦٩)، عمدة الصفوة في حلى القهوة، تحقيق عبد الله بن محمد الحبشي، الطبعة الأولى، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٦.

(٨) الحمصي (نعيم)، نحو فهم جديد منصف لأدب الدول المتتابعة وتاريخه، اللاذقية: منشورات جامعة تشرين، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، مديرية الكتب بجامعة حلب، ١٤٠١/ ١٩٨١- ١٤٠٢/ ١٩٨٢، ج٢.

(٩) الخطيب (مصطفى)، معجم المصطلحات والألقاب التاريخيّة، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦/١٩٩٦.

(١٠) الخفّاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت١٠٦٩/١٦٥٨)،

أ. ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٦/ ١٩٦٧، جزءان.

ب. شفاء الغليل فيما في لغة العرب من الدخيل، الطبعة الأولى، القاهرة: المطبعة الوهبيّة، ١٢٨٢هـ.

(١١) رافق (عبد الكريم)،

أ. بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦/ ١٧٩٩، الطبعة الأولى، دمشق: ١٩٦٧.

ب. العرب والعثمانيون، الطبعة الأولى، دمشق: مطبعة ألف باء، ١٩٧٤.

(١٢) الصباغ (ليلى)،

أ. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣.

ب. من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، محمد أمين المحبّي المؤرخ وكتابه " خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١٠٦١/ ١٦٥١-١١١١/ ١٦٩٩)، الطبعة الأولى، دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

(١٣) العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦/ ١٢١٩)، التبيان في شرح الديوان، ضبطه ووضع فهارسه مصطفى السقا وغيره، بيروت: دار المعرفة، لا. ت.، ج٣.

(١٤) العيدروسي، عبد القادر بن شيخ (ت١٠٣٨/ ١٦٢٩)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.

(١٥) الغزّي، نجم الدين محمد بن محمد بن محمد (ت١٠٦١/ ١٦٥١)،

أ. الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة، تحقيق جبرائيل جبّور، الطبعة الثانية، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩، ثلاثة أجزاء.

ب. لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، تحقيق محمود الشيخ، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨١-١٩٨٢، (إحياء التراث ؛ ٥٧). جزءان.

(١٦) فرّوخ (عمر)، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، الطبعة الأولى، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥، ج١.

(١٧) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت٨١٧/ ١٤١٥)، القاموس المحيط، الطبعة الثانية، مصر: ١٣٧١/ ١٩٥٢، ج٤.

(١٨) القاسمي، (جمال الدين)، رسالة في الشاي والقهوة والدخان، دمشق: ١٣٢٢.

(١٩) المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت١١١١/ ١٦٩٩)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ، ٤ أجزاء.

(٢٠) مصطفى (إبراهيم) وزملاؤه، المعجم الوسيط، طهران: المكتبة العلمية، (د.ت)، (مجمع اللغة العربية)، ج١.

(٢١) موجز دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، بإشراف محمد سرحان ومراجعة حسن حبشي وزملائه، تحرير خلف الميري، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٩/ ١٩٨٨، ج٢٧.

(٢٢) ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦/ ١٢٢٨)، معجم البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د.ت.]، ج٥.

أدوات النفــي في شعــر أمــل دنقــل

د. جهاد يوسف المرجا*

* أستاذ النحو المساعد بقسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية – غزة

ملخص:

يدور هذا البحث حول أدوات النفي في شعر "امل دنقل" ، والنفي هو إعتراض على ما هو كائن، وحلم بما سيكون، أي رفض الواقع الذليل الذي نعيشه، والحلم بواقع جميل، لقد وجدت بغيتي في شعر" امل دنقل " فهو يحتل منطقة واحدة، هي منطقة الرفض والمقاومة، واخترت ادوات النفي، لأنها الوسيلة المعبرة عن الرفض بطرق مختلفة.

وقد جاءت الدراسة على مستويين، الاول: النظري من خلال كتب النحاة، والثاني: من خلال شعر " امل دنقل " فهو بحث يجمع بين القديم والحديث وصولاً الى معنى الرفض والمقاومة.

وقد لاحظنا أن الشاعر لم يستخدم كل ادوات النفي، بل استخدم خمس ادوات هي (لا، ليس، ما، لم، لن) وهو استخدام يتفاوت من أداة الى اخرى.

وبالنتيجة فقد شكل شعر" أمل دنقل " صياغة شعرية تنتمى إليه من خلال تعامله مع أدوات النفي في حدودها المعجمية الى دورها السياقي، وهذا يؤكد أن شعره شعر مقاومة.

Abstract

This study discusses "The tools of negation in Amal Dungul's Poetry" which contradicts the current situation and dreams of what happens in the future, I.e he herefuse the humiliating situation we are living and hopes of living in a better future. His poetry has provided me with a lot of experiences, because it is concerned with one aspect, which is the aspect of refusal and resistance.

Therefore, I have chosen this poet and his tools of negation because they are the means of expressing refusal in different ways.

The study came into two levels: the first is the theoretic a level, which focuses on the grammar books, and the second one is through Amal Dungul's Poetry.

This study connects the old and the modern in order to reach the concepts of refusal and resistance.

We have noticed that the poet didn't use all tools which are: la, laysa, Ma, Lam, Lan. His use varies from one tool to another.

In conclusion, Amal Dungul's poetry constitutes a poetic formula because he discusses the tools of negation from its lexical limitations to its contextual roles, which proves that his poetry is a poetry of resistance.

أدوات النفــي في شعــر أمــل دنقــل

تقديم

الحمد لله رب العالمين، أفاء علينا من نعمه، فجعل منها لساناً ناطقاً بالحق، يقف أمام الباطل والظلم، فيرفضه، ليقيم ميزان العدل والحق والصلاة والسلام على رسوله قائد الغر الميامين، وبعد،

فلقد بحثت عما يمكن أن يؤدي هذا الدور (الرفض)، فوجدت بغيتي في أدوات النفي، ولقد وجدت ما أردت في شاعر وهب حياته وشعره ولسانه لموقفه الرافض للتفسخ والاهتراء الاجتماعي والسياسي، وشعره عف وعلا عن الهبوط في مشاركة جوقات الاستجداء والاستثمار وإحناء الرؤوس، وإراقة ماء الحنايا والوجوه، ينتصر للقيم الإنسانية والحرية حيث يمتد كيان الفرد إلى الوطن، ويمتد كيان الوطن إلى المجتمع الإنساني العام(١).

إنه الشاعر أمل دنقل(٢)، الذي يعتبر أن الشعر يجب أن يكون في موقف المعارضة، لأنه حلم بمستقبل أجمل(٣)، فالشعراء - كما يقول - اعتراض على ما هو كائن وحلم بما سيكون، والكلمة أداة التعبير، وبهذا المعنى كان الشعر شعر مقاومة(٤)، وهو في ذلك يعبر عما يجيش في صدورنا من رفض الواقع الذليل الذي نعيشه، والحلم بواقع حر جميل، و "أمل دنقل" يحتل منطقة واحدة، هي منطقة الرفض والمقاومة، فليس عنده منطقة رمادية، فهو صعيدي حتى النخاع، شديد الغيرة في كبرياء، شديد النقاء، شديد العناد، شديد الثأر(٥)، فقد علمه ضياع إرث أبيه وهو طفل، أن يهب أحلامه للفقراء، وأن يخاصم الظلم ويحلم بالعدل الذي لم يتحقق(٦)، إن المرة الوحيدة التي قال فيها نعم، كان وهو على فراش الموت، فقد سألته زوجته: إن كان حزيناً، فأشار بنعم؛ عاجزاً عن الكلام، فهو القرار الذاتي بالموت، وهو جزء من ميراث الحزن الذي لا ينتهي(٧).

إنه يجعلنا نعيش معه أجواء حزنه الأليم على هزائمنا ونكساتنا، يقول عن قصيدته " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة: إنها تعيدني إلى جو النكسة، لحظة أليمة جداً(٨).

فقد جاء شاعرنا روحاً ثائرةً متمردة من صعيد مصر لتحط رحاله في القاهرة، فكانت

أشعاره رفضاً يثير الحماس في النفوس، فقد عاش أمل دنقل الزمن المهزوم المكسور بانكسار الحلم القومي في جميع المجالات، فجاءت أشعاره معبرة عن هذه الهزيمة (التي ما زلنا نعيشها ونعيش تبعاتها)، فكان رافضاً لكل تطبيق عملي للأفكار التي أدت إلى الهزيمة، فالشعر ثورة دائمة ومعايشة الناس للشعر تخلق في نفوسهم هذه الثورة.

وكانت هزيمة ١٩٦٧م، بداية شهرة الشاعر، لم لا ؟، فقد خلقت المآسي الرجال العظام، والشعراء العظام، ومأساة فلسطين خلقت شعراء عظاماً مثله.

ولقد ظل " أمل دنقل " يتطلع إلى المـوروث الثقافي والتاريخي والديني محتفظاً بارتباطه بالمشكلة المعاصرة التي يعيشها يومياً، وهو مع ذلك لم يجنح – كعادة غيره – إلى الغموض أو الإسراف في الرمز، وعلى ذلك فإنَّ مما يلفت الانتباه في شعره البساطة وهي عنده لا تعني التمرد على اللغة، أو الخروج على الأسس الفنية للكتابة، بل تعني تلقائية التعبير، والتحول من خشونة اللفظ إلى خشونة المعنى، وبهذا حول " أمل دنقل " العمل الأدبي من عمل لا يفهمه إلا نفرٌ قليلٌ من الكتاب إلى أنشودة جماعية.

ويعتبر " أمل دنقل " أن وظيفة اللغة بقدرتها على التعبير الكامل عما يجيش في صدورنا[٩] وأن وظيفة الشاعر هو دور وطني موظفاً لخدمة القضية الوطنية، وذلك عن طريق كشف تراث الأمة، وإيقاظ إحساسها[١٠].

ولقد ظل شاعرنا على مواقفه الرافضة لواقع الهزيمة والانكسار حتى رحيله، ولم يتساقط – كغيره – على أعتاب المال أو الوظيفة، بل ظل نسراً محلقاً في سماء المقاومة، رافضاً الانحدار والسقوط كغيره ممن سقط فأصبح مستأنساً كالعصافير التي يلهو بها الأطفال.

لذلك وقع اختياري على هذا الشاعر، ولقد اخترت أدوات النفي، لأنها الوسيلة المعبرة عن الرفض بطرق مختلفة، وهي أدوات رفض في أبواب نحوية مختلفة.

وقمت بتناول أدوات النفي في شعر " أمل دنقل " كما يلي :

مدخل : وفيه تعريف للنفي، وتقسيم للأدوات النافية.

المبحث الأول : لا.

المبحث الثاني : لم.

المبحث الثالث : ليس.

المبحث الرابع : ما.

المبحث الخامس : لن.

وبعد، فهذه هي الأدوات التي استخدمها الشاعر في نفيه، أي: رفضه ومقاومته، وندعو الله أن يلهمنا الصواب دائماً، وأن يجعل الحق والحقيقة رائدنا في خدمة العلم.

مدخل النفي وأدواته

أولاً: معنى النفي:

النفي في اللغة: وردت كلمة النفي في مادة (نفى)، يقال: نفاه، وينفيه، أي: نحاه[١١]، وهو متعد ولازم، فقد ورد: نفى شعر فلان، إذا ثار، وانتفى شعر الإنسان، ونفى، إذا تساقط، والسيل ينفي الغثاء: يحمله ويدفنه، ويقال: نفيت الرجل وغيره. أنفيه نفياً، إذا طردته[١٢]، فهي إذن تفيد معنى الطرد والإخراج، والطرح جانباً.

النفي في الاصطلاح: وتستعمل كلمة النفي استعمال كلمة (الجحد)، عرفه النحاة، بأنه ما لا ينجزم، وهو الإخبار عن ترك الفعل[١٣]، وقد عرفوا الجحد: بأنه ما انجزم بلم لنفي الماضي، وهو الإخبار عن ترك الفعل في الماضي[١٤]، وواضح مما سبق أن النفي أعم من الجحد بالرغم من أنهما بمعنى واحد، ولذلك فقد فضلت استخدام النفي على الجحد، لأنها أعم وأكثر استخداماً.

ثانياً: أدوات النفي:

ونقصد بها الأدوات التي تنفي حدوث الفعل أو الاسم نفياً صريحاً.

١- لا، ما، لات، إنْ: وترد في باب الحروف التي تعمل عمل ليس[١٥].
٢- ليس: وترد في باب كان وأخواتها، لأنها تعمل عملها بغض النظر عن اختلافهما في المعنى، (فليس) لنفي الحال في الغالب، و(كان) للإثبات في الماضي[١٦].
٣- لم، لما: حرفا جزم للفعل المضارع، ينفيان الفعل ويقلبان زمنه إلى الماضي[١٧].
٤- لن: حرف ينصب المضارع وينفيه في المستقبل[١٨].

ونحن نلاحظ أن أدوات النفي السابقة لا تخلو أداة منها من حرف أو أكثر من (اللام، الميم، النون)، ومخرج هذه الحروف في الغالب هو الأنف، وهناك اتصال وثيق بين معنى الأنف، وهو السمو والعلو والارتفاع، بما يدل عليه من معاني الرفض في عزة وإباء، والاستنكار في شمم، فالعرب إذا أرادت التعبير عن الرفض استخدمت اللسان وذلك في

حرف اللام وانفجار الصوت معها، أو حركت الأنف إلى أعلى، وهو مخرج النون والميم، فالمتكلم إذا ما استخدم هذه الأدوات، فإنه يحرص على الرفض فيستعيض عن المخرج الأكثر استعمالاً للألفاظ احتجاجاً، فيؤدي عنه التعبير أقرب الأعضاء إليه وهو الأنف. وليس معنى ذلك أن النون تدخل في كل كلمة دالة على النفي، ولكن الإنسان الأول كان يعبر عن الرفض بإيماءة من الرأس إلى أعلى، والأنف هو أكثر الأعضاء بروزاً، ولهذا كان ارتفاعه دليل الشمم والإباء في الرفض، ويقال العكس (رغم أنفه)، أي: أُلصق بالتراب للتعبير عن الإذلال، وهو الموافقة.

إن النفي باب من أبواب المعنى يهدف به المتكلم إخراج الحكم في تركيب لغوي مثبت إلى ضده، وتحويل معنى ذهني فيه الإيجاب والقبول إلى حكم يخالفه، وذلك بصيغة تحتوي على عنصر يفيد ذلك.

وإن المتعمق في جملة النفي يرى أنها تئول إلى الإيجاب، فالنفي يبدأ حركته من دائرة الإثبات، وهو إما أن يتوقف عندها لينميها إلى الغاية التي يحسن الوقوف عندها، وإما أن يدخل بها دائرة النفي، وهذا ما لفت الباحث اللغوي قديماً، يقول المبرد: إن رفع (زيد) في جملة (قام زيد)، على أنه فاعل، فإذا قلنا: لم يقم زيد، فإن النفي قد تسلط على الفعل فسلبه الحدث، فكيف يرفع الفاعل ؟، ويردُّ على ذلك بأن النفي إنما يكون على جهة ما كان موجباً ولا يمكن إدراك ذلك إلا بعد إدراك أن النفي يكون على جهة الإثبات(١٩).

ونلاحظ أن النفي في التركيب يكون مسلطاً على الخبر، فهو دور محدود، دون أن يؤثر على لواحقه، ويفسر ذلك عبد القاهر الجرجاني، بأنك إذا حكيت عن إنسان أنه قال: زيد بن عمرو سيدٌ، ثم نفيته، لم تكن أنكرت أن يكون: زيد بن عمرو، بل أن يكون (سيداً)، فالنفي يتعلق بالخبر، دون اللواحق(٢٠).

ومعنى ذلك أن النفي يملك طاقة اختيارية تؤثر في بعض أجزاء الجملة دون بعضها.

ولما وقع الاختيار على شعر أمل دنقل منطقة لمعرفة مدلولات النفي، فقد تطلب ذلك اعتماد منهج محدد يساعد على التحليل ثم الكشف، والمنهج الإحصائي سوف يكون وسيلة فعالة في تقديم خطاب النفي، وهو ما يتيح للمتلقي إدراك البعد الكمي، وذلك تمهيداً للانتقال به إلى البعد الكيفي. وسنعمل على دراسة أدوات النفي في شعر أمل دنقل، نجمع العناصر التي تفيد معنى النفي في باب واحد بصرف النظر عن الحركة الإعرابية التي يقتضيها هذا العنصر على أواخر الكلم في الجملة، ولا نهمل الحركة الإعرابية مع أن قيمتها الدلالية ليست

كبيرة .

وتضم الأعمال الشعرية لأمل دنقل سبعة دواوين، تحتوي على تسعين قصيدة ويدخل ضمن ذلك خمسمائة وخمسون مرة نفياً مباشراً تتوزع كالآتي :

لا : مائتان وخمس وتسعون مرة .

لم : مائة وسبعون مرة .

ليس : ست وأربعون مرة .

ما : ثلاثون مرة .

لن : ثلاث عشرة مرة .

وقد تسلطت هذه الأدوات على الفعل (مضارعاً وماضياً)، وعلى الاسم، وسنحاول أن نستكشف هذه الأدوات تبعاً لكثرة دورانها في أشعار أمل دنقل . -

المبحث الأول

لا

وينقسم الحديث عنها إلى :

١- (لا) وتتسلط على الفعل .

٢- (لا) وتتسلط على الاسم .

١) (لا) مع الفعل: وتستعمل (لا) مع الفعل أكثر مما تستعمل مع الاسم، لا سيما الفعل المضارع، وقد وردت في شعر أمل دنقل ما يقرب من مائتين وعشرين مرة، وهي تنقسم إلى :

أ- غير العاملة، وقد وردت في شعر أمل دنقل ما يقرب من مائة وستين مرة وهي تنقسم إلى :

١- **الجوابية نقيضة (نعم)** أي نقيضة الإثبات، كقولك : لا ، في جواب : هل قام زيد ؟ ، وهي تنوب مناب الجملة[٢١] .

وقد جاء استخدامها في شعر أمل دنقل قليلاً، يقول في قصيدة " الجنوبي " :

- هل تريد قليلاً من الصبر ؟

لا[٢٢] .

وقد استخدمها الشاعر للإجابة عن سؤال غير مباشر، وذلك في قصيدة " الزيارة " :

- يقال لم يجيء . . .

وقيل : لا . . . بل جاء بالأمس(٢٣) .

فهي إجابة عن سؤال مقدر، ولذلك جاء بعدها بجملة، بالرغم من أنها يمكن أن تنوب عن هذه الجملة .

وقد تدخل (لا) على (ياء) النداء والمنادي، فحين تسأله (ماريا) عن الناس في المدينة، يؤكد أن الحب والبساطة التي تطبع أهل القرية غير موجودة في أهل المدينة، يقول في قصيدة " ماريا " :

- ماذا يا ماريا ؟

الناس هنا كالناس هنالك في اليونان

بسطاء العيشة محبوبون

لا يا ماريا

الناس هنا - في المدن الكبرى - ساعات .

لا تتخلف

لا تتوقف

لا تنصرف

آلات، آلات، آلات(٢٤) .

وقد جاءت كثافة تردد الأداة (لا)، مؤشراً على كثافة ترددها في الخطابة كله .

٢- نافية للحدث: وأكثر ما تدخل على الفعل، لا سيما الفعل المضارع، يقول في " أختانون فوق الكرنك " :

- كم ملَّ الناس إلهاً

ملك فيما لا يملك(٢٥)

و(لا) في نفيها للمضارع إنما تنتج زمن ينتمي إلى الآتي، من خلال مجموعة (المضارع) التي تفجر زمناً خاصاً يقول، يقول في " كريسماس " :

- لأنها لا تعرف الأنوار

غرفتنا لا تعرف الليل من النهار(٢٦) .

فالمتأمل فيما سبق يعلن عن سيطرة زمن الحضور، ولكن ربما اتصل الحضور بالماضي، لأن الصياغة تأخذ بُعد الحكاية، وهو بُعد يتلازم مع زمن الماضي.

وقد وردت نافية للماضي ثلاث مرات فقط، جاء ذلك في قصيدة " الزيارة " :

- تقول عنه . . . إنه لولاه . . . ما تساقط المطر

ولا تبلور الندى . . . ولا تنفس الشجر

ولا تدفأت عصافير الشتاء(٢٧) .

فالشاعر يتحدث عن هذا الزعيم - متهكماً - الذي لولاه ما عاشت أو تنفست أو أكلت الأمة، وتكرارها إنما جاء ذلك من قبيل توكيد النفي، فالنفي مؤكد بالتكرار، وقد وردت صورة أخرى من نفي الماضي مقتبسة من التراث، وجاء ذلك في نهاية " الموت في . . . الفراش " :

- فلا نامت عيون الجبناء(٢٨) .

ومن الواضح أن نفي الماضي بلا إنما يمتد من الماضي إلى الحاضر والمستقبل أي أن هذا النفي هو لنفي الحدث في الزمن المطلق، إلا إذا ورد في الجملة ما يقيد الزمن.

ومن طرق استخدامها في شعر أمل دنقل، استخدامها نافية على معنى الفعل (أرفض)، وقد جاء ذلك في قصيدة " مقتل القمر " :

- يا إخوتي : هذا أبوكم مات .

ماذا ؟ لا . . . أبونا لا يموت(٢٩) .

إنها الصوت الرافض لموت القيم النبيلة والمعاني الجميلة (القمر)، ويؤكد على هذا الرفض بأن يكرر ذلك في نهاية القصيدة مرتين :

- لكن أبونا لا يموت

أبداً أبونا لا يموت(٣٠) .

ويأتي النفي بلا في قصيدة أخرى بمعنى الرفض أيضاً، وذلك في قصيدة " كلمات سبارتكوس الأخيرة " .

- من قال : (لا) . . . فلم يمت

وظل روحاً أبدية الألم(٣١) .

فلا في هذه القصيدة تدل بوضوح على أنها تعني الرفض ؛ رفض القيم السائدة، رفض السفر والابتعاد عن الوطن، ويقابل هذا الرفض البقاء في الوطن، بالرغم من أن من يقول

(لا) فإنه وإن مات سيبقى حياً في النفوس، مع أنه في موضع آخر يؤكد أن من يرفض، يتعذب كثيراً.

- لأن من يقول (لا) لا يرتوي إلى من الدموع(٣٢)

ومن الملاحظ أن (لا) الداخلة على الفعل إذا دخلت على المضارع فإنها تدل على نفي الحال، أما إذا دخلت على الفعل الماضي فإنها تدل على نفي مطلق الزمن، وهي في دخولها على المضارع أو الماضي لا عمل لها.

ب- العاملة: ونقصد بها (لا) الناهية، وليس مستغرباً أن نعتبر أن (لا) الناهية جزءٌ من النفي، لأن هناك صلة بين النفي والنهي، وذلك أنه يعبر عن النهي بأنه شبه النفي(٣٣) فإذا كان النفي هو الإخبار بالسلب، فإن النهي هو الطلب بالسلب، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل(٣٤).

وأصل الكلمة من النهي (بكسر النون أو فتحها)، وهو الموضع الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه، ونهية الوتد (بالضم)، أي: الفرضة التي في رأسه تنهى الحبل أن ينسلت ونهية كل شيء أي: غايته(٣٥).

والحرف المستعمل للنهي هو (لا) وحدها، وكذلك (لا) من أدوات النفي، وقد تحدث النحاة(٣٦) عن (لا) الناهية، التي هي نوعان: ناهية ودعائية، وذلك لأن الدعاء يكون من الأدنى إلى الأعلى، والنهي يكون من الأعلى إلى الأدنى، وهما مجموعان في الطلب، (فلا) الدعاء، هي (لا) الناهية في الحقيقية، لكن سميت (لا) الدعاء تأدباً(٣٧).

وقد ذكر بعض النحاة أن (لا) الناهية هي (لا) النافية وأن الجزم بلام محذوفة ولا زائدة بين الجازم والمجزوم بقصد النفي(٣٨).

و(لا) الناهية تدخل على الأفعال فتجزمها، ولا يكون الجزم إلا في الأفعال المضارعة(٣٩)، فهو يجزم الأفعال المضارعة ويخلصه للاستقبال(٤٠).

وهي تقع على فعل الشاهد، نحو: لا تفعل، وعلى فعل الغائب، نحو: لا يفعل(٤١)، وقد أضاف ابن هشام: أو المتكلم، نحو: لا أرينك هاهنا(٤٢)، وهي تستخدم للنهي سواء أفادت التحريم أو التنزيه، فهي تخرج عن الطلب إلى غيره كالتهديد والتنزيه(٤٣).

وقد وردت (لا) الناهية في شعر أمل دنقل ما يقرب من ستين مرة، موظفاً إياها توظيفات مختلفة فمرة يكون النهي مباشراً، كما في " أغنية إلى الاتحاد الاشتراكي ":

- لا تحتفل

لا تترك فرسك تجفل[٤٤]

أو كما جاء في " إلى صديقة دمشقية " :

- لا تبتعد عني[٤٥]

ويستخدمه في موضع آخر من القصيدة السابقة استخداماً مجازياً :

- لا تنبشوا الموتى، تعرى حرمة الأسرار[٤٦]

فالموتى لا يُنبشون، إنما تكشف سيرة حياتهم وأسرارهم، وقد يستخدم النهي في مجال النصح، وذلك في قصيدة " قالت " :

- قلت : يا معبودتي لا تنزلي لي[٤٧]

وقد يرتفع صوت الشاعر حزيناً سوداوياً موحياً باستحالة تغيير الواقع المر الأليم، وذلك في " كلمات سبادتكوس الأخيرة " :

- لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت : قيصر جديد

وخلف كل ثائر يموت : أحزان بلا جدوى

ودمعة سدى[٤٨]

إنه تحريض من نوع آخر، تحريض غير مباشر للثورة على الواقع الذي نعيش، بمحاولة استفزاز مشاعرنا التي رضيت بالواقع، ويؤكد على هذا المعنى قائلاً في موضع آخر من القصيدة :

- لا تخجلوا . . ولترفعوا عيونكم إليَّ

لأنكم معلقون جانبي . . . على مشانق القيصر

فلترفعوا عيونكم إليَّ

لربما . . . إذا التقت عيونكم بالموت في عينيَّ :

يبتسم الفناء داخلي . . . لأنكم رفعتم رأسكم . . . مرة![٤٩]

إذن فهو التحدي الذي يخلق الثورة في النفوس، ولذلك فهو يكرر هذا البيت مرة أخرى :

- لا تحلموا بعالم سعيد[٥٠] .

ومن ذلك ما جاء في قصيدة " رسوم في بهو عربي " ، تحت عنوان " كتابة في دفتر

الاستبقال " :

- لا تسألي النيل أن يعطي وأن يلدا

لا تسألي أبداً

(إني لأفتح عيني حين أفتحها

على كثير ولكن لا أرى أحدا)(٥١)

فالكثرة الواهية لا قيمة لها، والقلة مع العزم على الثورة والصبر والتصميم قوى لا يشق لها غبار.

ومن هنا فإن أكثر ما يلفت الانتباه في استخدام النهي في شعر أمل دنقل هو محاولة تثوير الناس على واقعهم المهزوم، وقد اتضح هذا جلياً في قصيدة (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة):

- لا تغمضي عينيك، فالجرذان

تلعق من دمي حساءها، ولا أردها(٥٢).

ويقول في موضع آخر من القصيدة:

- لا تسكتي فقد سكتت سنة فسنة

لكي أنال فضلة الأمان(٥٣)

وحديثه في هذه القصيدة موجه إلى (العرافة المقدسة)، التي هي رمز للجماهير العربية يحثها على عدم الإذعان والخضوع كما أذعنت في السابق، فإذا عرفنا أن هذه القصيدة قد تم نشرها بعد هزيمة ١٩٦٧م بعدة أيام، ندرك مدى الألم والمعاناة التي كان يشعر بها أمل من جراء إذعان الجماهير للقيادة مما أدى إلى هذه الهزيمة.

ومن أبرز استخدامات أمل دنقل للنهي، ما كتبه في قصيدة (الوصايا العشر)، إذ تكرر النهي فيها ثلاثاً وعشرين مرة، وفي الأغلب جاء النهي مع الفعل (تصالح)، والقصيدة تعتبر وصية واحدة، بالرغم من تكرار هذا الفعل، وتتلخص في النهي عن الصلح والمسالمة مع العدو، والحث على الأخذ بالثأر، ويشترك أمل دنقل مع صاحب الوصايا الأصلية - كليب بن وائل(٥٤) -في تكرار (لا تصالح) والإلحاح عليها، إلا أن أمل دنقل مع كل تكرار لها يذكر تعليلاً للنهي عن الصلح، يقول:

- لا تصالح:

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك

ثم أثبت جوهرتين مكانهما
هل ترى ؟
هي أشياء لا تشترى(٥٥)
ويمضي في سرد العلل والحيثيات :
- أقلب الغريب كقلب أخيك
وهل تتساوى يد . . . سيفها كان لك .
بيد سيفها أثكلك(٥٦) .

وهكذا يمضي الشاعر مسقطاً المفاهيم القديمة على المجريات السياسية الحاضرة، وهي الصلح مع العدو الصهيوني، والقصيدة على الرغم من توهج العاطفة فيها وصخوب موسيقاها إلا أنها ردٌّ أو نقضٌ سياسي وعقلاني على منطق الصلح مع العدو، وأعداء الأمة، وذلك عن طريق النهي عن السير في هذا الطريق .

ويؤكد هذا المعنى في مقدمة القصيدة(٥٧) : حاولت أن أجعل من كليب رمزاً للمجد العربي القتيل، أو للأرض العربية السليبة التي تريد أن تعود إلى الحياة مرة أخرى، ولا يُرى سبيلاً لعودتها أو لإعادتها إلا بالدم، وبالدم وحده، فهي وصية أراد الشاعر أن تعكس رؤيته المعاصرة لطبيعة الصلح مع العدو .

وقد استطاع أمل دنقل أن يوظف النهي الذي هو جزء من أساليب النفي، لما يريد من ثورة ورفض ومقاومة، وتحد ونصيحة بطرق مختلفة .

وقد استخدم شاعرناً النهي لحالة المخاطب المذكر (أنت) أو المؤنث (أنتِ)، في معظم حالات خطابه، إلا أنه قد استخدمه مرة واحدة للمخاطب جمع المذكر، في " أقوال اليمامة " :

- **لا تدخلوا معمدانية النار**(٥٨) .

واستخدامه لها كان بمعنى الالتماس، وهو حديث للنظير، فلا دعاء ولا نهي .

٢) (لا) النافية للاسم:

وقد وردت (لا) لنفي الاسم في شعر أمل دنقل في خمس وسبعين مرة، وهي تنقسم إلى : عاملة، غير عاملة، زائدة .

١- العاملة: وقد قسم النحاة (لا) النافية العاملة في الاسم إلى قسمين :

أ- النافية العاملة عمل ليس، وهي لا تعمل إلا في النكرة، وقد أجاز ابن جنى إعمال (لا)

عمل ليس في المعرفة ووافقه في ذلك ابن مالك[٥٩] .

وقد فرق ابن هشام بين (لا) العاملة وغير العاملة، في أن المهملة تتكرر[٦٠] .

ب- النافية للجنس على سبيل التخصيص، وهي العاملة عمل إنَّ، ولا تعمل - أيضاً - إلا في النكرات، ويبنى اسمها إذا كان مفرداً تشبيهاً بخمسة عشر، وينصب إذا كان مضافاً أو شبيهاً بالمضاف[٦١] .

وهناك فروق بين(لا) العاملة عمل ليس، و(لا) النافية للجنس، ذكرنا بعضها ومنها: أن توكيد(لا) النافية للجنس في قولك: لا رجل في البيت بل امرأة، وهو ببناء (رجلَ) على الفتح، أما إذا قيل برفع(رجل) على أن(لا) تعمل عمل ليس فيقال في توكيده: بل رجلان أو رجال.

وبالنظر إلى أشعار أمل دنقل وجدنا أنه قد استخدم (لا) عاملة في حوالي ثلاثين مرة.

وقد استعمل النافية للجنس أكثر من غيرها، وجاء اسمها مبنياً وخبرها مذكوراً، وذلك في " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة " :

- أنا الذي لا حولَ لي أو شان[٦٢]

ويقول في قصيدة " لا وقت للبكاء " :

- لا وقت للبكاء[٦٣] .

وقد ورد اسمها اسماً مفرداً مبنياً، وخبرها محذوفاً، يقول في " خمس أغنيات إلى حبيبتي " :

- لا بوق، لا ميدان

لا حذود[٦٤]

أي: موجود أو موجودة.

ويقول في " بطاقة كانت هنا " :

- امض هناك حيث لا مكان[٦٥]

أي: لك.

ويقول في " رسوم في بهو عربي " :

- مولاي، لا غالب إلا الله[٦٦]

أي: موجود.

وقد ورد اسم (لا) منصوباً، لأنه مضاف، وذلك في قصيدة " أو جيني " :

- ولا أرض العانس ظلت بكر[٦٧] .

ومن استخدامات أمل دنقل (لا) التي تعمل عمل ليس، وهو قليل، وقد جاء اسمها مرفوعاً وخبرها جملة، وذلك في " رسالة من الشمال " :

- سريت به - كالشعاع الضئيل -

إلى حيث لا عارٌ ينثنيي[٦٨]

وقال في قصيدة " الخيول " :

- ولا خضر في طريقك تمحى

ولا طفل أضحى

إذا ما مررت به . . يتنحى[٦٩]

وقد عملت عمل ليس، وخبرها محذوف، في "إلى محمود حسن إسماعيل . . . في ذكراه" :

- لا منزلٌ لا مقام

فعلى الراحلين السلام[٧٠]

وقد تكون مهملة، وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف، وذلك لأنها تكررت. ومما سبق يتضح أن (لا) تدخل على الجملة الاسمية فتحول معناها من الإثبات إلى النفي، ويأتي خبرها غالباً شبه جملة (ظرفاً أو جاراً ومجروراً)، وقد يحذف لدلالة السياق عليه .

٢- غير العاملة:

تدخل (لا) على الأسماء (نكرة أو معرفة)، فلا تعمل فيها، وما بعدها مبتدأ وخبر، وقد تتكرر، وكذلك يجب تكرارها إذا وليها خبر أو حال[٧١] .

ومن استعمالها في شعر أمل دنقل، دخولها على المعرفة وتكرارها :

- لا النيل يغسل عارها القاسي . . . ولا ماء الفرات[٧٢] .

فخبر المبتدأ في المرة الأولى جملة مذكورة (يغسل)، وفي المرة الثانية محذوف تقديره (كذلك). يفسره الخبر الأول، قال في " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة " :

- لا الليل يخفي عورتي . . . ولا الجدران !

ولا اختبائي في الصحيفة التي أشدها

ولا احتمائي في سحائب الدخان[٧٣]

فخبر الأول (يخفي)، والخبر في ما تبقى محذوف تقديره كذلك يخفي عورتي. و(لا) في نمطيها العاملة وغير العاملة، إنما تفيد معنى النفي المطلق، وتكرارها إنما هو توكيد لهذا النفي.

٣- زائدة[٧٤]:

وقد ذكر النحاة أنها قد تكون زائدة من جهة اللفظ فقط، نحو: جئت بلا زاد، (فلا) زائدة من جهة اللفظ، لأنها توصل عمل ما قبلها إلى ما بعدها، وليست زائدة من جهة المعنى لأنها تفيد النفي.

ورُوي: جئت بلا زادَ، بالفتح على تركيب لا مع اسمها، وجعلها عاملة، وهذا نادر، وذلك لتعليق حرف الجر عن العمل.

وحكى بعض الكوفيين، أن (لا) في: جئت بلا زاد، اسم بمعنى غير، لدخول حرف الجر عليها، وقد رُدَّ على ذلك.

ومن ورودها زائدة في شعر أمل دنقل، ما جاء في " كلمات سبادتكوس الأخيرة ":

- فقبلوا زوجاتكم... إني تركت زوجتي بلا وداع
وإن رأيتم طفلي الذي تركته على ذراعها بلا ذراع
فعلموه الانحناءْ!
علموه الانحناء!
فخلف كل قيصر يموت: قيصر جديد!
وخلف كل ثائر يموت: أحزان بلا جدوى
ودمعة سدى[٧٥].

ومن ورودها زائدة. كذلك - أن تقع بعد نفي، وذلك في " إلى محمود حسن إسماعيل... في ذكراه ":

- لست المغيرات صبحا.
ولا العَاديات - كما قيل - ضبحا[٧٦].

(فالمغيرات) خبر (ليس)، والواو في (ولا العاديات) حرف عطف، و(لا) زائدة لتأكيد النفي، والعاديات معطوف على المغيرات، وتحتمل أن تكون زائدة لتأكيد النفي والعاديات مبتدأ وخبره محذوف تقديره كذلك.

وبعد هذا التطواف على أنماط وطرق استعمال الشاعر لحرف النفي (لا) نلاحظ ما يلي:

١- كثرة استعمال حرف النفي (لا) عاملاً وغير عامل، فهو من أكثر أدوات النفي استعمالاً، ولم لا ؟ والواقع الصوتي لهذا الحرف يؤيد ذلك، وذلك في الانفجار الصوتي لحرف النفي، (لا) الذي هو امتداد لا نهائي للنفي أو الرفض.
٢- دخول حرف النفي (لا) على الجملة الاسمية أو الفعلية، وقد لاحظنا كثرة استعمالها مع الفعل المضارع والاسم، وذلك لإفادتهما معنى الثبوت والاستمرار في الرفض.
٣- قلة استعمال حرف النفي (لا) مع الفعل الماضي، وذلك لانتهائه، وعدم إفادته لثبوت أو استمرار النفي أو الرفض.
٤- مع كثرة استعمال حرف النفي (لا)، إنما تأتي لمعنى واحد، وهو النفي المطلق لما بعدها (اسماً أو فعلاً)، ولاحظنا ذلك حتى عند ورودها زائدة، فهي لتوكيد النفي، وهذا ما يصبو إليه الشاعر من استخدام هذا الحرف النافي الرافض.

المبحث الثاني

لـم

قال بعض النحاة إنها منحوتة من (لا) و(ما)، ويترتب على ذلك أنها آكد من النفي بما، وقال آخرون إن أصلها (لا) فأبدلت الألف ميماً[٧٧].

ولهذا فقد قسمها النحاة إلى ثلاثة أقسام[٧٨]:

١- أن تكون نافية جازمة وبقلب الزمن إلى الماضي، نحو: لم يفعل.

٢- أن تكون ملغية لا عمل لها، فيرتفع المضارع بعدها، نحو: لم يؤدي.

٣- أن تكون ناصبة للفعل، نحو قراءة: ألم نشرحَ لك صدرك[٧٩].

والظاهر أن (لم) تختص بالدخول على الفعل المضارع، ولذلك فإن من مميزات الفعل المضارع قبوله دخول (لم) عليه، فتقلب زمنه إلى الماضي[٨٠].

ومن خصائصها[٨١]:

- أن النفي بها لا يلزم اتصاله بالحال، بل قد يكون منقطعاً، نحو: لم يكن الطريق سهلاً، أي: وكان بعد ذلك سهلاً، أو متصلاً نحو: لم أكـن منصرفاً عن قول الحق، أي: ولا زلت للآن.

- لا يجوز حذف الفعل بعدها.

- تأتي بعدها أدوات الشرط، نحو: إن لم، ولو لم.
- يفصل بينها وبين مجزومها اضطراراً.
- يجوز أن تلغى.

وقد وردت (لم) النافية الجازمة للفعل المضارع في ديوان أمل دنقل في نحو: مائة وسبعين مرة، أي أنها تقع في المرتبة الثانية من حيث التكرار في شعر أمل دنقل بعد حرف النفي (لا).

وفي ورودها في الديوان نجد أنها قد دخلت على فعل مضارع فجزمته وحولته إلى الزمن الماضي، وذلك في قصيدة " أوجيني " :

- **فالمارد من عشر سنين**
  لم يترك في الدور رجال(٨٢)

كأنه قال: ما ترك في الدور رجالاً.

وهي تفيد إلى جانب النفي في الماضي، التوكيد، أي: توكيد النفي في الماضي وقد يكون توكيد النفي من السياق، فالمارد يقتل الرجال، ويترك أطفالهم يتامى، وهذا نفي لتركه في الدور رجال.

- **يتم أطفال الأطفال**(٨٣).

وهو يؤكد هذا النفي:

- **والمنجل يحصد كل سنابلها المزدانة**
  لم يرجع غير من اخضر له عمر
  بعد العمر
  عاد ليحكي، يبصق دم
  والقرية تخلص من مآتم
  لتقيم المآتم(٨٤).

إنه تصور واضح لسفك الدماء على أيدي الطغاة المحتلين، الذين يحصدون أعمار الرجال، والتي شبهها بالسنابل التي تحصدها المناجل، والذي يعود من الموت له عمر قد أخضر، لكنه يعود مريضاً من التعذيب والقرى في مأتم دائم، ما إن يخلص مأتم حتى تقيم مأتماً آخر(٨٥).

ويمضي الشاعر في قصيدة أخرى " نجمة السراب " مؤكداً النفي بصورة حاسمة مباشرة:

- **ولم أرد**

معللاً ذلك في فقرة أخرى :

لأن ثوب العرس – في معارض الأزياء –
نجمة تدور في سراب
ولم أزل أدق باباً بعد باب(٨٦)

وبالرغم من أن (لم) تفيد نفي الحدث الماضي إلا أنه في البيت الأخير أفادت الاستمرار، لأن المضارع الناقص المسبوق بنفي يفيد الاستمرار.

وفي مواطن أخرى يقوم دنقل بنفي الفعل، ثم يقوم بتأكيده بعد ذلك بسهولة أو إثباته ببساطة، يقول في " كريسماس " :

– اثنان لم يحتفلا بعيد ميلاد المسيح :
أنا . . . والمسيح(٨٧)

ومن البديهي أن المسيح لم يحتفل في ذلك الوقت بعيد ميلاده، أما هو فلفقره.

– غرفتنا لم تنطفئ أنوارها عند انتصاف الليل(٨٨).

والسبب في ذلك بسيط، بل في غاية البساطة :

– لأنها لا تعرف الأنوار(٨٩).

وقد ورد النفي بلم مع الاستثناء، في قصيدة " طفلتها " :

– لم يكن يملك إلا . . مبدأه(٩٠)

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

لم تكن تملك إلا طهرها(٩١)

وقد يكون الاستثناء، بعد النفي بـ (لم)، سوى، جاء ذلك في " استريحي " :

– لم يبق سوى حيرة السير على المفترق(٩٢).

وقد يكون الاستثناء بـ (عدا)، وذلك في " حكاية المدينة الفضية " :

– ثم لم تلق من الحب عدا : بابا بخيلا(٩٣)

ويمضي في النفي بلم، مع تأكيد هذا النفي بنفي مماثل بلم في " الملهى الصغير " :

– لم يعد يذكرنا حتى المكان(٩٤).

ويؤيد ذلك في موضع آخر :

– لم تشر مائدةٌ نحونا

- **لم يستضفنا المقعدان**[٩٥]

والسبب في ذلك :

- **فالجليسان غريبان**[٩٦]

وفي موطن آخر يتوجع الشاعر لأنه التهم القمر الشاحب، وقد نفى الحدث مسبوقاً بـ (لو) الذي هو حرف امتناع لامتناع، ليؤكد ندمه على هذا الحدث، فهو يسير في الظلمة، وهي ظلمة معنوية، فيتمنى لو أنه لم يلتهم القمر، الذي، كان يمكن أن يضيء جزءاً من حياته، وذلك في " العشاء الأخير " :

- **آه لو لم ألتهمه – القمر الشاحب – لو .**

ربما نور في الظلمة برهة[٩٧] .

وهو يؤكد في صفحة سابقة :

- **لم أكن أملك إلا قمراً**[٩٨] .

فـ(لم) حولت الإثبات إلى نفي وقلبت الزمن إلى الماضي، أما (لا) فقد نفت أن يمتد النفي إلى القمر، لأن النفي للفعل (أكن) أم (قمراً) فهي مؤكدة مثبتة، لكنه يعلل لفقده القمر :

- **غير أني كنت جائعاً**[٩٩] .

فكانت النتيجة :

- **وأنا الآن فقدتُ القمرا**[١٠٠] .

يُلاحظ أن النفي بلم قد قلب الزمن إلى الماضي، إلا أن دخول القيد (الآن) في السياق قد أثبت زمن الفقد في الحاضر .

وفي مواطن أخرى، نجد أن الشاعر يستخدم الجزم والنفي بلم كأنه يلقي خطاباً، ويصدر مرسوماً، يقول في " الموت في . . . الفراش " :

- **أيها السادة : لم يبق اختيار**

لم يبق انتظار[١٠١] .

وقد يستخدم النفي بلم مسبوقاً بالتوكيد بإنَّ، لرفض منطق الصلح من المستسلمين، وذلك في قصيدة " لا تصالح " :

- **قل لهم : إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك**[١٠٢]

مع ما في ذلك من توكيد نفى مراعاة قوم جساس، ويرمز إليهم الشاعر باليهود ؛ لصلة القرابة (المزعومة) .

رداً على من قال :

- **هانحن أبناء عم**(١٠٣) .

وقد يستخدمها في مجال تأكيد إجرام المحتلين الذين يقتلون الأبرياء دون سبب في نفس القصيدة :

- **لم أكن غازياً**
- **لم أكن أتسلل قرب مضاربهم**
- **لم أمد يداً لثمار الكروم**
- **أرض بستانهم لم أطأ**(١٠٤) .

وقد تغير نسق الجزم في البيت الأخير ، لأنه يريد أن يؤكد القتل الظالم ، فهو لم يطأ أرض بستانهم ، فقدم (أرض بستانهم) ليختص بها بعد دخوله لهذه الأرض ، مع ما في تكرار (لم) من تكثيف وتأكيد لعدم التعدي على قوم جساس - أي اليهود الآن - ، وفي ذلك نفي لتبرير أخطائهم ، واحتلالهم أرضاً وقتلنا .

ويضيف إلى ذلك نفياً آخر بـ (لم) يُجرم فيه القاتل :

- **لم يصح قاتلي بي انتبه**(١٠٥)

ومع ذلك فهو يدافع عن قتله بهذه الصورة الدموية الغادرة :

- **لم يكن غير غيظي الذي يتشكى الظمأ**(١٠٦) .

والملاحظ فيما سبق كثافة النفي ، وهو مؤشر على استغراقه للموقف الشعري في مجمله فقد استخدمه ضمن أساليب متعددة ، وظفها جميعاً لموقفه العام ، وهو الرفض للواقع ، لتقديم رؤية جديدة وعالم نظيف " فالشعراء اعتراض على ما هو كائن وحلم بما سيكون والكلمة أداة للتغيير ، وبهذا فإن كل الشعر هو شعر مقاومة "(١٠٧) ، ويقول في موضع آخر : لا زلت أرى أن الشعر هو الرفض ، سواء أكان داخل الأرض المحتلة أم في خارجها(١٠٨) .

فهي إذن أداة لنفي الحكم المثبت وتقلبه إلى الزمن الماضي ، وهي غالباً ما تكون للنفي المطلق في الماضي إلا إذا دخل على الجملة ما يصرفها إلى غيره من الأزمنة ، ومن الملاحظات على النفي بـ(لم) :

١- كثرة إضمار الفاعل مع الفعل المجزوم بها ، وذلك لعلمه من السياق وقلة وروده ظاهراً كما في البيت الأخير ، وذلك لنفي الحكم المثبت .

٢- وكذلك كثرة نفي (لم) للفعل الناقص (أكن ، يكن) ، وذلك لنفي نسبة الحدث إلى

صاحبه نفياً مؤيداً.

٣- تأتي (لم) بعد حرف النفي (لا) في كثرة الاستعمال، وذلك لأن النفس يستمر معها في الخروج من الأنف، وكأنها امتداد للنفي (بلا)، وذلك ببقاء خروج الصوت.

المبحث الثالث

ليس

وهي فعل جامد لا يتصرف على وزن (فَعِلَ) بكسر العين، هذا ما أجمع عليه جمهور النحاة[١٠٩]، ودليل فعليتها[١١٠] أنها تقبل دخول الضمائر المرفوعة البارزة، كتاء الفاعل، ونا الفاعلين، ونون النسوة، وكذلك تتصل بتاء التأنيث الساكنة، نحو: لستُ، لستَ، لستِ، لسنا، لسن، ليستْ.

ومذهب جمهور النحاة[١١١] أنها كلمة تختص بنفي الحال، أي: انتفاء الصفة عن الموصوف في الحال، جاء في العوامل المائة النحوية[١١٢]: وهي لنفي مضمون الجملة في الحال، كقولك: ليس زيد قائماً، وهذا مذهب الجمهور، وقال آخرون: والصحيح أنها تنفي الحال والماضي والمستقبل، قال سيبويه[١١٣]: ليس خَلَقَ اللهُ مثلَه، فهي كما قال ابن هشام في المغنى[١١٤]: وتنفي غيره (الحال) بقرينة، فهي تقيد تارة بزمان الحال، نحو: ليس زيد قائماً الآن، وتارة بزمان المستقبل، نحو قوله تعالى ﴿ **أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ** ﴾[١١٥].

وهي تلازم رفع الاسم، ونصب الخبر، وتخرج عن ذلك في مواضع منها[١١٦]:

- أداة من أدوات الاستثناء، ويجب نصب المستثنى بعدها، نحو: قام القوم ليس زيداً.
- مهملة لا عمل لها على رأي بني تميم إذا انتقض نفي خبرها بإلا، نحو: ليس الطيب إلا المسك.
- حرف عطف على مذهب أهل الكوفة.

ويجوز[١١٧] توسط الخبر بينها وبين اسمها جرياً على باقي أفعال كان وأخواتها، نحو: ليس قائماً زيدٌ، أما تقديم الخبر عليها ففيه خلاف، إذ منعه الكوفيون والمبرد والجرجاني وابن السراج وابن مالك، وأجازه غيرهم[١١٨].

وقد تزاد (الباء) في خبر ليس للتأكيد، نحو: ليس زيد بقائم، أي: ليس زيد قائماً[١١٩] وباستقراء ما ورد من (ليس) في أشعار أمل دنقل، نجد أنها قد وردت في ستة وأربعين موضعاً،

وقد ورد اسمها بصور مختلفة:

أ- تاء الفاعل، وورد ذلك عشر مرات، منها ما جاء في " لست أدري " :

- **إنما لستُ أدري**(١٢٠) .

ونلاحظ أن الشاعر لم يكتفي بالنفي، وإنما أدخل على (ليس) ما يفيد نفي هذه الجملة (إنما)، وقد تم تأكيد اسم ليس (تاء الفاعل) بضمير منفصل (أنا)، وذلك ثلاث مرات، من ذلك ما جاء في " الآخرون . . . دائماً " :

- **لست أنا الذي سحقت الخصب في أطفالكم**(١٢١) .

وقد يتقدم الضمير المنفصل على ليس واسمها، فيكون مبتدأ، وذلك في مرتين، منها ما جاء في " سفر ألف دال " :

- **وأنا لست أول من نبأ الناس عن زمن الزلزلة**(١٢٢) .

ب- ضمير مستتر (هو)، وذلك في أربعة عشر موضعاً، منها ما جاء في " لا تصالح " :

- **والذي اغتالني: ليس رباً . . .**

ليس أنبل مني . . . ليقتلني بسكينه

ليس أمهر مني . . . ليقتلني باستدارته(١٢٣) .

ج- ضمير مستتر (هي)، ثلاث مرات، منها ما جاء في " مزامير " :

- **أكفانهم أطيارهم ليست إلى أعناقهم**(١٢٤) .

د- اسم ظاهر: (اسم (ما) بمعنى شيء)، جاء في " الموت في . . . الفراش " :

- **ليس ما نخسره الآن**(١٢٥) .

وجاء في " سفر ألف دال " :

- **ليس ما ينبض الآن بالروح في ذلك العالم المستكين**(١٢٦) .

فقد تم تقييد نفي ليس بالزمن الحاضر (الآن) في البيت الأول والثاني، وتحديد النفي وتخصيصه بالجار والمجرور " بالروح " في البيت الثاني.

هـ- مصدر مؤول: جاء في " الموت في . . . الفراش " :

- **ليس لهم أن ينظروا إلى الوراء**(١٢٧) .

وجاء في " استريحي " :

- **ليس لها أن تحط على الأرض**(١٢٨) .

ز- مجرور بمن الزائدة، و ذلك في " كلمات سبادتكوس الأخيرة " :

- **وليسَ ثمَّ من مفر**(١٢٩) .

وقد وردت لنفي الحال الذي يستمر إلى المستقبل بقرينة لفظية، كما جاء في " الموت في . . . الفراش " :

- **ليس ما نخسره الآن**(١٣٠) .

وقد يكون النفي لنفي الحال فقط، كما جاء في " من أوراق أبو نواس " :

- **ليس ما ينبض الآن بالروح في ذلك العالم المستكين**(١٣١) .

وقد تقدم خبر (ليس) على اسمها ست مرات :

أ- الاسم نكرة مؤخر وجوباً، جاء في " استريحي " :

- **ليس للدور بقية**(١٣٢) .

ب- الاسم مضاف إلى معرفة، جاء في " الملهى الصغير " :

- **ليس ينهاني تأنيب أبي**(١٣٣) .

وواضح ما في معنى تقديم الخبر على الاسم من اهتمام بالمقدم، وخاصة إذا كان التقديم جائزاً كما في الحالة الثانية، لأن العرب إن أرادت العناية بشيء قدمته .

وقد وردت ليس مستفهماً عن النفي فيها، وقد خرج الاستفهام عن حقيقته إلى الاستفهام الإنكاري، وذلك كما جاء في " ميتة عصرية " :

- **أليس ذلك الذي**

كان يضاجع العذارى(١٣٤) .

ودخول الهمزة على ليس فيما سبق حولت الجملة إلى معنى الإثبات المؤكد، وذلك أن الشاعر على علم بموضوع السؤال في حين أن السامع على غير علم به .

ومن ورود ليس في شعر أمل دنقل، أن اسمها ضمير مستتر وخبرها قد انتقض نفيه بإلا (أسلوب القصر والحصر)، كما جاء في " طفلتها " :

- **لم يكن يملك إلا مبدأه .**

ليس إلا

كلمات مطفأة(١٣٥) .

والتقدير : ليس مبدأه إلا كلمات مطفأة، ويحتمل أن يكون الاسم محذوفاً تقديره : ليس ما يملك إلا كلمات مطفأة، ودخول ليس على ما بعد ليس إنما جاء لتوكيد التخصيص .

وقد دخلت ليس فيما سبق على جملة اسمية، إلا أنها قد دخلت على جملة فعلية مرة واحدة، جاء ذلك في " الهجرة إلى الداخل " :

- **أصرخ ليس يصل الصوت**(١٣٦) .

وهي كما نلاحظ دخلت على جملة فعلية، وجاءت بمعنى حرف النفي (لا)، ومن الملاحظ أن الشاعر قد استخدم (ليس) في نفيه للحال والمستقبل والماضي، وهذا التنوع مرده إلى أن الشاعر ينفي الماضي الذي يستمر في الحاضر، وينفيه في المستقبل لأن يحلم بتغييره.

وكذلك لم يرد في شعر أمل دنقل النفي التأبيدي، لأن طبيعة الشعر والشاعر تنافى النفي التأبيدي، ولا تلائم مواقفه، فهو إنما ينفي الماضي المرتبط بالحاضر ليحلم بتغييره وهذا لا يلائم النفي التأبيدي.

ومن الملاحظ - كذلك - ما في معنى (ليس) من توكيد للنفي بطرق مختلفة، فإذا جاء الاسم بعد ليس مباشرة فالقصد منه تسليط النفي على ما في الجملة من إثبات. فإذا تقدم الخبر على الاسم فإنه توكيد للخبر المقدم وإبراز لأهميته، فإن اتصل بالخبر حرف جر فهو توكيد لنفيه، وكذلك إن سبق الخبر بإلا.

إذن فقد استخدم الشاعر النفي بليس لإظهار الغرض الأساس من نفيه، وهو توكيد الرفض للواقع المر الأليم الذي نعيش فيه.

المبحث الرابع

ما(١٣٧)

وهي لفظ مشترك، يكون حرفاً ويكون اسماً، أما الحرف فينقسم إلى ثلاثة أقسام: نافية، مصدرية، زائدة، أما النافية فلها قسمان: عاملة، غير عاملة.

وتدخل (ما) النافية على الجملة الاسمية وعلى الفعلية، فإن دخلت على الاسمية، نحو: ما زيد قائم، فهي (ما) التي تعمل عمل ليس على رأي أهل الحجاز، بشروط بسطها النحاة في كتبهم، منها:

- تأخير خبرها.
- ألا ينتقض نفي خبرها بإلا.
- ألا تقترن بإن الزائدة.

- ألا يتقدم معمول خبرها على إسمها وهو ليس ظرفاً أو جاراً ومجروراً، وإن فُقد شرط من الشروط السابقة يبطل عملها، وزاد بعض النحاة[١٣٨] على ذلك شرطين آخرين.

فإذا دخلت على جملة اسمية فإنها تنفي الحال، أما إذا دخلت على جملة فعلية، نحو: ما قام زيد، فتنفي الفعل ولا عمل لها، فإذا كان المنفي بها فعلاً ماضياً، ظل على ماضيه، فإذا كان الفعل مضارعاً حولته إلى الحال عند أكثر النحاة، وقال ابن مالك: ليس كذلك بل قد تحوله إلى المستقبل على قلة[١٣٩].

وبالنظر إلى استخدام أمل دنقل (ما) النافية، نجد أنها أقل الأدوات النافية للحال وروداً في شعره، إذ قد وردت عنده في ثلاثين موضعاً، وقد دخلت في معظمها على الفعل، ودخلت على الاسم مرة واحدة، إلا أنها جاءت مهملة، ولم تعمل عمل ليس، كما جاء في " قالت ":

- خطوك منته في المستحيل
ما نحن ملتقيان
رغم توحد الأمل النبيل[١٤٠].

وقد سبقها تأكيد لهذا النفي في قوله (في المستحيل)، فنتيجة لذلك لن يلتقيا بالرغم من اتحاد الأمل فيهما.

وعند استقراء (ما) النافية الداخلة على الفعل وجدنا أنها قد دخلت على الفعل الماضي فقط ولم تدخل على المضارع، لأن حديث الشاعر في معظمه، حديث عن نفي أحداث وقعت في الماضي لسنا بحاجة أن تقع في الحاضر، وإلا تكرر الخطأ الذي أدى إلى الهزيمة، فتردد (ما) ينقل الدلالة إلى زمن الماضي بفعل تسلطها على الفعل الماضي، لكن (ما) تشد المعنى إلى زمن الحضور بفعل مرجعيتها اللغوية، وذلك في " أخناتون فوق الكرنك ":

- ما عاد الرجس يظل الأرض المحبوبة[١٤١].

ومرة أخرى ينفي الماضي، لأن السيل قد بلغ الزبى، وذلك في " خمس أغنيات إلى حبيبتي ":

- ما عادت الجدران تتسع[١٤٢].

وهو مع كثرة ما قال ينفي أنه قد قال شيئاً أو أنه فعل شيئاً، وهذا فيه تأكيد على أن ما سيقوله سيكون أكثر مما قاله في الماضي، كما جاء في " الآخرون... دائماً ":

- قال: أنا ما قلت شيئاً

ما فعلت شيء[١٤٣] .

ومن الواضح أن استخدام (ما) عند شاعرنا قد اقتصر على نفي الفعل الماضي، الذي يدل بوضوح على تأكيده على عدم وجود هذا الحدث المنفي في الماضي على عدم وجوده أو تكراره في الحال أو الاستقبال . إذن فهو استعمال يأتي على نمط يهدف إلى تحويل الشعر إلى منطقة الرفض .

ومما سبق نلاحظ ما يلي :

- قلة دخول (ما) على الجملة الاسمية بالمقارنة مع دخولها على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي، وهي عند دخولها على الاسم إنما جاءت لتوكيد نفيه، أما عند دخولها على الجملة الفعلية فلا عمل لها إلا تحديد الزمن ونفي الفعل الذي تدخل عليه .

المبحث الخامس

لـن

أجمع النحاة أن (لن) حرف نفي، ينصب الفعل المضارع ويحول زمنه إلى المستقبل[١٤٤] .

واختلفوا فيها[١٤٥]، فذهب سيبويه، والجمهور إلى أنها بسيطة غير مركبة، وذهب الخليل والكسائي إلى أنها مركبة، وأصلها (لا أن)، حذفت همزة أن تخفيفاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، وليس أصل (لن)، (لا أن)، بدليل جواز تقديم معمول معمولها عليها، نحو : زيداً لن أضرب، ولو كان أصلها (لا أن) لم يجز هذا التقديم، والبساطة في التركيب أصل، والتركيب فرع، فلا يقال هي مركبة إلا بدليل[١٤٦] .

و(لن) تنصب الفعل بنفسها، وزعم بعض النحاة أنها تجزم المضارع، وهذا شاذ لا يقاس عليه[١٤٧] .

وقد ذهب الزمخشري إلى أن (لن) تفيد نفي التأبيد، أو توكيد النفي، وهذه دعوى بلا دليل، فلو كانت للتأبيد لم يقيد نفيها باليوم في قوله تعالى " فلن أكلم اليوم إنسياً "[١٤٨] ولم يذكر معها الأبد في قوله تعالى " ولن يتمنوه أبداً "[١٤٩]، لأن ذلك سيكون تكرارا[١٥٠] .

وذكر ابن هشام، أنها قد تأتي للدعاء، كما أتت (لا)، وذلك إذا أسند الفعل إلى المخاطب أو الغائب، لا إلى المتكلم، وتلتقي مع القسم نادراً[١٥١] .

وقد وردت (لن) في شعر أمل دنقل في عدد قليل من الأبيات، إذ وردت في ثلاث عشرة

مرة فقط، وهي تفيد النفي في المستقبل، وهو نفي يمتد من الحاضر إلى المستقبل، منها ما جاء في " نجمة السراب " :

- صديقتي شدت على يدي

وقالت : لن أزور غرفتك

إن شئت . . فلنبق معاً إلى الأبد(١٥٢) .

فصديقته لن تزور غرفته لا حاضراً ولا مستقبلاً ما لم يتزوجا، ويبقيا معاً إلى الأبد.

وقد استعملها الشاعر لنفي المستقبل، مقيداً بحدث معين، وذلك في " ماريا " :

- ما دمتُ جوارك يا ماريا لن أتجهم(١٥٣) .

فهو يربط بين نفي تجهمه، ووجوده إلى جوارها، وهذا يرد على من قال في (لن) بأنها لنفي التأبيد.

وقد يكون النفي خالصاً لنفي المستقبل، كما في " العار الذي نتقيه " :

- أوديب عاد باحثاً عن اللذين ألقياه للردى .

نحن اللذان ألقياه للردى

وهذه المرة لن نضيعه

ولن نتركه يتوه(١٥٤) .

وفي موضع آخر، يقول :

- لن أكتب حرفاً فيه(١٥٥) .

والملاحظ على النفي (بلن) أنه يؤدي وظيفة مزدوجة (التأبيد والاستقبال) إذا لم يوجد في السياق ما ينفي أن (لن) لنفي التأبيد، وهي تتضمن بالإضافة إلى ذلك معنى التوكيد، فيكون معناها نفي المستقبل المؤكد، فهي نواة نفي تحول المعنى من الإثبات إلى النفي المستقبلي المؤكد، والناظر في أشعار أمل دنقل السابقة يرى ذلك واضحاً في تأكيد نفي أن تزور صديقته إلا إذا تزوجا، وتأكيد عدم التجهم ما دام إلى جوارها، وفيما سبق (الزواج والبقاء إلى جوارها) هو قيد لنفي المستقبل، أما فيما ليس فيه قيد، فتأكيد نفي المستقبل هو السائد.

وأخيراً، هذا ما اعتزمنا دراسته من تراكيب النفي التي يكون فيها أدوات تحويل من الإثبات إلى النفي، أما غير ذلك من أساليب النفي (الضمني والسياقي) فلم نتعرض له هنا، لأننا أردنا أن نوجه البحث لدراسة أدوات النفي ودلالتها.

خاتمـة

وبعد : فإن أول ما يلفت النظر في هذا البحث هو أنه يجمع بين القديم والحديث ، فالحديث عن أدوات النفي في نظر النحاة يسير جنباً إلى جنب مع كيفية استخدامـها عند شاعر اتخذ النفي أسلوباً لرفض الواقع الأليم الذليل الذي يعيشه العرب ، ليحلم بوقع جديد ، فيه العزة والكرامة .

ولقد رأينا أن هذه الأدوات منثورة في أبواب نحوية مختلفة ، (فليس) في باب (كان وأخواتها) بالرغم مما بينها من اختلاف في المعنى ، إذ أن كان تفيد الإثبات ، فإن (ليس) تفيد النفي صراحة ، و(لا) قد تأتي في باب الحروف المشبهة بليس ، أو لا النافية للجنس ، وهي تدخل على الأسماء والأفعال ، أما (لم) فحرف في باب الحروف التي تجزم المضارع ، و(لن) من نواصب الفعل المضارع ، إن جمع هذه الأدوات في باب واحد أو دراسة واحدة لجدير بالاهتمام ، لأنها تشترك في كونها تفيد النفي .

وقد لاحظنا أن الشاعر لم يستخدم كل أدوات النفي الصريح ، إذ إنه استخدم خمس أدوات فقط (لا ، ليس ، ما ، لم ، لن) ، ولم يستخدم باقي الأدوات مثل (إنْ ، لات ، لما) ، وهو استخدام يتفاوت من أداة إلى أخرى ، فأكثر الأدوات استعمالاً (لا) ، وأقلها استعمالاً (لن) ، وذلك ، لأن (لا) ينفي الاسم والفعل ، أي يأتي عاملاً وغير عامل ، عاملاً عمل ليس ، وإنَّ ، أما (لن) فهو يختص بالدخول على الجملة الفعلية والمضارع منها بالتحديد .

فالمنظور الإحصائي يقيدنا بمؤشر تقريبي لمعدل تكرار أداة خاصة ، ودرجة تكثيفها في العمل الأدبي ، ومما لا ريب فيه أن تكرار ظاهرة معينة مرة واحدة أو عشر مرات أو مائة مرة له دلالة مختلفة .

فمن الطبيعي أن يكون تكرار (لا) في النفي أكثر من غيرها من الأدوات ، وذلك لما لها من طبيعة صوتية تعطي النفي (الرفض) مطلق الحرية في الانفجار الصوتي ، بل إنَّ الأداة الأكثر تعبيراً عن الرفض ، هي (لا) ، وليس غيرها . وقد جاء بعدها في التكرار (لم) التي تعمل على صرف الزمن إلى الماضي لزوماً ، وهي في نفيها أو رفضها الصوتي تعطي معنى الثبوت والصمود ، لأن حرف الميم تنطبق معه الشفتان لتعطي قوة وصلابة للنفي ، وهي مع ذلك تعتبر امتداداً للنفي (بلا) ، لأن النفس مع انطباق الشفتين يستمر في الخروج من الأنف ، مع ما في ذلك من استمرار خروج الصوت النافي الرافض .

أما أقل الأدوات النافية تكراراً فهي (لن) ، التي تؤدي وظيفة النفي في المستقبل – ورفض

ونفي الشاعر إنما كان للواقع الذي يريد تغييره وتعديله ولذلك جاءت أقل الأدوات تكراراً.

وقد جاءت صلاحية أمل دنقل للدراسة كونه قد شكل صياغة شعرية تنتمي إليه، من خلال تعامله مع أدوات النفي في حدودها المعجمية الضيقة إلى دورها السياقي، وقد أكد ذلك على أن " أمل دنقل " يحتاج إلى دراسات أخرى، وذلك من خلال عمق رؤيته للأحداث، ورغبته الحميمة في تعديل الواقع وتغييره.

ولقد وظف الشاعر استخدامه لأدوات النفي لإيضاح موقفه العام من الحياة، وهو الرفض، " فالشعراء اعتراض على ما هو كائن، وحلم بما سيكون، والكلمة أدوات التعبير[١٥٦]، ورفضه للواقع هو مقاومة وثورة على ما هو قائم يقول " فإن الشعر كل الشعر هو شعر مقاومة "[١٥٧]. ومما يؤكد ذلك كثرة استخدامه للنفي في الموضوعات التي ترتبط بهموم الوطن وقضاياه التي تحتاج إلى رجال يقفون موقف الرافض للمهنة والذل، لا يريدون من وراء ذلك مغنماً شخصياً، أو مكسباً فردياً، بل هي وقفة رفض عام الهدف منه إحقاق الحقِّ، فأكثر الرفض في قضايا الصلح مع العدو، والاستسلام للواقع المهزوم، وذلك حباً وأملاً في تغيير ذلك إلى واقع جديد، تتغير فيه الهزيمة إلى انتصار، والذل إلى عزة.

الهوامش

(١) التراث في شعر أمل دنقل، د. جابر قميحة، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١ , ١٩٨٧م، ص: ٥ , ٦ .

(٢) هو: محمد أمل فهيم محارب دنقل، ولد في قرية (القلعة) في جنوب الصعيد، أصيب بالسرطان ودخل معهد السرطان عام ١٩٨٠، وتوفي في المعهد يوم السبت ٢١ مايو ١٩٨٣م. راجع: الجنوبي (أمل دنقل)، عبلة الرويني، دار سعاد الصباح، ط١ , ١٩٩٢م، ص: ٢٠ , ١٠١ , ١٤٦ .

(٣) الجنوبي: ٢١ .

(٤) أحاديث أمل دنقل، إعداد: أنس دنقل، ١٩٩٢م، ص: ١٠٤ .

(٥) الجنوبي: ١٥ .

(٦) السابق: ٥٦ .

(٧) السابق: ١٤٥ .

(٨) أحاديث أمل دنقل: ٢٣ .

(٩) أحاديث أمل دنقل: ٢٨

(١٠) السابق: ٣٢.

(١١) القاموس المحيط تأليف العلامة اللغوي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (-٨١٧هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٢ , ١٩٨٧م، مادة: نفاه، ص: ١٧٢٦ .

(١٢) لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، مادة نفى، ص: ٣٣٦.

(١٣) كتاب التعريفات: للعلامة على بن محمد السيد الشريف الحرجاني (-٨١٦هـ)، ت: د. عبد المنعم الحفني، دار الرشد، ص: ٢٧٣ .

(١٤) السابق: ٨٥.

(١٥) شرح ابن عقيل؛ بهاء الدين عبد الله بن عقيل المصري (-٧٦٩هـ)، على ألفية الإمام: أبي عبد ا لله محمد جمال بن مالك (-٦٧٢هـ)، ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل، تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج١، ص: ٣٠١.

(١٦) السابق: ١/ ٢٦٨.

(١٧) السابق: ٢/ ٣٦٤.

(١٨) السابق: ٢/ ٣٤٢.

(١٩) المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥هـ)، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم

الكتب، بيروت، ج١، ص: ٨.

(٢٠) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ)، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٨٠، ص: ٣٦١.

(٢١) الجني الداني في حروف المعاني، صنعة: الحسن بن قاسم المرادي، ت: د. فخر الدين قباوة، أ. محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢, ١٩٨٣م، ص: ٢٩٦.

(٢٢) الأعمال الشعرية، أمل دنقل، مكتبة مدبولي، ص: ٤٣٩.

(٢٣) السابق: ٥١.

(٢٤) الأعمال الشعرية: ١٠٨.

(٢٥) السابق: ٨.

(٢٦) السابق: ٤٣.

(٢٧) السابق: ٥٣.

(٢٨) الأعمال الشعرية: ٣١٤.

(٢٩) السابق: ٩٨.

(٣٠) السابق: ١٠٠.

(٣١) السابق: ١٤٧.

(٣٢) السابق: ١٤٨.

(٣٣) شرح ابن عقيل: ١/ ٢٦٥.

(٣٤) التعريفات: ٢٧٥.

(٣٥) لسان العرب للعلامة ١٥/ ٣٤٥.

(٣٦) راجع: اللمع في العربية: تأليف: أبي الفتح عثمان بن جنى (-٣٩٢هـ)، ت: حامد المؤمن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط٢, ١٩٨٥م، ص: ١٩٢، شرح التحفة الوردية لزين الدين أبي خوص بن عمر بن الوردي (-٧٤٩هـ)، ت: د. عبد الله على الشلال، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٩م، ص: ٣٨٤، الكتاب لسيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١, ١٩٩١م، ج٣، ص: ٨. مفتاح الإعراب، محمد بن علي عبد الرحمن الأنصاري، ت: سعد كريم الدرعي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، ص: ٤٨، أنواع العامل الإعرابي، د. أحمد إبراهيم سيد أحمد، ط١, ١٩٨٤م، ص: ١٢٢, ١٢٣.

(٣٧) العوامل المائة النحوية، للشيخ عبد القاهر الجرجاني(-٤٧١هـ)، شرح الشيخ: خالد الأزهري الجرجاوي، (-٩٠٥هـ)، ت: د. البدراوي زهران، دار المعارف، ط٢، ص: ٢١٤، الجني الداني: ٣٠٠.

(٣٨) شرح التسهيل لابن عقيل، للإمام بهاء الدين بن عقيل، ت: د. محمد كامل بركات، دار المغربي،

جدة، ١٩٨٤م، ج٣، ص: ١٢٦ .

(٣٩) الكتاب: ٣/ ٩ ، معجم الأدوات النحوية ، د . محمد التونجي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٦ , ١٩٧٩م ، ص: ١٠٠ .

(٤٠) الجني الداني: ٣٠٠ .

(٤١) الحروف العاملة في القرآن بين النحويين والبلاغيين، هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، بيروت: ط١ , ١٩٨٦م، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٤٢) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري (-٧٦١هـ)، ت: د. مازن مبارك، محمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط٥ , ١٩٧٩م، ص: ٣٢٤ .

(٤٣) السابق: ٣٢٦، الحروف العاملة: ١٩٨ , ١٩٩ .

(٤٤) الأعمال الشعرية: ٤٩ .

(٤٥) السابق: ٥٥ .

(٤٦) السابق: ٥٧ .

(٤٧) السابق: ١٠٦ .

(٤٨) السابق: ١٤٩ .

(٤٩) الأعمال الشعرية: ١٤٨ .

(٥٠) السابق: ١٥٢ .

(٥١) السابق: ٣٨٨ .

(٥٢) السابق: ١٦٠ .

(٥٣) السابق: ١٦١ .

(٥٤) هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي، اسمه وائل ولقبه كليب، سيد الحيين (بكر) و(تغلب) في الجاهلية، ومن الشجعان الأبطال، أخو " مهلهل بن ربيعة " وقد وجه الوصايا له، قتله جساس بن مرة، فثارت حرب البسوس، ودامت أربعين سنة. راجع الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ج٥، ص: ٢٣٢ .

(٥٥) الأعمال الشعرية: ٣٩٤ .

(٥٦) السابق: ٣٩٦ .

(٥٧) الأعمال الشعرية: ٤٢٧ .

(٥٨) السابق: ٤١٢ .

(٥٩) الجني الداني: ٢٩٢ , ٢٩٣ .

(٦٠) مغنى اللبيب: ٣١٦ .

(٦١) راجع: السابق: ٣١٣، الجني الداني: ٢٩٠ .

(٦٢) الأعمال الشعرية: ١٦٢ .

(٦٣) السابق: ٣١٥ .

(٦٤) الأعمال الشعرية: ٣٠ .

(٦٥) السابق: ١٩٩ .

(٦٦) السابق: ٣٨٦ .

(٦٧) السابق: ١٧ .

(٦٨) السابق: ١٢٠ .

(٦٩) الأعمال الشعرية: ٤٥٩ .

(٧٠) السابق: ٤٨٥ .

(٧١) انظر مغنى اللبيب: ٣١٩، الجني الداني: ٢٩٩ .

(٧٢) الأعمال الشعرية: ١٥٥ .

(٧٣) السابق: ١٦٠ .

(٧٤) الجني الداني: ٣٠٠-٣٠١ .

(٧٥) الأعمال الشعرية: ١٤٩ .

(٧٦) السابق: ٤٨٥ .

(٧٧) الحروف العاملة في القرآن الكريم: ٥٩٤ .

(٧٨) الجني الداني: ٢٦٦، مغنى اللبيب: ٣٦٥ .

(٧٩) الشرح: ١

(٨٠) معجم الأدوات النحوية: ١٠٣، مغنى اللبيب: ٣٦٥ .

(٨١) الجني الداني: ٢٦٨-٢٦٩ .

(٨٢) الديوان: ١٦ .

(٨٣) السابق: ١٧ .

(٨٤) السابق: ١٧ .

(٨٥) تشبيه دقيق لما يحدث الآن في الأراضي الفلسطينية المحتلة .

(٨٦) الأعمال الشعرية: ٣٥ .

(٨٧) السابق: ٤٣ .

(٨٨) السابق: ٤٣ .

(٨٩) السابق: ٤٣ .

(٩٠) السابق: ٨١ .

(٩١) السابق: ٨٢ .

(٩٢) السابق : ١١٥ .

(٩٣) السابق : ٢٩٤ .

(٩٤) السابق : ١٣٣ .

(٩٥) الأعمال الشعرية : ١٣٣ .

(٩٦) السابق : ١٣٣ .

(٩٧) الديوان : ٢٢٧ .

(٩٨) السابق : ٢٢٦ .

(٩٩) السابق : ٢٢٨ .

(١٠٠) السابق : ٢٢٨ .

(١٠١) السابق : ٣٠٨ .

(١٠٢) السابق : ٣٩٦ .

(١٠٣) الأعمال الشعرية : ٣٩٦ .

(١٠٤) السابق : ٤٠٤ .

(١٠٥) السابق : ٤٠٤ .

(١٠٦) السابق : ٤٠٥ .

(١٠٧) أحاديث أمل دنقل : ١٠٤ .

(١٠٨) السابق : ١٠٤ .

(١٠٩) انظر : مغنى اللبيب : ٣٨٧ ، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي (-٧٤٩هـ) ، ت : د. عبد الرحمن بن سليمان ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط٢ ، ج١ ، ص : ٢٩٧ .

(١١٠) الجنى الداني : ٤٩٣ .

(١١١) مغنى اللبيب : ٣٧٦ ، مفتاح الإعراب : ٣٣ .

(١١٢) العوامل المائة النحوية : ٢٦٢ .

(١١٣) الكتاب : ٤/ ٢٣٣ .

(١١٤) مغنى اللبيب : ٣٨٦ .

(١١٥) هود : ٨ .

(١١٦) مغنى اللبيب : ٣٨٧-٣٩٠ ، معجم الأدوات النحوية : ١٠٦ .

(١١٧) اللمع في العربية : ٨٧ ، شرح التحفة الوردية : ١٧١ .

(١١٨) العوامل المائة النحوية : ٢٦٣ , ٢٦٤ ، شرح التحفة الوردية : ١٧٣ , ١٧٤ .

(١١٩) اللمع في العربية : ٩٠ .

(١٢٠) الأعمال الشعرية : ١١٥ .

(١٢١) السابق : ٣٧ .

(١٢٢) السابق : ٣٥٥ .

(١٢٣) السابق : ٤٠٦ .

(١٢٤) السابق : ٣٧٣ .

(١٢٥) السابق : ٣٠٨ .

(١٢٦) السابق : ٣٥٨ .

(١٢٧) السابق : ٣٠٩ .

(١٢٨) السابق : ١١٤ .

(١٢٩) الأعمال الشعرية : ١٤٩ .

(١٣٠) السابق : ٣٠٨ .

(١٣١) السابق : ٣٥٨ .

(١٣٢) السابق : ١١٤ .

(١٣٣) السابق : ١٣٧ .

(١٣٤) السابق : ٢٧١ .

(١٣٥) السابق : ٢٨٨ .

(١٣٦) الأعمال الشعرية : ٨٣ .

(١٣٧) راجع : مغنى اللبيب : ٣٩٩، الجني الداني : ٣٢٢-٣٢٩ .

(١٣٨) شرح ابن عقيل : ١/ ٣٠٦ .

(١٣٩) الجني الداني : ٣٢٩ .

(١٤٠) الأعمال الشعرية : ١٠٦ .

(١٤١) الأعمال الشعرية : ١٠ .

(١٤٢) السابق : ٢٨ .

(١٤٣) السابق : ٤٢ .

(١٤٤) راجع : الجني الداني : ٢٧٠ ، مغنى اللبيب : ٣٧٣، العوامل المائة النحوية : ٢٠٣ ، أنواع العامل الإعرابي : ٩٤ ، معجم الأدوات النحوية : ١٠٤ ، شرح التحفة الوردية : ٣٦٧ .

(١٤٥) الجني الداني : ٢٧٠-٢٧١ .

(١٤٦) راجع : مغنى اللبيب : ٣٧٣, ٣٧٤، الجني الداني : ٢٧١ ، أنواع العامل الإعرابي : ٩٤ .

(١٤٧) الحروف العاملة في القرآن : ٦٠٩ ، الجني الداني : ٢٧٢ .

(١٤٨) مريم : ٢٦

(١٤٩) البقرة : ٩٥ .

(١٥٠) راجع : مغنى اللبيب : ٣٧٤، الجني الداني : ٢٧٠، الحروف العاملة في القرآن : ٦٠٩ , ٦١ .

(١٥١) مغنى اللبيب : ٣٧٥

(١٥٢) الأعمال الشعرية : ٣٥ .

(١٥٣) الأعمال الشعرية : ١١١ .

(١٥٤) السابق : ١١٧ .

(١٥٥) السابق : ١٢٥ .

(١٥٦) أحاديث أمل دنقل : ١٠٤

(١٥٧) السابق : ١٠٤ .

المصادر والمراجع

- أحاديث أمل دنقل، إعداد: أنس دنقل، ١٩٩٢م (د. ت).
- الأعلام، خير الدين الزركلي (د. ت).
- الأعمال الشعرية (أمل دنقل)، مكتبة مدبولي (د. ت).
- أنواع العامل الإعرابي: د. أحمد إبراهيم سيد أحمد، ط١ , ١٩٨٤م.
- التراث في شعر أمل دنقل، د. جابر قميحة، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١ , ١٩٨٧م.
- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي، المعروف بابن أم قاسم، (-٧٤٩هـ)، ت: د. عبد الرحمن علي سليمان، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، (د. ت).
- الجني الداني في حروف المعاني، صنعة: الحسن بن قاسم المرادي، ت: د. فخر الدين قباوة، أ. محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط٢ , ١٩٨٣م.
- الجنوبي (أمل دنقل)، عبلة الرويني، دار سعاد صباح، ط١ , ١٩٩٢م.
- الحروف العاملة في القرآن بين النحويين والبلاغيين، هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١ , ١٩٨٦م.
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ)، ت: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٨٠.
- شرح ابن عقيل قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (-٧٦٩هـ)، على ألفية الإمام أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك (-٦٧٢هـ)، ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل، محمد محيي الدين عبد الحميد (د. ت).
- شرح التحفة الوردية لزين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن الوردي (-٧٤٩هـ)، ت: د. عبد الله علي الشلال، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٩م.
- شرح التسهيل لابن عقيل (المساعد على تسهيل الفوائد)، للإمام بهاء الدين بن عقيل، ت: د. محمد كامل بركات، دار المدني، جدة، ١٩٨٤م.
- العوامل المائة النحوية، للشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ)، شرح الشيخ خالد الأزهري الجرجاوي، (-٩٠٥هـ)، ت: د. البدراوي زهران، دار المعارف، ط٢، (د. ت).
- القاموس المحيط: تأليف العلامة اللغوي: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (-٨١٧هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٢ , ١٩٨٧م.
- كتاب التعريفات، للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (-٨١٦هـ)، ت: د. عبد المنعم الحفني (د. ت).
- كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (-١٨٠هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، دار

الجيل، بيروت، ط١, ١٩٩١م.
- لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- مفتاح الإعراب، محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، ت: سعد كريم الدرعي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، (د.ت).
- المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥هـ)، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- معجم الأدوات النحوية، د. محمد التونجي، دار الفكر، دمشق، ط٦, ١٩٧٩م.
- مغنى اللبيب من كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري (-٧٦١هـ)، ت: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط٥, ١٩٧٩م.

مقالات ومراجعات



التقويم الذاتي الشامل لأداء الجامعات مدخل للتطوير وضمان نوعية وجودة التعليم

نداء محمود فرهود*

* مسؤولة ضبط الأداء الأكاديمي – دائرة ضبط النوعية – جامعة القدس المفتوحة

ملخص

تركز هذه المقالة الضوء على ضرورة التقويم الذاتي الشامل للمؤسسة التعليمية، وتبرز أهميته ودوره في تحديد إتجاهات تطوير وتحديث التعليم الجامعي ولا سيما بعد أن تطورت نظرية التقويم من كونها وظيفة ثانوية محددة الى وظيفة رئيسية شاملة لمخرجات العملية التعليمة ومدخلاتها.

وإذا كان التقويم الشمولي ضرورياً للمؤسسات التعليمية بوجه عام فإن الحاجة إليه في الجامعات التي تعتمد فلسفة التعليم عن بعد والتعليم المفتوح ومنها جامعة القدس المفتوحة أكثر إلحاحاً لأن تطبيقه بنجاعة يقود الى تحقيق الاهداف المرجوة لهذه الجامعات وعلى رأسها الارتقاء بالمستوى الاكاديمي، وتنمية مناحي الابداع، وتحقيق التواصل بين اطراف العملية التعليمية، والوصول بالجامعة نحو مستوىً متقدم من التجديد والتطوير، مع ضمان نوعية التعليم وجودته في جانبي المنتجات والخدمات التعليمية على حد سواء.

Abstract

This paper concentrates on self-evaluation of educational institutions using the basic theory of development and bringing University education up-to-date. The theory of evaluation has been changed from a secondary role of the government towards Universities to a comprehensive basic one of an educational operation.

If the comprehensive evaluation is important in general for an educational institution, it is more important for Universities that follow the Distance learning and Open Education, such as Al-Quds Open university. Applying comprehensive evaluation leads to achieving goals for these Universities. On the top of these goals are: raising the academic level and standard, growing the level of innovation, linking all educational processes together, and reaching a comfortable level of renovation and development for the institution.

At the same time quality education will be guaranteed for both educational products and educational services.

مقدمة

إن الحوار فرصة للتعرف على التجربة، وعلى الجهود المبذولة من أجل التجديد والتطوير في التعليم. والحوار مناسبة لبلورة برامج واستراتيجيات تقوم على رفع الكفاية والملاءمة واستيعاب المستجدات وتحسين النوعية والوصول إلى الجودة. وهو مدخل لتنسيق جهود المؤسسات التعليمية الفلسطينية في مجالات رفع مستوى التعليم، وتحسين مضمونه، والتعرف على وسائل التطبيق الأنجح للمناهج التعليمية.

لقد أصبح التعليم العالي ركيزة أساسية من ركائز التنمية الاقتصادية والاجتماعية ويرتبط بتقدم الأمم وبقدرتها على توظيف العلم في خدمة الفرد والمجتمع. وأصبح العمل على تطوير أنظمة التعليم لتلائم الأهداف والمصالح العامة العليا من الأولويات الوطنية ومجال الاهتمام الرئيس للحكومات وللمؤسسات التعليمية والمتخصصة. كما تبذل الجهود من أجل إيجاد التوازن بين مخرجات وإنتاج مؤسسات التعليم العالي وبين الاحتياجات والمتطلبات الحقيقية لسوق العمل وللمجتمع، ومن أجل إيجاد التوازن أيضا بين ضرورة توفير فرص التعليم لأكبر عدد من الشباب من جهة وبين رفع المستوى والوصول إلى النوعية من جهة أخرى.

والنوعية وسيلة لتحسين ورفع مستوى الإنتاجية في التعليم. وتحتاج إلى مؤشرات ومعايير عالية ومتقدمة في الأداء وفي المواصفات المنتجة. والنوعية أصبحت مبررا ومقياسا للنجاح وما عداها هو الفشل.

وتحتاج النوعية إلى مراقبة وتفتيش للتعرف على النواقص ومعالجتها. والمراقبة تأتي بعد الإنتاج بهدف تصحيح الإجراءات وتلبية المواصفات، وإزالة المنتجات ذات المواصفات غير المطابقة، ومن أجل إنتاج بلا عيوب وخاضع لمؤشرات الأداء التي تدل على جودة التعليم.

وتصبح النوعية مهمة بشكل متزايد عندما تحقق المؤسسة التعليمية ضبطا أكبر لشؤونها وتخطيطا أعلى لأهدافها وعرضا لقدرتها على تقديم تعليم جيد للمستفيدين منها، ونظام عمل يضمن مخرجات حسب المواصفات المحددة سلفا وهذا هو نظام التأكيد على النوعية.

هدف التعليم العالي ووظيفته:

إن ملاءمة التعليم الجامعي لأهدافه ووظائفه ودوره في خدمة المجتمع تتطلب تحسينه من أجل الوصول إلى النوعية والجودة، وهذا يحتاج منا إلى حوارات حول السياسات المتعلقة بتطوير هذا التعليم واصلاحه، فالعمل من أجل النوعية والجودة يشمل العمل على تحسين جميع الوظائف والأنشطة التعليمية: كنوعية التدريس، ومستوى ونمط برامج التدريب، ومستوى أداء أعضاء هيئة التدريس، ومستوى البرامج الأكاديمية، ومضمون ومحتوى المناهج، وأساليب ووسائل التقويم.

وحتى يستطيع التعليم العالي القيام بوظيفة التعليم، يجب أن لا يعتمد على مقررات دراسية تقليدية جامدة، أو طرق تدريس تعتمد على الحفظ والاستظهار، ونقل المعلومات، وإجهاد الذاكرة. بل يجب أن يؤكد على تنمية التفكير والتأمل، والاستنباط، والبحث، والتجريب.

إن هذه الوظيفة تستدعي تأهيل أعضاء الهيئة التدريسية، والمشرفين الأكاديميين بشكل يمكن من استخدام أساليب تدريس متنوعة تسهم في إثارة تفكير الطلاب واهتمامهم، ودافعيتهم للتعلم، وإشراك الطلبة في المناقشات بفاعلية، واستخدام أساليب التفكير النقدي لديهم. كما يتطلب ذلك إدراك عضو هيئة التدريس أن العمليات التعليمية لها أصولها وقواعدها وأساليب تقويمها.

كما أن طرق التدريس الناجحة يجب أن تشجع الحوار، وتسهم في تنمية التفكير العلمي لدى الطلاب ويجب أن يمتلك عضو هيئة التدريس بالجامعة مهارات استخدام التقنيات الحديثة ويشارك في برامج التدريب وفي التأهيل القادر على تجديد وتطوير أسلوبه في التدريس. إن أهمية الإعداد التربوي لأعضاء الهيئة التدريسية وتطوير مستوى الأداء الأكاديمي سيسهم في رفع كفاءة التعليم وتطوير البحث العلمي في الوقت نفسه.

هذا ولا بد من التأكيد على أهمية البحث العلمي كأحد وظائف التعليم العالي، وأحد عناصر تحقيق الجودة وتعدُّ البحوث أساسا للتطوير في عمليات التعليم والتعلم. فالبحوث شرط رئيس لتحقيق الملاءمة والجودة الأكاديمية. ويجب أن ننظر إلى البحوث (المتعلقة بتقويم التعليم العالي، وتقويم مستوى الطلبة، وملاءمة المناهج، ونوعية البنى الأساسية والمرافق)، على أنها ليست مشاريع بحثية فقط وانما هي طريق الإصلاح الشامل للنظام التعليمي وأساس لسياسات التجديد والتطوير في التعليم العالي وبشكل شامل.

وعليه فإن الهدف من الضبط وتحسين الجودة في التعليم هو: تغيير نظرة المجتمع لهذا التعليم، وخلق الثقة والمحبة بين المجتمع والتعليم الجامعي، وتشجيع استخدام التقنيات وبرامج التعليم الجامعي عن بعد، والتعليم المفتوح، وتبادل الخبرات والمعلومات، من أجل حل المشكلات الحياتية والمعاشية، وتأمين رفاه الإنسان واحتياجاته.

لقد تلاشت الفلسفات التقليدية التي عزلت التعليم العالي عن خدمة المجتمع، وبدأت الجامعات تمارس نشاطاتها وتوجهها لكل أفراد المجتمع ومؤسساته، بهدف تحسين ظروف الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. وأخذت فلسفات التعليم العالي الحديثة بتعديل أنظمة التعليم بهدف تقديم خدمات أفضل لمجتمعاتها. فنشأت الجامعة المفتوحة، والجامعة الشاملة، والجامعة المنتجة، والجامعة دون أسوار. وجميعها مسميات للعلاقة الوثيقة بين الجامعة واحتياجات المجتمع.

ولتحقيق وظيفة الجامعة في خدمة المجتمع ينبغي على الجامعة تطوير برامجها وهياكلها وأن تواكب التطورات الحديثة بما لا يتعارض مع منظومات القيم والمبادئ التي تحدد فلسفتها وأهدافها. وأن تقدم برامج للتعليم المستمر، وللتدريب، والتأهيل، والتثقيف.

ويبقى مستوى خريج البرنامج ومدى مساهمته في العمل والتنمية من أهم مؤشرات الحكم على درجة جودة التعليم. ويمكن التعرف على مستوى أداء الخرجين والعمل على تطوير هذا الأداء بعدة طرق منها: تقويم الجهات المستفيدة من الخريجين، تقويم الخريج لنفسه دائما، وتقويم أعضاء هيئة التدريس الذين أشرفوا على الخريج خلال دراسته الجامعية في البرنامج.

وتشكل هذه النتائج تغذية راجعة تزود المسؤولين والمخططين وأصحاب القرار بمادة تطوير البرامج وملاءمتها لاحتياجات المجتمع التنموية المباشرة والبعيدة.

هدف المقالة وأهميتها:

لأن الحوار طريق التفاهم ومدخل توحيد المفاهيم... والمفاهيم الموحدة مدخل توحيد الجهود وتنسيقها... والجهود المنسقة والموحدة أساس العمل الناجح والأداء المتميز. فان هذه الورقة "التقويم الذاتي الشامل لأداء الجامعات مدخل للتطوير وضمان نوعية وجودة التعليم" مدخل للحوار من أجل التعرف على دور ومهام دائرة ضبط النوعية على اعتبارها تجربة رائدة لجامعاتنا الفلسطينية، وتوحيد المفاهيم وتفعيل الأنشطة التعليمية بهدف الوصول إلى الكفاءة وضبط النوعية وتجويد التعليم.

التقويم الشامل مكون أساس من مكونات البرنامج التعليمي:

يجمع المختصون في التربية على أن المنهاج بمفهومه الواسع يتكون من : أهداف التعليم ، ومحتوى المادة التعليمية ، وطرق التدريس ، ووسائل وأساليب التقويم والقياس المعمول بها . ويؤكدون على أن أساسيات التقويم يجب أن تتناول هذه المكونات . كما يجمع المختصون أيضا على أن التحديات الحضارية الحالية والتطورات المتوقعة تستوجب مراجعة المناهج والبرامج للتأكد من إمكانية العبور الآمن إلى المستقبل . الأمر الذي دفع بعمليات التقويم إلى موقع الصدارة ، واحتلال راس الأولويات في برامج التعليم العالي ، لدرجة أصبحت عمليات التقويم الشاملة جزءا رئيسا من مكونات هذه البرامج .

وأصبح التقويم العنصر الأهم في تخطيط وإدارة البرامج الأكاديمية في الجامعات ، والوسيلة الفعالة في ضبط النوعية وضمان جودة المخرجات . ومن هذا المنظور فان التقويم يمكننا من معرفة مدى قرب الجامعات من تحقيق أهدافها . كما أنه يوفر المعلومات الحيوية التي يحتاجها متخذو القرارات لتحسين الأداء في مؤسسات التعليم العالي . (الخطيب وجبر ، ١٩٩٨) .

والتقويم مدخل للحكم على جدوى العمليات التعليمية ، ونتائجها ، ارتباطا بأهداف وبوظائف الجامعة المختلفة . ومن أجل ذلك يجب أن يتصف بالدقة وبالوضوح والواقعية التي تعزز الثقة بالنتائج التي يتم التوصل إليها . وأن يستخدم الأدوات العلمية الصادقة ، ويتناول كافة جوانب النشاط الجامعي .

وسائل متعددة للتقويم:

وللتقويم أدوات متعددة صمّمت لتتناسب مع أكبر قدر ممكن من الخصائص والمهارات المستهدفة . ومع ذلك فان احتياجات الجهات المستفيدة تؤكد على استخدام وسائل متعددة والتعامل مع الفروق الفردية ، ومن أهم الوسائل المستخدمة في التقويم هي : (البابطين ، ١٩٩٨)

* الملاحظة كوسيلة مباشرة لدراسة التفاعل بين مكونات النظام ، وتتم عن طريق متخصصين ومؤهلين .
* مسح آراء الطلاب ، لتوفير معلومات عن بعض مكونات النظام التعليمي ، والممارسات التدريسية ، من أجل تصحيح وتطوير الأساليب وطرق التدريس ، وتغيير النظام التعليمي ويمكن استخدام المقابلات الشخصية كوسيلة للمسح .

* مسح آراء هيئة التدريس، وتقارير مدراء الوحدات، ورؤساء الأقسام، ومشرفي البرامج، ودائرة الشؤون الأكاديمية. وجمع الحقائق عن مستوى البرامج، ومستوى أعضاء هيئة التدريس. وكذلك المقابلات الشخصية مع المخططين والمنفذين والمسؤولين والخريجين، وجهات التشغيل للتعرف على المستوى الحقيقي للبرنامج وبحث سبل التطوير. إضافة إلى استخدام الاستبانات المختلفة، والاطلاع على الوثائق واللوائح والأنظمة وعلى درجة تطبيقها.

تطور مفهوم التقويم وأهميته:

التقويم وسيلة لمعرفة مدى تحقيق الأهداف، وليس غاية بحد ذاته. وأساليبه مرتبطة بأهدافه الرامية إلى التعرف على مدى النجاح أو الفشل في تحقيق الأهداف التعليمية، والتعرف على نقاط الضعف ونقاط القوة في العمليات التعليمية الجارية. والوقوف على مستوى أداء الخريجين ودرجة رضى الجهات المستفيدة، وعلى مدى تحقيق التعليم لأهدافه في خدمة المجتمع وفي البحث العلمي، وعلى دور ومستوى أداء أعضاء هيئة التدريس ودور المناهج والمرافق.

والتقويم كمفهوم علمي، من المفاهيم الحديثة نسبيا يعني تحديد قيمة الشيء. ويتضمن الحصول على المعلومات اللازمة للحكم على قيمة برنامج أو منتج أو إجراءات أو أهداف. أو الاستخدام الممكن لمجموعة الطرائق أو البدائل المصممة لتحقيق أهداف محددة. كما يعرف التقويم "بأنه العمليات التي بوساطتها يتم جمع وتفسير المعلومات المناسبة بطريقة منظمة لتكون أساس الحكم العقلاني على القيمة أو الجدارة أو الفاعلية" (الزهراني، ١٩٩٨).

أما في مجال المؤسسات الأكاديمية فالتقويم يتعلق بتحديد وفحص قيمة البرامج والسياسات والإجراءات المطروحة للتقييم، وتحديد أغراض وأهداف البرامج التعليمية، ومعايير نجاح البرامج المقدمة في المؤسسة، وتحليل وتفسير البيانات والمعلومات المجموعة. كما يرتبط بتحديد وتفسير مدى النجاح أو الفشل، والعلاقة بين الأداء والنتائج، وتحديد الآثار غير المرغوبة، والآثار الناتجة عن المتغيرات الخارجية. وينتهي التقويم بإصدار التوصيات بالتعديل والاستبدال وبتصميم البرنامج التقويمي الدوري وبتقدير القيمة الإيجابية والمنفعة الناجمة عن العمليات.

لقد برزت اتجاهات ومواقف مختلفة بين العلماء من التقويم فنظر إليه رواد " حركة القياس

التربوي " بأنه وسيلة مناسبة للقياس . ومنهم من أخذ عليه عدم قدرته على قياس عدد من العناصر التي يصعب تعريفها إجرائيا . كما أخذوا عليه تركيزه على الدرجات والبيانات على حساب التركيز على قيمة وجدارة الموضوع .

وأخذ آخرون على التقويم مأخذ عموميته والتخوف من انخفاض درجة موضوعية استخدام المعايير التي يضعها الخبراء من أجل التقويم . وربما تتأثر أحكامهم بأولويات وتأثيرات سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، ووجهات نظرهم وقيمهم الخاصة . كما أخذوا عليه أنه يبنى على الزيارات الميدانية والمقابلات والملاحظات ونتائج دراسات ذاتية . قد تؤدي إلى انخفاض درجة الموثوقية .

وظهر رالف تايلور (Ralph Tylor) واتباعه باتجاه جديد ، أساسه أن التقويم هو عملية مقارنة بين الأداء والأهداف ، والتركيز فيه يتم على تحديد أهداف البرنامج وتقدير درجة تحقيقها من خلال تقويم الأداء الفعلي . وينتقد هذا النموذج بالتركيز على نتائج الأداء وبإهمال العمليات التفصيلية التي يتم بها الأداء . ويرى البعض أن عدم وجود أهداف شاملة وواضحة ومتفق عليها لمعظم البرامج التربوية سيقود إلى بعض القصور في استخدام هذا الاتجاه التقويمي . وفي الستينيات ظهر عدد من علماء التقويم اللذين رأوا في التقويم أساسا لاتخاذ القرارات ومدخلا للتخطيط والتطوير .

وبتطور مفاهيم التقويم ظهرت حركات مختلفة عملت في مجال التقويم ، لكل منها أسسها ومعاييرها وآليات تطبيقها بأساليب ووسائل ولأهداف تختلف عن غيرها . فنشأت حركة الاعتماد أو الاعتراف Accreditation Movement ، وحركة المسائلة الحكومية Accountability Movement ، وحركة الدراسات أو التقويم الشامل Comprehensive Movement ، التي نشأت كنتيجة طبيعية لتجاوز مخاطر ومحاذير الحركتين السابقتين وآلياتهما . ومن أجل تجاوز آثار ومخاطر تزايد التدخل الحكومي وخوف المؤسسات التعليمية من السيطرة الحكومية وفقدان الاستقلالية (الزهراني ، ١٩٩٨) .

وبما أن التدخل كان يتم بحجة قصور ممارسات التقويم الذاتي وعدم شمولها ، فقد أدركت المؤسسات أهمية التقويم الصارم الشامل والجاد لجميع الأنشطة والبرامج والعمليات والأسس والمعايير اللازمة لمثل هذا التقويم الذاتي الشامل ، كجزء أساس ومستمر من عمليات المؤسسة يتضمن مجموع العمليات في المدخلات والمخرجات ، والعوامل الخارجية المؤثرة فيها . وهو أمر واقع يقوم به نخبة مختارة من الأكاديميين والإداريين لضمان جودة برامج المؤسسة ،

والمحافظة على قدر معقول من الكفاءة والفاعلية، وأساس لاتخاذ القرارات بهدف التخطيط من أجل التطوير والتحسين الأكاديمي ولقياس الكفاءة والجودة على أساس من ترابط هذه المعايير. ولبناء فهم مشترك داخل المؤسسات التعليمية حول نقاط القوة والضعف في كل منها.

جوانب التقويم الشمولي:

لقد سعت حركة التقويم الذاتي الشامل إلى توسيع وتطوير معاييرها حيث شملت هذه المعايير مجالات العملية التعليمية، فقومت أهداف الجامعة وسياساتها وفلسفتها، وتعليم الطلاب، ومسح أعضاء هيئة التدريس، والبرامج الأكاديمية ومحتوى وبنية المناهج، والقيادة الإدارية، والإدارة المالية، والمرافق، والإشراف والتوجيه، والمكتبة، وأنظمة المعلومات والوحدات المساعدة (تقنيات الحاسوب)، وأوجه النشاطات والخدمات الطلابية، والدراسات العليا، والبحث العلمي، والتأليف والترجمة والنشر. كما وقفت أمام مجموع اللوائح والقوانين والنظم المعمول بها ومدى نجاحها في تطوير أساليب ووسائل وسبل العمل والأداء، لضمان الابتكار والإبداع والتجديد والتقدم الذاتي (الزهراني، ١٩٩٨، سارة، ١٩٩٧).

وسواء تم التقويم عن طريق الجامعة ذاتها أو عن طريق جهة أخرى خارجية. فيجب أن يتناول تقويم كافة مكونات وعناصر النظام التعليمي وتفاعلها. ويتناول إمكانات النهوض والتقدم في النشاط التعليمي وفي البحث العلمي وفي خدمة المجتمع. ومن خلال هذه الأدوار يتم تقدير الكفاءة وهل وصلت إلى مستوى الجودة والنوعية والفاعلية المنشودة: التي هي مدى قدرة الجامعة على تحقيق أهدافها ضمن الفترة الزمنية المحددة، وتصنف هذه الكفاءة (النوعية أو الجودة أو الفاعلية) إلى كفاءة داخلية وكفاءة خارجية.

فالكفاءة الداخلية:

هي قدرة الجامعة على تحقيق أهدافها وفلسفتها بيسر ودون معوقات كبيرة. كون الجامعة مصنعا لإعداد الكفاءات البشرية وتزويدها بالمهارات والمعارف الضرورية. وتتمثل هذه الكفاءة في التطابق بين المدخلات التعليمية والمخرجات الجامعية.

يمكن أن تكون الكفاءة الداخلية ضعيفة إذا لم تتناسب مواصفات المخرجات (Out put) مع المدخلات التعليمية (In put) الجيدة. فسياسة القبول والقابليات والاستعدادات عند

الطلاب ربما تؤدي إلى التسرب والرسوب والى زيادة التكلفة، أو إلى ضعف المعارف. وهذه ثغرات في المدخلات يجب أن تؤدي إلى تغيير شروط القبول أو إلى مواصفات جودة أقل.

كما أن استخدام أعضاء هيئة تدريس ليسوا على درجة كبيرة من الكفاءة التدريسية أو البحثية، وكذلك الكوادر الإدارية أو المرافق أو محتوى البرامج التعليمية والوقت المخصص لتنفيذها (مدخلات) ستؤدي كلها إلى الفشل في إنتاج المهارات العالية أو النتائج المطلوبة (مخرجات).

وتقاس الكفاءة الداخلية بعدد سنوات التخرج والتكلفة الإنتاجية (الاقتصادية). وعنصر التكلفة من العوامل الهامة لدى تقويم الأداء وقياس مستوى الكفاءة. لذلك تحرص الجامعات على تخفيض تكاليفها شرط أن لا يؤثر هذا التخفيض على نوعية المخرجات الجامعية.

أما الكفاءة الخارجية:

ويقصد بها قدرة النظام الجامعي على تلبية احتياجات المجتمع ومطالب التنمية وتطور المعارف الإنسانية والعلمية. وتتمثل هذه الكفاءة في التطابق بين المخرجات الجامعية واحتياجات المجتمع ومتطلبات سوق العمل. وبمستوى أداء وانخراط الخريجين في البناء والتنمية. وبمستوى المهارات المهنية والمعارف التي امتلكوها من النظام التعليمي. فالمجتمع هو الذي يزود النظام التعليمي بأسباب الحياة والاستمرار. وطموح الجامعة أن تسهم بشكل جدي في تلبية احتياجات المجتمع وسوق العمل وهذا يعني أن مدخلات التعليم ومخرجاته تختبر وتقوّم في ضوء علاقتها مع البيئة وفي الميدان.

ويمتد تقويم الكفاءة الخارجية ليشمل ما تقدمه الجامعة، من خدمات تعليمية وتدريبية وأبحاث واستشارات. من خلال برامج التعليم المستمر وتعليم الكبار ومحو الأمية والتأهيل التربوي. حيث تختار الجامعة هذه البرامج وتقدمها بالشكل الذي يلائم سوق العمل، وتتولى إعداد المشاركين فيها بالاتفاق مع المؤسسات الإنتاجية نفسها.

مراحل التقويم الشمولي:

تم تحديد خمس مراحل للتقويم الذاتي الشامل: بدءا من الإعداد والتصميم وتشمل تكليف الأشخاص وتوفير الحوافز المادية وتحديد جميع الاحتياجات ووضع الأسس والمعايير المناسبة. إلى تحديد العمليات بتوزيع الواجبات والأدوار وتحديد الوسائل واختبار مدى صدقها وتوجيه

وتدريب العاملين وتوفير الأموال وتوزيع فرق العمل وتحديد الفترة الزمنية وتحديد أشكال التنسيق والاتصال . إلى تطبيق التقويم وتفحص الأهداف ودراسة البرامج والعمليات وفحص الأسس والمعايير وجمع الحقائق ووجهات النظر وإجراء الدراسات ومناقشة النتائج وإعداد التقرير النهائي وتحديد النتائج واتخاذ القرارات بالتغيير . إلى عرض التقرير النهائي على الخبراء والاستشاريين . إلى إعادة دورة التقويم والتخطيط باعتماد برنامج تقويمي دوري واستخدامه كأساس للتقويم المؤسسي المستمر (صائغ ، ١٩٩٦) .

أهداف ونتائج التقويم الشمولي:

توصل الباحثون إلى أن هدف التقويم الذاتي الشامل هو توفير المعلومات الصادقة عن النشاط الجامعي ، والتعرف على كفاية المصادر المالية ، والبشرية ، والإدارية ، وكفاءة البرامج والنظم ، والبيئة والخدمات ، والوسائط التعليمية بغرض تحسين وتطوير الأداء . ورأوا أن هذا التقويم هو القادر على تحديد أهداف المؤسسة ودرجة انسجام البرامج والخدمات مع هذه الأهداف . ومدى الإنجاز المحقق أو الفشل وما هي الاتجاهات والبرامج والقرارات اللازمة من أجل التطوير وخلق الكفاءة الداخلية ، والتحول إلى مؤسسة متميزة وعلى درجة عالية من الكفاءة الخارجية .

وقد يكون من ابرز نتائج التقويم إحساس الجامعة أنها مطالبة بالتطوير والتجديد ، وأنها لكي تحافظ على سمعتها العلمية وتستقطب ثقة المجتمع ، لا بد أن تستحدث برامج جديدة أو تدخل التعديلات على المناهج ، وأن تطور في أساليب التدريس ووسائل التقويم ، وأن تعيد النظر في مسيرتها بشكل مستمر في ضوء الأهداف الرئيسة ومطالب المجتمع المتغيرة دائما . وبدون ذلك يمكن أن تتخلف الجامعة عن دورها وتقصر في القيام بوظيفتها العلمية والاجتماعية . كما يمكن أن تصاب بالشيخوخة المبكرة التي يمكن أن تقضي على وجودها كمؤسسة علمية وتفقد الدعم المادي والمعنوي الذي يبرر ويضمن لها البقاء والاستمرار (صائغ ، ١٩٩٦) .

وحسب الزهراني (١٩٩٨) عن التجربة الأمريكية في تقويم مؤسسات التعليم العالي ، فانه يمكن اعتبار أن التقويم الذاتي الشامل المطبق في مؤسسات التعليم العالي الأمريكي قد نشأ وتطور بفضل تأثير حركتي الاعتماد والمسائلة الحكومية . وتزداد القناعة في هذه المؤسسات بأن التقويم عملية جوهرية للتخطيط لمستقبل المؤسسة وتطوير برامجها بما يضمن لها الجودة

والتميز وأداء أعمالها بقدر كبير من الكفاءة والفاعلية . لهذا تحرص الجامعات على أن يكون تقويمها الذاتي شاملا وعميقا وجديا وصريحا . وقد أدخلت الجامعات الأمريكية التقويم والدراسات الذاتية الشاملة في بنيتها التنظيمية ، وأصبح جزءا لا يتجزأ من عملياتها اليومية . وخطت الجامعات بذلك خطوات كبيرة في تطوير معايير ونماذج التقويم ، وفي بناء آليات وأدوات علمية لها صفة القانون لجمع البيانات والمعلومات اللازمة للتقويم وبما يترتب عليه من نتائج وقرارات وخطط .

العقبات التي تحد من فعالية تطوير البرنامج الأكاديمي والتي تتطلب إيجاد الحلول المناسبة:

* عدم التوازن بين النمو الكمي المتزايد وبين التحول إلى نوع . حيث يزداد إقبال الطلبة على التسجيل في الجامعة ، استجابة للرغبة في التعليم وفي ظل درجة عالية من البطالة في صفوف الخريجين أو في ظل انخراط الخريجين في أعمال غير تلك التي درسوها في جامعاتهم أو معاهدهم .
* عدم تنويع أساليب التدريس والاعتماد أحيانا على أسلوب التلقين أو المحاضرة كأسلوب وحيد تقريبا ، ويترتب على ذلك التركيز على الكتاب المقرر فقط وعلى الحفظ والاستظهار ، والابتعاد عن أساليب التفكير الناقد والحوار والمناقشة ويضعف أسلوب التعلم الذاتي والبحث عن المعلومة .
* غياب خطة التنمية الشاملة على الصعيد الوطني وما يترتب على ذلك من تغييب التخطيط في التعليم وفق الاحتياجات الوطنية للأعداد اللازمة من الخريجين في الكليات والبرامج والأقسام المختلفة في الجامعة . وهذا يضعف كفاءة النظام التعليمي وملاءمة الاحتياجات المجتمع .
* ضعف أثر التوجيه التربوي والإرشاد والدور الإشرافي على الطلبة مما يضعف الإحساس بالانتماء إلى المؤسسة وسوء التكيف وأحيانا الفشل .
* ضعف البحث العلمي في الجامعة ، وعدم الاهتمام باحتياجات المجتمع الفعلية وفي مشكلاته وما ينجم عن ذلك من ضعف في العلاقة بين الجامعة والمجتمع .
* غياب وضعف برامج التأهيل والتدريب والإعداد التربوي لأعضاء هيئة التدريس . وغياب تطوير الأنظمة الإدارية والمالية وأساليب العمل على أسس ومعايير مناسبة .
* غياب آليات رصد وتقويم فعالية التدريس .

خاتمة:

وفي الاستخلاص الختامي فان الاعتقاد القائل بأن فهم ظاهرة التقويم الذاتي الشامل من منظار شمولي يقوم على أهمية وضرورة البحث في المقدمات والمدخلات والأسباب التي أدت إلى النجاح أو الفشل في هذا الجانب أو ذاك من جوانب العملية التعليمية التعلمية. والى قياس قيمة هذا المستوى بمعيار محدد، واتخاذ الإجراءات التي من شأنها معالجة النواقص والثغرات الموجودة أو المحتملة. وتعميم الإيجابيات وتعزيز النجاحات والبناء عليها. واعتبار هذه العملية التقويمية عملية مستمرة ودائمة وربطها في النظام التعليمي وإعطائها الصفة النظامية والقانونية.

إن من شأن ذلك أن يحقق تحسين وتطوير نظام التعليم للجامعة المفتوحة ويحقق تقدما في ضبط الأداء الأكاديمي وتأكيد النوعية والوصول إلى الكفاءة الأعلى والجودة الأفضل.

ويرتبط عنصر التقويم مع العناصر الأخرى المسؤولة عن الوصول إلى الجودة في التعليم وعلى رأسها دور الهيئة الأكاديمية الكفؤ والمؤلفة من مجموع العاملين في المستويات المختلفة للعمليات التعليمية. ودور ومستوى واستعداد ودافعية التعليم لدى الطالب وما يرتبط في ذلك من أسس وشروط للتسجيل والقبول. فنجاح الجامعة في اجتذاب قدرات، وذوي تحصيل أعلى من الطلبة يعني بصورة أكيدة نجاح الجامعة في الوصول إلى مستويات أكاديمية وجودة تعليمية أعلى.

كما أن الجودة قابلة للتحقق إذا تمكن النظام التعليمي من تنويع الاختصاصات والبرامج الأساسية والفرعية. كما تلعب المرافق والمباني والقاعات الدراسية والمختبرات والوسائط التعليمية دورا هاما في الجودة التعليمية.

وتفاعل العناصر التعليمية جميعها يمكن من تشكيل (بيئة) شخصية الجامعة التي تؤثر على نوع الخبرات التي يعيشها الطالب في سنواته الدراسية والناتج عنها من نمو وتعلم. بالإضافة إلى التعليم المباشر من المقررات والبرامج الدراسية فان بيئة الجامعة توفر للطالب (أو تحرمه من) الكثير من خبرات التعليم بصورة غير مباشرة، عن طريق النشاطات والفعاليات والمنشورات والمسابقات.

هذا ولا بد أن يتم التقويم الذاتي الشامل عبر جهاز متخصص داخل الجامعة (دائرة ضبط

النوعية) يتولى جمع البيانات وتفسيرها والوصول من خلالها إلى نتائج معتمدة عن طريق الأدوات التحليلية. وينبغي أن يرتبط هذا الجهاز مباشرة بأعلى سلطة في الجامعة ويتعاون مع كافة الإدارات والأقسام والشعب وغيرها ويمدها بالتقارير التي ترمي إلى تحسين فاعلية الأداء خلال مسيرة العمل الجامعي. ويعتبر هذا الجهاز في عمله المستمر ذا أهمية خاصة لتطوير الجامعات وتوجيه خططها على أسس علمية لما تقوم به من تقويم مستمر لتطوير التعليم العالي.

توصيات:

* العمل على تطوير نظام شامل للتقويم في جامعة القدس المفتوحة.
* التعاون لمراجعة محتوى البرنامج الأكاديمي، بشكل دوري ومستمر، بهدف تحديثه وملاءمته لاحتياجات الطلاب ولاحتياجات المجتمع وبما يلائم القيم والمعتقدات. ويستفيد من العلوم والتكنولوجيا. والتأكد من تعليم الطالب أساليب التعلم الذاتي والاهتمام بقياس ذلك.
* تفعيل دور عضو هيئة التدريس بتقويم مستواه العلمي والمهني وإشراك الطلبة ورؤساء البرامج والأقسام والوحدات التعليمية واللجان المتخصصة وملاحظة نتائج ومستوى الطلبة. وتطوير دوره في البحث العلمي، ومدى مشاركته في تطوير الجامعة وفي خدمة المجتمع وفي الندوات والمؤتمرات واللقاءات العلمية والأكاديمية. وترقيته على أساس موازنته بين أدواره في التدريس وفي البحث العلمي وفي خدمة المجتمع معا.
* عقد ندوات وورش عمل وأيام دراسية حول وسائل وأساليب تقويم النظام التعليمي الشامل في جامعة القدس المفتوحة.
* إصدار عدد من النشرات والأدلة حول ضبط النوعية ورفع جودة التعليم.
* تطوير أشكال التعاون والتنسيق والعمل المشترك بين مختلف الدوائر في الجامعة، بهدف التطوير والتحسين من أجل مصلحة الجامعة.
* تطوير نظام الترقيات المعمول به في جامعة القدس المفتوحة لإعطاء وظيفة التدريس وزنا أكبر مما هو مقرر حاليا.
* وضع نظام متكامل ومقنن لقياس فعالية التدريس.

المراجع العربية

١. إبراهيم، سعد الدين. (١٩٩١). **تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين "الكارثة والأمل"**. ط١، عمان: منتدى الفكر العربي.

٢. آفاق. (تشرين أول، ١٩٩٩). **الشبكة العربية للتعليم المفتوح**. ع ٤، عمان.

٣. آفاق. (نيسان، ٢٠٠٠). **الشبكة العربية للتعليم المفتوح**. ع ٦، عمان.

٤. آفاق. (تموز، ٢٠٠٠). **الشبكة العربية للتعليم المفتوح**. ع ٧، عمان.

٥. آفاق. (تشرين أول، ٢٠٠٠). **الشبكة العربية للتعليم المفتوح**. ع ٨، عمان.

٦. البابطين، عبد العزيز بن عبد الوهاب. (١٩٩٨). **أسس تقويم البرامج الأكاديمية في التعليم العالي**. مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية.

٧. الخثيلة، هند بنت ماجد. (١٩٩٨). **المهارات التدريسية الفعلية والمثالية كما تراها الطالبة في جامعة الملك سعود**. مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية.

٨. الخطيب، محمد بن شحات الخطيب و الجبر، عبد الله. (١٩٩٨). **أساليب تقويم الأداء والتحصيل لطلبة الجامعة بين التقليد والمعاصرة دراسة ميدانية**. مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية.

٩. ديلور، جاك وآخرون. (١٩٩٦). **التعليم: ذلك الكنز المكنون**. تقرير مكتوب إلى اليونسكو اللجنة المنية بالتربية للقرن الحادي والعشرين. اليونسكو: مركز الكتب الأردني.

١٠. الزهراني، سعد عبد الله بردي. (١٩٩٨). **التجربة الأمريكية في تقويم مؤسسات التعليم العالي وما يستفاد منها للجامعات السعودية**. مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية.

١١. سارة، ناثر. (١٩٩٧). **التقويم الداخلي لمؤسسات التعليم العالي (نحو نموذج مقترح لدول العالم الثالث)**. مقدمة إلى منتدى الفكر العربي، عمان.

١٢. صائغ، عبد الرحمن، وآخرون. (١٩٩٦). **تقويم العملية الأكاديمية بجامعة الملك سعود: أنموذج في التقويم الشامل**، جامعة الملك سعود، الرياض.

١٣. الطريري، عبد الرحمن بن سليمان. (١٩٩٨). **الاعتماد الأكاديمي لمؤسسات التعليم العالي في المملكة العربية السعودية، الأسس والمنطلقات**. مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية

١٤ . القاسم، صبحي . (١٩٩٧) . **اقتصاديات التعليم العالي العربي** . مقدمة إلى منتدى الفكر العربي، عمان .

١٥ . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . (١٩٩٤) . **التعليم العالي في جمهورية مصر العربية** . القاهرة .

١٦ . آل ناجي، محمد بن عبد الله . (١٩٩٨) . **خصال الأستاذ الجامعي المرتبطة بدعم التحصيل الدراسي للطلاب كما يراها أعضاء هيئة التدريس والطلاب الجامعيون** . مقدمة إلى ندوة التعليم العالي في المملكة العربية السعودية .

مراجعة نقدية لكتاب الاصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين ١٩٢٠-١٩٤٨

تأليف: د. سميح شبيب

مراجعة: د. محمد الحزماوي*

---

* دائرة التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة القدس.

صدر في عام ١٩٩٩ عن مؤسسة دار الأسوار بمدينة عكا بالتعاون مع وزارة الثقافة الفلسطينية كتاب بعنوان الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين ١٩٢٠-١٩٤٨ تأليف الدكتور سميح شبيب. ويقع في ١٩٦ صفحة من القطع المتوسط، مشتملاً على خمسة فصول، بالإضافة إلى خلاصة واستنتاجات وأربعة ملاحق وهوامش، فضلاً عن قائمة المصادر والمراجع.

كانت الخريطة السكانية والجيوسياسية مدخلاً ملائماً لموضوع البحث، فبعد أن تحدث الباحث عن الموقع الجغرافي لفلسطين والتقسيمات الإدارية فيها أبّان العهد العثماني، وضح تطور التكوين الاجتماعي لعرب فلسطين منذ أواخر العهد العثماني وحتى نهاية الانتداب البريطاني عام ١٩٤٨، فضلاً عن التطورات الأخرى في المجالين الاقتصادي والتعليمي، وبإيجاز تحدث عن بدايات التسلل الصهيوني إلى فلسطين. وتلك كانت أهم النقاط التي تضمنها الفصل الأول من الدراسة.

وحاول في الفصل الثاني تتبع الدور الذي لعبته الحكومة البريطانية في إنشاء الكيان الصهيوني من خلال العديد من الإجراءات والتشريعات، لا سيما في مجال الهجرة، بالإضافة إلى منح الشركات اليهودية الامتيازات والمشاريع الاقتصادية، بهدف إحكام سيطرة اليهود على اقتصاد البلاد، كماعرض أهم المؤسسات اليهودية التي ساهمت في إرساء دعائم الوطن القومي اليهودي.

وواكب في الفصل الثالث دور التنسيق البريطاني الصهيوني في تغيير الديمغرافيا الفلسطينية مبرزاً بالأرقام أعداد المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين، فضلاً عن مساحات الأراضي التي انتقلت لليهود، مبيناً أثر ذلك في تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، مما أدى إلى ردود فعل لدى عرب فلسطين تمثلت في ثورتي ١٩٢٩م و ١٩٣٦م.

وواصل في الفصل الرابع تتبع النشاط الصهيوني، موضحاً السياسة التي سارت عليها الحركة الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية، والتي توجت بنقل مركز ثقلها من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الفصل الخامس والأخير فقد تحدث فيه الباحث عن قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧م والتطورات اللاحقة والمتمثلة في حرب عام ١٩٤٨م.

لقد عالج الباحث في هذه الدراسة قضايا وجوانب مهمة في تاريخ فلسطين إبّان الانتداب البريطاني، واقصد بذلك الجانب الاقتصادي والاجتماعي للقضية الفلسطينية. ومما لا شك فيه فقد بذل الباحث جهداً كبيراً في متابعته للتطورات التي طرأت على هذين الجانبين لتوضيح أثرهما على حركة الأرض والسكان. وبذلك فقد كانت هذه الدراسة ذات طابع اقتصادي واجتماعي أكثر منه سياسياً وهذا ما يميزها عن الكثير من الدراسات المتعلقة بتاريخ فلسطين خلال عهد الانتداب والتي ركزت بالدرجة الأساسية على الجانب السياسي.

يتضح من عنوان الكتاب أن الفترة الزمنية للدراسة تمتد بين عامي ١٩٢٠-١٩٤٨، غير أن الباحث أشار في مقدمة الدراسة إلى أنها "تبحث في الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين خلال الفترة ١٩٢٢-١٩٤٨، أي منذ بدايات فرض الانتداب البريطاني. . . " ويفهم من ذلك أن فترة الدراسة تمتد بين عامي ١٩٢٢-١٩٤٨ وليست بين عامي ١٩٢٠-١٩٤٨، كما أشار في العنوان، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن بداية الانتداب البريطاني على فلسطين لا تعود إلى عام ١٩٢٢ بل إلى عام ١٩٢٠، حيث عينت الحكومة البريطانية هربرت صموئيل (Samuel . H) أول مندوب سام على فلسطين، علماً أن عصبة الأمم صادقت على صك الانتداب عام ١٩٢٢ ووضع موضع التنفيذ عام ١٩٢٣.

ويتابع الباحث قوله في المقدمة أنه: "ظهر عدد من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المهمة، لكن تلك الدراسات افتقرت إلى ربط الأحداث بملكية الأرض وحركة السكان". ولا ندري كيف أصدر الباحث هذا الحكم، أو خرج بهذا الاستنتاج فهناك الكثير من الدراسات القيمة والهامة التي ركزت على هذا الجانب[1].

ويلاحظ في بعض الأحيان أن الباحث يستخدم مصطلحات دون التدقيق في معناها، ففي ص ١٧ ذكر بأن حدود ولاية بيروت امتدت "إلى الداخل من الجهة الجنوبية حتى نهر الشريعة وحدود ولاية القدس الشريف". فبالرغم من أنه ذكر في الصفحة نفسها والصفحة اللاحقة، أن لواء القدس أصبح منذ عام ١٨٧٤ متصرفية ذات إدارة مستقلة، إلا أنه يطلق عليها اسم ولاية، وفي ذلك تناقض، فالقدس لم تكن في أواخر العهد العثماني ولاية، بل كانت لواء ثم تحولت إلى متصرفية، كما أن الولاية من الناحية الإدارية أكبر من المتصرفية.

وفي بعض الأحيان ترد أخطاء في المعلومات، ولا ندري إذا كانت هذه الأخطاء أثناء النقل أم مطبعية، ففي ص ١٩ ذكر بأن التيمار هو اقطاعات صغيرة وارد دخلها أقل من ٣٠ ألف اقجة، أما الزعامت فهي اقطاعات متوسطة يراوح معدل إيرادها ٢٠ ألف اقجة، وفي ذلك تناقض واضح، إذ كيف يمكن أن يكون معدل إيراد الإقطاع الصغير أقل من ٣٠ ألف قجة، بينما يراوح إيراد الإقطاع المتوسط ٢٠ ألف اقجة، وفي الواقع فإن دخل إقطاع التيمار يتراوح ما بين ٣٠٠٠-١٩٠٠٠ اقجة، بينما يتراوح دخل إقطاع الزعامت ما بين ١٩٠٠٠-٩٩٠٠٠ اقجة(٢).

لقد تحدث عن أصناف الأراضي وفقاً لقانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨م وحددها بأربعة أصناف هي الأراضي الأميرية والموات والمتروكة والوقف، ولكنه أهمل صنفاً آخر وهي الأراضي المملوكة التي كانت أولى الأصناف التي تحدث عنها القانون. وجرى تقسيمها إلى أربعة أنواع هي :-

١- ما خصص للسكن على أن لا تزيد مساحته عن نصف دونم.

٢- الأراضي التي كانت أميرية ثم أصبحت ملكاً شخصياً عن طريق الفرز والتملك الصحيح.

٣- الأراضي العشرية وهي التي جرى تملكها وتوزيعها خلال الفتح الإسلامي لها.

٤- الأراضي الخرجية وهي الأراضي التي تقرر إبقاؤها في يد أهلها الأصليين من غير المسلمين(٣).

وفي أحيان أخرى لم يكن الباحث يتثبت من صحة المعلومات المنقولة، ففي ص ٢٠ يذكر بأن الصيرفي اللبناني سرسق استأجر أراضي مرج ابن عامر مقابل ١٨ ألف ليرة تركية، وأقام فيها عشرين قرية للمزارعين. واعتمد الباحث في هذه المعلومة على "تمار غوجانسكي في كتابها تطور الرأسمالية في فلسطين، ص٥٣". غير أن غوجانسكي لم تذكر المصدر الذي اعتمدت عليه في هذه المعلومة. ولدى اطلاعنا على بعض المصادر تبين أنه في عام ١٨٦٩ اشترت مجموعة من التجار اللبنانيين تتكون من بسترس وسرسق وتويني وفرح ١٧ قرية في مرج ابن عامر تقدر مساحتها بـ ٢٥ قيراط. ثم تمكن سرسق عام ١٨٧٢ من شراء جميع الحصص، فضلاً عن قرى أخرى، حتى أصبح يمتلك جميع أراضي المرج(٤). كما لا بد من الإشارة إلى أن غوجانسكي باحثة يهودية ولا ينتظر منها

أن تكون موضوعية لا سيما في مسألة الأراضي، ولذلك لا بد للباحث بشكل عام، أثناء اعتماده على مصادر ودراسات يهودية أخذ الحذر والحيطة. فقد ادعت بأن سرسق قام ببناء عشرين قرية في المرج، وهذا يتنافى مع الواقع، فقرى مرج ابن عامر العشرين كانت موجودة أصلاً(٥).

ويستمر الباحث في الاعتماد على غوجانسكي ناقلاً عنها معلومات غير دقيقة، ففي ص ٢٢ ذكر أنه كان من بين الفئات الاجتماعية للمجتمع الزراعي في فلسطين أواخر العهد العثماني فئتا الفلاحين المزارعين والفلاحين المعدمين من الأرض، وكانت الفئة الأولى تعمل بأرض الغير، وتقدم حيوانات العمل والبذار وتدفع رسوم المزارعة، وضريبة العشر، مقابل حصولها على خمس المحصول. أما الفئة الثانية (المعدمون) فلم تقدم إلا العمل فقط، وكانت تحصل على خمس المحصول أيضاً. وفي ذلك تناقض واضح، إذ كيف يمكن أن تحصل الفئتان على نفس النسبة مع الفارق في تقديم أدوات العمل ودفع الضريبة. ومن الممكن أن تكون هذه الحالة فردية، ولكن لا نستطيع تعميمها على المجتمع الزراعي في فلسطين بشكل عام.

كما يلاحظ في بعض الأحيان تضارب المعلومات، ففي ص ٢٩ ذكر الباحث أن المؤتمر الصهيوني الخامس الذي عقد في سويسرا عام ١٩٠١ اتخذ "مقررات مهمة على الصعيد الصهيوني، وكان أهم قرار في هذا المؤتمر، على صعيد مستقبل فلسطين إنشاء الكيرن كايمت لشراء الأراضي في فلسطين. . . ".

ويقصد بالكيرن كايمت أنه يعني الصندوق القومي اليهودي (Jewish National Fund)، وفي ص ٤٥ فسر بأن هذا المصطلح يعني صندوق الائتمان اليهودي. غير أنه في ص ٤٩ وأثناء حديثه عن المؤسسات اليهودية ميّز ما بين صندوق الائتمان اليهودي والصندوق القومي، حيث ذكر بأن صندوق الائتمان أنشئ بقرار من المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٩. كما أن ما ذكره عن الصندوق القومي اليهودي في هذه الصفحة يتناقض مع ما ذكره في ص ٢٩، فقد أشار في ص ٤٩ بأنه "أسس في العام ١٩٠٧ بمبادرة من المنظمة الصهيونية العالمية في بريطانيا. ومنذ العام ١٩٢٢ تغير اسمه وأصبح "الكيرين كايمت".

وعلى أية حال فبعد الإطلاع على كتاب الصندوق القومي اليهودي للباحث وولتر لين (Walter Lehn). تبين بأن فكرة إنشاء الصندوق تعود إلى عام ١٩٠١ خلال المؤتمر الصهيوني الخامس وذلك من أجل شراء الأراضي في فلسطين وسوريا، وبقي بلا

وضع قانوني حتى عام ١٩٠٧ بسبب الخلافات داخل الحركة الصهيونية، بشأن أساليب الاستعمار اليهودي في فلسطين ودور الصندوق فيه، وفي عام ١٩٠٧ سجل الصندوق حسب (قانون الشركات ١٨٦٢-١٩٠٠) باسم الصندوق القومي اليهودي (الكيرين كاجيميت لوجسرويل)[٦].

لقد تحدث الباحث عن مشروع التقسيم المقترح من قبل لجنة بيل (Peel) الملكية عام ١٩٣٧، مبيناً المناطق التي خصصت لكلتا الدولتين العربية واليهودية، بالإضافة إلى المنطقة الانتدابية، ولكن دون أن يوضح هذه المناطق بخريطة وهي مرفقة في تقرير اللجنة، وبالرغم من أنه وثق بعض المعلومات المتعلقة بالتقرير من التقرير نفسه، غير أنه يوثق تقسيم المناطق من مصدر آخر. وفي هذا السياق أيضاً فقد استخدم الباحث النسختين العربية والإنجليزية للتقرير، ولا ندري جدوى الاعتماد على النسختين في آن واحد علماً أن النسخة العربية المترجمة في غاية الدقة والرصانة. كما لا ندري أيضاً لماذا لا يتابع الباحث التطورات التالية لمشروع التقسيم مكتفياً فقط بتوضيح الموقف العربي من المشروع دون الاهتمام بلجنة جون وود هيد (Jhon Wood Head) ومؤتمر المائدة المستديرة لعام ١٩٣٩.

وبالإضافة إلى ذلك فقد جاءت المعلومات التي أوردها الباحث في الفصل الرابع ضحلة وبدون تعمق، الأمر الذي أدى إلى وجود فجوات تاريخية هامة كان لها علاقة مباشرة بتحديد مسار القضية الفلسطينية طوال فترة الأربعينات لا سيما تطور العلاقات الأمريكية - الصهيونية والموقف العربي تجاه ذلك، فضلاً عن إحالة القضية إلى هيئة الأمم المتحدة بعد فشل مؤتمر لندن عام ١٩٤٦.

وثمة ملاحظة أخرى وهي عدم التوازن بين فصول الدراسة وطغيان بعضها على الآخر. فالفصل الأول ٢٠ صفحة، والثاني ١٣ صفحة، والثالث ٤٧ صفحة والرابع ١٩ صفحة والخامس ٢٠ صفحة.

أما فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التي استخدمها الباحث، فبالرغم من أنه اعتمد على بعض تقارير اللجان الحكومية البريطانية إلا أنه أهمل الكثير منها فضلاً عن إهماله لتقارير اللجان الدولية. كما لم يستفد من تقارير الوكالة اليهودية، وتقارير وزارة المستعمرات البريطانية، وتقارير وزارة الخارجية البريطانية، وتقارير عصبة الأمم، وكانت استفادته من الصحف الفلسطينية على نطاق محدود.

وفي هذا السياق أيضاً، فمع أن الباحث وضع قائمة منفصلة لكل من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها، غير أن هوامش الدراسة تشير إلى عدم تمييزه بين المصدر والمرجع، فكان يشير إلى المرجع في حال استخدامه أكثر من مرة بعبارة "مصدر سابق أو مصدر سبق ذكره".

وأخيراً، فلا بد من الإشارة إلى أنه لا يقصد من إيراد هذه الملاحظات النيل من قيمة وأهمية الدراسة، فالباحث بذل جهداً كبيراً فيها حيث جاءت لتلفت نظر الباحثين والمهتمين بالتأريخ للقضية الفلسطينية إلى ضرورة المزيد من بحث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لتاريخ فلسطين.

الهوامش

(١) نذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال :
١ . كامل خلة . فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩ . بيروت، مركز الأبحاث، ١٩٧٤ .
٢ . عادل حسن غنيم . القوى الاجتماعية في فلسطين فيما بين الحربين، القاهرة، ١٩٨٠ .
٣ . روز ماري صايغ . الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ترجمة خالد عايد، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٠ .
٤ . فلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩-١٩٤٨ . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠ .
٥ . إبراهيم رضوان الجندي . سياسة الانتداب البريطانية الاقتصادية في فلسطين ١٩٢٢-١٩٣٩ . عمان : دار الكرمل، ١٩٨٦ .
٦ . محمد الحزماوي . ملكية الأراضي في فلسطين ١٩١٨-١٩٤٨ . عكا : دار الأسوار، ١٩٩٨ .
٧ . هند أمين البديري . أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ . القاهرة : الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٩٨ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول نظام الإقطاع في العهد العثماني أنظر :
- هاملتون جب وهارولد بوون . المجتمع الإسلامي والغرب . جزءان . ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى . مصر : دار المعارف، ١٩٧١ . ج . ١، ص٥٥ .
- ساطع الحصري والبلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص ١٦ . عبد العزيز محمد عوض . الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة : دار المعارف، ص٢٢٣ . أمين أبو بكر . ملكية الأراضي في متصرفية القدس ١٨٥٨-١٩١٨، عمان : مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٩٦، ص٢٠٤-٢١٠ .

(٣) الحزماوي، المرجع السابق، ص٣٤-٣٦ .

(٤) أسعد منصور . تاريخ الناصرة . القاهرة : دار الهلال، ١٩٢٣، ص٢٨٧، ولمزيد من التفاصيل أنظر : الحزماوي، ص٦٦-٦٧ . البديري، المرجع السابق، ص٢٣٩-٢٤٠ .

(٥) منصور، المصدر السابق، ص٢٨٧ .

(٦) وولتر لين . الصندوق القومي اليهودي، ترجمة محمود زايد ورضوان مولوي، بيروت : مؤسسة

11. Session
... In connection with this, the aim of this research work is to study the profile of **university dropouts**. Our analysis on the different aspects of the dropout ...
http://www.statistik.admin.ch/about/international/ortiz_final_paper.doc

12. European **University** Institute Library. Monograph Acquisitions - ...
. .. Becker Sascha O. **University dropouts**, returns to education, job displacement, andinternational risk sharing. Florence European University Institute 2001. LIB ...
http://www.iue.it/LIB/new/new-mon-nov.html

13. 1. INTRODUCTION
. .. requirements of the industry. Graduates from IT-related training courses, **university dropouts** and unemployed IT-specialist are the target groups. They will be ...
http://www.isst.fhg.de/~mrohs/Publikationen/wcce-proceedings.pdf

مراجع عربية

١ . الكيلاني، ت، (٢٠٠١). نظام التعليم المفتوح والتعليم عن بعد وجودته النوعية. بيروت: مكتبة لبنان.

٢ . جبر، أ. ف، كمال، . (١٩٩٥). إعداد الاختبارات في جامعة القدس المفتوحة, ورقة مقدمة إلى ورشة العمل التي نظمتها جامعة القدس المفتوحة بالتعاون مع اليوندباس خلال الفترة ٢٦-٢٧/ ١١/ ١٩٩٥، القدس، فلسطين.

٣ . درة، ع. (١٩٩٧). العولمة والنوعية في التعليم الجامعي العالي. ورقة قدمت للمؤتمر العلمي المصاحب للدورة الثلاثين لمجلس اتحاد الجامعي العربية، التي عقدت في صنعاء خلال الفترة ١-٣ آذار عام ١٩٩٧.

٤ . الخفاجي، ع. (١٩٩٦). إدارة الجودة الشاملة: رحلة مستمرة. منشورات جامعة الإسراء، عمان، الاردن. (ص٣).

٥ . سلامة، ر. و النصار، ت. (١٩٩٧). ضمان النوعية في التعليم العالي: المفهوم والدواعي والآليات. ورقة قدمت إلى المؤتمر العلمي المصاحب للدورة الثلاثين لمجلس اتحاد لجامعات العربية التي عقدت في صنعاء عام ١٩٩٧.

5. **DROPOUTS DROPOUTS DROPOUTS DROPOUTS**
Page 1. CIVIL RIGHTS ALERT THE CIVIL RIGHTS PROJECT HARVARD **UNIVERSITY DROPOUTS DROPOUTS DROPOUTS DROPOUTS** Keeping Students in School Keeping Students in School ...
http://www.law.harvard.edu/civilrights/alerts/dropouts.pdf

6. WORLD WATCH: Education snippets...
University dropouts are costing the South African taxpayer a staggering R1.3-billion a year - an amount that can finance the building of 85 000 new low-cost ...
http://www.uct.ac.za/general/monpaper/2001no14/wwatch.htm

7. Panel Discussions
... to do with developing long term relationships. If one reads Vincent Tinto's - issue of **University dropouts** you begin to realize that too often programs can be ...
http://www.iplp.org/springboard2001-REG-11.html

8. Massive rise in **university** tuition fees proposed for England ...
... because of fears of incurring large debts. The increase in the number of **university dropouts** has largely been attributed to older students, unable to cope with ...
http://www.wsws.org/articles/2000/mar2000/univ-m21_prn.shtml
More Results From: www.wsws.org

9. Alumni - Directions Newsletter - Summer 2000
... empire like Microsoft or Dell Computer. They point to university dropouts Bill Gates and Michael Dell as proof that you don't need a degree to be successful. ...
http://www.devry.edu/alumni_directions_s00_4.html

10. CSFI References
... C. & Others (1977). A dropout is a dropout is a dropout...A comparison of four different types of **university dropouts**. (ERIC Document Reproduction Service No ...
http://www.csfi-wadsworth.com/ad_ref.htm

The following are some Internet sites dealing with University and College Dropouts for interested Researchers:

1. THE DETERMINANTS OF **UNIVERSITY DROPOUTS**:
   ... The Determinants of University Dropouts : A Bivariate Probability Model with Sample
   Selection Claude Montmarquette* 1 Sophie Mahseredjian 2 Rachel Houle 3 July ...
   http://www.crde.umontreal.ca/online/cm-07-00.pdf
   More Results From: www.crde.umontreal.ca

2. The Determinants of **University Dropouts** : A Sequential ...
   ... Sophie Mahseredjian et Rachel Houle Titre/Title : The Determinants of **University Dropouts** : A Sequential Decision Model with Selectivity Bias Langue/Language ...
   http://www.cirano.qc.ca/publication/cahier/resume/96s-04.html
   More Results From: www.cirano.qc.ca

3. Guardian Unlimited | The Guardian | News: MPs encourage ...
   ... MPs seek to reduce **university dropouts** MP‘s desperate to reduce the number of students dropping out of **university** in their first year Rebecca Smithers ...
   http://www.guardian.co.uk/uk_news/story/0,3604,452016,00.html
   More Results From: www.guardian.co.uk

4. The Determinants of **University Dropouts** : A Sequential ...
   ... This item is available for download, see at bottom. The Determinants of **University Dropouts** : A Sequential Decision Model with Selectivity Bias. ...
   http://ideas.uqam.ca/ideas/data/Papers/wopcirano96s04.html
   More Results From: ideas.uqam.ca

23. *Rekkedal .T. (1983) .The written assignments in correspondence education: Effects of reducing turn- around time. Distances edu.*

24. *Robinson, B. (1994) . Assuring quality in open and distance learning . In F.lockwood (ed.), Materials production in Open and Distance learning. New York : Chapman.*

25. *Sekimoto, T. (1998). Meeting the challenge of the 21st century. In the Global Market Place (edited by J. Rosow). New york: Facts on file.*

26. *Tait, (1993) . Distance learning: Europeau and intentional perspectives (collected papers from the Cambridge International conference on Open and Distance Learning) , Cambridge : the Open University.*

27. *Trindade, A.R. (1998). Quality in distance education systems. A paper presented to the conference of presidents of open universities held in Thailand in November 1998.*

28. *Woodley. A. (1996). Evaluation at the British Open University. The Open University, Vol-2, London.*

terminology to a proficiency level that will allow the student to be a productive travel professional.
http://www.travelhomestudy.com/
More sites about: Travel > Vocational Schools > **Distance Learning**

18. Graduate **Distance Learning** Program
http://www.sarasota-online.com/university/graduate.html
More sites about: Florida > Sarasota > University of Sarasota > Departments and Programs

19. **Distance Learning** - offers an online MBA program.
http://www.uww.edu/business/onlinemba
More sites about: Wisconsin > Whitewater > University of Wisconsin - Whitewater > College of Business and Economics

20. Colleges Universities **Distance Learning** Education Online - provides information on programs for undergraduate, graduate, and MBA programs in community colleges and universities.
http://www.college-university-**distance-learning**-education-online.com/
More sites about: Education > Counseling Products and Services

21. Highflyers **Distance Learning** - access to higher level vocational qualifications for people who work in the office administration, business support, and customer care sectors.
http://www.highflyers-dl.co.uk/
More sites about: United Kingdom > B2B > Career-Specific Training and Development

22. Computer Science **Distance Learning** - variety of online courses in Computer Science and Information Systems offered by Dr. Hal Campbell, CSUH.
http://www.humboldt.edu/~hgc1
More sites about: California > Arcata > Humboldt State University > Courses

11. **Distance Learning** - offers web, internet, and interactive video network based programs.
http://www.lifelearn.depaul.edu/dl/distance_learning.asp
More sites about: Illinois > Chicago > DePaul University > Departments and Programs

12. **Distance Learning**
http://www.ddl.cmich.edu/
More sites about: Michigan > Mount Pleasant > Central Michigan University > Departments and Programs

13. **Distance Learning** - delivering courses through a variety of media.
http://www.distance.pcc.edu/
More sites about: Oregon > Portland > Portland Community College > Departments and Programs

14. Socrates **Distance Learning** - offers courses for potential online teachers who want to enhance their professional development through web based training in the education field.
http://socrates.aionline.edu/
More sites about: **Distance Learning** > Teacher Education

15. **Distance Learning** Exchange - directory of distance learning activities posted by schools, universities, and businesses.
http://dle.state.pa.us/
More sites about: **Distance Learning** > Web Directories

16. **Distance Learning**
http://www.sinclair.edu/distance/
More sites about: Ohio > Dayton > Sinclair Community College > Departments and Programs

17. AIT - Travel and Tourism **Distance Learning** Program - industry-driven career performance program designed to take the student from basic

Schools Project

5. International **Distance Learning** Course Finder - allows students to search by subject, language, delivery media, and other criteria.
http://www.dlcoursefinder.com/
More sites about: **Distance Learning** > Web Directories

6. Online Journal of **Distance Learning** Administration - peer-reviewed quarterly publication.
http://www.westga.edu/~distance/jmain11.html
More sites about: Education > **Distance Learning**

7. California **Distance Learning** Project - working to increase access to adult basic learning services by improving **distance learning** infrastructure.
http://www.cdlponline.org/
More sites about: California > Education

8. Center for **Distance Learning** Research - education, research, and project facility for distance learning applications.
http://www.cdlr.tamu.edu
More sites about: Texas > College Station > Texas A&M University > College of Education

9. **Distance** Learning Technology - cable television, public television, satellite, microwave, videotape, and CD-ROM to deliver courses to students at remote viewing locations.
http://www-distlearn.pp.asu.edu/
More sites about: Arizona > Tempe > Arizona State University (ASU) > Departments and Programs

10. Ed-X **Distance Learning** Channel - global resource for news, course descriptions, degree programs, and continuing education on the web.
http://www.ed-x.com
More sites about: **Distance Learning** > Web Directories

Research scope is no longer limited to one country or one area in the world. With the recent advances in Technology and International Communication, Information Technology crossed the borders and spread fast all over the world to make it look like one place. Researchers can reach any place, library, and research journals very easily with the help of the Internet.

I hope that the following lists will help researchers who are looking for references in two important areas that concern higher education at many universities today.

The following are some sites about Distance Learning ***on the Internet for interested Researchers:***

1. Interactive **Distance Learning** - information on **distance learning** opportunities and resources at the university.
   http://www.fsu.edu/~distance

2. International Centre for **Distance Learning**
   http://www-icdl.open.ac.uk/
   More sites about: United Kingdom > The Open University > Departments and Courses

3. **United States Distance** Learning Association - a non-profit association with over 2000 members formed to promote the development and application of **distance learning** for education and training.
   http://www.usdla.org/
   More sites about: Education > **Distance Learning**

4. **Distance Learning** Resource Network - dissemination project for the U.S. Department of Education Star Schools Program.
   http://www.dlrn.org/
   More sites about: K-12 **Distance Learning** Consortia > NAU Star

International References for Researchers in Distance Learning and University Dropouts

Prepared by: Dr. Abderauf Taha*

* Advisor for Technology and Higher Studies - At Alquds Open University

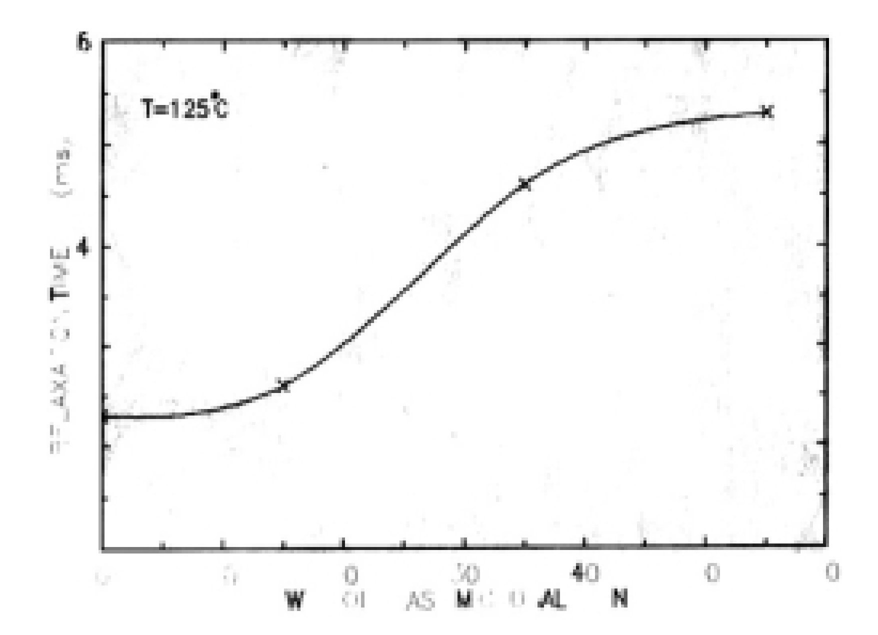


FIG. 11 Variation of relaxation time filler concentration at 125 oC.

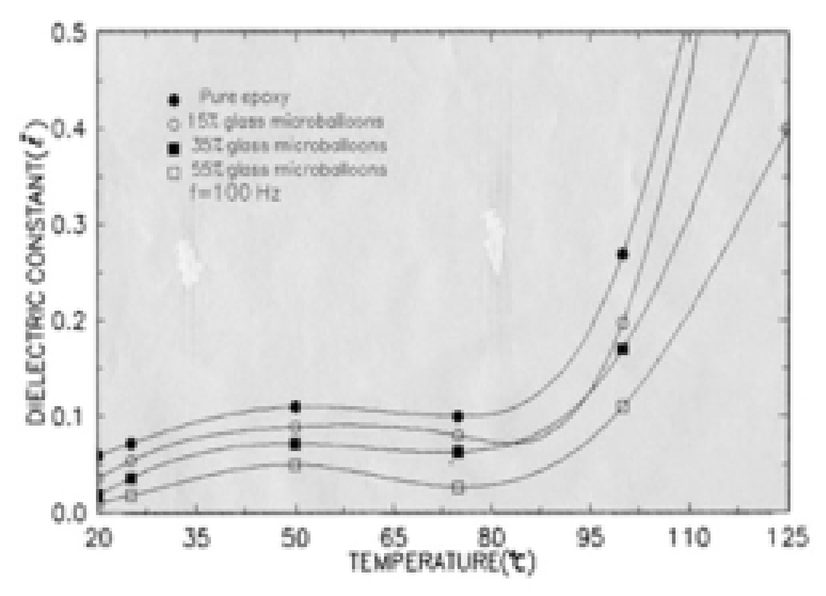


FIG. 9 Variation of dielectric loss with temperature at 10 kHz.

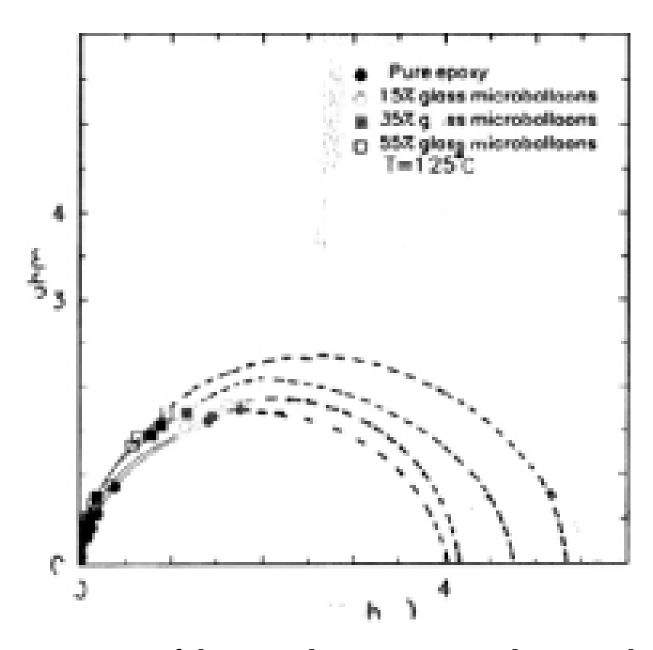


FIG. 10 Imaginary part of the impedance versus real part in the complex impedance plane at 125 oC.

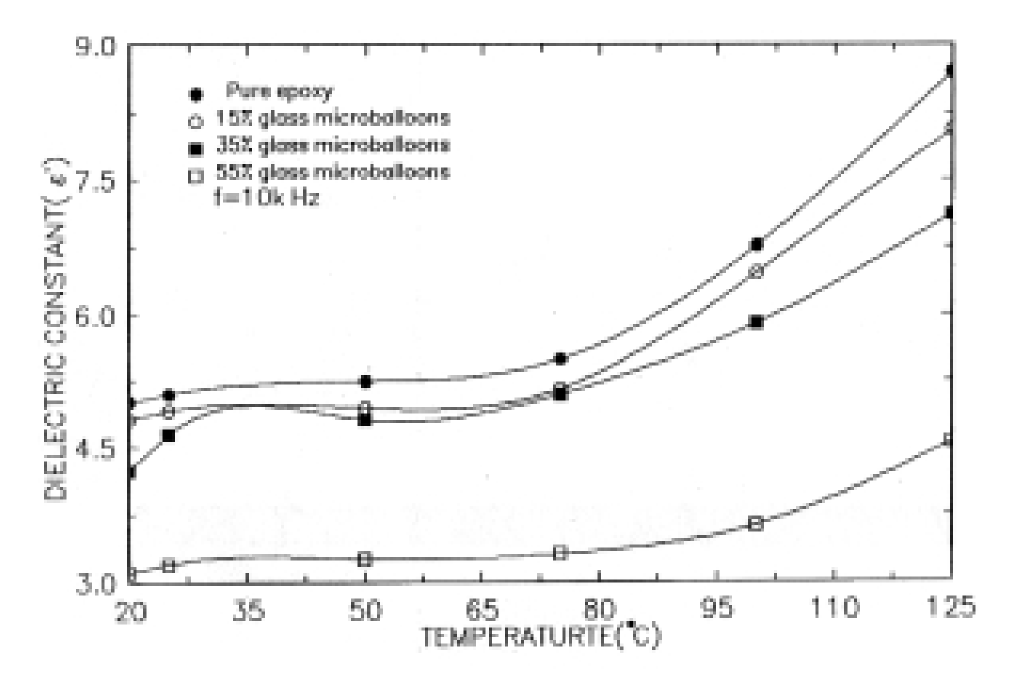


FIG. 7 Variation of dielectric constant with temperature at 10 kHz.

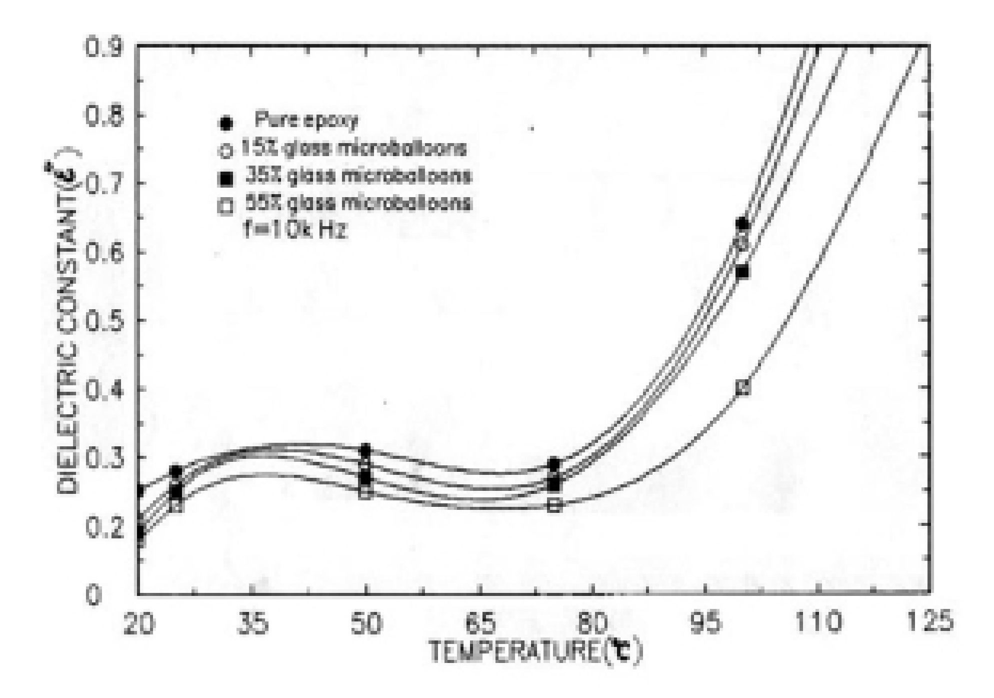


FIG. 8 Variation of dielectric loss with temperature at 100 Hz.

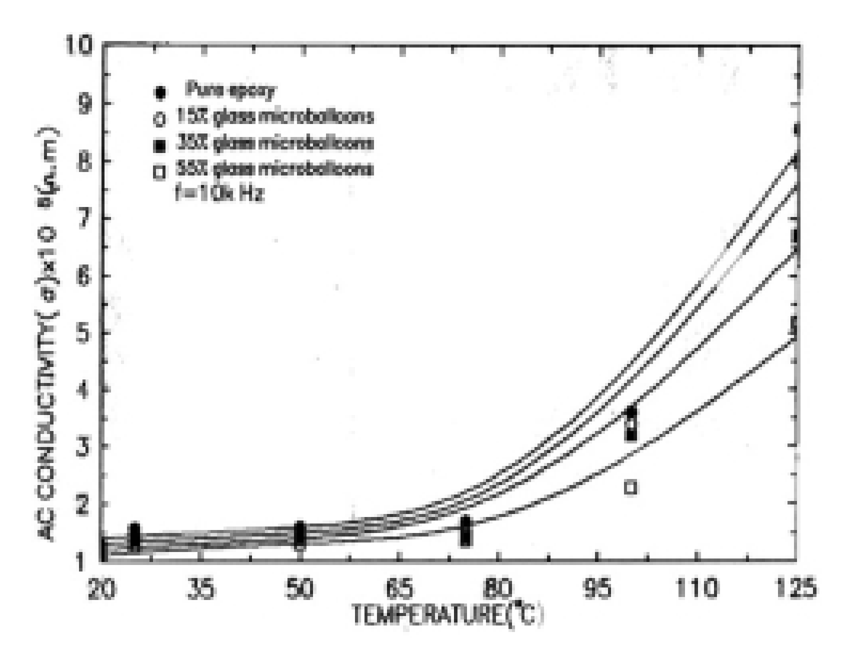


FIG. 5 Ac-conductivity versus temperature at 10 kHz.

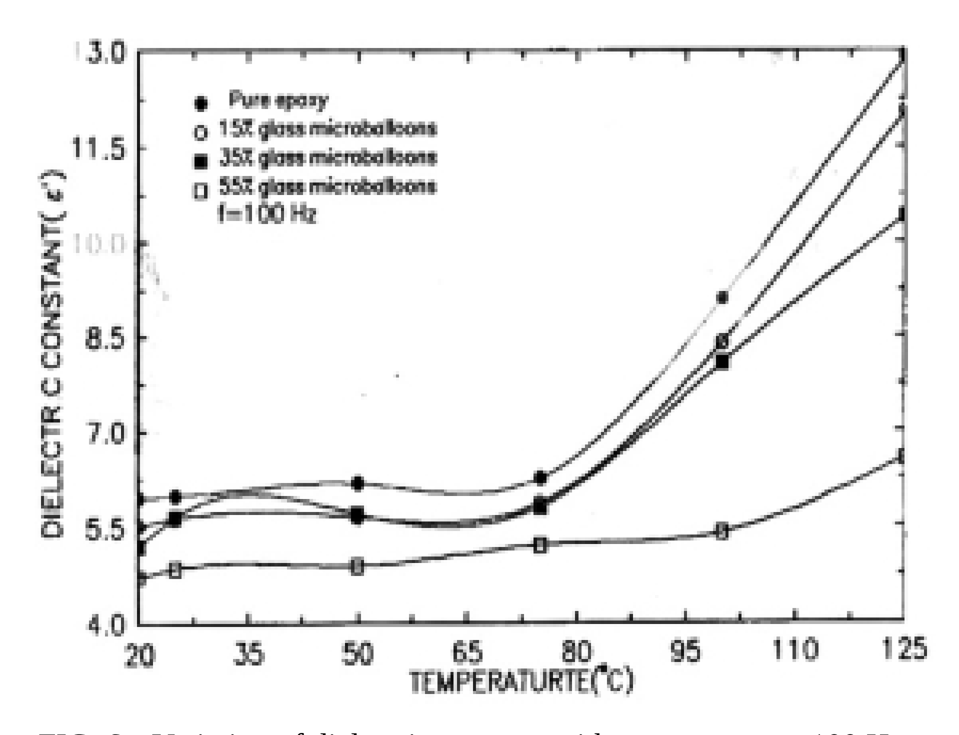


FIG. 6 Variation of dielectric constant with temperature at 100 Hz.

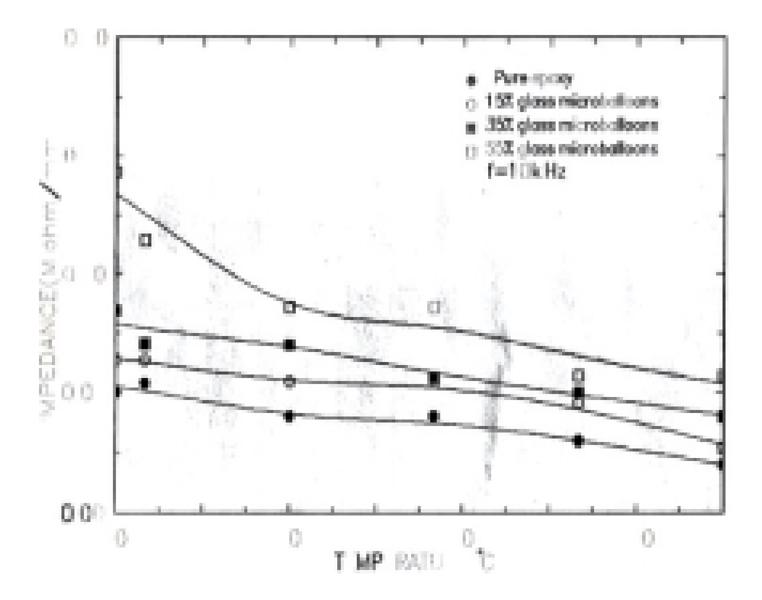


FIG. 3 Impedance versus temperature at 10 kHz.

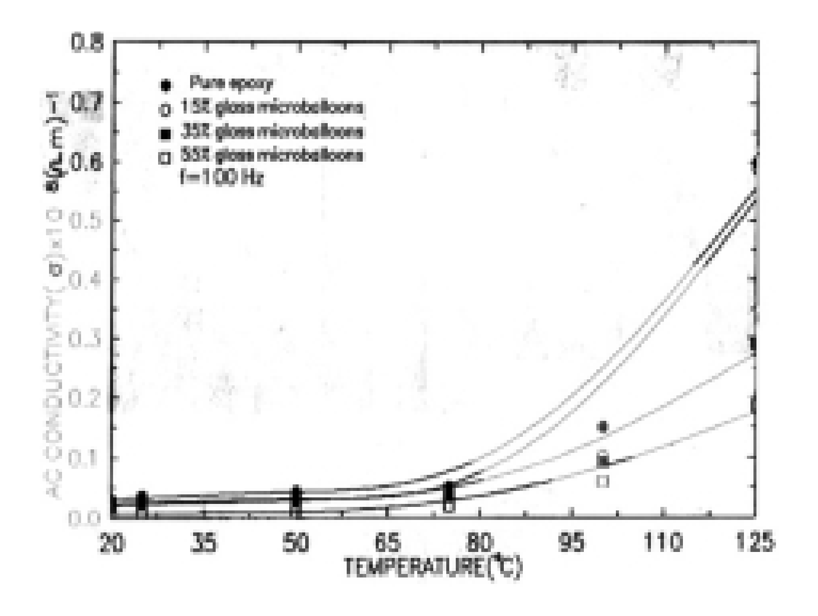


FIG. 4 AC-conductivity versus temperature at 100 Hz.

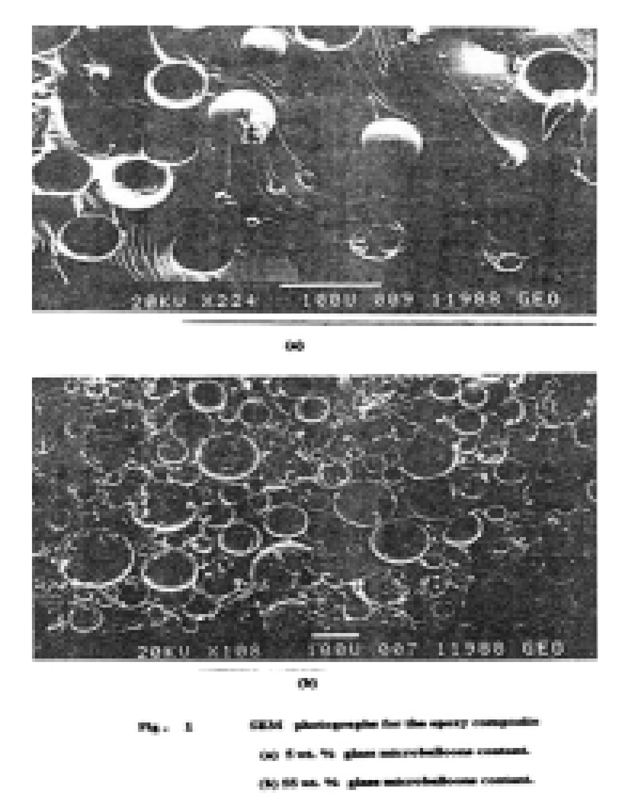


FIG. 1 SEM photographs for the epoxy composites.

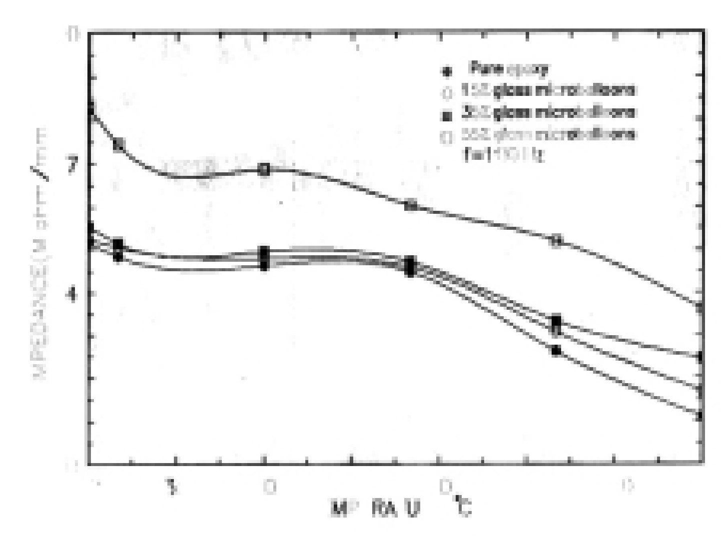


FIG. 2 Impedance versus temperature at 100 Hz.

5. REFERENCES:

[1] A.M.Zihlif, L. Feldman and R.J. Farris, J. mat scince, 24, 2367 (1989).

[2] J.C. Maxwell, “Electricity and Magnetism“, Vol. 1, Clarendon Press, Oxford, (1982), P. 452.

[3] S.S. Sastry and G.S. Satyanandam, J. Appl. Poly. Sci, 36, 1607 (1988).

[4] S.A.Jawad, M. Ahmed, Y. Ramadin, A.M. Zihlif, A. Paesano, E. Martuscelli, and G. Ragosta, Poly. International, Vol. 32, 23 (1993).

[5] Y. Baziard et all, Eur. Polym. J., 24, No. 6, 521 (1988).

[6] Robert P. (Philippe), “Electrical ad Magnetic Properties of Materials“, Artech House, Inc., Norwood, (1988), PP. 289-378.

[7] R.P Theriault, T.A. Ossuald and J.M Castro, Polymer Composites, Dec, 1999.

[8] M. Roma Roa, M. Roy, and J.K.D. Verma, J. Phys., D, 18, 517 (1985).

[9] B. Tareev, “Physics of Delectric Materials“, 2 nd Edit., John Wiley and Sons., New York, (1976). Chapter 12, PP. 380- 384.

[10] M.S Ahmad and A.M Zihlif, Polymer Composites, Feb, 1992, Vol.13, No.1.

[11] Prakaipetch et al, Polymer Composites Feb. 2001.

[12] Jung Julee, Jeong Oklim, Jeung Soo Huch, Polymer Composites, Apr. 2000.

group- OH [8].

(Figure 10) shows plots for the imaginary component of the impedance Zc against the real component Zr at 125 oC. The plots yield distorted Cole- Cole circles, but it was not possible to construct such a pot at low temperateures, as (is close to -90o,i.e. cos(= 0. The possibility of constructing a Cole-Cole plot at 125oC (at high temperature) indicates that the material is dominated by complex polarization mechanisms with different relaxation times. After extrapolating the lines to complete semi- circles, the relaxation time (() was determined from the plot of Zc and Zr using the relation (), for different filler concentrations, where is the angular frequency at maximum value of Zc observed from figure 10.

The variation of the relaxation time (() with wt.% of filler content was shown in Figure 11. The relaxation time increases with increasing the filler content which indicates that the motion of the polymer chains is more restricted and hardened by the embedded filler glass spheres.

4. Conclusion:

The dielectric results of the given epoxy-glass microballoons composite obtained between 20 and 125 oC reveal the following conclusions:

1- The impedance in general is decreases with increasing temperature above 80 oC due to thermal behaviour of the epoxy matrix near the glass transition temperature.
2- The AC-conductivity is enhanced at high temperature above 80 oC due to ionic and molecular mobility stimulated at high temperature (T > Tg).
3- The dependence of dielectric constant and dielectric loss on temperature is attributed to ionic conductivity.
4- The complex impedance plane plots show spectra of relaxation times which imply that different conduction mechanisms are possible to take place at different temperatures.

the epoxy matrix. Other features of the composite morphology can also be drawn from the micrographs as the hetrogeneous distribution due to mechanical mixing of glass microballoons with the epoxy resin. The thermal curing may displace the microballoons to stick to each other, especially at high filler concentration.

(Figure 2) shows the dependence of the AC impedance Z on temperature at frequency 100Hz for different samples. A very weak dependence of Z was observed below 80oC, while a strong one was observed above that temperature, Similar behaviour was noticed in (Figure3) at frequency 10 kHz. This effect may be attributed to the thermal behaviour of the epoxy matrix above the glass transition temperature (Tg " 90oC) [7].

At law frequency T was more effective on Z than at high frequency, which may be due to a considerable increase in the ionic mobility, and structural defects of the composite are less pronounced.

The calculated AC conductivity (versus temperature is shown in (Figures 4 and 5) at 100 Hz and 10 kHz, respectively. The conductivity shows weak variation below 80 oC , while (was enhanced strongly above 80 oC which may be mainly due to the electron activation that increases rapidly with temperature, and due to ionic and molecular mobility stimulated at high temperature (T (Tg) [2].

(Figure 6) shows the temperature dependence of the dielectric constant ((at 100 Hz. The figure shows a weak grow below 80 oC, while the increase in ((enhanced with temperature above 80 oC. This can be explained in terms of a large number of dipoles which are blocked at low temperature will be relaxed at high temperature. Similar behaviour was observed at frequency 10 kHz as shown in (Figure 7).

(Figures 8 and 9) show the plot of dielectric loss ((versus temperature at frequencies 100 Hz and 10 kHz, respectively. The Figures indicate two peaks: one at 50 oC correspond to (- relaxation process and the other above 80 oC corresponds to (- relaxation process [4] this peak was not formed completely since it goes to high temperatures above 125 oC. The (- relaxation process associated with segmental motion or glass transition process occurs only close to Tg, and may be related to small chain movements. However, the (- relaxation may be attributed to the relaxation of glyceryl unit- O-CH2-CH-(OH)-CH2-, especially the local motion of the side groups in the resin hydroxyl

cooled in the oven to room temperature. Four disk-shaped specimens of 1.3, 1.1, 0.71 and 0.35 mm thickness and 20 mm diameter were machined from the composite sheets. The surface of test specimen was coated by thin gold layer by vacuum evaporation to serve as electrodes for electrical measurements using the ring method described elsewhere [10]. A suitable cell was designed to hold firmly the specimen under investigation.

2.2 Impedance Measurements:

The phase shift and the AC-impedance of the given composite were measured by a gain-phase meter. This instrument is capable of measuring directly the ration of the input to the output signal in dB and the phase angle (() in degrees as a function of frequency. The real component ((() and the imaginary component (((() of the complex dielectric constant ((() are related to the impedance (Z) and the phase angle (() as:

,

, .

Where, f is the frequency, Co (O A/T is the capacitance of the electrodes, T is the specimen thickness, (O is the permitivity of free space, A is the area of the disk. Zc and Zr are the imaginary and real components of the complex impedance (Z = Zr - jZc), respectively [6 ,7]. The AC electrical conductivity (() was calculated from the relation:

(= 2(f (O (“.......(4)

3. Results and Discussion:

The SEM micrographs for the 5 and 55wt.% glass microballoons composite samples (Figure 1) show the textural and morphologican evaluation of the composite as a function of filler content. It is clear that at low concentration, the microballoons are distributed in the matrix with no surface contacts between them, while at high concentration some contacts are existing between the adjacent glass microballoons. A small number of glass microballoons are pulled out from fractured surfaces which appears with dark spheres through

TEMPERATURE DEPENDENCE OF ELECTRICAL PROPERTIES OF EPOXY- GLASS MICROBALLOONS COMPOSITE

1. Introduction:

For epoxy composites with tailored physical properties depending upon the application and the manufacturing process selected, a number of additives are often employed to provide specific procedures or end use properties. Modification of the electrical properties of epoxy composites has led to widespread applications, especially in the electronic industries and space instrumentation [6,9]. During the past few years, few publications have spread on the behavior of composite materials even that containing hollow microspheres [5,11,12]. As far as we know, no studies have been conducted to assist or characterize the dielectric behaviour of the given light, structure- composites. This paper is one of a series devoted to assess the mechanical and electrical behaviour of some advanced polymer composites with good performance [1,3].

The present paper essentially deals with the effect of temperature on the dielectric properties of epoxy composites with different filler concentrations at frequencies 100 Hz and 10 KHz.

2. Experimentation:

2.1. Materials:

The material used was epoxy- microballoons composite supplied by Shell company in U.S.A. The epoxy composite was prepared from the epoxy resin Epon 828 cured by V-40 and hollow glass microballoons spheres of size ranging from 10 to 180 (m and typical effective density 0.21 gcm-3. Sheets of different glass microballoons concentration (0,15,35, and 55 wt .%) were prepared by mixing the epoxy resin, curing agent and the microballoons. The mixture was stirred completely. The test samples were allowed to react at 25 oC for 24 hours and cured at 80 oC for 3 hours in an oven. The final step was to post cure the test specimens at 150 oC for two hours. Specimens were slowly

ملخص

هذه الدراسة تتعلق بتأثير درجة الحرارة على بعض الخصائص الكهربائية للمتراكب ابو كسي ـــ زجاج لعينات ذات تراكيز مختلفة من الحشوة التي هي عبارة عن كرات زجاجية صغيرة مملوءة بالهوء تتفاوت تراكيزها من صفر الى ٥٥٪ من الوزن، وذلك في مدى درجات الحرارة من ٢٠ْ م الى ١٢٥ْم على الترددات، ١٠٠هيرتز و ١٠ كيلوهيرتز . لقد وجد أن ثابت العزل الكهربائي يعتمد كثيراً على درجة الحرارة فوق ٨٠ْم، كما اظهر الاعتماد على درجة الحرارة لمعامل الفقد عمليتي ارتخاء عند درجتي الحرارة ٥٠ْ م و ٨٠ْ م .

Abstract:

This study is concerned with the temperature dependence of some electrical properties of epoxy-glass microballoons composite containing 0, 15, 35, and 55% by weight glass microballoons. The temperature was varied from 20 oC to 125 oC at frequencies 100Hz and 10 KHz. It was found that the calculated dielectric constant showed a strong dependence on temperature above 80 oC . Two maxima occurred in the dielectric loss as a function of temperature plot. The low temperature peak around 50 oC was assigned to the (- relaxation process, and the high temperature peak began to appear above 80 oC to the (- relaxation process.

TEMPERATURE DEPENDENCE OF ELECTRICAL PROPERTIES OF EPOXY- GLASS MICROBALLOONS COMPOSITE

M. SHAHIN

Contents

9. References should follow rules as follows :
   (a) If the reference is a book, then it has to include the author name, book title, translator if any, publisher, place of publication, edition, publication year, page number.
   (b) If the reference is a magazine, then it has to include the author, paper title, magazine name, issue number order by last name of the author.
10. References have to be arranged in alphabetical order by last name of the author.
11. The researcher can use the APA style in documenting of scientific and applied topics where he points to the author footnotes.
12. Correspondence and papers should be sent to the following address:

Guidelines for Authors

The Magazine Publishes Original research documents and scientific studies for faculty members and researchers in Alquds Open University and other local, Arab, and International universities with special focus on to topics that deal with open education and distance learning acepts papers offered to scientific conferences.

Researchers who wish to publish their papers are required to abide by the following rules :

1. Papers are accepted int both English and Arabic .
2. each paper should not exceed 25 pages or 7500 words including footnotes and references.
3. Each paper has to add new findings or extra knowledge in its field.
4. Papers have to be on a floppy diskette"Disk A" or on a CD accompanied by three hard copies. Nothing is returnable inb either case: published or not.
5. An abstract of 100 to 150 words has to be included. The language of the astract has to be English if the paper is in Arabic and has to be Arabic if the paper is in English .
6. The paper will be published if it is accepted by at least two revisers. The magazine will appoint the revisers who has the same degree or higher than the ressearcher himself.
7. The researcher should not include anything personal in his paper.
8. The owner of the published paper will receive five copies of the magazine in which his paper is published.

Journal Editorial Board

The research magazine Alquds Open University
P.O.Box 51800
Tel : 2964571,2,3,4
Fax: 2694570
Email : Hsilwadi@Qou.edu

Journal Of

Alquds Open University

For Research and Studies

A Scientific Biannual Refereed Journal

No. 1 - Ramadan (1) 1423H / October 2002

